

# تاريخ المغرب الكبير

الجزء الأول

تأليف : محمد علي دبوز  
أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر



## كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. سيدنا محمد وآله  
تجمعين

عزيزي القارئ! إن المقدمة التي يجب على كل مؤلف أن يبين فيها للقراء موضوع  
كتابه، والدواعي لتأليفه، وطريقته فيه، هو ما قدم إليك في الجزء الثاني، والجزء الثالث.

الآن في هذه الكلمة الموجزة أريد أن أهيب بعلماء المغرب وأدبائه وحكوماته أن يهبوا  
لكتابة تاريخهم القديم والحديث. فقد حارب الاستعمار تاريخنا، وعقل أعلام علمائنا عن  
كتابته كما يجب، وحرّم المغرب من معرفة تاريخه المجيد، وحرّم الأمة العربية والإسلامية  
والعالم المثقف كله من معرفة حقيقة المغرب كلها في قديمه وحديثه؛ فها هو الاستعمار  
قد زال والحمد لله، فيجب أن نهب لواجبنا في هذا الباب. إن من ثمار الاستقلال الكبرى  
التي يجب أن يجنيها المغرب من الاستقلال، وإلا لا يكون للاستقلال ثماره اللازمة. انطلق  
أعلام علمائه وأدبائه، سيما في باب التاريخ القديم لنظهره من أكاذيب السياسة القديمة  
والاستعمار الحديث. تلك الأكاذيب التي شوّهت صفحات المغرب الغراء وتلك السموم  
الاستعمارية التي تفرقه، وتشقق عصاه.

ها هو المغرب كله -والحمد لله- يحظى باستقلاله. فيمر على استقلال الجزائر سنتان،  
ويمر على الاستقلال جهاته الثلاث الأخرى سنة كثيرة، ولا نرى في المكتبة العربية من  
نتائجها العلمي والأدبي الصحيح إلا كتبا قليلة لا تتجاوز العشرين. ولا نرى في تاريخ  
المغرب القيد والحديث إلا كتبا لا تكاد تتجاوز أصابع اليد. إن هذا تقصير كبير من علمائنا  
وأدبائنا سيحاسبهم الله عليه، ويحاسبهم المغرب الكبير، وامتنا الإسلامية كلها.

إنه ليس ثمرة الاستقلال أن نختل في البدل الزاهية، وننعم بالعيش الرافه، ولكن  
ثمرته هو العمل. مواهبنا التي عقلها الاستعمار يجب أن تنطلق، وتثمر ثمارها الطيبة  
الناضجة في كل الميادين، وان نكد في إخلاص وإتقان وطموح لبناء مغربنا، وامتنا العربية  
والإسلامية كلها، سيما في باب التأليف.

إهداء إلى كل أبناء ليبيا الحبيبة

مع كامل محبتي وتقديري

سعيد خليفة الختالي

سعيد الختالي

طبع هذا الكتاب سنة 1964 ولم يصدر منه أي طبعة أخرى  
حتى قامت مؤسسة تاوالت الثقافية بإعادة طباعته وتصنيفه  
على نفقة سعيد خليفة الختالي

مؤسسة تاوالت الثقافية 2010

<http://www.tawalt.com/>

إن الكتاب المغربي هو أعظم سفير للمغرب في أنحاء العالم. وهو التاج الذي يزينه. والكنز النفيس الغالي الذي يورثه الثقل في ميزان الشرف. والمجد. والنضوج فترجح كفته. إن محاسن المغرب كلها تبقى في المغرب. ولكن كتاب المغرب هو الذي يرى العالم فيه حقيقته. وهو قبل هذا الغذاء الصحيح اللازم لناشئتنا وامتنا. والوسيلة لتربية المجتمع. وتوجيهه إلى المثل العليا التي كابدنا طويلا. وجاهدنا الاستعمار من أجلها.

يجب على حكومات المغرب أن تقوم الدولة في كل عام تقويميا دقيقا في باب التأليف. فترى ماذا أنتج أبنائها من النتاج العلمي والأدبي والفني الرفيع الذي ينفعها في الداخل والخارج؛ ويجب على كل غيور في المغرب أن يفعل ذلك. وإذا لم يفعل نكون مقصرين كل التقصير نحو أنفسنا. ونبقى دائما في مؤخرة الشعوب العالة المنتجة !

يجب على كل رئيس حكومة في المغرب أن يجعل حلية مكتبه أمامه. وما يقدمه لضيوفه. ويعتز به. ويقومه ويغار عليه. هو كتب أبنائه وعلماء دولته. فإنها على حسبها في الكثرة والجودة يكون عزه وقيمة دولتنا في العالم !

ويجب على حكوماتنا أن تعتني بالتأليف. وتهتم بالمؤلفين. فتوليهم التقدير اللازم. وتسهل لهم السفر. وتعينهم. وتمدهم بالمال اللازم ليتزودوا من مكاتب العالم الإسلامي وأوروبا. ويطلبوا كتبهم؛ وترعاهم كل الرعاية ليقوموا بواجبهم كاملا. وعلى أحسن وجه يستطيعونه. وإذا لم تفعل ذلك. فسيبقى المغرب في غذائه العقلي الضروري عالة على غيره. وكلا ثقيل على سواه. لا يقوم بواجبه. ولا ينهض بعنقه في قافلة الأمم الناهضة.

إن الاستعمار قد عقل أقلام علماء المغرب وأدبائه طويلا فعلمهم السكوت. فسكتوا حتى في عهد الاستقلال. فلم يرفعوا أقلامهم ليكتبوا لمدارسهم. وجامعاتهم. ويقدموا إلى العالم المراجع الصحيحة في تاريخهم القديم والحديث !!

انه لا يستطيع كتابة تاريخ المغرب القديم والحديث على أحسن وجه إلا المغاربة. فهم اعرف ببلادهم. وطبيعة قومهم. وأعمق فهما لتاريخ أجدادهم. فإذا تدرعوا بالاعتدال العلمي. وبالجد والكد في البحث والتحليل. وبالنزاهة والبحث المنطقي؛ فإنهم يستطيعون في تاريخ المغرب بالخصوص ما لا يستطيع غيرهم.

لقد ضاعت صفحات غراء من تاريخ المغرب الحديث بسكوت علماء المغرب ومثقفيه. وإهمالهم! لقد ضاعت ثورة الأمير البطل عبد الكريم الخطابي بوفاته ووفاء اغلب المجاهدين الذين حفظوا أخبارها. وأضحت ناشئتنا والكثير من كبارنا لا يعرف عنها شيئا.

وهي أعظم فصل من تاريخ المغرب الحديث ننتفع به في تربية النشء والمجتمع. وتركة نفيسة للمغرب كان يجب أن نحافظ عليها بكتابة عدة كتب في ثورة الأمير وثورات المغرب الوطنية الأخرى تتناولها من كل جهاتها. وتخلد أبطالها بدراسة شخصياتهم؟. وإقامتها مثلا عليا في الغيرة. والإخلاص. والتضحية. والشجاعة. والعمل لله!

وضاعت ثورة طرابلس الغرب الباسلة بذلك السكوت والإهمال منا. إن تلك الثورة وذلك الجهاد لصد الغزو الإيطالي لازال لم يكتب على النحو الذي يجب أن يكتب به. وبأسلوب يليق بهذا العصر!

وستضيع ثورة تونس. وثورة الجزائر إذا لم نسارع لتسجيل أخبارها. والكتابة عنها ما دام القائمون بها على قيد الحياة. فإنهم المراجع الصحيحة لها لا ما يوجد في الصحف من نتف لا تغني الباحث. وهي مع ذلك قد لا تكون صحيحة.

أيها المغاربة. يا علماءها وأدبائها! إن أعلام الحرية والاستقلال قد رفرت على بلادنا - والحمد لله - فارفعوا رءوسكم وانظروها. وانبذوا الجملة الاستعمار التي علقت أقلامكم وعلمتكم السكوت. واكتبوا عن بلادكم واكتبوا. وسجلوا نهضة المغرب الحديثة. وثوراته المباركة. وخذلوا زعماءها وقوادها قبل أن تضيع!

إنني اشكر الشكر البالغ إخواننا العلماء والأدباء في الشرق العربي. واحمد لهم اعتناءهم بتاريخ المغرب الكبير. سيما تاريخ الجزائر منه. لقد ظهرت فيه كتب قيمة. وإن كثيرين منهم قد جعلوا المغرب وتاريخه موضوع رسالاتهم للشهادات العليا. وتراهم يبحثون وينقبون في كد واهتمام عن كل كتاب مغربي حديث ليجعلوه موردتهم. ولكنهم لا يجدون ما يريدون. لأن الكتاب المغربي الحديث كان يختم عليه الاستعمار في أكمامه فلم يبرز. فلما جاء الاستقلال منعه عن البروز عادة السكوت والإعراض عن التأليف التي غرسها فينا الاستعمار!

إن إخواننا الأنشقاء أهل المشرق العربي. وكل كاتب في تاريخ المغرب. لا يجد من الكتب المهمة في تاريخنا القديم والحديث إلا كتبا قليلة حديثة كتب مشايخنا وأساتذتنا العاملون اغلبها في عهد الاستعمار. كانت أقلامهم ملجمة فلم يستطيعوا أن يكتبوا كل ما يعرفون. ويأتوا فيها بكل ما يستطيعون؛ وإلا الكتب القديمة التي ملأها السياسة المغرصة بالأكاذيب فشوهت صفحة المغرب الناصعة. وشققت عصاه أو كتب الأوربيين التي كتب اغلبها بروح استعمارية فشوهت تاريخ المغرب القديم والحديث.

إن بعض إخواننا المؤلفين المشاركة الذين كتبوا عن المغرب في قديمه أو حديثه قد

وقعوا في أغلاط كبرى في كتبهم - وهم على نية حسنة - وأوردوا فيها ما يضر ويوغر صدر المغرب. لاعتمادهم في معرفة المغرب على الكتب العربية القديمة، أو على الكتب الأوربية. وأكثر اللوم على هذه الأغلاط ينصب علينا نحن معشر الكتاب المغاربة لأننا لم نقدم إليهم المراجع الصحيحة سيما في تاريخنا الحديث، ومجتمعاتنا وأحوالها.

إنني اشكر إخواننا وأصدقاءنا المؤلفين في المشرق العربي - ونحن دار واحدة، وأسرة واحدة والحمد لله - على اعتنائهم بتاريخ المغرب في القديم والحديث- وهو تاريخهم - وأرجو منهم أن ينتبهوا كل الانتباه في الكتب القديمة للتاريخ، وفي الكتب الأوربية فان اغلبها ملوء بالأكاذيب على المغرب. وأرجوا منهم أن يلتزموا الطرق الحديثة في البحث، وإلا يتعجلوا الحكم قبل الاستقراء، وقبل المشاهدة إذا كتبوا حاضر المغرب! !

يجب إلا يكتب إخواننا عن ناحية في المغرب الحاضر، وعن قوم قبل أن يسافروا إليهم، ويختاطوا بهم، ويدرسوهم دراسة دقيقة بالمعاشرة والمشاهدة. لقد وقع بعض إخواننا الأعزاء من أهل المشرق الذين كتبوا عن بعض نواحي (المغرب المعاصر) فوقعوا في أغلاط كبرى، وأسأوا إلى إخوانهم، لاعتمادهم غفي البحث على الكتب الاستعمارية المغرضة، لا علة المشاهدة أو لاقتصارهم في المشاهدة والبحث على زيارة عواصم المغرب وحدها، واستقاء المعلومات عن جهات المغرب وبيئاته من أناس قد يكون علمهم قليلا، وقد لا تتوفر فيهم شروط الشهادة والرواية، فينقلون معلومات خاطئة تشين كتبهم، وتوغر صدور إخوانهم في المغرب عليهم! ! يجب أن نعتمد في التاريخ الحديث، وما نكتبه عن قطر معاصر على المشاهدة، لتصح معلوماتنا، ونأتي بالنافع المجدي الذي يترك أحسن الآثار في النفوس.

إن العالم سيما العربي والإسلامي الشقيق لينتظر من المغرب الشيء الكثير في باب العلم والعمل فيجب أن نحقق ظنه.

وفي الختام اشكر الجمهورية العربية المتحدة، والقاهرة الحبيبة على ما جدته من كل من عرفت من خاصتها وعامتها من تقدير واحترام لشخصي الضعيف لعملي، وعمما وجدته في مكاتبها العامة من خدمة وتبجيل، وفي جوها من هدوء فكري، ونشاط عقلي فاستطعت تأليف وإبراز هذا الكتاب على أحسن وجه أستطيعه، وكرر الشكر لدار إحياء الكتب العربية للحلبي على ما وجدت فيها من نظام، وإتقان للعمل، وأمانة، ووفاء بالمواعيد، وحسن في المعاملة.

واشكر المجلات والصحف، والإذاعات العربية التي أحسنت استقبال هذا الكتاب، وقرظته وعرفت به.

لقد كتبت عنه مجلة الأزهر في القاهرة مرتين، وجريدة الأهرام الكبرى مرتين وحدثت عنه الإذاعة المصرية في البرنامج الثاني.

وكتبت عنه في لبنان الشقيق مجلة الآداب مرتين، ومجلة الأديب، ومجلة العلوم.

وفي الكويت عرفت به منوهة مجلة العربي .

وكتبت عنه مجلة الفهرست العراقية.

وحدثت عنه إذاعة الجزائر ثلاث مرات، فإلى هذه المجلات، والصحف، والإذاعات، والكتاب، والمتكلمين فيها بالغ شكري على تقديرهم وترحيبهم، وانه لتقدير وترحيب للمغرب والجزائر.

واشكر المكاتب العربية التي رحبت به وأحلته في الصدر بمعارضتها، وعرفت به حرفاءها فوق الإقبال الكبير عليها.

كما اشكر أصدقائي الذين شدوا أزرني وأيدوني في البدء في هذه الموسوعة، سيما أصدقائي المخلصين السادة: الأستاذ حمودة ابن قايد، وأخاه الأستاذ سعيد، وابن عبد الله حمو بن داود، والحاج عيسى بن داود، وعمر بن بكير وجهلان وشركائهما، والله أسأله الجزاء الأوفى لنا جميعا على هذا العمل الذي لا يقصد به إلا وجهه الكريم وان يوالي تأييده وعونه لنا في خدمة امتنا الإسلامية كلها، وبناء المغرب العزيز.

القاهرة - التوفيقية

10 رجب الخير 1384

14 نفامبر 1964

# المغرب الكبير

حدوده، وأقسامه، وطبيعته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

## المغرب الكبير حدوده، وأقسامه، وطبيعته.

المغرب الكبير! هذا الوطن العظيم المفدى. تلك الرحاب الجميلة الغالية. وهذا القطر الذي خلقه الله في صدر الدنيا ليكون قريبا من المشرق والمغرب. ومن الشمال والجنوب. فيكتسب حسناتها كلها. ويشرق فيها بأنواره جميعها. هذا المغرب الكبير إذا بحثنا عن حدوده في هذا العصر الحديث وجناها من جهة الشرق قرية السلوم في غرب الإسكندرية. والمحيط الأطلسي من جهة الغرب. ويحده شمالا العرب. ومن جنوبه السودان: السنغال من جنوبه الغربي. ومالي والنيجر من وسطه. واتشاد وغرب السودان من جنوبه الشرقي.

هذه هي الحدود السياسية للمغرب الكبير الآن. وتلك هي حدوده في قديم الزمان. إلا أن من جهة الشرق فإن حده يمتد إلى غرب الإسكندرية. فتجد فيما بين الإسكندرية والسلوم إلى الآن العادات المغربية. والدم المغربي. واللباس المغربي. وسحنة المغاربة. وبنياتهم المتين. أنه ليس حد طبيعي يفصل المغرب عن مصر كالبحر الذي فصله عن أوربا. والصحراء الكبرى التي فصلته عن السودان. إنهما طبيعة واحدة. وأرض متشابهة. لذلك تمتد ذراع المغرب اليمنى في ود وحنان. فتطوق غرب مصر إلى الإسكندرية. فيضم تلك البقاع إلى أحصانه. ويرأها جزءا أثيرا منه.

إن المصريين القدماء أبناء عمومة البربر. فهم جميعا من بني حام. فبين القطرين المغرب ومصر قبل الإسلام صلات الرحم القوية. ووشائج الجوار القريب. فجاء الإسلام فتكونت بين القطرية المسلمين منه أسباب للمودة والاتحاد أقوى من الرحم الماسة.

ومن الجوار القريب. فلا غرابة إذا رأينا ذلك الامتزاج بين جناح المغرب الشرقي. وجناح مصر الغربي. وعلاقات المودة والإخاء الإسلامي المكين بين القطرين المغرب ومصر في كل العهود !

### أقسام المغرب في القرون الإسلامية الأولى

والمغرب اسم أطلقه الفاتحون المسلمون على مغربنا الكبير في القرن الأول الهجري. وكان قبل ذلك يسمى باسم آخر. وقد قسم المسلمون في مصر والشام مغربنا الكبير حسب قربه وبعده عنهم في مصر والشام إلى ثلاثة أقسام: المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى. فالمغرب الأدنى يبتدئ من غرب الإسكندرية شرقا إلى مدينة (بجاية) غربا، والمغرب الأوسط من مدينة بجاية شرقا إلى وادي ملوية غربا، والمغرب الأقصى من وادي ملوية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.

وكان المغرب الأدنى يشتمل على الأقاليم الأربعة التالية: برقة، وطرابلس، وتونس، وشرق الجزائر؛ والمغرب الأوسط يشتمل على وسط الجزائر وغربه، وعلى جزء من شرق القطر المغربي الحبيب؛ والمغرب الأقصى يشتمل على بقية المغرب من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي.

وإرى ان هذا التقسيم للمغرب قد وقع في عهد الملك الأموي عبد الملك بن مروان في آخر القرن الأول الهجري، فهو الذي تم فتح المغرب في عهده، فصار المسلمون يجربون أقطاره، ويسوسون نواحيه، فاحتاجوا إلى هذا التقسيم وهذه التسمية ليعينوا جهاته.

وكان الاسم الغالب على المغرب في جزيرة العرب أيام الخلفاء الراشدين هو إفريقية. وتراهم يقصون بها تارة تونس وطرابلس، وتارة تونس وحدها، وتارة المغرب كله. هذا ما نجده في كثير من الكتب القديمة التي الفت بالمشرق حتى بع هذا التقسيم الإسلامي، والأسماء العربية التي أطلقها الفاتحون المسلمون على أنحاء مغربنا الكبير.

وقد دامت هذه الأسماء العربية على أقسام المغرب الثلاثة الأدنى، والأوسط، والأقصى إلى القرن العاشر الهجري لما استولى الأتراك على المغرب الأدنى والأوسط فقسموهما تقسيما جديدا حسب الدول التي انشأوها فيهما. فانقسما إلى ليبيا، وتونس، والجزائر كما هما إلى الآن. انه ليس هناك حدود ولا شبه حدود طبيعية بين هذه الأجزاء من مغربنا الكبير، بل هي وطن واحد، وأمة واحدة، وجنس واحد، وبن واحد. قد خلق الله فيها كل أسباب الاتحاد والامتزاج والتحابب. إنهما الأطماع السياسية التركية قسمته ذلك التقسيم، وحدت بين أجزائه تلك الحدود، فجاء الاستعمار اللاتيني الفرنسي، والإيطالي،

فأيد ذلك التقسيم، وركز تلك الحدود ليمزق مغربنا الكبير. ويفرق الأمة المغربية الواحدة فيسهل عليه استعمارها كما يريد. وقد للمغرب الأقصى اسمه العربي إلى اليوم لأنه نجأ من استعمار التركي وتسلطهم عليه.

### تقسيم الجغرافيين البونقيين والإغريق والرومانيين للمغرب

هذا هو اسم مغربنا بعد الفتح الإسلامي، وذلك هو تقسيم الفاتحين له. فكيف كان يسمى قبل الإسلام في عهوده القديمة قبل البونقيين وأيام استقرارهم في المغرب؟ ما أقسامه في عهدهم، وفي عهود الدول البربرية القديمة التي عاصرتهم، وفي عهد الرومان الذين جاءوا بعدهم؟

كان المغرب يسمى في القيم قبل القرن التاسع قبل ميلاد المسيح عليه السلام (ليبيا) كان يسمى كله من أدناه إلى أقصاه بهذا الاسم (ليبيا) وكان معروفا عند الأمم القديمة بهذا الاسم، يطلقونه على كل أجزائه، ويسمون به كل نواحيه. وفي عهد البونقيين الذين انشأوا دولتهم في قرطاجنة في شمال في القرن التاسع قبل الميلاد أطلقوا هم والجاليات الإغريقية واللاتينية التي كانت تغشى أنحاء المغرب للتجارة، وتنتقل في أنحاءه سيما في الشمال للمقايسة. أطلق هؤلاء أسماء جديدة على جل أنحاء المغرب، فلم تعد تسمى ليبيا. وبقي هذا الاسم يطلق على الجزء المشرق من المغرب الكبير طرابلس وبرقة. وقد يلحق كثير من المؤرخين طرابلس، من خليج سرت الأكبر بتونس، ويطلقون عليهما جميعا إفريقية.

لقد قسم هؤلاء البونقيون والإغريق واللاتين شمال المغرب الكبير إلى ليبيا، وإفريقية، ونوميديا، وموريطانية الشرقية وموريطانيا الغربية.

أما ليبيا فهي إقليم برقة وطرابلس وحدهما من غرب الإسكندرية إلى شرق مدينة قابس في خليج (سرت) الأصغر.

أما إفريقية فمن شرق مدينة قابس جنوبا وساحل تونس الشرقي إلى الشرق مدينة طبرقة غربا، وهي القطر التونسي اليوم تقريبا ما عدا صحراء تونس التي كان يطلق عليها اسم آخر غير إفريقية، وجزء قليل من غربها فان مدينة طبرقة كانت في القديم تابعة لنوميديا في شرق الجزائر.

أما نوميديا فتبتدئ من شرق مدينة طبرقة وتنتهي غربا في بجاية. وبجاية داخلية في نوميديا فهي جزء من أجزائها وليست خارجة عنها. وتشتمل نوميديا على عمالة

قسطنطينة اليوم وعلى جزء قليل من غرب تونس.

أما موريطانيا الشرقية فحدها الشرق غرب مدينة بجاية وتنتهي في وادي ملوية فهو حدها الغربي. وهي تشتمل من أقسام القطر الجزائري الحالي على عمالة الجزائر وعمالة وهران. وعلى جزء من القطر المغربي الحبيب.

وموريطانيا الغربية هي القطر المغربي اليوم إلا جزءا صغيرا من شرقه. وحدها الشرقي هو وادي ملوية. وتنتهي غربا في المحيط الأطلسي.

هذا هو تقسيم الجغرافيين القدماء البونيقيين والإغريق واللاتينيين لمغربنا الكبير. وقد أيد هذا التقسيم ما قام في بعض أجزائه من دول بربرية كبرى. ان افريقية كانت فيها دولة البونيقيين ثم الرومان بعهم. ونوميديا قد أنشأت فيها دولة البطل الكبير الملك البربري غولة بن نارفاس. وموريطانيا الشرقية كانت لصيفاقس البربري نشأت فيها دولته البربرية الكبرى التي ساسها بعبريته. وأعلى صروحها بحزمه وحسن درايته. كما كانت موريطانيا الغربية تحت أمرائها. وملوكها البربر الذين استقلوا فيها.

وكان الجغرافيون القدماء أيضا قبل الإسلام يسمون نوميديا مصليا. ويسمون موريطانيا الشرقية مصصيليا. وإنك واجد في الكتب الأوروبية التي كتبت في تاريخ المغرب قبل الإسلام كلا الاسمين يطلقان على شرق وغرب القطر الجزائري الحبيب.

هذا هو تقسيم الجغرافيين القدماء قبل الإسلام لمغربنا الكبير. وتلك هي الأسماء التي أطلقوها على قسم. فهل قد قسموا المغرب كله شماله وجنوبه. تلاله وصحراه. إن ما عرفه البونيقيون والإغريق والرومان. وجولوا في أنحاءه. واستقروا فيه للتجارة أو الملك. ورغبوا في المقام فيه. إنما هو شمال المغرب. والساحل الجميل. ذلك الشمال الخصب الجميل الذي فتحهم بخيرات. وبالخضارة البونيقية التي اخذ بها أجدادنا الأمازيغ فأشرق بها مغربنا الكبير. فقصده الناس للاستقرار والاجار. أما الصحراء. صحراء المغرب الكبير. فإنهم لم يقسموها كالشمال لعم استقرارهم فيها. ولكن أطلقوا عليها اسما جديدا هو (جيتوليا) وكان سكا صحرائنا المغربية. أجدادنا البربر. يسمونهم (الجيتوليين) وكانت صحراء تونس. وصحراء الجزائر. وصحراء المغرب الأقصى تسمى جيتوليا.

ان المغرب كله من أدناه إلى أقصاه. ومن شماله في بحر العرب إلى جنوبه في حدود السودان وطن واحد. ذو طبيعة واحدة. ومزاج واحد. تسكنه امة واحدة تدين بدين واحد. لا فرق بين أقطاره. ولا اختلاف بين أجزائه. فصحراؤه ذات طبيعة واحدة. وشماله كذلك لا فرق بين أنحاءه في الطبيعة. فإذا وجدت بعض الفرق فكالذي يوجد في أعضاء الجسم

ألواح لتقوم كل ناحية بوظيفتها خير المغرب كله وليؤدي المغرب واجبه في كل الميادين. ويكفي نفس في كل أنحاءه بكفاءاته المختلفة وميزاته التي أودعها الله في أنحاءه. أما الاختلاف في العرق الذي يمزق الأمم. والاختلاف في الذين الذي يفرق الشعوب. والتباين في الأمزجة للتباين الكبير في المناخ هذه العلل التي تباعد بين الجماعات. فما وقى الله مغربنا الكبير منه. انه وطن واحد يا صديق. فأينما حللت من أجزائه فأنت في وطنك. وبين اهلك. لا تشعر بالغرابة. ولا تحس بالوحشة التي تكون لك باختلاف النفوس.

تلك هي الأسماء التي كانت تطلق على أجزاء من مغربنا الكبير. وذلك هو التقسيم الذي كان عليه قبل الإسلام. فكيف طبيعة هذه البلاد التي سخرت العالم منذ الأزمنة القديمة. وكيف كان المغرب الكبير في مناخه وتربته. وفيما أودع الله فيه من كنوز ومزايا؟ انه في صدر الدنيا. وهل ينبت الله في صدرها إلا ما يزينها. ويخلق لها الغرام في القلوب. والمحبة في الأفئدة؟



# مناخ المغرب الجميل

## وخصائصه العظيمة، ومزاياه الكبرى

لقد خلق الله المغرب الكبير في موقع ممتاز لا جده لغيره من الأقطار. لقد توج به افريقية<sup>1</sup> الجميلة وانتبه في صدر الدنيا حيث يناط الوسام الكريم، وتعلق الجواهر النفسية. لقد توسطت الدنيا فاخذت من خصائص الشمال في أوروبا، ومن خصائص افريقية في جنوبه، كما استطاعت ان يصل إلى حضارة المشرق ودينه لقويم، فهو قريب من القارات المتحضرة. يصله المحيط الأطلسي الذي يكتنفه من غربه بأمريكا فيتصل بها في سهولة إذا شاء ويصله بحر العرب الذي يطوقه بذراعه من شماله وشرقه بأوروبا إذا شاء، وبآسيا إذا أراد، فيصل كلا القارتين في سهولة ووقت قصير.

إن مغربنا خلقه الله في مكان وسط بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، لهذا كان على الاعتدال في أشيائه، وعلى الجمال في ألوانه، لا يفرط في أشياء كما يفرط الشمال، ولا يتجاوز الحدود في بعض أموره كما يتجاوز الجنوب، فهو كالربيع المعتدل بين الفصلين إذا أرتت القوة والجمال لا تجهما إلا فيه !

إن المغرب جنة الله في الأرض وسليل الفردوس في الثرى، لذكاء تربته، وخصب أرضه، وكثرة خيراته، ويليق كلك المزروعات، ويؤتى كل الثمرات، ويحتوي على كل المعادن، فهو نعمة الله الكبرى علينا، وأعظم الألاء التي خصنا بها ! جوه معتدل ينعش الأجسام ويضمن الصحة، ويؤجج النشاط، وهو بين البحر والصحراء، وسمائه سائلة اليم والبيداء، فتارة ترعد فيها السحب وتبرق، وأونة تسطع فيها الشمس وتشرق، وهو خال من المستنقعات الوبيلة التي تسمم الجو، ونكون في جلده كالجروح ترف إليه الوبال، وتسليخه من الجمال؛ وخال من الجماعات التي تصيب البلاد المجذبة، والأقطار التي تسوء تربتها، وتعقم أرضها.

1 - المراد بافريقية هنا القارة كلها.

## صحراء المغرب وكنوزها ودينها

أما صحراء المغرب فهي موطن الجمال والفتنة. ومعدن الكنوز والنعمة. تراها صحراء زاخرة بغابات النخل الممتاز بتمرجيد بالغ الحلاوة. طيب النكهة. لا يوجد إلا في بلاد المغرب ! وفي صحرائنا الغنية الممتازة أكثر من مائة نوع من التمر. واغلب من نوع الجيد. وفي أصناف ممتازة لا تجدها إلا في المغرب. لا تستطيع ان تنتجا بلاد المشرق. وتجدها في المغرب!

وترى في أرجاء الصحراء المدن العامرة المتحضرة التي تجد فيها كل ما شئت من رجولة ودين. ومن حزم وقوة. ومن نبوغ وذكاء. قد نبتت في أنحاء الصحراء مع جنات النخيل الفتانة. إلا ان هذه أبهى وأكرم لأنها تمتلئ بنور الذين. وتشيع فيها فصاحة القرآن. وتختال في الحضارة الإسلامية الزاهية. ويضيف إليها أبنائها الناشطون المثقفون كل حسن من الحارة الحديثة. ومدينة العصر الراقية. ومن تلك المدن الزاهرة الراقية الآن بلاد ميزاب. ولاغواط. ومثليي. والامنيعة. وورجلان في جنوب الجزائر. وتافيلالت (سجلماسة) في جنوب المغرب الأقصى. وتوزر ونقطة. وقابس وقفصة. في لقطر التونسي لحبيب. وغامس وفزان. في جنوب ليبيا. وغيرها كثير في صحراء المغرب الكبير الواسعة.

وق اكتشف النفط الغزير في صحراء المغرب الكبير. والمعادن الكثيرة النفيسة. فازدادت قيمة. واتجهت إليها الأنظار من كل أنحاء العالم. وصرت للمغرب هي الثدي الذي يرويه. والمورد الغزير الذي يغنيه!

وفي أنحاء مغربنا الكبير مع جماله الطبيعي البارع. ومناخه الصحي الممتاز الحمادات المعدنية الطبيعية. تجدها في اغلب نواحيه. وترى الأوروبيين يقصدونها من أقصى أوروبا للاستشفاء من أمراضهم لمزمنة. وترى حماداتنا تستطيع القضاء على الأمراض الكبرى التي تعجز امهر الأطباء في أوروبا. وتعقبهم فيهما احدث الأدوية. وأدق الأجهزة الطبية في العصر الحديث. ومن تلك الحمادات المعدنية حمام الصالحين وحمام بو حنيفية. وحمام ألوان في الجزائر. وحمام قبرص وحمام الأنف في تونس الخضراء. وغيرها كثير في أنحاء المغرب الكبير.

ان حماداتنا المعدنية في المغرب الكبير من اكبر نعم الله علينا. ومن أسباب الصحة والقوة التي حبا الله بها مغربا كاملة!

لقد أسبغ الله على المغرب الكبير من أسباب الغنى والقوة والجمال كل ما يسعد

والمغرب مشتمل على السهول والجبال. فساحله الطويل بسيط من الأرض دائم الخصب والخيرات. تراه على صدره زاخرا بالنفائس والبهاء. كأنه وشاح على صدر الحسناء. أما جباله فهي جبال الأطلس الشماء. وهي سلسلتان تبتدئان من المغرب الأقصى وتنهيان في تونس الخضراء. وتسمى السلسلة الشمالية منها الأطلس الشمالي. والسلسلة الجنوبية الأطلسية الصحراوي.

سلسلتان من الجبال الشماء هي معقل الأسود من أبناء المغرب الأحرار. قد ركبهما الله في قطرنا الباسل كالفكين في الأسد الهصور. فطحن بهما أعداء المغرب في كل الأزمان. وكانا مبعث فخره وفخر الإسلام والمسلمين في كل العودا!

هذه الجبال التي دجج الله بها شمال مغربنا. وزين بها أنحاءه. ليست صخرية قفراء. فاغلبها في شمال المغرب غابات لفاء. يسكن الليل في بعضها إذا اشتد قيظ النهار. لعظمة أشجارها. وتشابك دوحها؛ وهي أيضا حدائق تزهر فيها الأشجار المثمرة. ومزارع تماوج فيها أنواع المزروعات التي تملأ الجيوب. وتسعد القلوب ! وجبالنا الخضراء الجميلة رياض غناء. تتفتح فيها الزهور. وبعرض فيها الربيع جماله. وييدي فيها كل فصل حسنه وروعته. ما أحلى بياض الثلوج الذي يكللها في الشتاء. ونسيم الصيف الذي يتلاعب في جنباتها ! وما أحلى العيون الحرارة في أرجائها. النازلة من قممها في بياض رائع جميل كبياض العمائم في رؤوس العلماء. انه منظر رائع فتان بملوك بالنشوة والطرب. فتراك وان كنت حزينا تتسلى. فتغني مع الجداول البيضاء المتسابقة من قمم الجبال. وترقص طربا مع إحراج التلال التي ترقص وتتعانق لشدة فرحها بنعم الله عليها في جبال المغرب الجميلة!

وترى جبال المغرب في شماله لكثرة خصبها. ووفرة عيونها. وحسن جوها. ومنعتها. وجمالها. منبتا لآلاف القرى ترصع أنحاءها. وسكان تلك القرى أبناء المغرب الأوفياء فهم اسود الشرى. لا تزال مخالبتهم فيكل عصور الاستعمار قانية بدماء المستعمرين. ولا تزال جنوب أولئك الغاشمين المستعمرين بضربات أبناء الجبال الصناديد ملتهبة تشتعل فيها النيران!

وبين السلسلتين من جبال الأطلس جود. تراها بين ذراعي بلادنا الحبيبة فتانة كالنهود! قد كستها سماؤها المدارة. وأراضها الطيبة بكل ما شئت م نبات وأشجار. ومن زهور اريجة وثمار!

أبناءه، ويحملهم على القوة والهناء، وعلى المتعة والسعادة، وعلى التقدم والرفي. فلا غرو والجمال طابع مغربنا، والخيرات سمته، والبركات ما اشتر به بين الشعوب، ان كان محل أطماع المستعمرين في كل العهود، وهدف الشعوب الجائعة في كل الأزمان، والرائحة الذكية تجذب الذباب إلى الزهور، وقتار القدر الطيبة يغرى به الكلاب فتستأسد، ويدعو إليها الحشرات والأفاعي فتحاول ان تجعلها مستعمرة وان كانت تحتها النيران، وكانت هي على الغليان. فعلى أبناء المغرب الكبير ان يتحدوا ويتيقظوا، ويستعدوا لحماية مغربهم من لمستعمرين الذين يتحينون الفرص للرجوع إليه، فانه جنة عن اخرجوا منه، واللقمة البالغة الحلاوة والجدوى نزعت من أشداقهم المسعورة.

### أثر البيئة الطبيعية في سكان المغرب الكبير

وكان سكان المغرب لهذه الخصائص الجميلة في بلادنا، على الاعتدال في الأمزجة والمتانة في التركيب، والجمال في القوام، والصحية في الأجسام، لوفرة لغذاء، وجودة الهواء، ولاعتدال الإقليم، وجمال الله في المغرب!

وكان أجدادنا أبناء المغرب الكبير على الاعتدال بالنفس إلى حدود الكبرياء، وعلى الأنفة والإيابة، وعلى التمسك كل التمسك بشخصيتهم لا يذوبون، وعلى الاعتداد والاعتزاز بدينهم وقوميتهم لا يتلغهم المستعمرون وإن أطالوا المقام عليهم، ووجدوا كل أسلحتهم لإذابتهم ومحق شخصيتهم.

وكان أبناء المغرب الذين ربتهم جبالهم الشماء وإحراجهم، وطبعتهم، وطبعتهم بطباعها، يحبون الحرية إلى درجة لعبادة، ويعشقون الموت في سبيلها، لا يرضون بالظلم والاستعباد، ولا يخضعون للجبروت والاستبداد؛ فان سكنوا للظالم حيناً فكما يسكن الأسد في نوبة الحمى، ليس ذلك من طبعه، ولا من جبلته، فإذا صحا فويل للظالمين! انه يترك الساحة بنجيعهم معصفرة، ويغدو وصبوحة دماء الأعداء وخوضه في أشلائهم المبعثرة.

وكان أبناء المغرب الخصائص بيئتهم الطبيعية وأثارها العظيمة فيهم على الحزم والنشاط، يحبون العمل، ويكرهون الكسل، ويعشقون لطموح، ويمقتون الخمول، لهم إرادة حديدية، وذوق جميل، ويد صناع، يتقنون أعمالهم ويحبونها، لا يكسلون ولا يغشون، ولا يذهبون إلى العمل وهم يتنأبون، بل يهرعون، وتلك من نعم الله علينا باعتدال جو إقليمنا، فلو كان بالغ الحرارة لأورثنا الكسل وطبعنا بالفتور.

وكان أهل المغرب لآثار المغرب الجميل القوي فيهم - على الذكاء في العقل، والقوة في التفكير، والحب للعلم، يقدرسونه وأهله، وبرونه رأس الفضائل، واكبر النعم.

وكان أبناء المغرب لااعتدال جوههم على الاعتدال في الوجدان، لا يفرضون في أفراحهم وأحزانهم، وفي حبهم وبغضهم، ولا يتسمون بالنزق والطيش لوجدانهم الذي يملكهم كما نجد تهل البلاد المفرطة في الحرارة، ولا يجدون كاهل البلاد المفرطة في البرودة، بل هم على الاعتدال في الوجدان، وعلى الخفة في الأرواح، وعلى المرح في النفوس، على نحو وبمقدار تستسيغه العقول الحصيفة، والخلق الكريم.

هذه بعض مزايا المغرب الجميلة، وأثاره الحسنة في أبنائه، وقد وجزنها لكي لا يخرج هذا الباب من إطار التاريخ إلى تفاصيل الجغرافية.

حسبنا منها هذا الموجز الذي هو تمهيد ضروري، ساس لما يستقبلنا من عهود المغرب الزاهرة، ودوله الراقية، وثوراته لعارمة على المستعمرين، ان الناس بناء أرضهم فمنها يرثون وعلى حسبها يكونون.

لقد خلق الله المغرب على الحسن الفاتن، وميزه بخصائص قلما اجتمعت في قطر من الأقطار، فقصدته أهل المشرق منذ العصر الحجري الأول فسكنوه، فمن الذي سكن بقاعنا الحبيبة، ومغربنا الجميل في العصر الحجري الأول قبل ان يغشاها الأمازيغ فيكون لهم، ويكونوا له، ويعمروا كل أنحاء، وينهضوا بالمغرب الكبير نهضته الكبرى؟

السكان الأولون للمغرب الكبير

# السكار. الأولور. للمغرب

أول من سكن مغربنا جماعات من أبناء يافث انتقلوا إلي من المشرق، ومنه انتقلوا إلى جنوب أوروبا كما تل على ذلك الآثار والنصوص الصحيحة.

## أصول البشر

ويافث هو احد الأصول الثلاثة للبشر. وهم أبناء نوح عليه السلام. فهم الذين أصول البشر عمروا الأرض بعد ان اغرق الله فيها بدعوة نوح لما كفر به أهل عصره. وقد نجت في سفينته زمرة من المؤمنين به، ولكنهم لم ينسلوا أو هلكت ذريتهم، فبقي نسل أبناء نوح الثلاثة. فكان نوح عليه السلام آدم الثاني، واصلا من أصول البشر ومبدءا للخليفة. وقد ذكر ابن خلدون الأمم التي تفرعت من أبناء نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث. فذكر ن ليافث سبعة بناء منهم (قطريال) ثم لنا الأمم التي تفرعت عنه فقال: «وأما (أبناء قطريال) فهم الصين من المشرق، واللمان من المغرب. ويقال إن أهل افريقية قبل البربر منهم، وان الإفريج أيضا منهم، ويقال ان أهل الأندلس قديما منهم»<sup>2</sup> ان قول ابن خلون الرجل العالم بالتاريخ، سيما تاريخ المغرب أكبر دليل على ما قلناه من ان جماعات من أبناء يافث هم أول من سكن المغرب. وقد انتقل هؤلاء إلى جنوب أوروبا، فاستوطنوا الأندلس وغيرها. فكان وطننا (المغرب الكبير) هو الأصل في عمارة جنوب أوروبا، لا ما ادعى كثير من الأوروبيين الذين يتعصبون لأنفسهم، ويحصرن كل الفضل في جنسهم. لقد قالوا ان هؤلاء السكان الأولين للمغرب جاءوه من أوروبا! وقد نقل هذه الدعوى بعض المؤرخين المغاربة. ان الآثار التي دلت على وجود هؤلاء السكان تتصل من المشرق إلى المغرب. وبعض عباداتهم وطقوس دينهم شبيه بما هو في المشرق، سيما في مصر التي كانت طريقتهم إلى المغرب. والمغرب فيما قبل التاريخ هو الناحية التي تصلح لحياة بني الإنسان لا جنوب أوروبا البارد الذي تكسوه الثلوج، ويعمر الجليد تلب نواحيه. ان سبب

2 - كتاب العبر لابن خلدون ج 2 ص 10 ط. بولاق في القاهرة 1284هـ (2-1 المغرب)

عمارة جنوب أوروبا هو المغرب. لا عكس. كما يدعى بعض المؤرخين الأوروبيين المتعصبين. لقد اغتر أولئك المؤرخون الأوروبيون بتقديم أوروبا في هذا العصر. وتختلف المشرق. فنسبوا كل الفضل إلى أوروبا. قالوا: أنهم لأصل في عمارة المغرب. وادعوا ادعاء الثمرة أنها الأصل للشجرة - وهي منها - أما رأيت أغصانها حطبا وجردها الشتاء من حياتنا!

وكان نزول هذه الجماعات من أبناء يافث في شمال المغرب واستقرارهم به قبل التاريخ. وهي العصور التي كان الإنسان فيها لا يعرف الكتابة ليسطر تاريخه. وفي العصر الحجري قبل ان يكتشف الإنسان النحاس والحديد فيقيم عليهما حياته. وقد دلنا على وجود هذا الجنس من أبناء يافث آثارهم الموجودة في أنحاء المغرب. والآثار اصدق شاهد من الكتابة. واصح دليل من الرواية. وقد وجدت بعض مصنوعاتهم الحجرية. وأثار لمنازلهم. ومن أثار المنازل ما وجد في ناحية معسكر. وفي نواحي وهران وسعيدة. والجزائر. في غرب القطر الجزائري ووسطه. ووجدت في عين البيضة. وتبسة وعين مليلة. وسطيف في شرق الجزائر. وقد وجدت قبورهم أيضا ويسمونها البربر قبور الجهلاء.

### عيشة السكان الأولين للمغرب وحياتهم البدائية

وكان أولئك السكان الأولون للمغرب على بساطة أهل العصر الحجري في العيشة والحياة. فكانوا يلبسون جلود الحيوانات. ويقتاتون بالثمار البرية. وبالأعشاب. وبما يصطادونه من الحيوانات. وكانوا يسكنون المغاور والكهوف المنيعة القريبة من المياه؛ ويتخذون من الحجر آلاتهم في القتال. وفي الصيد. وفي مختلف الضرورات.

### دينهم الوثني

وكان لهؤلاء السكان الأولين دين بسيط على حسبهم. لان الإنسان لا بد له من دين ولا يمكن ان يخلو منه. لان الدين في الإنسان تبعته عليه غرائزه. فغريزة الاطلاع والخضوع القويتان في الإنسان تبعثانه على الخضوع والعبادة. وعلى ان يتخذ له إلهها يعبد. فكما انه لا يمكن ان يبقى بدون الأكل الذي تبعته عليه الغريزة. كذلك لا يمكن ان يبقى بدون دين الغريزة هي التي تبعث عليه! وإذا كان التقليد وهو من الغرائز أيضا يبعث الإنسان على اقتباس نوع الدين من البيئة الاجتماعية فيكون عليه. فأصول الذين في النفس البشرية هي ما ذكرنا.

كان لهؤلاء السكان دين يعقدونه. والهة يعبدونها. فكانوا يعبدون الشمس والقمر وبعض الحيوانات. ومنها الثور والكبش والقرد. وكذلك العقل في طفولته يخلع التقديس

على كل ما يروعه ويراه مصدرا للقوة. ومحلا للغرابة. وإذا كان هؤلاء السكان قد هاجروا إلى المغرب من المشرق فلا بد له ان يكونوا قد أتوا بشيء من هذا الدين من المشرق. ان عبادة الشمس التي كانت في أم من أهل المشرق كالمصريين وأهل اليمن جعلنا نتيقن ان هذا الدين ليس من اختراعهم في كل طقوسه.

وكان أولئك السكان الأولون يعتقدون البعث والنشور. وان الإنسان في بطن الأرض ما هو إلا جنين سيولد فيحيا حياة ثانية. لذلك كلن من أنواع دفنهم ان يدفنوا الميت وهو جالس القرفصاء. ولحياه إلى ركبته. وتلك هي هيئة الجنين في البطن. وكانوا يفون مع الميت أدوات طعامه وشرابه. وبعض أشياء الزينة ليحياها حين نشوره. وفي حياته الثانية.

ان عقيدة البعث ما تبقى لهذا الجنس من الدين السماوي الذي جاء به الأنبياء الأولون. وإلا فان عقولهم القاصرة لا تستطيع إدراك لبعث بالتفكير في حياة الإنسان وفي حقيقته. ووجد عقيدة البعث منتشرة في المشرق فكانت سببا لبناء الفراعنة للأهرام.

وقد بقي هؤلاء الشرقيون من أبناء قطوبال بن يافث في لمغرب إلى ان فاض عليهم في لعصر لحجري جنس كثر منهم عددا. وأقوى شخصية فغمروهم فأذابوهم فيهم فأسمى أولئك السكن الأولون كالنهر الصغير إذ إلتقمه البحر وأطبق عليه فكساه بلونه. وابتلعه فصار جزءا منه. وكذلك الفئة الصغيرة تذوب دائما في الجماعة الكبيرة إذا كانت قوى منها شخصية. ان هذا الجنس العتيد لغزير الذي فاض على السكان الأولين فصيرهم قطرة في بحره هو جنس البربر العتيد! تلك الأمة القوية العظمية التي استوطنت المغرب الكبير من دناه إلى أقصاه منذ العصر الحجري. فعرف المغرب بها وعرفت به. فصار لها كالحجر للمقلة الصحيحة لا يفارقها ولا تفارقه!

فمن هم البربر؟ ما أصلهم. وما حقيقتهم. ومن أين جاءوا إلى المغرب؟

البربر  
أصلهم و شخصيتهم

## البربر

البربر هم الجنس العتيد الذي فاض على الفئة القليلة من السكان الأولين للمغرب  
فنسخهم كما ينسخ النهار الواسع المستفيض رقعة القمر في الجوا!

والبربر جنس كثير العدد. قوي الشخصية. لا تحصى شعوبه. ولا تعد مزاياه فهم من  
الأجناس الحرة الكريمة التي خلقها الله بيضاء لتكون شامة في وجه الإنسانية. وجعل  
المغرب صدر الدنيا وطن البربر ليأخذوا من حسنات الطرفين شماله وجنوبه. فيحتلوا  
الصدارة في المكارم. كما احتلوا الصدارة في المواطن!

## موطن البربر الأول وسبب انتقالهم إلى المغرب

وكان البربر في أول أمرهم في الشام مع أبناء عمهم فلسطين. فوقع بين الطرفين  
موطن البربر حروب وحدثت بينهم فتن. فهاجر البربر من لشام فساروا إلى الغرب  
فاستوطنوه. فغمروه بشعوبهم. وعمروه بقبائلهم من غرب الإسكندرية إلى المحيط  
الأطلسي. ومن بحر العرب إلى حدود السودان. وكانت تلك الهجرة في العصر الحجري.  
وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بمدة لا تقل عن ثلاثين قرنا كما قال الأستاذ الكعك.<sup>3</sup>  
وكانت اغلب بقاع المغرب حينئذ بكررا لم تطأها أقدام. وجل مواطنه خلاء لم يتعرف  
ليها إنسان. فوهب الله لها هذا الجنس الكريم حل فيها حلول البذرة الطيبة في التربة  
الخصبة. فازدهرت. فصارت من مقاصد الشعوب التي تعشق حارة والقوة والجمال.

## أصل البربر

ان البربر أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. فهم من بناء حام  
لا من أبناء يافث كما يدعي المستعمرون. ولا من أبناء سام كما ادعى كثير من البربر  
ومن العرب الذين يتعصبون لجنس على جنس. وتبعثهم مذاهبهم السياسية. وحبهم  
للملك على اختلاق والتزوير.

وقد ذكر ابن خلدون: م أبناء حام كنعان جد البربر. ومصرايم جد القدماء المصريين.

3 - كتاب البربر تأليف الأستاذ عثمان الكعك ص 7 ط. الترقي بتونس 1956.

وفلسطين جد الفلسطينيين القدماء. واثبت ابن خلدون مؤكدا ان البربر أبناء حام بشهادة الموطن الذي كان مجاورا للمصريين من الغرب وللسودانيين من الشمال وهم أبناء حام لا أبناء سام. وبشهادة اللغة البربرية التي تشبه لغة المصريين القدماء. ولغة أهل السودان. وتبع في لهجتها وكلماتها وتركيبها عن اللغة العربية.

قال ابن خلدون: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأن البربر أنهم من لد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. وان اسم أبيهم مازيغ. وإخوتهم اكركيش. وفلسطين وإخوانهم بنو كسلوحييم بن مصرام بن حام. وملكهم جالوت سمة معروفة له. وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو كنعان وكركيش شيعا لفلسطين. فلا يقعن في وهمك غير هذا فهو الصحيح لذي لا يعدل عنه»<sup>4</sup> ثم ذكر ابن خلدون ادعاء بعض نسابة البربر ان بع شعوبهم من العرب كصنهاجة التي تولت الملك في الإسلام فادعت انها عربية. ومن قريش أيضا ليصبح ان تتولى الملك لان الملك ورئاسة الدولة عند العظاميين المتعصبين للعرق لا تصح إلا لعربي. وهي محصورة في قريش. وفي العرب دون غيرهم من المسلمين !! هذا هو الذي جعل بعض القبائل البربرية ككتامة وصنهاجة تختلق انسابا لها مزورة تجعلها من العرب ومن قريش. وإلا فان البربر معتدون بنفسهم وبنسبتهم. ولا يلصقون أنفسهم بغيرهم. سما في الإسلام الذي جعل المسلمين امة واحدة. وسوى بينهم. وقرر هذه القاعدة الثابتة وهي «ان لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ان صنهاجة من البربر. وكتامة كذلك. ولكن العبيدين الذين اصطنعواهم أرادوا ان يوثقوا صلنهم بهم. فادعوا أنهم من العرب مثلهم. وأشاعوا هذه الخرافة في المغرب وقد استغل هذه الدعوى الصنهاجيين الذين ملكوا المغرب في القرن الخامس والسادس الهجري فادعوا أنهم عرب. كما ادعى ذلك عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين فادعى انه من قريش. وهو من كومية القبيلة البربرية المعروفة في ناحية تلمسان.

ما ثقل على النفس وما اشق على القلم الآن. وما أخبت ان نخوض في هذا الموضوع الذي يجعلنا نحكم بان هذا عرب وهذا غير عرب. والله قد جعلهم امة واحدة بالإسلام وإخوة متمزجين بدينه الحنيف. فقال «إنما المؤمنون إخوة» وقال « وان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ان أعداء الإسلام الذين يكيدون للدين الحنيف. وهم أبناء المسلمين. ويركبهم رؤسائهم الصليبيون المتعصبون حمرا رخيصة إلى أغراضهم. وهي: القضاء على الذين الإسلام العظيم الذي هو امتن رابطة. وأوسع قومية. وإحياء القوميات

4 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 97 ط. بولاق في القاهرة.

الجاهلية الضيقة الهزيلة. ان أولئك البلاد الجهلة لا يلذهم ولا يرضيهم ان يسمعوا هذه الجملة العظيمة: (الامة الإسلامية) وتراهم يفزعون بها ويرتاعون لها ارتياع العصفير إذا سمعت دوى المدفع ثقيل يدك أهدافه !

ان كتامة وصنهاجة من البربر. وجددهم هو مازيغ بن كنعان بن حام كبقية القبائل البربرية الكبرى. وليس أصل البربر هو يافت ولا سام. ولكنه حام بن نوح. ويشهد على ذلك الموطن واللغة. قال ابن خلدون: «وما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة. وهوارة. وزناتة. وهذه كلها مزاعم. والحق الذي شهدت به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب»<sup>5</sup>.

### سبب تسمية الأمازيغ بربراً

ان جد البربر هو مازيغ بن كنعان بن حام. والبربر يسمون أنفسهم (الأمازيغ) ويعتدون بهذا الاسم. وهم لا يطلقونه إلا على الاقحاح الصرحاء فيهم. أما النزلاء الدخلاء الذين يتبررون كعبيدهم ومواليهم فلا يسمونهم أمازيغ. لأنهم ليسوا من سلالة مازيغ. ومعنى الأمازيغ عندهم هو الأشراف. يعني الصرحاء أبناء مازيغ الذين يحملون شخصية البربر العظيمة. ويتصفون بأخلاقهم التي تطبعهم بها الوراثة المازيغية الزكية. ويسمى البربر لغتهم البربرية (تمازغت) نسبة إلى الأمازيغ. وقد أرسل عمرو بن العاص لما كان واليا على مصر بعض رؤساء البربر إلى سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فسألهم عن نسبهم فقالوا «نحن أبناء مازيغ»<sup>6</sup>.

وقد سمى العرب الأمازيغ بربري. أما للغتهم التي لا يفهمونها. وكان العرب يسمون كل أصوات لا يفهمونها بربرية. يقولون: بربر الأسد إذا زمجر بأصواته. وأما ان يكونوا قد نسبواهم إلى جهم السادس<sup>7</sup> وهو بربر بن تملأ بن مازيغ بن كنعان بن حام ابن نوح عليه السلام. وارى ان نسبة البربر إلى جهم السادس هو سبب تسميتهم بهذا الاسم لا لغتهم التي لا يفهمها العرب. ولو كانت اللغة ي السبب لسموا كل جنس لا يفهمون لغته بربرا كأقباط مصر ولغتهم حامية كلغة البربر. والسودانيين.

ان البربر الذين سموا أنفسهم أمازيغ نسبة إلى جهم مازيغ. ق سموا أيضا أنفسهم بربرا نسبة إلى جددهم بربر بن تملأ بن مازيغ. فهم الذين تسموا بهذا الاسم اعتدادا

5 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 97 ط. بولاق بالقاهرة.

6 - نظر قصة الوفد في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص 7 ط . الحلبي بالقاهرة 1963.

7 - يكون سادسا إذا ابتدأنا العد من نوح وهو ما يمكن في هذا المقام ولا يمكن غيره.

بجدهم. وفخرا بهذا الأصل الشريف من أصولهم. وما يؤيد هذا أننا وجن هذا الاسم يطلق عليهم فقبل الفتح الإسلامي. وقبل ان يعرفهم العرب في عهد الرسول وخلفائه الراشدين. لقد كانوا يتسمون بهذا الاسم قبل الميلاد في عهد القرطاجيين. وقد سميت دولة قرطاجنة (الدولة البونيقية) وهو تركيب مزجي من البربر والفينيقيين.<sup>8</sup> فإذا كانت هذه لتسمية قيمة فهي من الشواهد على ان اسم البربر قديم. أطلقه البربر على أنفسهم. ليس العرب ولا الرومان.

### غفلة المؤرخين وتقليدهم

ان بعض الغافلين من المؤرخين المغاربة الذين لا يتورعون من سب أجدادهم. وصفح وجوههم. وفقاً عيونهم بأصابعهم قد ظنوا ان سبب تسمية أجدادنا بربراً كسبب تسمية الرومان لتوحشين الأوروبيين الذين يغزونهم بربراً. وإذا أطلق الرومان هذا الاسم على الغزاة الشجعان تشبيهاً لهم بالبربر. فلفتكهم بهم كالبربر الذين يثورون على الرومان الذين استعمروا بلادهم فيفتكون بهم. لان البربر متوحشون كأولئك الأوروبيين الغزاة.

ان البربر قد سبقوا الرومان إلى الحضارة. فمغربهم الذي بنوه. وزخرفوه. وعمروه بضارة قرطاجنة التي اخذوا بها وورثوها. فصار جنة عدن بالجمال. ولدينة والغنى وكثرة الخيرات. هو لفت أنظار الرومان إليهم فغزوه. فاحتلوا بلادهم لينعموا بخيراتها وحضارتها.

لم يكن البربر في العهود التي عرفهم فيها الرومان متوحشين. غزاة قراصنة. يحاربون لبطونهم كما فعي الغزاة الأوروبيون الذي هاجموا رومة حتى يقال: ان الرومان سموهم بربراً لشبههم بالبربر في هذه الصفات. بل لعمر ك أشبهما الأمازيغ في الفروسية. والشجاعة والجرأة. وركوب ظهور الرومان في الحروب. فسموهم بربراً لذلك! وقد قلد بعض المؤرخين المشاركة الأوروبيين المتعصبين الذين يعللون تسمية أجدادنا بربراً بذلك التعليل الروماني السقيم. فوقعوا في خطأ كبير كما وقع المغاربة. وحققوا غرض المستعمرين الرومان القدماء وأحفادهم في هذا العصر. وكلهم لتلهب جنوبهم بضربات لبربر. ويرون لبربر في جبالهم هم السيل القوي الذي سيجرفهم إلى البحر. ويظهر المغرب منهم فعملوا كل جهدهم والحط من شأنهم! لقد قلد بعض الشرقيين وبعض المغاربة أولئك المستعمرين في تعليل تسمية أجدادنا بالبربر. فوقعوا في خطأ كبير. وعقوا أجدادهم وأعمامهم. وأوغروا صدور إخوانهم في المغرب الكبير.

8 - قيل انه تركيب من الليبيين والفينيقيين.

ذلك هو أصل البربر وسبب تسميتهم بربراً فما أقسامهم؟

### أقسام البربر

ان البربر ينقسمون إلى فرعين عظيمين: البرانس والبتر. والبرانس هم أبناء برنس. والبتر هم أبناء مادغيس ويلقب بالأبتر. وهما أخوان ومن نسل مازيغ بن كنعان ابن حام بن نوح.

### أقسام البرانس

قال ابن خلدون: «وأما شعوب البرانس فعند لنسابين أنهم يجمعهم سبعة جذم وهي : ازادجة ومصمودة. وأورية. و عجيسة. وكتامة. وصنهاجة واوريغة. وزاد سابق بن سليم المطماطي (النسابة البربري) لمطة. وهسكورة. وكزولة»<sup>9</sup> هذه هي أصول البرانس وهي عشرة أصول. وكل أصل ينقسم إلى قبائل كثيرة.

### أصول البتر

قال ابن خلدون: «وأما شعوب البتر فيجمعهم أربعة أجدام: اداسة. ونفوسة. وبنولوا الأكبر وهم: لواتة. ونفزاوة» هذه هي لأصول الكبرى لشعوب البتر. ويفرع كل أصل إلى قبائل كثيرة لا تحصى. عمرت المغرب من أدناه إلى أقصاه. وانتشرت في كل رحابه. ولم يكونوا بالأمة القليلة كما يتوهم الغافلون. ولا بالشعب الهزيل الضاوي لقله أفراده كما يعتقد بعض المؤرخين المحدثين. فحكموا أحكاماً خاطئة على الدماء لبربرية والأصل البربري. بل هم كما قال ابن خلدون: «هؤلاء البربر. جيل وشعوب. وقبائل أكثر من ان تحصى<sup>10</sup> وهم سكان المغرب القيم ملئوا البسائط والجبال من تلولة. وأريافه. وضواحيه وأمصاره»<sup>11</sup> ! هؤلاء هم البربر امة واحدة. ذات أصل واحد. امتن لله عليها بالإسلام فكانت جزءاً من الأمة الإسلامية. وامتزجت بالمسلمين وبالفاحين وبمن انتقل إليها من القبائل العربية. فصار مغربنا بمنة الإسلام الذي أحيى بين الشعوب مزيجاً من الدماء البربرية والعربية. نشعر بالكل أجدادنا. ونحس بعروقنا في بني سام وفي بني حام. نعتد بمفاخرهم جميعاً. وبوارثة الفريقين معاً.

ان الشعب الوحيد الذي رحب به البربر. وفتحوا له صدورهم. وجاءهم جماعات كبيرة

9 - كتاب العبر ج ص 89 ط نوق بالقاهرة.

10 - كتاب العبر لابن خلدون ج 6 ص 103 ط. بولاق بمصر.

11 - نفس الصفحة.

## دعاوى المؤرخين الباطلة، وترهات المستعمرين

### في أصل البربر والدم البربري قبل الإسلام

ان البربر امة صريحة النسب، واحدة الأب، تنبع جميع قبائلها من أصل واحد و مازيغ بن كنعان، وليسوا خليطا من شعوب شتى كما يعي المغرضون من المؤلفين الذين تسيرهم الأهواء السياسية، والأغراض الاستعمارية. لا الأمانة وحب الحق، وبعض هؤلاء المدعين يريدون الحط من مقام البربر بهذا الزعم.

لقد رأوا جماعة من الفرس، وجماعة من اليهود، وجماعة من الزنوج تهاجر إلى المغرب قبل الإسلام فتستقر فيه، وتختلط بالبربر وتفنن فيهم، فقالوا: ان البربر مزيج من الدماء وأخلط من الشعوب، لامتزاج تلك الجماعات الصغيرة في الشعب البربري العظيم، كان السحائب إذا أمطرت على البحر المحيط وامتزجت به تصيره نهرا!

ان البربر شعب كبير غزير العدد، وأمة وفيرة واسعة الأطراف، لا خصى أعدادها، ق هاجرت إليهم طوائف من اليهود الساميين، والفرس الآريين، وغيرهم قبل الإسلام فذابوا فيهم، وتبربروا في كل شيء، فلم يبقوا على صبغتهم الأولى حتى يؤثروا ببيئتهم الاجتماعية الجديدة في البربر، ولا كانوا من الكثرة بحيث تغلب ماؤهم على ماء البربر أو تعادلها، فيجعلون البربر مزيجا من ماء شتى، ثم ان البربر فيهم، فأعانتهم على هضمهم؛ كانوا أقوياء الشخصية، معتدين بأنفسهم اعتدادا يوحى بتقليدهم إلى كل الغرباء، سيما إذ كانوا جماعة صغيرة مستضعفة أوت إليهم لتستظل بجناحهم، فتراهم بهذه القوة في الشخصية يصبغون غيرهم بصبغتهم فيصبح بربريا، ويصهرونه في بوثقتهم فيكون جزءا منهم.

ان الجماعات الغربية التي انتقلت في فترات متباعدة إلى المغرب فاستقرت فيه، إنما هي جماعة من الفرس، وجماعة من الإسرائيليين من الشام، فاختلطوا بالبربر فذابوا فيهم، وقد انتقلت إليهم جماعة من الفلسطينيين، وجماعة من المصريين، وجماعة من السودان فذابوا فيهم، وامتزجوا بهم كما تمتزج الساقية بالنهر، ويختلط المعدن بجنسه لأنهم من أصل واحد.

فامتزج بهم، واثر في دمائهم، إنما هم الشعب العربي المسلم، أم الشعوب الأخرى التي غشيت المغرب قبل الإسلام لاستعمارهم، فان البربر كانوا بمعزل عنهم، لم يمتزجوا بهم، ولم يتأثروا بدمائهم، وكذلك الجماعات التي هاجرت إلى المغرب لائتذ بالبربر فأووها، وفسحوا لها في ديارهم، وفي أسرتهم، فذابت في البربر لم تؤثر في دمائهم، وقد ادعى بعض المؤرخين المسلمين لأغراض سياسية ان كتامة، وصنهاجة، وهوارة ليست من أصل بربري، وادعى بعض المستعمرين ان الدماء لبربرية مزيج من ماء الآرية وغيرها من دماء الجماعات المستضعفة التي ذابت فيهم، يريدون بذلك تنقيص البربر، وإيهامهم بان المغرب تربطه بأوروبا رحم قديمة ليوجهوه إلى لشمال، والله قد جعله بالإسلام وقرابة الدماء يتجه إلى وطن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، فهل صحيح ما ادعاه المستعمرون، وقلدهم في دعواهم الباطلة بعض المؤرخين المغاربة: ان ماء أجدادنا الأمازيغ قبل الإسلام كانت مزيج من أم شتى ومنها الدماء الآرية؟! هذا ما ترى بطلانه في الفصل التالي ان شاء الله.



ان هؤلاء وان فرضنا بقاءهم على شخصيتهم لم يذوبوا فكانوا أصولا لفروع من البربر. لا نستطيع الادعاء ان البربر مزيج من شعوب شتى لان هؤلاء أصلهم هو أصل البربر. فكل الفلسطينيين والمصريين. والسودانيين أبناء حام بن نوح عليه السلام.

ن هؤلاء الذين هاجروا إلى المغرب فاستقروا فيه ليسوا جماعات مغيرة جاءت للاستعمار ولتسلط فنقول أنهم بقوا شعبا مستقلا متماسكا. توحدته عصبية. فلم يذب في البربر. ولم تغلب علي ماؤهم. بل هم جماعات مستجيبة جاءت للاستقرار في المغرب. والاختلاط بالبربر. فلولا موافقتها لهم في المزاج. وإعجابه بالبربر ما هاجرت إليهم.

ان الاسرائيليين الذين اجروا إلى البربر كانوا من بيئة لشام التي صبغت البربر قبل انتقالهم إلى المغرب. وهي أيضا اقرب إلى بيئة المغرب الطبيعية. فكل المواطنين على الاعتدال في الجو. والخصب في التربة. والجودة في المناخ. وهذا يجعل مزاج أهل الشام شبيها بمزاج أهل المغرب. وتقارب الأمزجة. ونية الاستقرار والإقامة. والاختلاط. يجعل الجماعة الصغيرة تذوب في الكبيرة.

### الأسباب لنفسية لذوبان جماعة الغريبة في الشعب القوي

ان الفئة القليلة إذا اختلطت بشعب كبير قوى الشخصية كالبربر لا يذوب فيه. ونكون جزءا منه. هذا هو طبع البشر. وجبلة الإنسان لثابته. لان الله سبحانه قد خلق في الإنسان مجموعة من الغرائز. والميول الفطرية تجعله يمتزج بالجماعة التي يختارها. ويذوب في القوم الذين يعجب بهم. لقد خلق فيه الغريزة الاجتماعية. وغريزة حب الظهور. والميل إلى التقليد. والتأثير بالإيحاء والمشاركة الوجدانية. وهذا كلها تصبغه بصيغة البيئة الاجتماعية التي اختارها وجعله جزءا من الجماعة التي يعاشرها: تدفعه كل هذه القوى فيه. وتدفع غريزة الاجتماع للتطبع بطباع الجماعة ليمتزج بها فيأنس بها. ويحترم فيها: وفي الأئس غذاء ضروري لغريزة الاجتماع التي تصرفنا في أعمالنا وأجأنا أكثر من غريزة البحث عن الطعام: وفي الاحترام غذاء لازم لغريزة حب الظهور والاحترام التي تسيطر عليين. وتوجهنا في كل أعمالنا لنشبعها أكثر من الغرائز الأخرى.

كان البربر معتدين بأنفسهم. فخورين بشخصيتهم. فلا غروا إذا أوحوا بحب تقاليدهم. ولغتهم إلى هذه الجماعات التي هاجرت إليهم. فتبررت في لغتها وتقاليدها. كم تبررت بعد ذلك في مائها لما اختلطت بها دماء البربر فأذابتا فيها. فأمسوا بريرا في كل شيء.

ان ذوبان هذه الجماعات الصغيرة في شعب لبربر العظيم شيء ضروري قد وضع لكل الشعوب العظيمة التي تسكن أوطانا متازة كوطن البربر. وتتسريل بحضارة راقية كالحضارة التي أنشأها البربر في بلادهم. والشعوب التي يمكن ان تعي ان دمائها لم تنسكب فيها قطرة من شعوب أخرى عي البدائية المتوحشة التي لم يعرفها العالم ولم تعرفه. أما لبربر فجنس عتيد متحضر ق رغبت في معاشرته كل الأجناس. وبلادهم جنة عدن بالطبيعة والحضارة فقصدتها كل الشعوب. أننا لا نجد شعبا واحدا راقيا لم تهاجر إليه جماعات فتفنى فيه.

ان العرب في القرون الهجرية الأولى قد امتزج بهم من الفرس والروم والبربر والمصريين والزنوج وغيرهم أضعاف ما امتزج من الشعوب القليلة المذكورة بالبربر. ومع هذا الاختلاط الذي اثر في مزاج العرب وشخصيتهم. واراننا منهم في القرن الثاني والثالث الهجري أجيالا بعيدة كل البعد عن أهل الجزيرة المسلمين في مزاجها وشخصيتها وأجأها -مع هذا- يقرر بعض المؤرخين بان العرب في تلك القرون جنس صريح. أما البربر في أول عهدهم فخلط من شعوب شتى! .

لقد ادعى المغرضون من الأوروبيين أيضا هذا الدعوى. وأكدوا ان البربر خليط من أجناس كثيرة. وليسوا جنسا واحدا. ليفرقوا جماعتهم. بإبهامهم أنهم من أصول عديدة. ومن شعوب مختلفة. وبيالغ هؤلاء المغرضون الأوروبيون خاصة في تأكيدهم ان البربر مزيج من دماء حام والدماء الآرية. وان الإغريق والرومان قد اختلطوا بهم واثروا في دمائهم. فهل صحيح هذا الادعاء الذي يستميلون به المغرب الذي يريدون قطعه عن أصوله. وابتلاعه ليكون قطعة منهم. وجزءا من بلادهم. يتممون بخيراته مواردها. أما أهله فان يذوبوا فيهم فكالرقعة الرخيصة في الحذاء. تلتصق بها لسد الخروق. وهي وان تشبثوا بها قذى في عيونهم لا يروق. لأنها من لون آخر أبي أو اسمر والنعال حمراء!

ان يقين هؤلاء الأوروبيين الذي لا شك معه. أنهم من م و البربر من صنف آخر من الدماء. بعيد كل البعد عنهم. لقد عاش البربر من الأمم الأوروبية الإغريق والرومان والوندال. أما الإغريق فكانوا في المغرب أقلية قليلة. ومع هذا فإنهم لم يمتزجوا بالبربر امتزاجا يؤثر في الدماء. لقد انتقلوا إلى المغرب للتجارة والصناعة. فبقوا فيه أجانبا إلى ان رحلوا إلى بلادهم. أو قضت ثورات البربر عليهم. أما الرومان والوندال الذين غزوا البربر واستعمروهم فقد كان البربر يرونهم أعداء الداء. فنفروا منهم كما ينفر المرء من شر الأمراض وأخبث الأوبئة. وابتعدوا عنهم في كل شيء. فلم يستطع الرومان بعد قرون عديدة قضاها في المغرب ان يؤثروا في أمزجتهم بمدخله مائهم للبربر.

ان البربر شعب قوى كرم يعت بنفسه وبجنسه كل الاعتداد. لا يرون جنسا أكرم من جنسهم فيطعمونه بدمائه. ويزكون عرقهم بعرقه. انه هناك شعب يمقته البربر كل المقت. وهو بعيد عنهم في المزاج كالرومان. فكيف يمكن الادعاء بأنهم اثروا في دماء البربر فصار البربر بهم وبغيرهم من المستعمرين الذين غزوه وتسلطوا عليهم من دماء شتى. وأجناس مختلفة؟!

### أسباب دعوى المؤرخين ان البربر من بني سام وادعاء بعض البربر أنهم ليسوا من حام

وقد ادعى بعض المؤرخين المشاركة. وقلدهم بعض المؤرخين المغاربة. ان كتامة وصنهاجة. وهوارة من أصل يمني. وأنهم من أبناء سام لا من أبناء حام؛ كما ادعى بعضهم ان البربر كلهم من اليمن. ان هذا زعم لا تؤيده الأدلة القوية. فكتامة. وصنهاجة. وهوارة من جملة شعوب البربر. وأصلهم كلهم حام بن نوح. والذي دعا المؤرخين المشاركة إلى هذا الزعم هو إعجابهم بالبربر ويطولتهم فألقوهم بهم ان كتامة هي التي نصرت الدولة العبيدية أيام نشأتها فلا يبعد ان يكون مؤسسها أبو عبيد الله الشيعي ومن سبقه من دعاة الشيعة قد ادعوا ان كتامة من العرب ليستميلوها إليهم.

وكانت الخرافة والبدعة الممقوتة التي وضعها بنو أمية وبنو العباس في الدين لتعصبهم لأنفسهم. وهي وجوب إسناد رئاسة الدولة الإسلامية إلى قريش والى العرب وحدهم. لا يجوز ان يتولاها سواهم كالبربر والفرس. كانت هذه الخرافة التي نشرها بنو أمية وبنو العباس وصنائعهم في براعة فاعتقدتها الدهماء بما حدا بكثير من ملوك البربر وأمرائهم كمحمد بن تومرت ويوسف بن تاشفين إلى الادعاء بأنهم من سلالة العرب. ثم يصلون نسبهم بقريش. ثم يخلقون لهم أجدادا في بني هاشم. لتدين لهم النواحي التي نشر فيها الأمويون والعباسيون تلك الخرافة التي يناوئها الإسلام. وبأباها الذين الإسلام العظيم الذي جاء لحو الأنانية والعصبية من الدنيا.

ان البربر أخوان العرب بالدين الواحد الذي توالى قرونا. وبيئة الشام التي جاور فيها البربر بني كنعان من العرب قديما. وبيئة المغرب التي جاوروا فيها قرونا متصلة. والدين الواحد. والبيئة الواحدة إذ استمررا طويلا هما اللذان يخلقان الشخصيات المتماثلة أكثر من الوراثة إذا اختلفت بيئتها. بل ان الصفات الموروثة التي يتميز بها الشعب. وتكون شخصيته ما هي إلا ولية البيئة الاجتماعية التي يخلقها الدين. ووليدة البيئة الطبيعية. فكيف مع هذه القواعد النفسية التي لا تخض يدعي احد بعد قرون عاشها

في المغرب انه عربي وسواه بربري. وان هناك فرقا بين أبناء المغرب المتجانسين بالدين الواحد. وباختلاط الدماء. وفعل البيئة الواحدة!

ان العربي الذي جاور البربري في المغرب أو في الأندلس يماثل البربري في كل شيء أكثر مما يشابه العربي الذي بقي في جزيرة العرب أو سكن في الشام أو في العراق. لان البيئة الاجتماعية والطبيعية الواحدة إذا استمرت تصبغ ساكنيها بلون واحد. فيصبحون بعد جيل أو جيلين شعبا واحدا لا فرق بينهم. هذا ولو لم تقع المصاهرة التي تنتقل بها الوراثة. ويكون بها امتزاج الشعوب. فكيف وقد تزوج العرب من البربر. واثروا الجمال البربري. وخصائص البربرية الجميلة في شخصيتها. ان جمهور العرب الذين هاجروا إلى المغرب فاستقروا فيه قد نزحوا النساء البربريات. لما تمتاز به البربرية من قوة في الشخصية وجمال في الشخص. فاختلطت ماء الجنسين. فصرنا نحن أبناءهم جميعا. وصار المغرب اليوم مزيجا من الدماء البربرية والعربية. قد امتزجت واتحدت فكونت هذا الشعب المغربي الذي يصل بخصائص العرب والبربر جميعا.

لو ان العرب الذين هاجروا إلى المغرب فاستقروا فيه كانوا أكثر عددا من البربر ما أمكن ان نقول أنهم بعد قرون بقوا جنسا مستقلا عن البربر في المغرب للأسباب التي تؤثر في الإنسان وهي الدين. والبيئة الاجتماعية والطبيعية وكانت واحدة. فكيف والبربر أضعاف العرب في العدد فهل يمكن بعد هذا ان نقول ونعتقد اعتقادا راسخا ان أهل المغرب اليوم شعب واحد هو مزيج من الدماء العربية والبربرية. وشخصية واحدة هي وليدة المغرب الجميلة. وان شعبنا للدين الإسلامي العظيم الذي عم كل أنحاء المغرب. وآمن به أهل المغرب. ق خلق فيه من أسباب الامتزاج والاتحاد ما لا تجده في قطر آخر من الأقطار التي تجاوره وتعاصره الآن.

أننا لا نرى أي فرق في الشخصية في عهود الإسلام بين العربي ولبربري حتى نعذر من يلحق قوما بقوم زاعما انه يرفعهم بهذا الإلحاق. والأسباب التي تخلق الشخصية فيهما واحدة. وهما معا من المعادن الكريمة بهذه الأسباب.

ان العرب من الأجناس الكريمة. والبربر مثلهم جنس كرم لا يقل عن العرب في فضيلة من الفضائل التي يكون بها التقدم والظهور. ان كرم الجنس البربري هو الذي حقق امتزاج العرب بالبربر لما فتح المسلمون المغرب. وكان امتزاجا سريعا كما يمتزج الماء بالماء. ويختلط الذهب بالذهب فيصير سبيكة واحدة لا فرق بين أجزائها في التلاؤم والصفاء! ان أبناء المغرب اليوم مزيج من هذين الجنسين الكريمين. ليس فيهم بربري خالص. ولا

لقد عرفنا أصل البربر فما مواطن شعوبهم الكبرى في القدم بالمغرب. هيا بنا نعود إلى التاريخ لتقديم نستقري فصوله. بعد ان غسلت صدرك من أوهام المستعمرين. واستطردت بك إلى مكائدهم فأطلعتك عليها. وعقدت لذلك ذا الفصل الذي لا يعد خارجا عن موضوعنا. انه زبدة الأبواب الماضية. وفصل يوجب التاريخ الذي نقصد به تربية المجتمع وتهذيبه. وتصفية التاريخ القديم من أو شابه. وتقديم التاريخ إليك في عمق الفلسفة وجمال الأب. هيا نتسرح في أنحاء المغرب الكبير لنرى مواطن أجدادنا فيه. انه شيء لابد من معرفته. والاطلاع عليه.

### مواطن الشعوب البربرية في المغرب الكبير

ان تعيين أماكن الشعوب البربرية في المغرب يصعب سيما بع لفتح الإسلامي. لان هذه الشعوب كانت امة واحدة. وقد خضرت في تلقم فاختلطت في المدن والقرى فلم تعد هناك بقعة يختص بها شعب وحد. غير ان هذه الشعوب لما كانت في بدايتها كانت لها أمكنة معروفة. وقد زال هذا في اغلب بقاع المغرب في العهد الإسلامي وهو الذي بقيت لنا مصادره. فصرن نرى الشعب الواحد كزنانة. أو هواره. أو صنهاجة. أو لواتة. أو نفوسة وغيرها؛ نراها في المغرب الأدنى في طرابلس. ثم نراها في المغرب الأوسط. أو في المغرب الأقصى. أو فيهما معا. كلواتة. وصنهاجة. وزنانة فإنها في المغربين الأوسط والأقصى. ونجد لواتة في المغرب الأدنى أيضا. كما نجد هذه لقبائل الكبرى في الساحل. ونجدها في وسط المغرب. ونجده في جنوبه بالصحراء. وقد عين ابن خلدون وغيره من المؤرخين الذين اعتنوا بتاريخ البربر أماكن لبعض شعوب البربر. ونحن نقتصر من هذه الأماكن على ما نسب إلى الشعوب البربرية الكبرى. ومن أراد معرفة قبائل البربر وأفخاذهم وأماكنهم فعليه بالجزء السادس والجزء السابع من تاريخ ابن خلدون<sup>12</sup> فانه يجد فيه كثيرا مما يريد.

### أماكن الشعوب البربرية الكبرى

كان المغرب الأدنى تسكنه خمسة شعوب من أقسام البربر الكبرى. فلواتة كانت في برقة إلى خليج سرتن الأكبر. ومن خليج سرت في طرابلس إلى مدينة طرابلس كان لهواره. ونفوسة كانت في غرب مدينة طرابلس وجنوبها. وكانت زنانة في جنوب طرابلس جاور نفوسة. ولو كانت وزنانة ومعظم زنانة في المغرب الأوسط.

عربي قح. أنهم أبناء البربر والعرب جميعا. ولا يدعى خلاف هذا إلا بدوي يسكن في أعماق الصحراء منذ هاجر أجداده إلى المغرب من صعيد مصر. لم يعرف المدن ولم تعرفه. أو رجل لا يزال قابعا منذ مصينيسا ويوغرطة في قنن الجبال لم تعرفه الحضارة ولم يعرفها. أما أبناء المدن والقرى -وجل المغرب منهم- فأجدادهم هم العرب والبربر جميع. أنا لتشعر بالغيرة والحب والاعتزاز بكليهما لأنهما معا في دمائنا.

### تأثر المؤرخين بالدعاية الاستعمارية المغرزة ضد المغرب

#### والبربر

لقد تأثر كثير من مثقفينا الذين ألفوا في هذا العصر في تاريخ المغرب بالدعاية المغرزة التي شنتها السياسة المغرزة قديما وحديثا على البربر والمغرب. فتراهم إذا كتبوا عن البربر ينظرون إليهم نظرة شذراء. ويتحدثون عنهم حديث الأجنبي الشامخ الحرد عن الأجنبي. زاعمين أنهم عرب وأولئك بربر. لا صلة بينهم. وهم أجدادهم الأكرمون. وآبؤهم العظماء المحبون. أي عقوق اكبر من هذا العقوق البغيض. وأي وكفر للجميل اشد من هذا الفعل الشنيع! ان رأس الجهل والحماقة ان لا يعرف المرء شمس الضحى فيصفها بالظلام. فيزور عنها. وينظر شذروا إليها؛ وان لا يعرف نسبه فيطأ بالأرجل الوحلة هاما كريمة هي رؤوس أجداده. ويكشثر في وجود جميلة جلييلة كريمة وفيه هي التي كانت تناغيه وتبسم في اليهود! !

لقد استغل الاستعمار اللاتيني خرافة انقسام المغرب إلى عرب وبربر فاحيا في الصدور الخالية من الاسم تلك الشنشننة الجاهلية. وعاضد أولئك الكتاب المغرضين الذين يوهمون أهل المغرب أنهم منقسمون إلى عرب وبربر. وأنهم جنسان متباعدان. ومن معدنين مختلفين. ليقطع الجسد الواحد إلى أوصال. فلا تكون فيه حياة تبرز برائينه. وتشخذ أنيابه. فيأكله كما يشاء. ويجعله مرتعه إلى الأبد. ليت شعري ه يصحوا هؤلاء الكتاب المقلون من سكرتهم. ويشقون من جهلهم فيفتحون عيونهم فيديرونها في أنحاء الغرب. ليعلموا ان المغرب كله من أدناه إلى أقصاه لا يضم إلا شعبا واحدا قد ميزه الله في قديمه وحديثه بكل أسباب الاتحاد. يس في تاريخه سبب واحد يوجب الفرقة من اختلاف في دين. أو اختلاف في المصلحة.

فاتل الله الاستعمار فقد مكن للعقيدة المفرقة لتسود. واستغل جهل المغرب بتاريخه فأوهمهم أنهم منقسمون إلى عرب وبربر. وما هم إلا مزيج واحد من كليهما فالعرب أجدادنا والبربر أجدادنا.

هذه هي مواطن الشعوب البربرية الكبرى في المغرب الكبير. ومع كل شعب من هذه الشعوب الكبرى، في منازلهم وديارهم قبائل بربرية أخرى تعيش معه عيش الغزال مع الأروى في الروض الواحد. فجميعهم أبناء مازيغ. والمغرب الكبير من أدناه إلى أقصاه كل وطنهم. فأينما جُد القبيلة هناك وساعدتها فهو وطنها. حُط في الرحال. وتبني الديار. وتمتدح بسكانه الأمازيغ. وتصاهرهم. وتتعانق قلوبهم بالوداد والمحبة. ويعيشون أسرة واحدة لا فرق بينهم في شيء.

هذه مواطن الشعوب لبربرية الكبرى في المغرب. وق علمنا ان أصل أجدادنا البربر هو حام بن نوح عليه السلام. وأنهم انتقلوا إلى المغرب من الشام فكيف كانت معيشتهم في عهود البداوة قبل ان يتمدحوا. وكيف كان لباسهم. ومامسا كنهم. وما هي تفاصيل أحوالهم الأخرى في العصر الحجري وفي عهود بداوتهم قبل ان يتحضروا.

### الحياة البربرية

لقد دخل البربر إلى المغرب قبل التاريخ. وكانت حياتهم على حسب تلك العهود الحجرية بسيطة في كل شيء. ثم تطورت وترقت بمرور الأزمان. واختلاطهم بالأمة المتحضرة سيما الفينيقيين. وقد جاءوا إلى المغرب بكثير ما أخذوه من الشام بمجاورتهم لإخوانهم بني فلسطين بن حام. وبني عمومتهم بني إسرائيل والعرب من بني كنعان. كم تأثروا بكثير ما ورد عليهم من مصر من أساليب العيش وطقوس الذين. ف عجب إذ رأينا البربر في عهودهم الأولى يشبهون أهل الشام في أشياء. ويحاكون المصريين في أمور. مع امتيازهم بأشياء هي ولية مزاجهم وبيئتهم الجديدة.

### مساكن البربر

كان البربر في القديم منهم المدنيون الذين يسكنون القرى. ومنهم الرحل الذين يسكنون الخيام. وكانت ديارهم في قراهم بسيطة. وكانوا يبنونها على حساب طبيعة المكان. فأهل الجبال حيث تتراكم الثلوج وتكثر الأمطار كانوا يبنون بيوتهم بالحجارة ويسقفونها بالطين في شكل بيضي يمنع تراكم الثلوج. وتجمع الأمطار. ثم اهدتوا بعد ذلك إلى القرميد فسقفوا به بيوتهم. وأما هل الجنوب حيث الجفاف في الجو. والقلة في المطر فيبنونها بالطوب. ويسقفونها بخشب الأشجار وغيرها من ضروب النباتات. ومنهم من يتخذ لسكانه خصا من فروع الأشجار. أو من القصب وغيره ما يصلح لاتخاذ الخص المتين.

أما في افريقية وهي القطر التونسي اليوم فنجد نفزاوة في وسطه لغربي وجنوبه. فمن جنوب مدينة الكاف إلى جنوب قسطيلية مواطن لنفزاوة. ومن نفزاوة قبيلة ورفجومة التي تسكن في غرب مدينة قابس وجاور جبال أوراس.

أما في القطر الجزائري. فمن مدينة سكيكدة شرقا إلى مدينة بجاية غرب إلى شمال أوراس جنوبا. وهي نوميديا الوسطى والغربية. فلكتامة. ومن غرب بجاية إلى شرق مدينة الجزائر على طول الساحل فلزواوة. ما جبال أوراس معدن البطولة والباس ففيها مجراوة من زناتة. ولواتة. وهوارة. ومن لواتة القبيلة البربرية الكبرى في جبال أوراس بنو باديس. وكنت لهم اليد العليا قديما في جبال أوراس.<sup>13</sup>

أما في وسط الجزائر وغربه فمن شرق مدينة الجزائر إلى غرب مدينة مليانة غربا إلى مكان المسيلة جنوبا فلصنهاجة. ومن مليانة شرقا إلى وادي ملوية غربا كان لزناتة. وجُد في هذه البقاع أيضا مطماطة في جبال الونشريس. ولماية في جنوب تيهرت ومها هوارة ولواتة في نواحي تيهرت أيضا.

أما المغرب الأقصى فكان شماله لغمارة من البرانس ومعها مضغرة قبيلة من بني فاتن احد أقسام البتر الكبرى. وجُد في شمال المغرب مكان فاس أوربة من البرانس أيضا. أما وسط المغرب وجنوبه بجبال درن فالمصامدة. ومن المصامدة برغواطة التي استقلت في القرن الثاني الهجري إلى القرن الخامس في ساحل المحيط الأطلسي من مكان مدينة لرباط إلى أسفي.

أما صحراء الغرب لأقصى والأوسط فنجد في صحراء المغرب الأقصى قبائل صنهاجة. وكذلك في غرب الصحراء للمغرب الأوسط. وفي صحراء المغرب الأوسط جُد هوارة. ومن مدنها (هفار) وارى ان تسميتها الأولى (هوارة) باسم ج هوارة هوار بن اوريغ. والبربر معتقدون بأصولهم. أوفياء لأجدادهم. وليس تسمية المن بأسماء من يراد الإشادة بهم. والاعتراف بجميلهم بالشيء الحديث. أرى ان تسميتها الأولى هوار. ثم وقع التحريف في الواو فقلبن (فافا) ويقع هذا القلب كثير في اللغة العامية. ووقوع الأخطاء ثم تشيع ما نعهده في اللغة الدارجة. ومع هوارة في الصحراء زناتة. ومن زناتة ورجلة. ومن منها ورجلان. وهي عاصمة الصحراء في الشرق الأوسط قبل الإسلام وبعده إلى القرن العاشر الهجري. وكانت أماكن وادي ميزاب مواطن لزناتة. وكذلك مدينة الاغواط فإنها للقبيلة البربرية الاغواط من زناتة. وعلى العموم فإننا جُد في الأغلب البرانس في البرانس في السواحل والبتر في الوسط المغرب الكبير وجنوبه.

13 - انظر أخبار بني باديس في جبال أوراس في تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 117 ط بولاق بالقاهرة.

وكان للبربر في البناء طريقة عجيبة تقاوم الحر والبرد. وجعل الدار على الاعتدال في الجو. وفيها الاقتصاد كذلك في تكاليف البناء. وذلك أنهم بينون جدارين متوازيين فيملؤون ما بينهما بالحصى فيصير جارا واحدا مرصوصا. كان هذا لما ترقى حياتهم فصاروا بينون الديار العالية. ويؤثرون الجدران العريضة للبيوت.

ومن البربر من ينقرون ديارهم في الجبال الصلدة. ويحفرون فيها أمتارا تكون دارا بسقفها العالي وبكل مرافقها ونوافذها التي تجدد الهواء. وترسل الأضواء. ان هذه الديار الجبلية في أعماق الصخور الصلدة اصح للأجسام لبعدها عن الاندء. وأسلمها عند الغارة. لأنها لا تهم ولا تخرب. وهي دافئة في الشتاء باردة في الصيف لا يرهق ساكنيها حر ولا قر. انها دليل على قوة البربر وعزائمهم الجبارة. فنقر دار في الجبل الصلد يشتمل على كل المرافق لا يستطيعه إلا الجبابرة في الأجسام. وفي جبل نفوسة إلى هذا العهد ديار من هذا النوع. وفي جنوب تونس. وفي جبال أوراس. وجبال القبائل بيوت من هذا النوع البربري. وكذلك في كثير من الجبال في نواحي المغرب الأخرى. وهي من الآثار التي يجب المحافظة عليها. ووقايتها من الانطماس.

أما الرجل من لبربر فكانت لهم خيام من الشعر والوبر. وكانوا ينتجعون بمواشيهم مواقع الكلا. وكانوا يصطافون في الأماكن الباردة في الشمال. ويقضون الشتاء في الأماكن المعتدلة في الجنوب.

### لباس البربر

وكان البربر يلبسون القشابة المعروفة عندنا في المغرب إلى هذا العهد. وهي أحسن لباس في الشتاء يقي من الزمهرير إذا تكالب. ومن المطر إذا اشتد. وهي جميلة المنظرى نعوق الحركة. ولا تمنع من النشاط. وتستر الجسم كله حتى الرأس. انها لباس من الصوف سابغ. مقفل من أمام. وبه كمان. ولباس للرأس موصول به من خلف.

وكانت القشابة لمزاياها الكثيرة هي لباس المجاهدين بالجبال في حروب التحرير الجزائرية. انها أجدى في المطر. وفي الوقاية من القر والحر من السترة العسكرية الأوربية. وهي أعون على النشاط. واستر لصاحبها من العدو. وهي فراش صاحبها في النوم وغطاؤه. انها من لباسنا المغربي الذي جب المحافظة عليه. والاعتداد به. وإيثاره على السترة الأوربية الناقصة.

ويلبس البربر البرنس أيضا وهو ثوب من الصوف يلبس فوق الثياب. ينسج قطعة واحدة. ويترك مفتوحا من أمام. لا يخاط منه إلا ما يقابل الصدر ليثبه إلى الجسم. ولبربر

يسلكونه في أعناقهم فيشتملون به. وللبرنس غطاء للرأس موصول به من خلف يقي الرأس من البرد والأمطار والعواصف.

لا يزال البرنس في المغرب. ان لباس جميل جليل. يكسب صاحبه مهابة. وهو لباس الرؤساء المعتدين بشخصيتهم لمغربية. يزدانون به في المحافل. ويؤثرونه في الأعياد والمواسم. انه جميل المنظر. جل الفوائد. ولكن القشابة أحسن منه للنشاط والعمل.

ان أهل الجبال يميلون إلى القشابة أكثر لأنها أدفا وأكثر وقاية من الأمطار والثلوج. أما أهل الصحاري حيث الاعتدال في الجو فيميلون إلى البرنس. والألوان الأثيرة عندهم في البرنس هو اللون الأسود والبني.

ويلبس البربر (الحائك) وهو رداء من الصوف يشتملون به. ولا يزال هذا اللباس البربري إلى الآن في ليبيا. وفي جنوب تونس. انه لباسهم الأثير في كل الفصول وقد انقطع هذا اللباس من الجزائر والمغرب الأقصى فلم يعد لباسا شعبيا كما هو في ليبيا. لا يزال (الحائك) موجودا في وادي ميزاب بجنوب الجزائر. ولكنه من النسج الرقيق. ويلبسه أعضاء المجلس الديني فحسب كشعار لا كدثار.

ويلبس البربر تحت القشابة القميص أو القميص والجبة. وحت الرداء كذلك. ومع البرنس القميص والجبة. لا يكتفون باللباس الصوفي الظاهري وحده.

ويلبس البربر السراويل القصيرة التي تنتهي أسفل الركبة. والطويلة التي تصل إلى الكعبين. والنوع الأول لا زال موجودا في تونس. والنوع لثاني لا يزال إلى اليوم في طرابلس. ويلبسونه بالتكة. وهي خيط يدخل في حواشيه من أعلاه فيشد به إلى الخطر.

ويلبس البربر على رؤسهم (الفتور) وهو قلنسوة من الصوف عالية ملبدة مدورة. توع على رأس ويلبس فوقها لحاف صغير من الصوف رفيف ينسج خصوصا للرأس. أو يلبس فوقها حائك رقيق. ويشد من فوق بعمامة سوداء تتخذ من خيوط الوبر. والفتور إذا لبس في نظام ورشاقة له جمال ومهابة. وليس كما قال بعض الكتاب انه سمح ثقيل.

ان تنكر بعض الناس لشخصيتهم لمغربية. سيما الإسلامية يجعلهم يرون العادات المغربية الراقية سمجة ثقيلة لأنهم لا يرونها في أوروبا فلولا ان ضوء الشمس قد رأوه في أوروبا وسمعوا ثناء الأوروبيين عنه لهجوه في المغرب. وأنكروه. وأنثروا الظلام عليه ! ذلك الفراش الغر الجاهل المتفرج الذي يعبد القشور. ويغرم بالبريق. ويتهافت على كل شيء لماع ولو كان النار التي تذريه رمادا!

تلك العرائس التي تسمت بأسماء الرجال. ولم يخلق الله فيها أخلاقهم واقتدارهم. وعلمهم. وسدهم للثغور الكبرى في الدولة!

كان أجدادنا البربر يلبسون القنور على رؤوسهم وهو لباسهم في الحافل. وفي الأعياد. وفي أيام الزينة. وهو لباسهم إذا ركبوا الخيل للسباق. واحتفلوا بالعاب الخيل في الأعراس. أما في وقت العمل فيخلعون.

انه لباس السراة منهم والفرسان. أما لباس الفقراء منهم للرأس. ولباس الخاصة أيضا في وقت العمل فقلنسوة خفيفة غير ملبدة تلبس وحدها في الصيف. وفي الشتاء يلبسون فوقها لحافا صغيرا خفيفا من الصوف يريه اللابس على رأسه. ويمره من تحت حنكه ليقي عنقه من البرد. ويشد للحاف على الرأس بخيط واحد أو خيطين من الوبر.

لا يزال القنور إلى اليوم في الجزائر. وارى ان قنور ليوم قد تطور فلم يبق على حاله البسيطة القديمة.

ان عدم وجو القنور في غير المغرب. وتمسك البربر بعاداتهم. يجعلنا نعتقد ان أصله بربري. من يري لعل العربية ق اقتبسها البربر من العرب بعد الفتح الإسلامي فتطورت. فصارت (قنورا) على الهيئة التي وصفنا.

ويلبس البربر الأحذية يتخذونها من الجلود. وأحذيتهم منها المدورة التي تستر القدم وحدها كالحذاء (البابوچ) الموجود إلى اليوم في بع أنحاء المغرب إلا انه ابسط. ومنه الحذاء لموصول بما يستر الساق إلى الركبة. ويلبسون الجوارب يتخذونها من جلود والصوف سيما أيام تحضرهم.

ان المؤرخين الذين ذكروا لباس البربر في القديم سيما في العصر الحجري إنما اعتمدوا على الاستنباط من العادات البربرية الموجودة في اللباس سيما في رؤوس الجبال حيث الاختلاط. ويتمسك الناس بالقديم. واستلوا أيضا على وجود ذلك النوع في القديم بتمسك البربر بعاداتهم. واعتدادهم. سيما في اللباس الذي يوحي به الجو الطبيعي الذي يكتنفهم. وهو ما لا يتغير كثيرا بتقديم الزمان. وقد ذكرنا ما أوردوه مستلين بما نراه شائعا في المناطق التي لا زالت تتكلم البربرية في المغرب - وان خالط اغلبها الدماء العربية - وتمسك أيضا مع اللغة البربرية بكثير من تقاليد أجدادنا البربر القدماء.

قد يكون الرداء الذي نجده إلى اليوم على حاله القديمة في الهيئة واللباس لأنه بسيط

لا يحاط. أما الألبسة الأخرى فقد تطورت وتغيرت كثيرا عن حالها الأولى أيام بداوة البربر قبل البونيقين وبعدهم.

### طعام البربر

وكان البربر قد نقلوا معهم من الشام ما انتشر فيه من المزروعات. وكانوا يغرسون من الأشجار الزيتون ويستخرجون زيته لطعامهم. وقد وجدوا الزيتون البري الذي نبت وحده في سفوح الجبال فاستصلحوه. أما الحبوب فكانوا يزرعون منها الشعير. ومنه أكثر غذائهم. يؤثرونه على القمح الوفير لديهم لان الشعير اصح للأجسام. وأسرع هما. وأسهل في الزراعة. وأحسن للادخار. لا يداخله السوس بسرعة. ولا يفسد بطول الزمان.

والبربر يزرعون القمح والبقول. والمعول في غذائهم على الشعير وزيت الزيتون. ومن دقيق الشعير يطبخون لحساء ويتخذون الكسكس والخبز ويفتلون منه طعاما كالكسكس إلا انه أغلظ. فبعد ان ينضجوه بالبخار يلقونه في القدر فينج مع المرق وهو صنف لذيق لا زال موجودا في أنحاء من المغرب سيما في وادي ميزاب بجنوب الجزائر.

وكان البربر يصنعون الكسكس أيا من لقمح يجعلون مرقه الحليب والسمن وربما كان مرقه من اللحم وبعض البقول التي يزرعونها.

وكان البربر قد جاءوا من لشام بمواشيهم وهي الإبل والبقر ولغنم والخيل. وكانوا يشربون لبن البقر والغنم والإبل. ويقتاتون بلحومها. يشوونها ويطبخونها وكانوا يصطادون ضروبا من الحيوانات التي كانت تعج بها غابات المغرب وأنحاهه لخصبة الجميلة. وكان الزيت. واللحم. والشعير. والقمح. ولبقول تمتلئ بها ي كل أسرة ويحصل عليها بأهون سعي كل نسن من البربر لأنها من نتاج أرضهم الخصبة الغنية. فلذلك كانوا مثلا في كمال الجسم. ومثانة التركيب. وتام الصحة واعتدال الأمزجة. ووفرة النشاط.

ويصنع البربر من دقيق الشعير والقمح السويق. يقلون الشعير أو القمح فيخلطون بدقيقه الزيت أو السمن فيكلونه. وهو زادهم في الأسفار. ومقدمة قرهم للضيوف. ان غذاء صحي مؤونة فيه. لا يفسد بطول الزمان. وهو لائق لكل الفصول. وقد تطور هذا السويق في المغرب فصار يحلى بالسكر أو بالتمر. ويخلط به دقيق الأقاط أحيانا. ويصنع منه نوع من الكعك اللذيذ في الأعياد. ولا يزال السويق المحلى موجوا في أنحاء من المغرب سيما في وادي ميزاب. انه من أطعمة أجدادنا البربر. وهو موجود عند لعرب أيضا.

وكان البربر ينسجون الصوف فيبرعوا فيه كل البراعة. يتخذون منه الثياب الضرورية كالبرانس والقشاييات، والجيب، والدثر، وفرشهم التي ينامون فيها والأغطية والسثائر، وغيرها. ولا زالت المرأة المغربية العاملة النشيطة التي وقاها الله من داء التفرنج والتنكر لقوميتها الإسلامية المقدسة، وحفظها من بطالة المدنية الجوفاء وخمولها؛ لا زالت تلك المرأة المغربية الغالية سيما في الجبال والجنوب مثلا في البراعة في صنع الصوف، لا تدانيها في هذه الصناعة المرأة في البلاد العربية الآن!

وكان البداية من البربر ينسجون مع ثيابهم لصوفية خيامهم من الشعر والوبر و الصوف، وكذلك مخاليتهم، وجوالقهم وغير ذلك.

### مزروعاتهم

أما مزروعاتهم أيام بداوتهم قبل ان يتحضروا فهي ما ذكرنا. الشعير، والقمح، والسلت والفلول. ان السللت قيم في المغرب، وان الطوارق المثلثين في الصحراء الكبرى - وهم من البربر- ليؤثرون الآن في أكلهم السللت على القمح لإلفهم له منذ الزمن القيم.

تلك جوانب من حياة البربر المادية، فما حياتهم المعنوية؟ كيف كانت لغتهم، وكتابتهم، ودينهم، ونظامهم الاجتماعي، وأشياءوهم المعنوية الأخرى؟

ومن طعام البربر وأكلهم الدائم (العصيدة) وهي دقيق يصب في الماء إذا على فيحرك كونه حتى ينضج، ثم يصبون عليه مرق الزيت واللحم والبقول فيأكلونه.

ان العصيدة طعام لذيذ إذا أتقن صنعه، صحي، يليق لذوي الأعمال المرهقة، والبنيان المتين، سهل الهضم، قوي الغذاء، انه لمتانه بنيان البربر وعظمة أجسامهم، ونفسهم لعملية، وكثرة نشاطهم كانت أنواع غذائهم الرئيسي الدائم قوية دسمه، كثيرة النشا والدهن، انه غذاء قوي لا يستمر عليه إلا ذوو المعدة القوية ويسميها البربر ارواي.

لا تزال (العصيدة) سائدة في أنحاء من جنوب تونس، وفي طرابلس سيما في جبل نفوسة، انها من أطعمتهم الرئيسية، وأحسن العصيدة عند البربر ما اتخذ من دقيق الشعير لأنه اخف وأسهل هضما<sup>14</sup> وقد تطور طعام البربر لما تحضروا، وتنوع، وكثرت ألوانه فصارت لا تحصى، وصار المغرب امهر في الطبخ، وأكثر أنواعا، وأذ طعاما من كل البلاد العربية، وان المرأة المغربية التي لا زالت متمسكة بتقاليدها الوطنية، وتقوم بواجباتها في البيت، لا تدانيها المرأة الشرقية في المهارة في الطبخ؛ والإتقان لأنواعه، ومعرفتها بفنونه التي لا تحصى.

ان كثيرا من أطعمتنا التي نظنها أندلسية ليست أصولها إلا من البربر، نشأت في أيام بساطتهم فتطورت معهم، ونقلوها إلى الأندلس فكملت فيها.

### ممتلكات البربر ومصنوعاتهم

والبربر في العصر الحجري كانوا يملكون الحيوانات الإنسية التي ذكرنا، والمنازل والخيام التي يسكنونها، والأراضي التي يزرعونها، والأشجار التي يجنون ثماره، كالزيتون الذي يتغذون بزيتته، والتين الذي يدخرونه. أما مصنوعاتهم في العصر الحجري فهي كل ما يحتاجون إليه من آلة وأداة. وقد اشتغلوا بصناعة الحجر فبلغوا فيها الذروة، وكانوا يصنعون منها فؤوسهم، ومناقرهم، وأدواتهم في الصيد والقتال، ويصنعون منها معصرة الزيتون، والهاون، والمطارق وغيرها، ولما اكتشف النحاس والحديد بلغوا في صناعتها الشأو لرفيع، وكانوا في العصر النحاسي والحديدي كما كانوا في العصر الحجري على البراعة في صنع كل ما يحتاجون إليه ويتاجرون فيه.

ان البربر ذوو نفوس عملية ممتازة، وذوق رفيع، لا يعرفون الكسل وعدم الإتقان، فكما كانت ذروة الجبال مقصدهم في السكن، فالذروة والتمام في كل شيء ي مقصدهم!

14 - وقد يتخذونها من الباب البر ويخلصونها بال غسل، وهي اخف من النوع الأول الدسم ان هذا النوع لا زال موجودا في جبل نفوسة بطرابلس

## لغة البربر وكتابتهم

ان للبربر لغة خاصة بهم. ممتازة كل الامتياز عن اللغات الشرقية غير الحامية بخصائصها وأساليبها. أنا اللغة البربرية التي لا زال يتكلم بها الثلث من سكان المغرب الكبير لا اليوم. وهي لغة حامية قريبة كل القرب من لغة قدماء المصريين التي لا تزال في بلاد النوبة. وفي بعض الكنائس القبطية في مصر.

واللغة البربرية سلسلة مرنة. تقبل كل الألفاظ الدخيلة فتبريرها فتصبح جزءا منها. ومن خصائصها التي لا تجدها في العربية الابتداء بالساكن كقولهم (تزاليت) للصلاة (تمارت) للحية. (تفويت) للشمس. (تفاوت) للنار. ومن خصائصها اجتماع ساكنين وأكثر وقد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا.<sup>15</sup>

وتمتاز البربرية عن العربية بان تاء التأنيث فيها تكون في أول الاسم لا في آخره كقولهم: (تيزوين. تيوحين) الفتيات الحسنان. ان هذه جملة ترى فيها الوصف مطابقا للموصوف في التذكير والتأنيث. وقد يكون المؤنث في اللغة البربرية مختوما بتاء. ولكن لا بد من تاء في أوله لأنها علامة التأنيث عندهم كقولهم (تامطوت) المرأة (تامروت) للبندقية (توارت) للبوّة أنثى الأسد.

## خصائص اللغة البربرية

واللغة البربرية فيها كل العناصر التي تتركب منها العربية. ففيها الاسم. والفعل. والحرف. وفيها أساليب العربية من نظم. ونثر. ومن حقيقة ومجاز. وتمتاز عن العربية بان كثيرا من أسمائها مبدوء بالهمزة كقولهم (أجنا) للسماء. وجمعة إيجنوان (إتري) للنجم وتثنيته سن إيتران ومعناه اثنان من النجوم: وعلامة التثنية في البربرية كلمة وليست حرفا كما هي في العربية وسن معناه اثنان. (شارد) بتفخيم الرء معناه ثلاثة. وهكذا تجد أسماء العدد في البربرية كما هي في العربية.

والفعل الماضي في البربرية يبتدئ بالياء أما المضارع فبالهمزة. والأمر يبتدئ بالهمزة وقد يكون بدون همزة كما يقع في العربية كقولهم (سو) اشرب. والماضي (يسوو) والمضارع (أيسوو) والمصدر (أسوا) والأمر المبدوء بالهمزة كقولهم: (أش) يعني كل. والمصدر منه (إيشا) وكقولهم (إيجور) امش. والمصدر (تلجوريت).

ان الكلمات البربرية التي أوردناها من اللهجة الميزانية. وهي بربرية محفوظة في

15 - مثال اجتماع ساكنين كقولهم تفويت تفاوت تمارت كما ترى في السطر الذي قبل هذا.

الصحراء بجنوب الجزائر. انها لهجة زناتة متأثرة بلهجة لواتة. وهوارة. التي انتقلت من جبال أوراس. فحلت في وادي ميزاب. واستقرت فيه وامتزجت بأهله. وبلهجة لمائة التي انتقلت طوائف منها من جربة إلى وادي ميزاب فاستوطنته وذابت في أهله. وبلهجة نفوسة إلى جاءت منها زرافات إلى ميزاب فاستقرت فيه. وقد أثرت هذه الجماعات كلها في البربرية الميزانية. وأخذت الزناتية التي هي الأصل أحسن ما في كل لهجة من تلك اللهجات. لذلك تجدها لغة مصقولة. واسعة. جميلة الجرس. عذبة النطق. ولهجتها رصينة. ينطق بها كما ينطق بالعربية في فصحة ووضوح. يأخذ كل حرف فيها قسطه من الأداء.

ان البربرية الميزابية هي اللغة القريبة من اللهجات البربرية في المغرب الأوسط والأدنى للاختلاط الذي ذكرنا. والاختباس الذي أسلفنا. ان الشاوية في أوراس. والقبائل في جبال جرجرة. وأهل جربة في جزيرتهم. وأهل نفوسة في طرابلس. وسكان الريف في المغرب الأقصى يفهمون كلهم الميزابية. ويقههم عنهم الميزابيون لقرب اللهجة الميزابية من تلك اللهجات كلها. ان اللهجة البربرية في الريف بشمال المغرب الأقصى قريبة من الميزابية. وقد زرت الأمير عب لكريم الخطابى رحمه الله أيام نزوله بالقاهرة لاجئ في سنة 1947 ميلادية. وصار يتكلم مع أخيه محمد بلغتهم البربرية. فكنت افهم كل ما يقولان. سارعت فأخبرت الأمير بان لهجتهم كاللهجة الميزابية التي أتقنها. خوفا من ان يتباحثا في سر من أسرارهم الخاصة.

ان الامازيغية كالامازيغ أصلها واحد. والاختلاف فيها غالبا يكون في اللهجة لا في نوع الكلمات.

وقد آثرنا في التمثيل ان نورد الكلمات التي تدل على الأشياء الضرورية كالأكل. والشرب. والمشى. لتيقننا انها من وضع الأولين. لا من الكلمات المقتبسة الحديثة.

والترادف قليلة في اللغة البربرية بالنسبة للعربية. وكذلك المشترك. وذلك لشدة الاتصال بين القبائل وامتزاجها وتقارب لهجاتها. فقل المشترك والترادف فيها ولم يكثر كالعربية. ومن أسباب كثرة الترادف في العربية اعتناء العرب بلغتهم. ومباهاتهم بالفصاحة أكثر من البربر. ومع قلة الترادف في اللهجة البربرية الواحدة فان البربرية لغة واسعة يستطيع الخطيب المصقع ان يعتمد عليها فتمده بأدق الألفاظ وأوفاهها لكل المعاني التي تجيش في صدره. لا يصاب فيها بالعي. ولا تنحبس المعاني في نفسه.

وقد وع البربر لكل شيء ما وقع عليه نظرهم اسما فقالوا: (وار) للأسد. (موش)

بتشديد الشين للقط. (إيس) للفرس. (أغالت) لأنثى الفرس. (تاحجات) للحمامة. (نيازيت) للدجاجة. (يايض) للديك. وقالوا: (أرجاز) للرجل. (تامطوت) للمرأة. وقالوا في الوصف: (ازعلوك) للكبير وكذلك (أمقران) للكبير أيضا. (أميزان) للصغير. (تاسلت) للعرس الأنثى. (أسلي) للعرس الرجل. (أزفاغ) للأحمر. (أوراغ) للأصفر. (أجليد) للملك وفي البربرية أسماء جموع كقولهم: (تيسدانان) للنساء. وهذا اللفظ لا مفرد له من لفظه ومفرده (تامطوت).

أما النباتات فمن الأسماء فيها (إمندي) للقمح والشعير. وهو اسم جنس. أما النوع فيسمون القمح (إيردن) والشعير (تيمزين).

### الأمثلة في اللغة البربرية

وفي اللغة البربرية أمثلة حكيمة بها في المقامات. وهي كقواعد في الأخلاق. ومواعظ للناس. يعني المثل الواحد عن الكلام الطويل. ان البربر دهاة حكماء. الوقار عليهم اغلب. انك لا جدهم يميلون إلى الثثرة. ويملؤون الساحة بالعجيج. إذا تكلم احدهم في المجلس يتكلم في وقار وعمق. وفي إيجاز بليغ. لذلك كثرت الأمثلة في لغتهم. وانك لا تجد موضوعا من مواضع الكلام ليس فيه أمثلة عديدة بالبربرية. وكذلك الكنايات.

ومن الأمثلة في اللغة البربرية وفيه جناس أيضا: (ويوفين ولطيف. أديكلب وليتيف) من وجد فلم يقبض يبحث فلا يجد. يضرب مثلا لمن يضيع الفرصة. ومنها: (تالويت سوزاف إلا بلا سيقنطارن) معناه: ان الشفاء يأتي بالشعرة. أما المرض فيأتي بالقناطير. يضرب مثلا في النجاح والخير. ويأتي قليلا حين يكتمل. أما العاهات فتتزل مرة واحدة. ومنها: (الضل ولا ضالى) ومعناه: ان يغشى الظل دارك لجرانك الطويلة خيرة من ان يطلع عليك الجيران. يضرب مثلا للسفرة. والبربر أكثر الأمم كتماننا لأسرارهم. وغيره على حرمتهم. سيما في وادي ميزاب حيث يشيع هذا المثل الحكيم. ومن الأمثلة قولهم: (أغرم وليتوآبني ديواس) يعني ان المدينة لم تب في يوم. يضرب مثلا لمن بمن يتعجل النتيجة في الأمور. ومنها قولهم: (ويدهكلن يطاود) من يتأن يصل. يضرب مثلا للمتعجل النزف في الأمور. ومن الأمثلة قولهم: (ادسدنت غفش توليوين نصيف) هذا كالمثال العربي: الصيف ضيعت اللبن. يقال لمن يفلت الفرصة ثم يقع في حاجة. سيما فرصة العمل والجد في إبانها. واصل هذا: ان النملة وهي دافئة شبعة في كنها في الشتاء. رأيت صرصورا يرتعد من البرد. ويتداعى من الجوع. فقالت له: تنفعلك اليوم زغاريدك في الصيف. ومن الأمثلة قولهم: (ويحسن سوف اسخدم الفايلت حما) يضرب مثلا لمن يضيع الفرصة ووقت

الاستعداد. ومعناه: من أراد ماء السيل لبستانه فيعمل له بنزع الأتربة من سواقيه. والشمس ضاحية. قبل ورود السيل الذي لا يبقى طويلا.

وفي البربرية كنايات كثيرة رائعة في كل موضوع. ومنها ما هو كناية عن صفة. وما هو كناية عن موصوف. وما هو كناية عن نسبة كما هي في العربية.

ومن كنايات البربرية قولهم: (اشر ومس دازيوار) غليظ الرقبة. كناية عن التجبر. (تيفمستس اتازعلوكت) معناها: ضرسه كبيرة. كناية عن الرغبة والنهم. (طيطس اتاوساعت) أي عينه واسعة. كناية عن الطموح وعدم الرضى بالقليل.

ومن الكنايات البربرية قولهم: (اولسملا تيفماس) أي لا تضحك لهم فيجتروا عليك. (إربي أمان إيوعي) يخلط اللبن بالماء. كناية عن المبالغة والكذب في الكلام. (تقن سوولمان) كناية عن عدم أحكام الأمور. ومعنى الجملة: مربوط بالطعمة. وهو خيط واحد.

ومن الكنايات قولهم: (اضفاغ تاوارت) معناه في الشكوة حجر. كناية عن وجود غريب في الجماعة. (ايغس تشورداست) كناية عن المكدر في الأمر الحسن. والمعنى العظم في (المحشي) واتشورداست من ألد اللحم وأطيبه عند البربر. وهو نوع من (المحشي) باللحم. ولا أراه يوجد في غير المغرب.

### الشعر في اللغة البربرية

وفي البربرية شعر رائع في كل المواضيع. سيما في الحماسة. والغزل. والتاريخ. والفخر. وفي جبال القبائل بالجزائر إلى يومنا هذا ما يملأ دواوين كبير من الشعر الرائع بالبربرية القبائلية في كل المواضيع. ولهم أناشيد غنائية لا زالت إذاعة الجزائر وإذاعة باريس تخصص لها اكبر جانب من الركن الفني. وترى كل من يفهم البربرية سيما اللهجة القبائلية تهزه تلك الأغاني. لحسن معانيها. وعمق وجانها. وجمال أغانها. وفي كل أنحاء المغرب التي تتكلم لبربرية قصائد من الشعر البربري. يتغنون بها في المناسبات. سيما المناسبات لعملية كوقت الحصاد للفلاحين. وأوقات النسيج للنسوة: وفي أيام لعرس للفتيات والصبايا. وفي الأعياد الدينية. سيما عيد المولد النبوي الشريف. وترى ميزاب وأنداء المغرب تحتفل به احتفالا رائعا يدوم شهرا كاملا في بعض لنواحي. وترى الفتيات في ميزاب سيما في القرارة من أول ربيع الأول ينشدن نشيد المولد البربرية. في أصوات رخيمة ترقص حتى لجماعات. وكن يدرن في شوارع المدينة التي يسيطر عليها وقار الدين وظهره في أول الليل بين العشاءين إذا خف لزحام في الطرق. فيملأن المدينة بأفراح لمولد وأغاريد. وتراني أوقف عملي إذا مر السرب الهازج من شارعنا أو من الشوارع

نشيد مولد المصطفى عليه لسلام

أنشأه بالبربرية الميزابية الشاعر الأستاذ باجو صالح

الأصل والترجمة

يلولد سيدنا محمد \*\*\* تضوا لدونيت اس الأنوار

ولد سيدنا محمد \*\*\* واشرقت الدنيا بالانوار

آراني زال اتسلمد \*\*\* فواسي سجدنتاس الأشجار

اللهم صل وسلم \*\*\* على من سجدت له الأشجار

توليد تيزري نرسول \*\*\* تشعشع آماس نيجنوان

طلع بدر الرسول<sup>16</sup> \*\*\* واشرق في كبد السماء

تفكر نع آس إيديلول \*\*\* يا الله أناوي إيزلوان

فذكرنا بيوم ميلاده \*\*\* هيا ننشد أناشيد الأفراح

\*\*\*

سعدك ماماس يا مينة \*\*\* اتني اتصوددن حليلة

ماسعدك يا أمنة أم الرسول \*\*\* وما أسعدك يا حليلة مرضعه

دلعيالس اترواس اديسيس \*\*\* سيتز علوكت أفاطمة

وما اسعد زوجاته وبناته \*\*\* من كبراهن إلى فاطمة

يموت باباس يجديد \*\*\* أنت انصر ايارن

لقد توفي أبوه وتركه \*\*\* وهو ابن ستة شهور

تلحق ماماس يقيمد \*\*\* ادليتيتم انصر ييلان

ولحقت أمه بربرها وبقي \*\*\* وهو ابن ست سنين

\*\*\*

باتا برفد تلقيس \*\*\* أس مكة اسوفغنت إيمشركن

المجاورة. فأتنصت لنشيد المولد في أصوات رخيمة. وتصفيق بيع. ثم أفضى وقتا طويلا وأنا منتش بنشيد المولد لجميل! يا تلك عودي! انها أغاريد تنبع من القلوب المؤمنة قبل الحناجر. لذلك كان لها ذلك التأثير البليغ!

ومن الشعر البربري لموجود إلى اليوم ما هو قديم، وما هو حديث. والمحفوظ عندنا في المغرب من القيم، سيما في المدن. جله شعر إسلامي. ولا أرى ان هناك شعرا في الألسن مما قيل قبل الإسلام أو في صدره.

لا زال الثلث أو أكثر من أهل المغرب يتكلمون البربرية. وترى اللغة البربرية تتسع لدروسهم الدينية. والاجتماعية. والعلمية. ولا تضيق عنها. وترى أسماهم بها. وأفاصيصهم للكبار والصغار بالبربرية. وترى شعرهم ينشئون في المناسبات أيضا. وأنا أورد ثلاثة أبيات من قصيدة غزلية قديمة أنشأتها امرأة في زوجها تعاتبه وتشكو عذبتها بحبه. واختتم لفصل بنشيد المولد بالبربرية الميزابية. وهو من الأناشيد التي تهزج به المدن الميزابية في عيد المولد. وقد انشأ هذا النشيد الأستاذ الأديب صالح باجو. انه حديث وليس قديما. وترى فيه القافية. والتشبيه. وكل ما يزخر به الشعر العربي من فنون جمال. وقد ترجمته بالعربية ترجمة بسيطة مراعى إبراز المعنى أكثر من التهاويل الشعرية في الأصل.

قالت امرأة بربرية تعاتب زوجها على الهجر وتصف نار حبها:

أغا أيا ارناو \*\*\* اتخاج عاش دا النيتيك!

أولا اشسودسغ \*\*\* جاج نوحولي انوول!

أتمسي تاحلالت \*\*\* إيمان نوضيل!

المعنى:

أيها الحبيب الذي هجرني \*\*\* سينتقم لله منك لوفائي وحبتي!

كأنني لم أسكنك في أعماق فؤادي \*\*\* ولم اخلص لك الواد والمحبة!

يا حبيبي الذي يكويني بنار الحب المقدسة!

أيها الحبيب الذي رآه صهباء روعي!

ما اشد الصعوبات التي لقيها المسكين! \*\*\* من مكة وطنه أخرجته المشركون!

عجال الذين انرييس \*\*\* ييوض آدياغ سيضاغن

من اجل دين ربه \*\*\* ضرب وادمي بالأحجار

غارن سنسن نير \*\*\* ننينغ سيماونسن

سعى المشركون ان يطفئوا \*\*\* نور نبينا بأفواههم

أوين استسمين انلجير \*\*\* يرين ربي فوافرنسن

نجوا بالحسد كالجير \*\*\* فكادوه فكبههم الله على مناخرهم

\*\*\*

يوساسند سالعجزات \*\*\* انان ووني ا سحار

قد جاءهم بالعجزات \*\*\* فقالوا هذا ساحر كذاب

لكن سصبر دالتبات \*\*\* ادليقين يرنا الكفار

لكن بالصبر والثبات \*\*\* وباليقين هزم الكفار

سلمعجزاتس أمان \*\*\* زرفند اسجار ايضوضان

من معجزاته عليه السلام \*\*\* تفجر الماء من بين أصابعه

تازيري تشق ايجدنن \*\*\* اتوزون افسن ايورين

ومن معجزاته انشقاق القمر \*\*\* فأرأه نصفين على كل من الجبلين شق منه

يوزناجد غرنغ أجليد \*\*\* أمقران نيجلدان

لقد أرسلك إلينا إلهنا \*\*\* ملك الملوك الأكبر

توسيدانغد ستوحيد \*\*\* تيويدانغد القرآن

جئت لنا بالتوحيد \*\*\* واتيت لنا بالقرآن

يوسد سدين ان الإسلام \*\*\* انتجنويت ايجدلاون

جاءنا بالدين الإسلامي \*\*\* كالطير لاحوا النخل العطشي

شق أوليك تاتفد ما دام \*\*\* شتشي تناست اوولاون

افتح قلبي واستقر فيه يا رسول الله \*\*\* فأنت مفتاح القلوب المؤمنة

\*\*\*

اميدن باتا دامو \*\*\* نلا جُمض افوبريد

اميدن باتا الهمو \*\*\* تيشليو ولتصويود

أيها الناس ما هذه السيرة السيئة \*\*\* لقد ضللنا أيها الناس عن الطريق

أيها الناس ما هذه الأعمال التي تملأ القلب هما! \*\*\* ان سيرتنا لا تخمد عقبها!

غفلت بسى فدونيت \*\*\* تبدلتم ايضت النيت

باتا تخسسم الجنة \*\*\* إيجورتاس امع اتنيت

ازهدوا قليلا في الدنيا \*\*\* وخذوا في الطريق المستقيم

إذا أردتم الجنة \*\*\* فابتغوها من سبلها المعروفة

\*\*\*

الحج يتواتا الفرس \*\*\* اتزاليت غيني انسيباس

أزومي اتواشاس الجدس \*\*\* نلحفاس ما ماس اباباس

الحج قد نسي فرضه \*\*\* والصلاة كدنا نتركها

ورمان قد أكلناه \*\*\* وتعددين على حرماته!

نقرب انعاد انوبازيض \*\*\* اعوعش بلا تزاليت

لفايد انتزدايت أوتشبيض \*\*\* أدو ينيو أولوجي نيزيت

كدنا نكون كالديك \*\*\* يصيح في أوقات الصلاة ولا يصلي

ان حقيقة الدين هو العمل به \*\*\* كما ان فائدة النخلة في ثمره لا في سعفها<sup>17</sup>

\*\*\*

أرسول أنربي اقل \*\*\* تفورجد غلحالتنغ

17 - يريد ن لدين قول وعمل. وأما القول وحده فلا يجدى.

الوقت بعداش أيبدل \*\*\* سينسيب يدينغ

يا رسول الله التفت \*\*\* وانظر إلى حالتنا السيئة

الزمان قد تبدل بعدك وشقيننا \*\*\* وصرنا في التعاسة لأننا لم نتمسك بديننا

أرسول أنربي اولنغ \*\*\* فديننتش يلا يدبر

داوا اتشفعد دجنغ \*\*\* آس غاشمنلافا المحشر

يا رسول الله ان قلوبنا \*\*\* ق مرضت وأدبرت عن دينك

داو قلوبنا وأملأها بنورك \*\*\* واشفع فينا يوم نلقاك في المحشر يا رسول الله

ان اللغة البربرية لغة واسعة خصبة. يوج فيها كل ما في العربية من أساليب التعبير كالتشبيه والاستعارة: الكناية، والمجاز المرسل، وغيرها؛ وهي لغة سلسلة جميلة تتسع للخطابة والوعظ والإرشاد. ولكنها لا تتسع للتأليف كالعربية. ولا تارع العربية في غزارة المادة، وفي البلاغة ورونق التعبير. أننا إذا بينا خصائص اللغة البربرية فلا يجوز ان يفهم القارئ أننا ندعوا إلى الكتابة به كما دعى الشعوبيون الذين يريدون القضاء على الإسلام بإلقاء على اللغة العربية المقدسة. انها لعمرك أساس ديننا. وتاجنا الذي نباهى به. وسيفنا البتار الذي سنبعج به كل القلوب التي تكيد للدين والعربية في بلادنا. وتعو إلى القوميات الضيقة الهزيلة. وتناوئ الجامعة الإسلامية وتعمل للقضاء عليها.

العربية هي لغة العلم والأدب والخطابة. وهي لغتنا الشريفة التي يجب ان ننشرها بكل الوسائل ونبناها في أنحاء مغربنا كله بكل الأسباب. ليتكلم بها ويكتب بها في طلاقة كل فر في المغرب. ومع هذا لا يجوز القضاء عللا اللغة البربرية فإنها لا تراحم العربية ولا تناوئها. انها لغة أجدادنا. ومن آثار أبائنا التي يجب المحافظة عليها. يجب دراستها في كتب التاريخ. وبيان خصائصها. فان لغة الأمة هي مظهرها الصدق. وعنوانها الذي ينبئك بحقيقتها. فإذا أدت ان تعرف شخصية امة فانظر إلى لغتها. فعلى حسبها في الرقي يكون رقي الأمة. لهذا وقفنا في اللغة البربرية وقفة لأنها مظهر لشخصية أجدادنا الأمازيغ. وعنوان ينئ بعظمتهم. وبالذرا المنيعه التي احتلوها في مختلف العصور.

وفي اللغة البربرية ما في العربية من اشتقاق ومجاز. وغيرها من المزايا التي تتسم بها اللغة وتغزر مادتها. وإذا كان ما يوجد في العربية اليوم من لأساليب الكثيرة الرائعة.

وفنون الجمال. نجد صولها كلها في لغة العرب الأولين قبل ان يتحضروا. كذلك اللغة البربرية. فما وصلت إليه من الازدهار والرقي في أحسن عهودها في الدولة الرستمية. وفي الدولة الصنهاجية. والدولة الحمادية. وفي دولة المرابطين. ودولة الموحدين. ودولة الحفصيين. ودولة بني مرين. ودولة بني زيان: ما وصلت إليه اللغة البربرية في عهود هذه الدول المغربية من رقى وازدهار وأساليب راقية. فأصول ذلك الازدهار وتلك الأساليب مدجودة في لغة البربر الأولين. واللغة كالإنسان. وكالنبته. وكل شيء ناشئ. لا يبلغ الكمال إلا إذا كان في أوله على القوة.

لقد اتسعت اللغة البربرية لما خرج البربر من حياتهم البسيطة. وتحضروا أيام الدولة البونيقية. وفي عهود دولهم الزاهرة في القرون الثلاثة قبل ميلاد المسيح عليه السلام. لقد اتسعت بالوضع والاقتباس من الأمم التي عاشرتهم كالفينيقيين. والإغريق. والرومان. والوندال. واقتبسوا ألفاظا من الجماعات الفارسية التي اندمجت فيهم. ومن المصريين الذين جاءوا إليهم. ومن الاسرائيليين. وغيرهم. ولكن هذه الألفاظ المقتبسة لم تبق على هيأتها الأولى. بل صاغه البربر على قواعد لغتهم وهضموا. وركبوا تركيبا جيدا ينسجم بلغتهم فتبريرت فصارت جزءا من البربرية لا ينتبه إليها إلا من عرف الأصل. ولاحظ ملاحظة دقيقة الكلمة التي وقعت ببربرتها.

ان عملية بربرة الكلمات عند البربر سهلة. أنهم إذا أرادوا ان يبربروا كلمة مقتبسة زادوا لها ناء مفتوحة في أولها وتاء ساكنة في آخرها. إذا بربروا الدرقالوا (تدارت) والحانوت (حَنوت) وقد يكتفون بزيادة التاء في آخر الكلمة الغابة فانا في البربرية (الغابت) والجنة (الجننت). وقد يكتفون بزيادة أل في أول الكلمة.

وفي بربرة الكلمات قد يقلبون المؤنث مذكرا والمذكر مؤنثا. والأول كالخنة في العربية فإنها في البربرية مذكر يقولون (الحنى) وكالدار فانه مذكر في العربية مؤنث في البربرية : والبربر لهم مقاييس دقيقة في لغتهم. لذلك جهم يوقعون هذا القلب في المذكر غير الحقيقي. وفي المؤنث الحقيقي. وقد يبقى اللفظ الدخيل في البربرية على صيغته فيكتفون في بربرته باللهاجة البربرية التي يصبغونه بها عن النطق. فيقولون (توموبيل) للسيارة (البابور) للباخرة.

### تعدد اللهجات البربرية

وقد وقع في اللغة البربرية ما وقع في لعربية من كثرة اللهجات. فلكل شعب من شعوب البربر لهجة. فلصنهاجة لهجة. ولزناتة لهجة. ولكتامة لهجة. ولنفسوة

لهجة. وكذلك بقية الشعوب الأخرى. وجد التقارب بين لهجاتهم على حسب قرب المنازل وكثرة الاختلاط. والفرق بين اللهجات البربرية كان اقل من الفرق بين لهجة قحطان ولهجة عدنان في الجزيرة العربية لان تاريخ البربر واحد. والعوامل التي تؤثر في اللغة كانت واحدة عند البربر.

وكان اغلب الاختلاف بين البربر في اللغة يقع في النطق وفي زيادة بع الحروف أم أصل الكلمات قفي الأغلب فواحدة. وكان البربر يفهم بعضهم بعضا وان التزم كل منهم لهجته كما نرى اليوم في الجزائر. الميزابي يفهم القبائلي والشاوي. وكذلك القبائلي والشاوي يفهم كل منهما لهجة الآخر ويفهمان الميزابي .

تلك هي لغة البربر وهي أساس شخصيتهم الأكبر. وقد أحبوها. واعتدوا بها. وتمسكوا بها تمسكهم بدينهم. وبكل ما هو مقدس لديهم. فترقت وصارت مثلهم على الرقى تنبأ الذري في عهد دولهم العظيمة قبل الإسلام. وفي دولهم الإسلامية التي توالى واستمرت قرونا عديدة متوالية. وقد أثرتنا ان نتحدث عن البربرية في مختلف العصور ولم نقتصر على حالها أيام بداوة البربر كما فعلنا في الأمور الأخرى التي تبين شخصية البربر وحقيقتهم.

وكان للبربر خط خاص بهم. يكتبون به لغتهم. فكيف هو؟ وما أصله؟ وكم عدد حروفه؟ وما درجته في الاتساع والرقى. وفي الحسن والجمال؟

حروف مفردة	نقطتها	حروف مركبة
ⵍ	ⵍ	ⵍⵎ
ⵎ	ⵎ	ⵎⵏ
ⵏ	ⵏ	ⵏⵓ
ⵐ	ⵐ	ⵐⵓ
ⵑ	ⵑ	ⵑⵓ
ⵒ	ⵒ	ⵒⵓ
ⵓ	ⵓ	ⵓⵏ
ⵔ	ⵔ	ⵔⵓ
ⵕ	ⵕ	ⵕⵓ
ⵖ	ⵖ	ⵖⵓ
ⵗ	ⵗ	ⵗⵓ
ⵘ	ⵘ	ⵘⵓ
ⵙ	ⵙ	ⵙⵓ
ⵚ	ⵚ	ⵚⵓ
ⵛ	ⵛ	ⵛⵓ
ⵜ	ⵜ	ⵜⵓ
ⵝ	ⵝ	ⵝⵓ
ⵞ	ⵞ	ⵞⵓ
ⵟ	ⵟ	ⵟⵓ
ⵠ	ⵠ	ⵠⵓ
ⵡ	ⵡ	ⵡⵓ
ⵢ	ⵢ	ⵢⵓ
ⵣ	ⵣ	ⵣⵓ
ⵤ	ⵤ	ⵤⵓ
ⵥ	ⵥ	ⵥⵓ
ⵦ	ⵦ	ⵦⵓ
ⵧ	ⵧ	ⵧⵓ
⵨	⵨	⵨ⵓ
⵩	⵩	⵩ⵓ
⵪	⵪	⵪ⵓ
⵫	⵫	⵫ⵓ
⵬	⵬	⵬ⵓ
⵭	⵭	⵭ⵓ
⵮	⵮	⵮ⵓ
ⵯ	ⵯ	ⵯⵓ
⵰	⵰	⵰ⵓ
⵱	⵱	⵱ⵓ
⵲	⵲	⵲ⵓ
⵳	⵳	⵳ⵓ
⵴	⵴	⵴ⵓ
⵵	⵵	⵵ⵓ
⵶	⵶	⵶ⵓ
⵷	⵷	⵷ⵓ
⵸	⵸	⵸ⵓ
⵹	⵹	⵹ⵓ
⵺	⵺	⵺ⵓ
⵻	⵻	⵻ⵓ
⵼	⵼	⵼ⵓ
⵽	⵽	⵽ⵓ
⵾	⵾	⵾ⵓ
⵿	⵿	⵿ⵓ

الحروف البربرية ونطقها بالعربية

لقد استغينا بالنطق عن رسم الحرف العربي أمام كل حرف بربري. فيب كما  
 ينطق به البربر اليوم هو حرف الباء ... الخ.

### خط البربر

كان للبربر خط خاص بهم يكتبون به لغتهم وأرى انه من وضعهم. ويمكن ان يكونوا قد اقتبسوا بعض حروفه من المصريين الذين كانوا يختلطون بهم. ويحلون في بلادهم المصرية للتجارة أو للاحتلال. فكل الأمتين المصريين القدماء والبربر من أصل واحد. فبينهما علاقة القرابة بالدماء. وبين لغتيهما تشابه. فكلاهم لغة حامية. فلا عجب إذا حكمنا بان البربر قد اقتبسوا بعض الحروف من المصريين. ان مجاورة مصر للمغرب تسوغ لنا هذا الحكم. وعلاقة الأمتين الوثيقة المستمرة لتوحى به إلينا.

وكانت الحروف البربرية في أول الأمر أيام بداوتهم وبساطتهم قبل ان يتحضروا قليلة لا تتجاوز عشرة حروف. ثم زادوا فيها. فوضعوا لكل حرف ما ينطقون به. ويستعملونه في الكلام علامة تدل عليه. فبلغ عد حروفهم ثلاثة وعشرين حرفا. ولكل حرف من الحروف العربية حرف يماثله من حروف البربر. ما عدا العين والحروف المعجمة: الثاء. والذال. والظاد. ان البربر لا يعجمون حروفهم في النطق كالعرب. أما العين فإنها تكتب غنيا في البربرية. ان العين حرف مشترك. فتارة يريدون به حقيقته. وتارة يريدون به العين. والمقام هو الذي يدل على المراد. أنهم يكتبون عين عائشة غينا ويقرؤونه عينا. ولقلة ورود العين في الكلمات البربرية لم يضعوا له حرفا. ولما جاؤوا الفينيقيين والعرب. وبربروا كثيرا من الكلمات الفينيقية والعربية التي فيها عين. فكثرت العين في لغتهم فاحتاجوا إلى كتابته. كتبوه غينا.

ان استعمال البربر في دولهم القديمة قبل الميلاد للغة البونيقية والخط البونيقى في دواوينهم. وهي لغة مزيج من اللغة البربرية والفينيقية. تشتمل على خصائصهما جميعا. واستعمالهم في دولهم الإسلامية للغة العربية العربي في الدواوين وفي التأليف والمراسلة. جعلهم يزهدون في وضع علامة للعين التي كثرت في كلامهم. من يرى لعلهم قد اقتبسوا من الفينيقيين حرف العين فزادوه في كتابتهم. ان كتابة الطوارق الآن في الصحراء الكبرى وهم حفظوا لنا الخط البربري باستعمالهم له إلى الآن لا نجد فيها حرف العين. فلو اقتبس البربر القدماء حرف العين من الفينيقية لوجدناه في كتابتهم. سيما وقد اختلط هؤلاء الطوارق بالعرب منذ الفتح الإسلامي. وانتشرت في لغتهم الكلمات العربية والأسماء العربية التي فيها عين. انه لا يمكن ان يهملوا حرفه وهو موجود في نطقهم وفي لغتهم التي يكتبون بها رسائلهم وعقودهم.

ان الحروف البربرية تنقص عن الحروف العربية بأربعة حروف فقط. ثلاثة منها حروف

مر	٣	١٤	٤
ن	٦	ب	٩
س	≠	ج	٧
ع	٥	د	٥
فا	٦	هـ	٣
ص	٣	و	٢
ق	٩	ز	١
ر	٩	ح	⊕
نش	٣	ط	⊕
ت	+	ي	٢
ف	٦	ك	٤
		ل	٥

الحروف الفينيقية ومثلها بالعربية

معجمة وهي حروف فرعية وليست أصلية. وهذا دليل على انها لغة غنية واسعة. على ان البربر قد تحضروا فاعتنوا بلغتهم وبخطها فاتسعت وترقت فصارت تكفي مجتمعاتهم الراقية في التعبير والإفصاح. واتسعت لمعانيهم التي تمور بها عقولهم الراقية المثقفة بالمدينة البونيقية والعلوم البونيقية التي ورثوها. ويعلم الإغريق الذين جاؤوا البربر قرونا كثيرة في المغرب. وقد اعتنى الملك مصينيسا بالخط البربري في القرن الثاني ق.م. فرقاه وزاد في حروفه فصار على النحو الذي جُده اليوم.

### اعتداد البربر بحروفهم وتقديسهم لها

وكان البربر معتدين بخطهم كل الاعتداد. وكانوا في أول أمرهم. وأيام بساطتهم قبل ان يتحضروا وتشبع الثقافة فيهم يعتقدون ان هذه الحروف التي يكتبون بها منزلة من عند الله. زانها من خلق الله لا من وضع البشر. وكانوا يسمون حروفهم (تيفيناغ) ومعناه الحروف المنزلة من عند الله. وذلك لتقديسهم لها واعتدادهم بها. وكان من يحسن الكتابة فيهم يجلونه ويحترمونه ويعجبون به. وكانوا في تلك العهود البسيطة لا يحسن الكتابة فيهم إلا صفوة الخاصة. ثم شاعت الثقافة فيهم. وكثر عدد من يكتب خطهم ويقرؤه في طبقاتهم.

### تأثير الخطين البربري والفينيقي بعضهما ببعض

وكان تأثير البربر بالفينيقيين الذين حلوا في قرطاجنة وأنشأوا فيها دولتهم العظمية كبيرا. وقد اقتبسوا منهم كثيرا من العادات. وتأثروا بهم في كل نواحيهم. كما تأثر الفينيقيون بالبربر. وإذا كان اعتداد البربر بخطهم كما ذكرنا فلا بد ان يرقوه ويتمموه ويحسنوا حروفه. ويزيدوا في عددها باقتباس بعض الحروف لفينيقية ان لم يكن لدلوله في لفينيقية كحرف التاء في الفينيقية إذا جعل رسما للتاء في البربرية. فلغيره من الحروف الأخرى. ان تأثر الخطين البربري والفينيقي والعكس. ما نشاهده في تشابه بعض الحروف في الخطين. وان اختلف مدلولها. وقد لا يكون لبعض حروف البربر رسم يدل عليها. أولها رسم مشترك بينها وبين غيرها فيقبسون من الحروف لفينيقية حرفا يكون رسما له. ويصبح بالاصطلاح دالا على ذلك الحرف عندهم. ينطقونه كلما رسم في الكتابة. ويمكن ان يكون الفينيقيون قد اخذوا بعض حروف البربر لكتابتهم. ان التشابه والتماثل أحيانا بين بعض الحروف البربرية. والحروف الفينيقية لا يمكن ان يكون بالمصادفة بل بتأثر كل منهما بالأخر.

أننا إذا لاحظنا الخطين وجدنا حرف التاء في الخطين البربري والفينيقي واحدا. وباء

البربرية هي الحاء الفينيقية. ووجدنا الدال في الخطين متشابهين. ووجدنا حرف لزاي في خط البربر هي حرف الواو في الخط الفينقي. بينهما شبه كبير. وحرف الجيم البربري هو حرف الزاي الفينقي. والباء في البربرية هي حرف الحاء في الفينيقية. كما جُده الياء البربرية تشبه الياء الفينيقية. ان هذا كان لتأثر كل من الخطين بالأخر. وفي حروف المسند القديمة لأهل شمال الجزيرة العربية في فلسطين والشام والعراق ما يشبه حروف البربر. فالزاي البربرية هي الزاي في المسند. وكذلك الباء. والتاء<sup>18</sup> وارى ان البربر اخذوا هذه الحروف من وطنهم الأول فلسطين.

وقد اقتبس الرومان من البربر حرف الباء. في الرومانية كما هي في الكتابة البربرية. ان فضل البونيقيين والبربر. وهما اللذان ورث الرومان حضارتهم وثقافتهم في المغرب. ان فضلها على الرومان لا يحصى.

وللكتابة البربرية أيام طفولتها لما كانت عشر حروف خمسة أشكال. وهي عبارة عن نقط ترسم مع بعض الحروف لتأكيدا أو شكلها. وق زالت هذه الأشكال الخمسة لما اتسع الخط وكثرت حروفه. من يري لعل بعض النقط التي هي رسم لبعض حروف البربر هي عض تلك الأشكال صيرت حروفا. أننا لا نجد في خط الطوارق الذي لا يزال تلك الأشكال التي ذكرها الشيخ مبارك ألميلي في تاريخه ورسمه.<sup>19</sup>

### الحروف البربرية المركبة

وللبربر حروف مركبة هي عبارة عن حرفين متداخلين. فينطق الحرف المركب حرفين. والحرف الأصلي الذي يقحم فيه الثاني. ويبدأ بنطقه أولا إنما هو الذي يرسم في وسطه. والحرف المرسوم في الوسط ينطق بعد الأول. تراهم يرسمون حرف الباء فيرسمون تاء في وسطه فيكون حرفا مركبا. وهذا الرسم يقرأ بت. والحرف المرسوم غالبا في الوسط هو التاء لكثرة ورودها في البربرية فهي أكثر الحروف استعمالا في لبربرية. فرسموها في وسط الحرف الذي تليه اختصارا للكتابة. وارى ان هذا التركيب في الحروف ما اختص به البربر. وكانوا أول من اهتدى إليه. ولعلها من إصلاحات مصينيسا الملك البربري العظيم التي ادخلها على الخط البربري في لقرن الثاني قبل الميلاد.

والبربر في القديم لا يلتزمون اجأها واحدا في كتابتهم كما تلتزم العربية من اليمين إلى اليسار. بل تراهم يكتبون من اليمين حتى إذا انتهى السطر كتبوا تحته سطرا آخر

18 - انظر حروف المسند في كتاب الوسيط في الأدب العربي لأحمد الاسكندري ص 28 ط أولى بالقاهرة 1919.

19 - انظر تلك الأشكال في ج 1 ص 86 ط ثانية بيروت

## دين البربر

كان للبربر دين وثني جاءوا به من الشرق. كانوا يعتقدون وجود اله يدبر هذا الكون، ولكن لا ذات له ترى، وإنما يتجلى لهم في المظاهر التي تروعههم بقوتها، أو بجمالها، لو بغرابته، فلذلك يعبدون تلك الظاهرة. وهذا الإله الذي يعتقدون أنه مصدر حياة الكون اسمه (أمون) ومظاهره هي الكباش الأقرن القوي، وبعض الحيوانات الأخرى، وبعض الكواكب. فمن الكواكب، التي راعتهم بقوتها وجمالها ورأوا أنها مصدر الحياة لهم الشمس والقمر. وكانوا يقدسونهم، ويتخذون لهما التماثيل في هياكلهم، ويرمزون لهما بصور في أملكع عبدتهم. وكانوا يرمزون للشمس بدائرة وفد يجعلونها بين قرني الكباش (أمون) الذي يقيمون له التماثيل كأكبر مظهر لإلههم أمون.

وكانوا يعبدون من الحيوانات الثور والكبش والتيس يقدسونه و يقيمون لها التماثيل التي يخشعون أمامها، ويقربون القرابين لها فلربما جمعوا في تمثال واحد بين شيتين من معوداتهم التي يقدسونها. وق عثر في الجنوب الغربي للجزائريين فقيق وبني ونيف على تمثال لكباش أقرن بين قرنيه دائرة تمثل الشمس. والكبش والشمس كلاهما من معبودات البربر التي يرونها مظهرا للإله الأعظم الذي يصرف هذا الكون.

وكان المصريون القدماء يعبدون الإله أمون ويرمزون له بكبش أقرن. وارى ان لمصريين قد قلدوا في هذه العبادة بني عمومتهم لبربر. ويمكن ان يكون البربر هم الذين أخذوها من المصريين.

وكان البربر يرون مظهرا للإله كل الحيوانات التي تروعههم بجمالها أو بغرابتها. فمن حيوانات الجميلة التي قدسوها الطاووس، والحمامة، والهر للطفه وظرافته. ومن الحيوانات التي قدسوها لغرابتها السلحفاة والصفدع. وكان تقديسهم لها يتجلى في عدم إيدائها كما يؤذون الحيوانات الأخرى بالقتل أو بالذبح، أو بالإقصاء العنيف عن الساحة بالضرب والإيداء. وكانوا يعتقدون ان قتلها أو ضربها يلحق بهم أضرار كثيرة وعاهات كبرى كالجنون، والشلل، والصرع وغيرها.

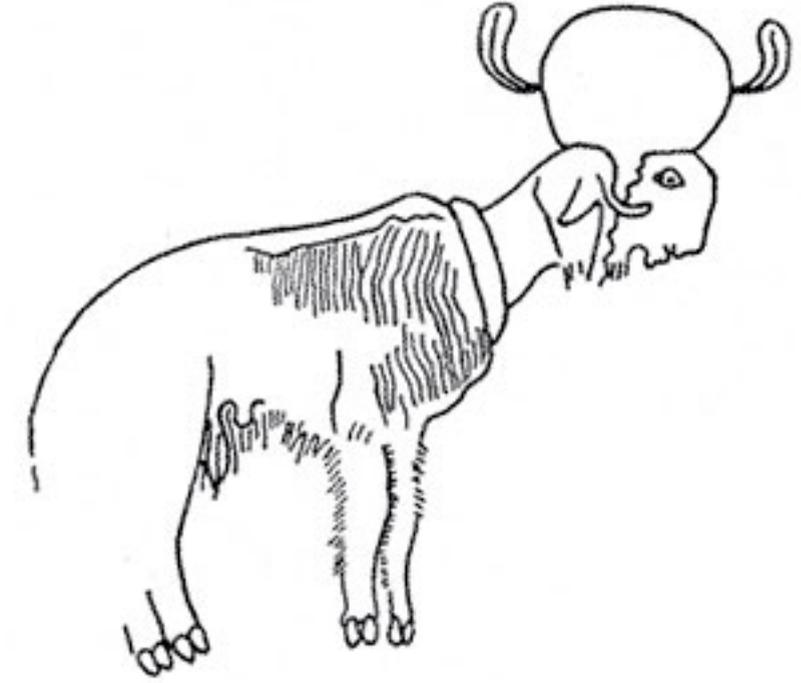
لا تزال عقيدة حرمة صيد الحمام باقية في أنحاء كثيرة من المغرب. وكذلك كره ضرب القط. انم يعتقدون ان من ضرب القط سيما في الليل يصاب بالجنون. وكذلك الصفدع لا تزال أنحاء م المغرب تعتقد ان قتله مضر وان افسد الساحة وعكر المياه. ان هذه كلها من بقايا العقائد البربرية القيمة قد تزيى بعضها بزى الإسلام

مبتدئا من اليسار فيختتم في اليمين. فيبدأون السطر الثالث من اليمين إلى ان تتم الكتابة. وترك في قراءتها كمن ينزل من سلم دار عالية متصل يدور بك في طبقات الدار. وقد تأثر البربر بالعرب وبالكتابة العربية التي تعلموها. فصاروا يلتزمون اتجاه واحد في الكتابة هو الاتجاه العربي من اليمين إلى اليسار.

وقد أعجب البربر بالخط العربي فأخذوا به لغتهم فصار هو خطهم. فتكمش الخط البربري فلم يبق إلا في بعض زوايا المغرب. ومنها الصحراء الكبرى التي لا زال محفوظا فيها عند الطوارق المثلثين. يكتبون به رسائلهم. ويستعملونه فيما بينهم. ويكتب به رؤسائهم وأمرؤهم. وقد احتفظ المثلثون بخطهم في أعماق الصحراء للسرية التي يحرصون عليها في كل أمورهم. انه خط غريب لا يعرفه سواهم فأثروه لكي لا يعرف أسرارهم غيرهم. هذا إلى تمسك البربر بشخصيتهم. والخط كاللغة من الأشياء الأثيرة في شخصية الأمة وتقاليدها.

وترى في صحراء الطوارق اليوم اللغات الثلاثة البربرية والعربية والفرنسية يحسنها المنقفون منهم ويكتمون خطوطها كلها. وقد أرسل إلي صديق في بلاد الطوارق وهو الكاتب الخاص والمترجم من الفرنسية إلى البربرية لأحد ملوكهم الكبار: أرسل إلى الخط البربري المستعمل لى اليوم عندهم. وفيه الحروف المفردة والمركبة كما هي في المراجع الفرنسية والعربية التي نقلنا منها حروف البربر.

كان البربر امة عظيمة وشعبا راقيا. لهم لغتهم الخاصة وكتابتهم الخاصة. فكيف كان دينهم في عهود البداوة قبل ان يتحضروا. وكيف كان بعد تحضرهم أيام البونيقين. ان الدين اكبر أساس للشخصية! والبربر من اشد الأم تمسكا بالدين وغيره عليه! وقد افلحوا بهذا وسادوا لما صار الإسلام دينهم فتمسكوا به. وفدوه بالنفيس الغالي. وبالأرواح والدماء!!



### تمثال للكبش المقدس أمون

ان الرفق بالحيوان وعدم إيذائه والإحسان إليه واجب في الإسلام، ولكن اعتقاد النفع والضرب في احدها لقداسته بما لا يجوز في الدين . وما هو من بقايا الجاهلية البربرية التي نتحدث عنها.

وكان البربر يعتقدون وجود الجن، ويرونها أرواحا تسكن المغاور وبعض الأشجار وفي بعض المنابع المعدنية. وكانوا يرون المياه المعنية الحارة التي تتدفق من بعض الجبال، فلا يدركون بعقولهم سبب حرارتها، فيعللون ذلك بوجود الجن في اخل الجبل. فهم الذين يوقون النار على الماء فيتفجر حارا تلك الحرارة، وتراهم يقدسون تلك الأماكن التي يرونها مسكنا للجن ويقربون إليها القرابين.

وق بقي البربر على هذه الوثنية التي جاءوا بأكثرها من المشرق حتى ترقوا وتمدنوا وثقفت عقولهم في عهد البونيقيين فنبذوا كثيرا من خرافاتهم. وقد انتشرت المسيحية في البربر لما دخلت المغرب، واركوا بعقولهم المثقفة انها الدين السماوي الذي يصلح بهم، فاعتنقته طوائف كبيرة منهم، وكذلك اليهودية فإنها انتشرت في بع

نواحيهم كجبال أوراس. ولما جاء الإسلام أدركوا بعقولهم انه خير الأديان هو لا غيره سبب الحياة السعيدة الراقية، وعامل الفوز في الدارين، فأمنوا به وعضوا عليه بالنواجذ، وكانوا كثير المسلمين تمسكا به قولا وعملا، وأشدهم عليه، وكان هو الدين الذي عم البربر كلهم فطهرهم من ارجاس الوثنية ومن ظلمات الجاهلية، وأسبغ عليهم الطهر والسمو والنور، وأورثهم الكرامة والعزة، والسعادة والتقدم في كل نواحي الحياة. فما أعظم نعمتك يا رب بالإسلام على أجدادنا الأمازيغ وعلى مغربنا الكبير.

ذلك هو دين البربر في جاهليتهم، وأيام بداوتهم قبل ان يتحضروا فما هو نظامهم الاجتماعي في تلك العهود؟



## النظام الاجتماعي للبربر

لم يكن للبربر قديما قبل ان يتحضروا ملوك ولا أمراء عظماء تخض لهم الجهات الواسعة ويسوس كل منهم القوم الكثيرين، وإنما كانت كل قرية تحكم نفسه، وكل قبيلة تبر شؤونها، لا ترضى ان يتخلل في أمورها غيرها.

وكان لكل قرية مجلس تنتخبه القرية انتخابا حرا، وتقدم إليه كل من قدمته كفايته وبدا صلاحه، ورجاحة عقله وإخلاصه للقرية.

وإذا كانت القرية تشتمل على قبائل كثيرة قمت كل قبيلة من يمثلها في المجلس، ويرأس المجلس رئيس ينتخبه المجلس انتخابا حرا من أعضائه، ويشترطون فيه الكفاءة العقلية والخلقية والغيرة على القرية، والإخلاص لأهلها وعدم الأنانية والحباية.

ان هذا المجلس هو الذي يدير أمور القرية، ويسن القوانين لها، ويفض خصوماتها، ويعلن الحرب، ويعقد المعاهدات، انه هو المجلس التشريعي والقضائي، وهو الحكومة المدبرة لشؤون القرية، ورئيس المجلس هو القوة التنفيذية التي تنفذ ما يسنه المجلس من قوانين، ويحكم به في الخصومات، أما القوة التي يتأيد بها رئيس المجلس في تطبيق القوانين، وتنفيذ قرارات مجلس القرية فهي القرية كلها، المجلس مجلسهم، انتخبوا في حرية تامة، ورئيسه رئيسهم فكلهم يجله ويحترمه، ويؤيده، ويغار عليه، فإذا احتاج إلى قوة رادعة فشباب القرية كلهم يلبسون السلاح، فيصيرون جنه المطاع، والقرية كلها برجالها ونسائها تغضب لغضبه، فتقف في صفه، وتكون حربا على من تورد عليه، أو اعتدى على مقامه، وأبى ان يخضع اعرف القرية وقوانينها.

ان هذا النظام لاجتماعي يدل على ديمقراطية البربر وعلى حبهم للحرية، وعلى اعتمادهم على النفس؛ ويدل أيضا على أمنهم في قراهم، وعلى بساطة الحياة التي كانوا عليها في عهودهم القيمة قبل البونيقين.

وكان لكل قبيلة في كل قرية رئيس يعتني بها، ويحل مشاكلها، يعضده في ذلك خاصة قبيلة وأولوا الرأي والتدبير فيها، وذلك لاعتماد البربر على أنفسهم، وحبهم للامركزية حتى في نظام القرية الذي وصفنا، وهو ديمقراطي لا جبروت ولا استبداد فيه.

لقد بقي البربر على هذا النظام الاجتماعي قرونا، وكان هو النظام الذي أثروه، وامتزج حبه بدمائهم، ولكنهم لما تحضروا كثرت مشاكلهم الاجتماعية، وصار المغرب بما كونه فيه وكونه فيه البونيقيون من حضارة راقية، جنة تفتن القلوب وتخلب النفوس، وتتحلب

عليها أشداق الرومان الجشعة؛ وراو روما القوية تتخذهم مرمى سهامها، وتتمنى ان يكون المغرب طعمتها؛ احدثوا ومدت كل قرية إلى أختها يدها، والتأمت الجماعات، فكونوا حكومة واحدة تسوسهم، وتدبر شؤونهم ورضوا بنشأة الملوك فيهم، والممالك الواسعة التي يهيمن عليها رئيس واحد.

لقد يد النظام اللامركزية في البربر ما جبلوا عليه من حب الاستقلال، وعشق الحرية، ومن الاعتداد بالنفس، والاعتماد عليها، فكرهوا ان يسوسهم أمير واحد قد يجور عليهم فيعاملهم بما لا يوافق مزاجهم، ويأخذ بأعنتهم إلى نواح ليس فيها صلاحهم.

لقد كان هذا النظام للامركزية سببا لازدهار القرى البربرية، ا كل قرية تعتمد على نفسه في كل شؤونها، وتنافس القرى الأخرى فتنتعش وتزدهر، وكان سببا لخلق لتضحية والروح الاجتماعية في البربر، ان كل فرد منهم ليفكر في قريته، ويعمل لتقييمها، ويقوم بواجبه في خدمتها العامة، وينفق من ماله الخاص، ويضحى بكل عزيز في سبيل إسعاد القرية وهنائها، ولا يتكل في تدبير أمورهم، والقيام بشؤونها وخدمتها على الحكومة فيكون أنانيا بخيلا لا يشغل باله إلا شئونه الخاصة، ولا يهتم إلا أمر نفسه، كما نرى في العواصم الكبرى التي تقوم بها الحكومة، فان الأنانية وحب النفس، وعم المبالاة بالشئون العامة، كإصلاح الطريق أمام دار احدهم إذا خرب، وإصلاح مجرى الشارع إذا انسد، وغير ذلك مما يعود بالنفع عليه هو، ولكن لا يبدو لسكان العاصمة ان يتطوع بجزء من وقته، وبقليل من عمله فيزيل الأذى من الطريق، وينفع عباد الله بما يؤخره عليه الله.

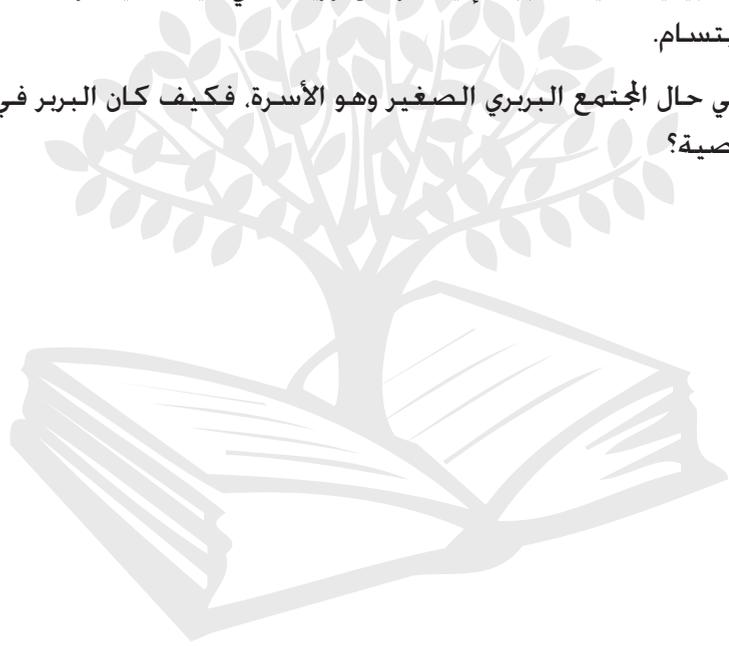
ان نظام اللامركزية وان كان يضعف الدولة في بعض النواحي، فانه يخلق فيها أخلاقا اجتماعية عظيمة، ويجعل كل فرد فيها يقوم بواجبه الاجتماعي، وكل جماعة تؤدي ما عليها لصالح الأمة كلها.

ان ما حمل البربر على نظام القرية أيضا هو أمنهم في وطنهم، لقد كانوا في أول أمرهم في وطن لا يجاوره أعداء يفكرون في اغتصابه، والسيطرة عليه، فيتكتلون ويتحدون ليدافعوا عدوهم، وكانوا على البساطة في كل شيء حتى في مثلهم الأعلى، فلم يكن من همهم ان ينشئوا دولة تنافس دولة الفراعنة وغيرها من الممالك القيمة، ولا كانت حياتهم معقدة بالتحضر والتمدن فنحتاج إلى جهاز إداري واسع لا يتأتى إلا في الدولة الكبرى، بل كان همهم في الضرورات البسيطة التي يكفي لبلوغها هذا النظام الاجتماعي البسيط.

الطبعة في نفوسهم. فعاشت المرأة المغربية مبدلة محترمة مصونة في كل عهدها. وان ما نرى اليوم من تمتع المرأة بكل حقوقها في وادي ميزاب بجنوب الجزائر. وفي غيره من النواحي التي لا زالت تتمسك بشخصيتها الإسلامية المغربية من آثار الذين الحنيف الذي اوجب للمرأة حقوقها. ومن آثار هذه الطبيعة الحسنة التي كان يمتاز بها أجدادنا في المغرب.

ان قوة شخصية المرأة البربرية وتمتعها بحقوقها في المجتمع البربري القديم هو الذي جعلها قاعدة قوية للأسرة. فتماسكت. وجاهت. وتعاونت. فتمتعت بالحياة. وتمتع الرجل البربري بحياة بيتية هنيئة حبيب إليه الوطن. وزينت في عينه الحياة. وجعلته دائما على التفاؤل والابتسام.

تلك هي حال المجتمع البربري الصغير وهو الأسرة. فكيف كان البربر في الشخص وفي الشخصية؟



قد نجد الأمة تتكتل في بداوتها وتتحد لان أوطانها قفراء لا تكفيها في عيشها. فهي ترنوا إلى الأوطان الأخرى تتحلب أشداقها عليها. فتتحد لتقوى على التغلب عليها. أما البربر فكانوا في وطن خصب جميل فيه كل ما تستلزمه الحياة الهنيئة. يبلغه البربري بأهون سعي. فلذلك نجد الروح الاستقلالية قوية ثابتة في البربر. لان العوامل التي تدعو الإنسان إلى الرضوخ للرؤساء. والتجرد من كثير من حريته في سبيل الجماعة الكبيرة لم تكن موجودة في وطن البربر. أنهم في قديمهم لم يرهبوا ولم يرغبوا فيجهزون الجيوش وينشئون رئاسة عليا للوطن كله تقوده في دفاعه أو هجومه.

لقد دام البربر على نظام القرية حتى تخضروا فاستلذمت حياتهم المعقدة جهازا إداريا واسعا. فتكونت لهم ممالك. وكان لهم ملوك. وكان القرطاجنيون الذين اخرجوا البربر من البداوة إلى الحضارة هم الذين اخذوا بأيديهم فنهضوا. واثروا فيهم فترقوا. وكانوا لهم قدوة حسنة فسلكوا طريقهم في إنشاء الدول الكبرى.

ان كل قرية تتكون من عدة اسر. فكيف كانت الأسرة في المجتمع البربري؟

### الأسرة في المجتمع البربري

لقد كانت الأسرة في المجتمع البربري على أمها في التماسك والاحاد. وفي الهناء والسعادة. وكان للأب السلطة العليا في الخارج. وللام السلطة التامة في داخل البيت. وكان الأب محترما جله الأسرة كلها. ويجله أبناؤه لا يتمردون عليه. ولا يشقون عصا الطاعة له. بل يمتثلون أمره. ويسعون في رضاه. ويسبغون عليه برهم وإحسانهم.

### احترام البربر للمرأة وتمتعها بكل حقوقها في مجتمعهم

وكانت المرأة محترمة مبدلة. تتمتع بكل حقوقها في المجتمع البربري. وكان الرجل يراها ساعده الأيمن. وقوته الكبرى. وقبله الذي يصنع حياته كلها فيثق بها. ويجعل أعنة أمور البيت في يدها. وكانت هي معتدة بنفسها. لقوة شخصية البربر. تتمتع بحياة استقلالية في بيتها. ترى نفسها هي المسؤولة عنه فتقوم بواجبها في إدارة البيت وخدمته. وفي تربية الأبناء. وفي إشاعة المحبة والوئام في الأسرة. فتكون كلها قلبا واحدا يضمن لها ولزوجها السعادة والهناء.

وقد بلغ من احترام البربر للمرأة ان كانت بعض القبائل تمج المرأة كل التمجيد. فجعلتها هي الأصل في الأسرة. ورجحت كفتها على الرجل. فصار الولد ينسب إلى أمه. ويتوارث مع أخواله لا مع أعمامه. وقد أم احترام المرأة حتى جاء الإسلام فأيد هذه

## شخصية البربر

## خلقة البربر

ان البربري قوي البنية، معتدل المزاج، متين التركيب، قد نشأ في بيئة الشام الجميلة، فأورثته من جمالها في جسمه، ومن اعتدالها في مزاجه، ثم انتقل إلى بيئة المغرب لمشابهة لبيئة الشام الطبيعية، فأيدت فيه تلك الخلال، وثبتت في شخصية ذلك الجمال، فصار البربر مثالا في متانة البنيان؟ وفي جمال الخلق.

والبربري على العموم ذو وجه معتدل، وعينين غير ناتنتين، وانف غير مفرطح ولا مستطيل، ولكنه رشيق جميل، وجبينه وضاح، وما بين عينيه خط مستو، لا زاوية منفرجة، وأعضاؤه متناسبة، وهو قوي البنية، يتحمل الجهد الشديد، ويطول شوطه في الأعمال المرهقة، قوي الحصانة من الأمراض، لقوة جسمه، ومتانة تركيبه.

أما لون البشرة في البربر فنجد في شمال المغرب على الساحل البياض المشوب بحمرة، أما في رؤوس الجبال الباردة فالحمرة المعتدلة هي الشائعة فيها، وفي جنوب الغرب سمرة معتدلة مع الأعضاء الرشيقة، وهناك بعض المناطق في الجنوب ولكنها قليلة قد اختلطت بسكانها الزنوج فأورثوها من ألوانها ومن أعضائهم، فمالت سميرتهم إلى السواد، وأنوفهم إلى التفرطح، ففارقوا جمال البربري الممتاز، وهناك أيضا القبائل البدوية المقيمة في الصحراء الكبرى، قد سفعتهم الشمس فأورثتهم السمرة الشديدة، ولكنهم مع ذلك على الرشاقة وجمال، لم تغير من أجسامهم الأعراق الدخيلة، فإذا انتقلوا إلى الشمال فسرعان ما يورثهم ألوانه فيمسون كاهله.

هذه هي أوصاف البربر الجسمية على العموم، ق حُرت إليهم بالوراثة، واكتسبوها من البيئة، وهناك جهات في المغرب نجد ناسها يختصون ببعض أشياء ويخالفون في بعض الأمور كلون الشعر وشكل الجمجمة، وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ مبارك ألميلي بعض تلك الأوصاف الموجودة في بعض مواطن المغرب فقال: «ومن الأوصاف ما يختص ببعض لفرق، ففرقة منهم طوال القامة، مستطيلا الرؤوس والوجوه، وحواجبهم ناتئة، وأنوفهم طوال رفاق، وشعر اللحية منهم حفيف، وأكتافهم عريضة، وخصورهم ضيقة، وهم عاف لبنية، وهذه الفرقة موجودة بكثرة.

ومنهم صنف قصير القامة، طوال الرأس، وبه عظام ناتئة عريض الوجه، ناتئ الوجنتين، عريض الأنف، واسع الفم غليظ الشفتين، ناتئ لحن، كثير شعر اللحية، عريض الصدر والرفع».

ان هذا الصنف هو الذي يمكن ان يكون العرق الزنجي قد اثر فيه، فأورثه فرطحة في الأنوف، وغلظة في الشفاه، وطولا في الجمجمة ولم يذكر الأستاذ ألميلي في أي جهات المغرب يكون، وارى انه في الجنوب الشرقي والغربي للمغرب: تلك النواحي القريبة من السودان فاخل بعضها العرق الزنجي فاثّر فيها، على ان هذا الاختلاط ليس قيما فانه من آثار اتصال الدول الإسلامية المغربية بالسودان في القرون الإسلامية الأولى، ثم قال الأستاذ ألميلي:

«ومنهم صنف ربعة إلى القصر، مستدير الرأس، عريض الوجه، مستدير الجهة، غليظ الحاجبين، قصير الأنف، واسع الفم، مستدير الذقن، عريض الصدر.

والصنفان الأولان معروفان بالمغربي من قديم الأزمنة، وثلاثتها توجد بالجزائر وتونس، والثالث منها مشهور جربة وميزاب».<sup>20</sup>

هذه هي بعض الأوصاف التي تمتاز بها فئات من البربر في بعض الجهات، وارى ان هذا الامتياز في تلك الأوصاف حديث غير قديم، فميزاب قد داخلته الدماء العربية، ووادي اريغ وغيره من أنحاء الجنوب الآخرة قد داخلته الدماء الزنجية، وهذا كله في القرون الإسلامية لا قبلها، انه يبعد ان يكون اختلاف الفئات لبربرية في بع الأوصاف من تلك الدماء التي داخلتها بعد الفتح الإسلامي فورثوا بع خصائص تلك الدماء، أما لون البشرة والشعر والعيون وبعض الأوصاف الأخرى التي ترجع إلى اختلاف الجو في القطر الواحد، فان جو الساحل غير جو الصحراء، وجو الجبال المنيع غير جو السهول المنخفضة، وكذلك لمن فنها خلاف القرى: أما الاختلاف الذي نراه في المغرب من هذا النوع فهو شيء طبيعي سببه إقليمي لا عرقي.

وكان البربر يلتحون ويرون ذلك زينة لرجل، وعلامة القوة، ودليل الوقار، ورمز الرجولة الكاملة، وآية على الشرف وكرم الأصل!

كان البربر على لعموم على الجمال في الأجسام، والمتانة في البنيان، أورثهم ذلك عرقهم الزكي، وبيئتهم الطبيعية الجميلة، فكيف كانوا في الأخلاق والطباع الراسخة؟

## أخلاق البربر وطباعهم

ان البربر امة قوية الشخصية، معتدة بنفسها كل الاعتداد، واثقة بنفسها كل الوثوق، طموح قد بلغ بها طموحه الذري العالية في المكارم، والقمم الشماء في المفخر.

20 - تاريخ الجزائر ألميلي ج 1 ص 65 ط لبنان 1382 هـ 1663 م.

### تمسك البربر بشخصيتهم وتقاليدهم الحسنة

والبربر ذوو شخصية ايجابية، يفرضون احترامهم على غيرهم، وتقاليدهم على من سواهم، فيقلدهم ولا يقلدون، ويذوب فيهم ولا يذوبون. ومع ذلك فهم مرنون يتطورون؛ يأخذون من كل بيئة أحسن ما فيها، لا تغرهم المظاهر فتخدعهم عن اللباب، ولا تفتنهم الزخارف فينصرفون عن الجوهر، بل لهم من نفسهم العملية أحسن هاد، وأدق ميزان. أنهم لا يأخذون إلا أسباب القوة والنجاح من غيرهم ولا يقتسمون إلا عوامل الرقي من سواهم. لقد تسلط عليهم الرومان وغيرهم دهورا طويلة فلم يذبا فيهم كما تمنوا. لُق أّ البربر منهم أساليب العمل، وفنون القتال وطرق السياسة، ولكنهم لم يتبدلوا تبذلوا بالحضارة المفرطة، ولم ينغمسوا في الشهوات والملذات فتنحل أخلاقهم مثلهم. أنهم تمسكوا بأخلاق الرجولة، وبالنفس العملية، وأبوا ان يتصفوا بضعف الحضارة وأمراضها.

ان تمسك المغرب بشخصيته الإسلامية، وإبائه ان يتجرد منها رغم الاستعمار الفرنسي الذي جرننا قرنا واثنين وثلاثين سنة بسلاسله، لنفارق شخصيتنا إلى شخصيته، ورجولتنا وطابعنا الجدي آلة ميوعته؛ ان ذلك التمسك بالشخصية من ميراث أجدادنا البربر ومن الطبائع الشريفة التي حُدت إلينا من أولئك الأجداد الشرفاء.

### لطف البربر وحبهم للنكتة الطريفة والمرح اللائق

والبربر ذوو نفوس مرحة، يميلون إلى اللهو في أوقاته، ويؤثرون المزاح في أباه لا يستبد بهم الطرب فيطيشون كالزئوج وذوي المناطق الحارة، ولا يجمدون كاهل البلاد لباردة، بل هم كإقليمهم على الاعتدال في الأشياء، فهم على الاعتدال في السرور والطرب والميل إلى المزاح، وعلى الاعتدال في ميلهم إلى الجد، ان نزوع البربر -لنفسهم العملية- إلى الوقار أكثر، ومع ذلك فمجالسهم في أوقات الأّس تشيع فيها العابة البارعة، والمزاح لطريف، لا يضحكون إلا بما يستلزم الضحك، فالوقار يمسخهم عن الإسراع إلى الضحك كما يفعل بعض الأّقام من ذوي المنطق الحارة، يضحكون لأقل شيء، ويصلون النهاية في القهقهة لنكتة ضعيفة لا يزيد البربري بها على الابتسام! وذلك لان الجنب العملي في البربر على قدر الوجودان فيهم، لا يصغي وجدانهم فيتسلط عليهم، بل هم يضبطون نفوسهم فيكونون في كل موطن كم يوجب المقام.

انه لفضيلة قوة الجانب العملي في نفوس البربر وهو (النزوع) كما يسميه علماء النفس، انه لتلك الفضيلة التي أورثت للبربر مزية ضبط النفس، كانوا على التمسك

انها من الشعوب الكريمة التي تقس المعاني، وتغرم بالمجد، وترى الشرف هو كل شيء في الحياة! لقد اتصف البربر بكل الأخلاق لكريمة التي اتصف بها العرب، واربوا على كثير من الأمم الشرقية في أشياء وهي النفسية العلمية، فإنها في البربر أقوى، لبيئتهم الطبيعية المعتدلة التي تنعشها، وللحياة الاستقلالية التي كانوا عليها، ففرضت عل كل واحد ان يعتمد على نفسه، ويكد في سبيل عيشه؛ واربوا عليها في التمسك بالشخصية، فان البربر لا يذوبون في غيرهم، ولا يتجردون من شخصيتهم، وان عاشروا بيئة غير بيئتهم عهدا طويلة، وأزمنة مديدة، وتسلط عليهم قرونا من يعمل لإذابتهم فيه، وتجريدهم من شخصيتهم التي يمتازون بها.

كان البربر كالعرب على الأباء والشجاعة، وعلى الكرم والنجدة، وعلى الوفاء بالعهود، والحفظ للجوار، والإكرام للنزبل.

وكانوا على الذكاء في العقل، وعلى السعة في الخيال، وعلى الهيام بالمعرفة، يقسون العلم وأهله، ويغرمون بالعرفان، ويرونه اكبر سبب للتقدم، وأقوى عامل للشرف، ومضى سلاح في القضاء على الأعداء.

وكان البربر ذوي أذواق راقية رهيقة، يحبون الجمال، ويغرمون بالحسن، وقد يكون ذلك فيهم بيئة المغرب الجميلة، وطبيعة لساحرة، فلذلك مالوا إلى الحضارة الفينيقية وغيرها من حضارات الأمم التي أحبوا، فاخذوا بها، وزادوا فيها، وبلغت الكمال على أيديهم.

والبربر ذوو نفوس عملية ممتازة، فهم أهل الجد والنشاط، يكرهون الكسل والتواني، ويمقتون لخمول والركود، فهمهم دائما في لعمل المتواصل، ولذتهم في التعب وتسلق لعقبت، وقطع الأشواط لشقة في سبيل غاياتهم لكبرى، وقد كان اعتدال إقليمهم من أسباب النشاط الذي جبلوا عليه، والنفسية العملية التي كانوا عليها.

### حب البربر للنظم وكرههم للفوضى

والبربر لنفوسهم العملية ذوو نظام وترتيب للأّامور، ويكرهون الخلل والفوضى، ويقدمون النظام ويؤثرونه في كل الأشياء.

والبربر ذوو طموح وغرام بالمجد، ينزعون إلى الكمال، ويغامرون في سبيله، ويفارقون من اجله الأوطان، ويخوضون للوصول إليه لحج لحروب المستعمرة، ويتصدون للمهلك والأهوال، ان حب العمل والنشاط والمغامرة في سبيل الحج من طباعهم الراسخة، وخلالهم الثابتة، تشهد بذلك جميع ادوار تاريخهم الإسلامية وغيرها.

بشخصيتهم وتقاليدهم الحسنة. لا يستبد بهم لوجدان كالأطفال والنساء والأم الضعيفة فيجرون وراء البريق، بريق الجمرة ليقبضوا عليه، ويطلقون الجوهرة، وتستميلهم برقشة الأفعى فيجرون وراءه، زاهدين في أطواقهم الذهبية، وحللهم المزركشة.

### شجاعة البربر وفروسيتهم

والبربر ذوو شجاعة خارقة، وبطولة نادرة، فهم أهل الثبات في الحروب، والأقدام في المعارك الهوجاء، يطربهم صليل السيوف في الجماعم، وحممة الخيول في الجلاذ، لا يهابون العدو، ولا يخافون الحروب، ولهم اعتناء بأعمال الفروسية، وفنون الحرب، وطرف الجلاذ، يعلمونها لشبابهم، ويغذونه في نفوسهم بمختلف الألعاب، كإجراء الخيل، والجري، والوثب، وغير ذلك مما يقوي لنفس، ويحفظ عليها الأخلاق الحربية، وعادات الفروسية.

والبربر فرسان مغاوير، لهم غرام واعتناء بركوب الخيل، ولهم خيل يربونها تربية خاصة، ويدربونها، وكانوا يركبونها خاسرة بدون سرج ولا لجام، وكانوا يصرفونها ويوجهونها بقضيب يمسه الفارس بيده فيلامس بيده الفرس فتتجه إلى لناحية التي يريد.<sup>21</sup> انها خيل وصفها البكري وبعض المؤرخين فقالوا: انها قصيرة ولكنها سبابة في الجري، خفيفة، صلبة، تقوم بفارسها في الحروب.

وكان أهل نوميديا مشهورين بالفروسية، وكان فرسان البونيقين في حروبهم من نوميديا، وكان فرسان حنبعل في حروبه بايطاليا من البربر والنوميديين، كما كان فرسان سبيون الإفريقي الذين انتصر بهم على حنبعل من نوميديا، ولما جاء الإسلام وجد المسلمون في البربر الفرسان الأبطال، والجند لشجعان ففتحوا بهم الأندلس، و جلبوا منهم مئات من الشباب إلى المشرق فسدوا بهم الثغور المهمة سيما ما يستلزم الجلد والقوة والثبات.

21 - انظر نقود الملك صيناقس في بابه ترى رسم فارس في فرس عارية.



## حب البربر للحرية والعدل وثورتهم على العبودية والطغيان

والبربر امة مجبولة على حب حرية، وشعب عجت طينته بحب الاستقلال. لا يطيقون الاستبداد والاستعباد، ولا يخضعون للجبروت والطغيان. ولا يحنون الهام إلا لمن يمتلك قلوبهم بحسن معاملته واحترامه. فان خاشنهم وأراد ان يخضعهم بالقوة ثاروا عليه وكانت خشونة السيوف هي ما يلهمهم منهم. والحروب الهوجاء هي الصفحة التي تواجههم منهم. وقد ثاروا في قديمهم على كل الدول التي أرادت ان تخضعهم بالسيف. ثاروا على البونيقيين. وعلى الرومان. والروم والوندال. وعلى الأمويين والعباسيين وعلى الأغالبة والعبديين. وعلى كل الدول التي لم تعدل فيهم، ولم تنظر إليهم في احترام وإخوة.

انه حب لبربر للحرية والحياة الاستقلالية يهون اللامركزية في الحكم. لتتمتع كل ناحية باستقلالها، وتعتمد على نفسها في شؤونها. تصرفها على حسب مزاجها. فتزهر كل النواحي بتضافر الجهود، وتتقدم كل أنحاء الدولة باعتماد كل جزء على نفسه. ليس للدولة عليه إلا التوجيه الحكيم، وإلا القيادة اللطيفة. لا قهر ولا إرغام، وإنما تأمر كل قبيلة بما يوافق مزاجه، وتوجه كل قوم إلى الناحية التي استعدوا لها. وقد عرفت الدول البربرية العادلة كالدولة الرستمية والدولة الإدريسية هذا الطبع في الأمة البربرية. فكانت تتمتع فيها كل الجهات بكثير من الاستقلال. وتوكل إليها كثيرا من الأمور. كاختيار ولايتها، وقضاتها، وكثير من الأمور العامة التي تقبض عليها الدول المستبدة بقبضة من حديد.

ان هذا الطبع (حب الحرية والاستقلال) جميل في البربر. انه دليل على قوة شخصيتهم، واعتدادهم بالنفس. وثقتهم بها. ان كل الدول التي عاملت البربر على حسب مزاجهم واستغلت هذا الطبع الكرم فيهم قد وجدت البربر الشعب الطائع السلس العنان، والأمة الحية التي تعين الحكومة وتظاهرها في البناء والتشييد. فتسرع الدولة بنشاط البربر واعتمادهم على أنفسهم في طريق العظمة والأزهار. وتحقيق كل المثل العليا التي تعو إليها همتها العالية.

ان البربر إذا ثاروا على الدولة وتمردوا. كما ثاروا على الأمويين والعباسيين والعبديين في القرون الإسلامية الأولى الأربعة. فلجبروت تلك الدول الظالمة، وازورارها عن الدين الحنيف في سياسة المغرب، ولاحقارهم للبربر وعدم مساواتهم، ولأنانيتهم وتعصبهم لنفسهم وجنسهم، ولعدم عدلهم، وتمردهم على الين الذي يتمسك به البربر ويغارون

عليه ويثورون للدفاع عنه. وليست ثوراتهم على تلك الدول وغيرها نخب الفوضى. وعدم لرضوخ للنظام كما يدعي الأوروبيون المغرضون.

لقد ردد هذه الدعوى الباطلة بعض مؤرخين المغاربة فوقعوا في غلط كبير. وعقوا أجدادهم. وظلموا أنفسهم، وكانوا على سفاهة من يلطم وجهه بما يدميه. ويخز عينه يفتقوها. أنهم لو اعملوا عقولهم في تاريخ البربر، وحقيقة البربر لعملوا ان ثوراتهم قبل الإسلام ثورات وطنية رشيدة، وثوراتهم في عهد الإسلام إنما كانت على الظلم والجبروت وعلى التمرد على لدين الحنيف في سياسة الشعوب، وإنما ثورات إسلامية قد وقفوا فيه. ودعاهم إليها الدين الحنيف الذي يتمسكون به ويغارون عليه.

لقد ثار البربر على الدول لباغية لتغطرسة الجاهلة بالسياسة. تلك الدول التي لا تعاملهم على حسب مزاجهم، ولا تحترمهم، والتي تجهل أو تتجاهل طبعهم، وتجبرهم على ان يعيشوا كالحوت في الماء، وهم صقور السماء، وتجب عليهم وتحترقهم، وتمرغهم في الغبراء وهم نجوم الخضراء.<sup>22</sup>

ان ثورات المغرب على الاستعمار اللاتيني لحديث، ولروح الثورية الموجودة فيه، والشجاعة الممتازة التي يتصف بها، من وراثة أجدادنا الأمازيغ في دماء أهل المغرب وقد ضاعفت تلك الوراثة الزكية وأيدتها في عروق لمغرب الماء العربية التي أورتنا شجاعة العرب أيضا وإباءهم، وأجبتها قوة الإسلام الذي يورث لأبنائه العزة والأنفة والإباء !

## ثبات البربر على الصداقة ووفائهم البالغ للأصدقاء

ولبربر ذوو نقوس اجتماعية. يهون الاختلاط بالأمم، ويصادقون غيرهم، ولكن في تحفظ وأناة. أنهم لا يسارعون إليك فيصادقونك في ساعة، ويمتزجون بك في يوم، ويثقون بك ويطلعونك على أسرارهم في لحظة، كما تفعل الشعوب الضعيفة، بل هم لا يصادقون غيرهم إلا بعد الاختيار ولامتحان، وإلا بعد ومن طويل يعجمون فيه عوده، ويدرسون فيه أحواله، وإذا ارتضوا أحدا وأحبوه، اخلصوا له، وأزلوا الكلفة معه، وامتزجوا به كل الامتزاج، وفدوه بالنفس والنفيس، وثبتوا على حبه، ووفوا له كل الوفاء، وكانوا له على ما توجهبه الصداقة المتينة والحب المكين. لا يعبسون له إذا كشرت له الأيام؛ ولا يتغيرون إذا تغير له الدهر أنهم ذوو وفاء للأصدقاء، يشهد بذلك تاريخهم، وما نجد إلى الآن من حلة الوفاء والثبات على الحب في أحفادهم. وهل المغرب إلا صورة لأولئك الأجداد، وهل دماؤه إلا ماؤهم، وهل خلاله إلا وراثتهم سقلها الدين الحنيف، وأيدتها الدماء العربية التي امتزجت بدمائهم في عروقنا؟! !

22 - الخضراء السماء كما هو مشهور في العربية، وكما ورد في القاموس.

لقد شهد ابن خلدون بالوفاء للبربر وجعله من خلالهم الأصيل. وهو اعرف بهم لقد عاشر دولهم في المغرب. وحفظ من أخبارهم. وعرف من شخصيتهم ما لم يعرفه غيره من المؤرخين الذين بقيت لنا آثارهم.<sup>23</sup>

وقد الصق الشيخ عبد الرحمن الجليلي بهذا الجنس الكريم تهمة هم ابعد الناس عنها. لقد صف البربر بعدم الوفاء وأكد هذا الوصف بالدعوى الباطلة. فخالف التاريخ الصحيح فيما روى. وخالف الحضرة الذي نرى فيه خلال أجدادنا الأمازيغ فيما اثبت. وعق أجداده. ولم يكن على البر ولا على الإنصاف. وارجل حكما خاطئا دل على بساطته في التفكير. وعلى ضعفه في الدراسة. سيما دراسة الأمم وتحليل لنفوس. وهو ما يجب على المؤرخ ان يحسنه. لتصبح أحكامه. ويتحفظنا بالجيد في التاريخ. ويأتي بما يليق بالعصر. وينفع المجتمع. ويزيده صفاء وإخوة. وخابيا. فيكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. قال الشيخ عب الرحمن الجليلي في أثناء حديثه عن البربر في كتابه (تاريخ الجزائر العام) : «سال سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير عن البربر فقال: يا أمير المؤمنين هم أشبه الناس بالعرب لقاء، ومجدة، وفروسية وسماحة، وبادية، غير أنهم اغدر الناس لا وفاء لهم!» هذا كلام موسى بن نصير فقال بعه الأستاذ عبد الرحمن الجليلي يؤكد هذه التهمة. ويصادق على هذه الدعوى. ويشتمل الحاضر بما وصف به موسى بن نصير ماضي أجدادنا العتيد. فكان أكثر حقا من موسى. وأوقع في الخطأ منه. وأحق باللوم والتعنيف. لأن موسى حقد على البربر الذين يراهم جنسا بعيدا عنه لثوراتهم عليه لظلمه. وازوراره عن طريق الدين. أم عبد الرحمن الجليلي فيسئ إلى أجداده. ويصف حاضر المغرب الذي وجزء منه. والذي لم ير من إلا الرعاية الحسنة. وإلا الحضانة الكريمة حتى صار من المثقفين. واستطاع ان يسمك القلم فيكتب. قال الشيخ عبد الرحمن الجليلي مؤكدا وصف موسى بن نصير لأجداده البربر بعدم لوفاء: «ويشهد الله ان موسى لصادق فيما قال. وما كان تصديقي إياه إلا عن تجربة واختبار طويل. ودراسة عميقة لنفسه هذا الشعب في جميع مواقفه قديما وحديثا!!»<sup>24</sup>

لقد استعمل الأستاذ عب الرحمن الجليلي عقله مرة واحدة في كتابه فجاءنا بهذه الفلسفة البديعة، وأخفنا بهذا الاختراع العظيم. هلا التزم عادة النقل التي واظب عليها في كتابه. وسكت عن هذا الاستنتاج الذي يدل على ضعف في التفكير. وجهل بالتاريخ. ان موسى بن نصير قصد بما وصف به لبربر ثوراتهم عليه وعلى الدولة الأموية التي شرحنا ظلمها للبربر. وسياساتها الخاطئة للمغرب. ومخلفة بعض عمالها وملوكها

23 - انظر شهادة ابن خلدون بالبربر للوفاء وبقيّة الأخلاق الكريمة في ج 6 ص 104 سطر 11 ط بولاق بمصر.  
24 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 50 ط المطبعة العربية بالجزائرية 1372 هـ 1953 م.

لدين الله. ولما توجيه الحنكة السياسة في معاملة البربر وسياستهم.<sup>25</sup>

لقد كان موسى بن نصير بعفته وحبه للمادة. واحتقاره للبربر أول عامل أموي خلق العداوة القائمة في قلوب أهل المغرب للأمويين. وما ثورات المغرب العارمة على الأمويين في عهد هشام بن عبد الملك بعد موسى بن نصير. وثورته العارمة على العباسيين بعد نشأة دولتهم إلا من عداوة البربر وحقدهم على الأمويين والعباسيين لظلمهم. وتجبرهم. ومخالفتهم للدين في سياستهم. وكان أول من وضع أساس هذه العداوة بظلمة وتجبره. ومخالفته للدين من عمال الأمويين هو موسى بن نصير!

لقد كان البربر يكرهون موسى بن نصير. وكانوا يتحينون الفرص. ويرقبون غرته للوثوب عليه. وتطهير المغرب من الظلم والتعصب والتكالب على المال. وكان هو على حذر منهم لما يعرف من عداوتهم. وكان على أهبة الحرب دائما. فلهذا وصفهم بعدم الوفاء. ومآثوراتهم على الأمويين. وما ينوون من الثورة عليه من عدم الوفاء ولكن ما يدعوهم إليه أبأؤهم وطبعهم الكريم. وما يندبهم ليه الين الحنيف الذي يأمر بإزالة الظلم وقمع الظالمين.

لقد وصف الرومان والروم البربر بحب لفوضى وعدم الرضوخ. لما رأوا تمردهم على استعمارهم وثوراتهم الوطنية الموفقة عليهم. وجاء موسى بن نصير فوصفهم بعد الوفاء لما رأى استعدادهم للثورة عليه.

لقد ثار البربر بعد موسى على الأمويين مرارا فهل كانت ثوراتهم لعدم الوفاء. وهل حروبهم لهم قد نشأت عن غدر وعدوان؟

كان لبربر في الدولة الأموية يثورون بعد الهدوء. ويضطرمون على الدولة نارا بعد السكون. ويعلمون للخروج من الظلم وسحق الجبروت كلما وجدوا لذلك سبيلا. وليس ذلك غدرا وعدم وفاء بالعهد التي يعطونه للوالي على السكون والطاعة وعدم الثورة. ولكنه حكمة المستعبد الذي يخضع أمام المستعبد المستبد. ويداربه بالطلاوة. ويريه جانب الخلاوة. ريثما يستعد لقطع أغلال الاستعباد ويجد فرصة للثورة على الظلم والجبروت. وإذا وجد فرصة للثورة لم يفلتها. فيزيج عنه الظلم والاستبداد والاستغلال ويبوء بحياة الكرامة والعزة. هذا ما فعله البربر لينعموا بالعدل الإسلامي الذي يرفرف عليهم. ويعيشوا أحرارا تحت علم الدولة الإسلامية المغربية التي تقوم على الإمامة الإسلامية. وتجدد للبربر المتمسكين بالدين كل التمسك عهد الخلفاء الراشدين!

25 - انظر ثورات البربر على الأمويين وأسبابها في الجزء الثاني ص 232 من كتابنا هذا الطبعة الأولى 1382 هـ.

هذا هو ماضي البربر الذي شاهده الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي فلم يفهم مغزاه، ولم يعرف أسراراه. فوصف البربر ظلما بعدم لوفاء! أما الحاضر فلعل الأستاذ قد شاهد بعض الأفراد الذين نشأوا في العاصمة في عهد الاستعمار. فتلطخوا برذائله، وجردهم من دينهم. وأرسل فيهم سموه، وصبهم في قالبه، وأثرت فيهم العاصمة ببيئتها. فابتعدوا في طباعهم عن أخلاق آبائهم واجدهم الإسلامية، فبقوا مسلمين بربري في أسمائهم وحدها؛ فرأى الأستاذ سلوكهم وتجردهم من الدين. فلم يرتض سيرتهم. ولعلهم قد واعدوه فاخلفوا. ولعله قد ائتمنهم فخانوا، فاغتاظ غيظا كبيرا، فحكم على جنسهم كله بنا رأيت!

إذا كان هذا هو الذي أثار ثائرة الأستاذ فلطخ بنعاله هاما كريمة، ورفس برجليه وجرحها وقورة محبة. هي وجوه أجداده الذين تنكر لهم، فما أبعد عن الصحة في الأحكام، وما اضعف تفكيره! لقد ذهب إلى مسارج الخيل الكريمة، فشاهد أبعادها فظنها أفراسا تصهل وترعى، فقال كل الخيل من جنس ما أرى!

انه ليس في عموم المغرب بربريا خالصا أو عربيا خالصا سيما سكان المدن والقرى القريبة من لمدن. أنهم جميعا أبناء لبربر والعرب. لقد امتزج الجنسان واختلطت دماؤهما في عروقنا. وان من بعد نفسه من آل المغرب كالأستاذ عبد الرحمن الجيلالي عربيا وغيره بربريا ليخطئ الخطأ الكبير. لعل الأستاذ قد عد بربرا خالصا من يتكلم البربرية من أهل الجزائر والمغرب. حتى هؤلاء جمهورهم يحملون الماء العربية في عروقهم. فأين البربر الذين عاشهم أخونا عبد الرحمن فحكم عليهم ذلك الحكم الظالم؟! لو زار الأستاذ المناطق التي تتكلم البربرية كوادي ميزاب في جنوب الجزائر، وجمال أوراس، وجمال القبائل، وجمال نفوسة، وجربة، والريف في المغرب الأقصى، وغيرها من المناطق الكثيرة التي تتكلم البربرية. وشاه تمسكها بالدين، وغيرتها عليه، وتمسكها بالأخلاق الإسلامية، سيما الوفاء بالعهود، والإخلاص في المحبة، وغيرها من الأخلاق الإسلامية العظيمة؛ أو زار تلك المناطق التي دافعت الاستعمار عن نفوسها فلم تتلطخ بقاعها بمفاسده كالعواصم، لعدل عن رأيه في البربر، والحكم بأنهم سادة الأوفياء، وأنهم العنصر المبارك القوي الذي كان أوتاد الدين والعربية في لمغرب فلم يستطع الاستعمار اقتلاعها، وأنهم في بقية ميادين النضال الوطني كذلك، وفي ميادين البناء والتشييد كلها. هذا ما يدركه ويحكم به كل عالم بتاريخ المغرب، وهذا ما يحكم به كل عالم بحاضره، وكل من يعمل عقله لا أوهامه وعقائده التي ورثها من الكتب المغرضة، والمصادر المتعصبة التي شوهدت تاريخ المغرب وأفسدته.

لقد وقع الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه (تاريخ الجزائر العام) في أغلاط كثيرة من هذا النوع. ونحن إذا تجاوزنا عما نقله من كتب لتاريخ المغرضة وقلدها فيه من ادعاءات باطلة حُط من شأن أجداده البربر. ولم تتعرض لها لأنها كثيرة تستلزم صفحات كثيرة، فإننا نحاسبه الحساب العسير على كل شيء يدعيه هو ليحط به من شأن هذا الجنس الكريم الذي يجب على كل مغربي ان يصونه صيانة الأبناء البررة للآباء، ويحفظه حفظ المهاجر للمقل!

### ثناء ابن خلدون على البربر

لقد كتب عن البربر مؤلفون كثيرون من عرب وإغريق ورومان، وكلهم أثنى على البربر وأعجب بهم. ومن عاشهم، وسبر أغوارهم، وعرف كل المعرفة تاريخهم، وعاش في دولهم، وشاهد أمجادهم العلامة ابن خلدون. فإليك جزءا صغيرا من شهادته لهم، وثنائه عليهم، ليكون نصوصا وحجة لما وصفت به البربر في هذا الباب.

قال العلامة ابن خلدون: «وأما تخلق لبربر بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلايا الحمية، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم، مرقاة الشرق والرفعة بين الأمم، وسبب المح والثناء من لخلق، من عز الجوار، وحماية النزيل، ورعي الذم، والوفاء بالقول والعهد! والصبر على المكارم، والثبات في لشدائد، وحسن الملكة، والأعضاء عن العيوب، والتحافي عن الانتقام، ورحمة المسكين، وبر لكبير، وتوقير أهل العلم، وحمل الكل، وكسب المعدوم، وقرى الضيف، والإعانة على النوائب، وعلو الهمة، واباية الضيم، ومشاقة الدول، ومقرعة الخطوب، وغلاب الملوك، وبيع النفوس لله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم. وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، ان قادتهم إلى مراقى العز، وأوفت بهم على ثنايا الملك، حتى علت على الأيدي أيديهم، ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم الخ...»<sup>26</sup>

ولعل القارئ يقول: ان الأمام ابن خلون يريد البربر في عهد الإسلام لما ورد من وصفه لهم ببيع لنفوس لله في نصره دين، ولكنه من يقرأ الباب كله يعلم ان يريد البربر في كل عهودهم قبل الإسلام وبعده، ان وان أمكن ان يعني ابن خلدون لبربر في العهد الإسلامي فحسب، فان الفروع دليل على الأصول، والأحفاد مظهر للأجداد، والشخصية العظيمة، ولعبقريات الكبرى تورث ولا تكتسب، انها لا تظهر فجأة، ولا تولد كاملة، وإنما تنمو في الآباء، وتكمل في الأبناء، وإذا رأيت جيلا كريما فاعلم انه من الأصول لكريمة.

ومن أبطالهم في الحروب وفي الدهاء يوغورطة، ويوبا الأول، وتقفارينا، وفرموس، وجلدون. هؤلاء الصناديد الذين قارعوا أمة الرومان، وركبوا بالهزائم في كل أنحاء المغرب، ولولا خاسد البربر وتنافسهم لكانت أمام قواتهم كجدار الطين في وجه البحر الهائج، ولولا تفرقهم وعم الحادهم ما استطاع الرومان ان يحتلوا المغرب ويستعمروه.

ومن عباقرة البربر في العلوم يوبا الثاني. لقد كان من العلماء الكبار في عصره وكن لرومان والإغريق يجلونه ويفتخرون بنبوغه، وقد أقاموا له التماثيل في الميادين الكبرى تخليدا له، واعترافا بجميله. وقد ألف يوبا الثاني باللاتينية كتبا في التاريخ وفي الطبيعة وفي النحو والموسيقى كانت من المراجع الكبرى عند الإغريق والرومان. «ومن رجال العلم أيضا فرنطونس. كان أستاذ الإمبراطور مرقس أوراليوس (الروماني) وله سمة بين جميع الطبقات في الفن الهندسي. وهو مولود بقرطة»<sup>28</sup>.

ومنهم ابوليوس كان مخترعا كبيرا قال بيروني: «هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره، وأحسن وصف له وأصدق ان تقول: هو رجل مخترع مؤسس لمبان كثيرة» وأصل ابوليوس من «مداوروش» في شرق الجزائر.

ومن رجال العلم والدين الذين نبغوا بعد الميلاد وبلغوا الذري الرفيعة في العلم، وفي الفصاحة والبلاغة، وفي التضلع في اللغة اللاتينية، القديس اغسطين. ولد بتغاست (سوق هرس) في شرق الجزائر، في القرن الرابع المسيحي وتعلم بمدوروش، وفي قرطاجنة، وعين قسابهيون (عنابة) في شرق الجزائر: قال بيروني: «ان اغسطين اخطب خطيب لطيني، واكبر مفكري كل زمان».

ومن علماء البربر وأعلامهم في الدين دونتوس مؤسس المذهب المسيحي الذي زاحم مذهب الارثوذكس في المغرب، وانتشر انتشارا كبيرا في البربر.

وق بلغ البربر بطموحهم وعلمهم ودهائهم ونضوجهم في السياسة ان كان منهم أباطرة جلسوا على عرش روما، وهي لدولة المتعصبة لجنسها، الشامخة على غيرها، سيما الأمم التي تستعمرها مثل البربر. لقد كان (سبتمس سورس) البربري إمبراطورا لرومة في سنة 193 ميلادية، وقد خلفه على العرش روما ابنه (ثرقلا) وقد اعتنى هذان الإمبراطوران بالمغرب كل لاعتناء، وأنصفا البربر وساووهم بالرومان، فازدهر المغرب في عهدهما، وأقبلت عليه الأيام البيضاء، هذه هي بعض الشخصيات البربرية قبل الإسلام، أم في العصور الإسلامية فان علماءهم، وشعرائهم، وساستهم، وملوكهم، وزهادهم،

28- تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 225 ط بيروت 1963.

لا يمكن ان يكون من الأزدال. ثم قال ابن خلدون يصف البربر في العصور الإسلامية: «وأما إقامتهم لمراسم الشريعة، وأخذهم بأحكام الملة، ونصرهم لدين الله، فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصيانتهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة في الصلوات ببواديبهم، وتدارس القرآن بين إحيائهم، وحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وإصغائهم لأهل الخير والدين من أهل مصرهم للبركة في آثارهم، وغشائهم البحر أفضل المرابطة ولجها، وبيعهم النفوس الله في سبيله، وجاد عدوه، ما يدل على رسوخ إيمانهم، وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كنت ملاكا أعزهم، ومقادا إلى سلطانهم وملكهم». ثم قال ابن خلدون: «وأما وقوع الخوارق فيهم، وظهور الكاملين في النوع الإنساني من أشخاصهم، فقد كان فيهم من الأولياء المحدثين، أهل النفوس القدسية، والعلوم الموهوبة، ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المفطورين على الاطلاع على الأسرار الغيبية، ومن الغرائب التي خرقت لعادة، وأوضحت أدلة القدرة، ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجيل، وكرامته لهم، بما آتاهم من جماع الخير، وأثرهم به من مذاهب الكمال، وجمع لهم من متفرق خواص الإنسان الخ...»<sup>27</sup>.

تلك هي بعض أوصاف البربر الخلقية والعقلية ق جلونها، وجلاها ابن خلدون في هذا الباب، وهي تصور شخصيتهم العظيمة، وأصلهم الكريم، فما هي الشخصيات التي نبعث منهم قبل الإسلام في مختلف الميادين، فكانت مظهرا لشخصيتهم، ومن الأدلة الكبرى على عظمة هذا الجنس، واقتعاده الذري في المكارم قبل الإسلام بقرون كثيرة؟

### عباقرة البربر وأعلامهم قبل الإسلام

ان البربر من الأمم التي سبقت إلى الحضارة، وتثقفت وتعلمت، وقد انشأ البربر قبل الميلاد دولا كبيرة، ونبغ منهم رجال في مختلف الميادين، ونحن لا نستطيع ان ذكر كل من ورد ذكره في كتب التاريخ من ملوكهم وعلمائهم، ورؤسائهم، ولكن نقتصر على طائفة منهم، لتعلم صدق ما قلناه وقاله ابن خلدون من عظمة الأمة البربرية وسبقها إلى الحضارة والعلم، واتصافه بكل الخلال الحميدة، لما كانت اغلب الأمم قبل الميلاد على سذاجة البداوة وعلى الجهل والفوضى.

كان البربر عباقرة في كل فن، في السياسة وفي الحروب، وفي مختلف العوم، فمن شخصياتهم العبقرية في السياسة الملك غولة، وصيقاقس، ومصينيسا، ومصيبسا،

27 - العبر لابن خلدون ج 6 ص 104، 105 ط بولاق بمصر.

ونبغائهم في كل فن لا يحصون. ان كتب الطبقات والتاريخ ملأى بهم. سيما السير للشماخي. والطبقات للدرجيني. وسير الأئمة لأبي زكرياء. ومعالم الإيمان للدباغ. ورياض النفوس للمالكي وغيرها كثير.

### ظلم المؤرخين القدماء للبربر

تلك هي شخصية البربر وبعض أعلامهم الذين يمثلون تلك الشخصية. وقد وقفنا في هذا الباب الذي يصور حقيقة لبربر وقفة. لان البربر امة مظلومة في التاريخ. ان ثوراتهم لتحريرية على الدول التي استعمرتهم. الرومان والوندال. والروم. وقد أطلقت السنة هؤلاء المستعمرين في البربر فوصفوهم بما ليس فيهم من العيوب. وقال فيهم مؤرخوهم قول المحنق المغتاز والعدو الكاشح. وملأوا كتبهم بالأكاذيب على البربر فجاء أحفاد الرومان. هؤلاء المستعمرين اللاتينيون الذين تسلطوا على المغرب في القرن التاسع عشر. وفي القرن العشرين الميلاديين فرددوا تلك الأكاذيب. وتلك الدعاوي على البربر. وزادوا فيها. وصوروا ثوراتهم التحريرية الشريفة على غير حقيقتها وعللواها بغير سببها. وقالوا أنهم ثاروا حبا للفضي. وميلا إلى التخريب. ورغبة في السلب والنهب. وصوروهم كما يسول لهم حقهم الموروث. وغيظهم على هذه لجال المغربية التي يرون حتوفهم وزوالهم عن المغرب كامنا فيها.

وثار البربر على الأمويين والعباسيين في المغرب. لما ظلموهم وجبروا عليهم وحادوا عن دين الله في سياسة المغرب. ثار عليهم البربر ثوراتهم العارمة. وضربوهم الضربات القاصمة. وحرروا منهم. واستقلوا. وأنشأوا دولهم الإسلامية العادلة التي تتمسك كل التمسك في السياسة بالدين. وتعمل لإسعاد لمغرب وازدهاره<sup>29</sup> فحقد هؤلاء العباسيون والأمويون وغيرهم على البربر. وبسطوا فيهم السنة السوء. وصورهم على غير حقيقتهم. وملأوا كتب التاريخ بالأكاذيب على البربر والدول البربرية العادلة. وجاء من بعهم فاعتر بما ورد في كتب التاريخ القديمة المسمومة. فقلد أولئك المؤرخين المغرضين في دعاويهم الباطلة على البربر. فصار البربر هم الأمة الكريمة الصالحة المظلومة في كتب التاريخ الإسلامية القديمة. وفي الكتب الحديثة المقلدة أيضا.

وما جعل الدعاية السياسة المغرضة تؤثر في البربر قضاء الدول المستبدة على تراث الدول البربرية الإسلامية الأدبي والتاريخي بالخصوص. فانعدم جل المصادر التاريخية

29 - انظر ثورات لمغرب على الأمويين في الجزء الثاني من هذا الكتاب من صفحة 319 إلى 232 وثوراته أيضا على العباسيين في الجزء الثالث من هذا الكتاب من صفحة 42 إلى 82 الطبعة الأولى 1382هـ.

النزيهة التي تصور حقيقة البربر وتخلد أمجادهم ومآثرهم التي جعلهم من أكرم الأم التي يفتخر بها العالم الإسلامي.

### عيوب البربر وأمراضهم النفسية

تلك هي بعض مآثر البربر. وصفاتهم الحسنة قد ذكرناها في هذا الباب. فما هي صفاتهم السيئة. والداء الذي قتلهم. وهدم دولهم قبل الإسلام. وكان أيضا سببا لتداعي كثير من ولهم الإسلامية؟ انه داء البشر جميعا. والطبع القتال الذي هدم لدول كلها. انه الحسد والحقد. هذا الحسد وهذا الحقد اللذان استطاع الرومان بهما ان يفرقوا جماعتهم. فضعفوا. فتغلبوا عليهم فاستعمروا بلادهم. وأججوا عليهم نيرانهم وويلاتهم. وصبوا عليهم كل بلاء. فلو خلت صدور ملوكهم من الحسد لاخذوا. وتغلبوا على الرومان وكانوا هم الأمة التي تصرع روما التي التهمت جيرانها كلهم. فان البربر كنوا في الشجاعة. والفروسية. والاستماتة في الحروب أكثر من الرومان. ولكن الحسد فرق صفوفهم. وأبطل خصائصهم العظيمة. وجعل شجاعتهم وقوتهم عليهم بلاء. فان الأخ أصبح يغمد سيفه في أخيه لا في عدو الوطن. ويفكر في القضاء على أخيه ليخلو له الجو. ويستأثر بالملك. قد أعماه حب الرئاسة عن أخطار المستعمرين التي خدق به. لا يكتسب ود أخيه بالصفاء والإيثار. فيستعين به على عدو المغرب الذي يترصب بهم الدوائر. ويستعد للانقضاض عليهم. ليجعلهم تحت قدميه.

ان لبربر كنوا امة متحاسدة لأنهم شعب قوي الشخصية. معتدون بأنفسهم كل الاعتداد. كل منهم يرى نفسه أولى بالتقدم والرفعة. وبالزعامة. والرئاسة. فكان الحسد فيهم أكثر.

ومن عيوب البربر وآفاتهم الكبرى الحقد. فإنهم لا ينسون الإساءة بسرعة. بل يحقدون. فيفرق الحقد جماعتهم. وينغص حياتهم. ويحرمهم من نعمة الهناء والطمأنينة التي حفهم الله بأسبابها في المغرب الجميل.

ان الحقد توأم الحسد ينبعان من أصل واحد. وتخلقهما في النفس غريزة واحدة هي غريزة السيطرة وحب الظهور القوية في البربر لقوة شخصيتهم. أنهم يعتدون بأنفسهم كل الاعتداد. وترى البربري يرى نفسه أقوى من ان يظلم أو يهان. واعز من ان يهم له حق. أو تناله إساءة احد. وإذا أذنب إليه خوه اغتاز واحتدم فينتقم أو يضمم الانتقام.

ان البربر وان كانوا يحقدون إذا غضبوا فإنهم لا يغضبون بسرعة. أنهم يضبطون أنفسهم. فغضبهم بطيء. لا يشتعلون بسرعة. وإذا اشتعلوا فإنهم لا ينطفئون بسرعة. أنهم كالفحم الحجري بطيء الاشتعال بطيء الانطفاء إذا تأجج ناراً !

وما أروثه الاعتداد بالنفس. لقوة الشخصية للبر التمسك بالرأي إلى درجة العناد. أنهم يناضلون عن آرائهم في قوة وثبات بالحجة والبرهان. كما يناضلون عن أوطانهم بالسيف والسنان. فهم في ميدان المناظرة على الثبات والقوة وشدة الشكيمة التي يتصفون بها في ميادين الحرب والقتال.

وقد غير الإسلام من نفوس البربر. وكسر من حدة الحسد والحقد في نفوسهم. واشربوا نور الله فغسلهم من هذا الوضر. وأزال السبب الذي كان يمنعهم من الاتحاد. ويعوق المغرب الكبير من التأزر. فأصبحوا بنعمة الإسلام إخواناً. وصاروا بفضل بنياناً مرصوصاً بشد بعضه بعضاً. فكونوا دولهم الإسلامية العظيمة التي رفعت راية الدين والعدل الإسلامي وأصبحت غرة وضاحة في جبين الأمة الإسلامية.

تلك هي شخصية البربر كما يمثلها تاريخهم في مختلف ادوراهم. قد آثارنا ان نبسط الكلام فيها في هذا الباب فلا تقتصر على حالهم في العصر الحجري وفي أيام طفولتهم لكي لا عود إليها في الأبواب التالية. فان العودة تتداخل بها الأبواب. ويتوزع بها الكلام في الموضوع الواحد في فصول شتى فيسرع إليه النسيان. هذه الشخصية العظيمة التي سترها في الأبواب المقبلة جلية في أعمال البربر في البناء والتشييد. وفي النضال والجهاد الوطني. وفي كل الأعمال التي أخرجت البربر من البداوة إلى الحضارة. ومن الجهل إلى المعرفة.

لقد كان أجدادنا الأمازيغ في ظلمات الجهل وعلى بساطة العهود الحجرية. فمن الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور. وكان الأستاذ المخلص البار الذي ثقفهم واخذ بأيديهم إلى القمم الرفيعة؟ من هذا الجنس الكريم الذي اختلط بالبربر اختلاط ماء المزن بالتربة الكريمة فأخصبت. وطلع عليهم طلوع الصباح الوضاح فمسح عيونهم بمناديل النور فتفتحت للحياة؟ أنهم الفينيقيون الكرام. فما أصلهم وأين موطنهم. ومتى جاءوا إلى المغرب فأسسوا دولتهم البونيقية التي كانت للمغرب جهاز الطائرة العتيدة. ركبته الله فيه. فهدر كالرعد. وكان له دوي في العالم أناله الشهرة الواسعة وانطلق كالعاصفة فوصل الغابات الكبرى وتبوأ القمم الشماء !

## الدولة البونيقية

146-814 ق.م

## الفينيقيون

هم فخر البشرية وتاجها. وحاملو نبراس الحضارة إلى الأمم الأوروبية. ومنفذو أوروبا من ظلمات لهماجية. وهم فاحو البحار بالأساطيل لتجارية. ومكتشفو كثير من البقاع المجهولة بمغامراتهم في لبحار والبراري.

وكن الفينيقيون لدول امة مسحت عن لبربر بدواة العصر الحجري. وأثرت فيهم بحضارتها. فانتقلوا من دور البساطة في الحياة إلى ادوار راقية أسسوا فيها ممالك. وبنوا حضارة. وزاحموا جيرانهم في المدينة في المدينة الراقية.

### وطنهم

وسمي الفينيقيون فينيقيين نسبة إلى وطنهم (فينيقيا) وهي قطعة من الشام مستطيلة على سيف البحر الأبيض المتوسط. يفصلها عن بقية الشام جبل لبنان: وفينيقيا هي بلاد لبنان اليوم.

وقد نزل الفينيقيون في ذلك المكان فاستوطنوه منذ ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد لمسيح عليه السلام. وهم امة قليلة العدد. ولكنها عملت في التاريخ القديم أعمالا جلييلة لا تخصي.

### أصلهم

الفيينيقيون امة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. فهم إخوة العرب. وفرع منهم. وبطن من أرومة كنعان العتيدة. لا يميزهم عن عرب الجزيرة إلا سيما البيئة الجديدة. وما أورثته لهم مغامراتهم وأسفارهم من ثقافات وحاترات.

وكان الفينيقيون كبقية إخوانهم في جزيرة العرب. فانتقلوا إلى الشام مع بني كنعان لما هاجروا ليه. فاتخذوه وطنا فعمره فصار منسوباً إليهم. وقد اختص الفينيقيون بذلك الشريط الذي يفصله عن بقية الشام جبل لبنان.

### شخصية الفينيقيين

وكانت بيئة الفينيقيين الطبيعية سبب عظمتهم. وعامل تفوقهم. وخروجهم من

الفقر إلى الغنى، ومن الجهل إلى نور العلم والحضارة. فان لبنان كان جبالا قفراء ضيقة، لا يكفي أهله، فأجأهم إلى الأسفار والمغامرات في سبيل التجارة قديما كما يلجئهم في العصر الحاضر، فهاجروا إلى أطراف الدنيا، فتجددهم في أمريكا، وتراهم في أوروبا، وجئهم في أنحاء افريقية، يتاجرون، ويذاحمون كل الأجناس في الميادين العلمية الشريفة.

وقد هاجر الفينيقيون كأحفادهم ليوم، وسافروا وغامروا في سبيل التجارة، فأفادتهم هجرتهم وأسفارهم البعيدة، فاتصلوا بالأمم الراقية في ذلك العصر كالمصريين، والهنود، والصينيين فتأثروا بحضارتهم، ونقلوها إلى بلادهم فصارت فينيقيا في العالم القديم أغنى البلاد، وأسعدتها، وأكثرها علما وحضارة وتقدما.

### فضل الفينيقيين على الإغريق وعلى جنوب أوروبا

وكان الفينيقيون ينقلون حضارة الشرق القيمة إلى كل بلد قصدوه للتجارة، فكانوا أساتذة الإغريق، وحملوا نور لعلم والمدينة إلى جنوب أوروبا، فاطلعوا على مدينة الشرق التي كانت أول مدينة في العالم فاخذوا بها، فتفتحت عيونهم، وذاقوا نعيم المدينة وحلاوة الحضارة، فانسلخوا - سيما الإغريق - من جهالتهم التي كانوا عليها، ومن الشقاء والهمجية التي كانوا يرسفون في أغلالها.

وكان الفينيقيون متخصصين للتجارة، فبرعوا فيها كل البراعة، وحذقوها كل الحذق، ونجحوا فيها كل النجاح، لا تصافهم بكل الصفات التي تستلزمها التجارة الناجحة، من علم، ودمائة في الخلق، ومسائلة في الطبع، وحسن في المعاملة، وحرص على اكتساب قلوب الناس، ونيل الشهرة والسمعة الحسنة في الأقطار.

وكان المثل الأعلى الذي يستولي على قلوب الفينيقيين، ويكون شخصيتهم، ويوجههم في سلوكهم ماديا، وهو الغنى الوافر؛ والثروة الواسعة بواسطة التجارة والصناعة، فلذلك برعوا في كل العلوم التي تستلزمها التجارة والصناعة، من حساب وجغرافية، وعلم بالمعادن والكيمياء، ومعرفة أذواق الأمم، وطباعهم وغير ذلك من الفنون التي تستلزمها التجارية الواسعة، والصناعة الراقية.

ان الفينيقيين في الأخلاق كانوا على القوة في الصفات التي ذكرنا، ولكنهم ضعفاء في خلق عظيم، وفي ناحية مهمة في الحياة نجد التاجر في كل العصور ضعيفا فيها، وهي الشجاعة الحربية التي تستلزم الهجوم والصدام، والعنف والشدة، وهو ما يتنافى مع مصلحة التاجر حيانا، ويغايير طبعه المسالم، وما يحرص عليه من نيل رضى كل لناس، وحب الطوائف والأجناس.

وقد أورث للفينيقيين حبههم للمادة وتمجيدهم لها ما يتصف به الأغنياء في أوطانهم من كبر وشموخ، واحتقار للغرباء، وعد مبالاة بالضعفاء، هذه الصفات التي ستلازم أحفادهم البونيقيين فتكون سبب نفور البربر عنهم، وثورتهم عليهم.

### لغتهم

وللفينيقيين لغة سامية هي أخت العربية والعبرية، لذلك كانت لفاضها بينهما للأصل الواحد، ولاختلاط الكنعانيين بالعبرانيين في الشام، فتأثرت عربيتهم بالعبرانية.

### دينهم

وكان لفينيقيون كالبربر يعبدون أشياء كثيرة، ومنها الشمس، يسمونها بعل وهو أكبر ألهتهم، وله تمثال كبير من نحاس ذراعيه فإذا أرادوا استرضاءه والتقرب إليه أوقدوا فيه نارا حتى تحمر يداه الحديدتان، ثم يعون أطفالهم عليهما فتنخضف الذراعان، فيتدحرج الطفل في حفرة النار، فيحترق بين يدي الإله الذي يرجون رضاه بذلك، ان التضحية بالأولاد عادة في الفينيقيين، وكانوا إذا بنوا دارا قربوا لإلههم (بعل) قربانا وهو صبي صغير يضعونه في حفرة الأساس، ثم يقيمون بناءهم على تلك الضحية التي يسترضون بها الرب ليبارك في البناء، ويتطول بالزيادة والنماء، وإذا داهمهم خطر سارعوا إلى استرضاء (بعل) بتقديم القرابين من أبنائهم الأعداء.

### مآثر الفينيقيين

والفينيقيون هم أول من بنى الأساطيل التجارية، وغامر في البحار إلى الأقطار النائية، وقد سلكوا في اليم طرقا لم يسلكها قبلهم إنسان، وتعرفت إليهم الأمواج فالفتهم وألفوها، فصاروا أبناء البحر لا يجدون الأونس إلا في زئير أمواجه، اصطخاب مياهه، وق توغلو في البحر وابتعدوا في الرحلة حتى بلغوا الهند والصين في الناحية الشرقية، والجزر الانكليزية في جهة الشمال.

وهم أول من اخترع الحروف الهجائية بع ان كانت الكتابة تصويرية قاصرة، ففتحوا للعقل الإنساني مجالا ضمن له الرقي والخلود، وقدموا للبشرية اختراعا ضمن لهم التواصل وان كانوا بعداء، والتخاطب والتفاهم وان فصلت بينهم أقطار الدنيا، ولولا الكتابة لكانت الدنيا على قصور الأبكم الذي لا يعرف غيره معانيه، فهي اختراع عظيم

دونه القنبلة الهيدروجينية والصواريخ، وكل الاختراعات البديعة التي يفتخر بها الغرب على الشرق. وقد اخذ الأوروبيون حروفهم من الفينيقيين وقلدهم فهم الذين قدموا إليهم هذا الاختراع.

وقد استفاد الفينيقيون من الاتصال بالأمم الراقية فاقتبسوا منهم أساليبهم في التجارة ومهارتهم في الصناعة، فازدهرت الصناعات في مدنهم، وبلغوا فيها أعلى الدرجات، وكانت مصنوعاتهم غاية في الدقة والإتقان. وقد برعوا في الحياكة، وفي الصياغة، وفي صنع الزجاج المزخرف، والأسلحة، وغير ذلك من المصنوعات التي تروج في مختلف الأقطار.

### حكومتهم

وكانت حكومة الفينيقيين اتحادية. لكل مدينة من مدنهم الكبرى ملك يحكمها، وللجميع مجلس عمومي واحد يجتمع في العاصمة (صور) وهم يخضعون له وينفذون قراراته.

تلك هي شخصية الفينيقيين وبعض خصائصهم، ومآثرهم، فكيف تعرفوا إلى المغرب، وقويت علاقاتهم به حتى انتقلوا إليه؟

## انتقال الفينيقيين إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

كان الفينيقيون في أول أمرهم متجهين في تجارتهم في البحر الأبيض المتوسط إلى حوضه الشرقي، فأسسوا مراكز في جزيرة قبرص، وعلى ضفاف البحر الأسود، وفي القفقاس. ولما نهض الإغريق نهضتهم الكبرى، وصحوا من جهالتهم بفضل الفينيقيين الذين اتصلوا بهم ففتحوا عيونهم، نازل هؤلاء الإغريق أساتذتهم الفينيقيين في ميدان التجارة والحضارة والعلوم، فاستولوا على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، فاحتلوا أسواقه، واحتكروا التجارة فيه، وكثروا للفينيقيين وكان الفينيقيون مسالمين فتركوا للإغريق الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط فاجتهدوا إلى الحوض الغربي منه، فاتصلوا (بليبيا)<sup>30</sup> وبشواطئ المغرب كلها، فأسسوا فيها مراكز للتجارة 30 - المراد بليبيا هو ما يطلق عليه هذا الاسم الآن وهو طرابلس وبرقة

ومرافئ للسفن. ثم احتلوا جزر تلك الناحية فاتخذوها قواعدهم فأنشأوا مراكز لهم في صقلية، وسرادنيا، ومالطة، وفي الجزائر الشرقية في الأندلس وقد بلغوا الأندلس وأنشأوا فيها مراكز تجارية، وبنوا فيها مدينة (قادس) لق تعرفوا إلى الحوض الغربي كله شماله وجنوبه، واتصلوا بأهله، واستولوا على أسواقهم ببراعتهم في التجارة، ومعاملتهم الحسنة، ونواياهم الطيبة نحو الشعوب.

### مرافئ الفينيقيين ومراكزهم التجارية في المغرب

وق أسس الفينيقيون لسفنهم وجارتهم من البربر مرافئ ومراكز تجارية على شاطئ المغرب من برقة إلى المغرب الأقصى، قيل انها بلغت ثلاثمائة مركز، واهم المراسي البحرية اليوم في المغرب الكبير من إنشاء الفينيقيين، وذلك لعلمهم بساحل المغرب، وخبرتهم بالملاحة، ودرايتهم بالمرافئ الآمنة التي تصلح للأسطول الكبير.

ومن مرافئ الفينيقيين في المغرب، ومراسيهم الكبرى: لبدة في شرق طرابلس وطرابلس، وصبرة وقابس، وحضرموت (سوسة) وعوتيقة، وبنزرت، وطبرقة وهذه الخمسة الأخيرة في تونس.

أما الجزائر ففيها من مراسيهم الكبرى (هبون) وجيجل، وصدای، (بجاية) واقسيوم، (الجزائر) وشرشال، ووهران.

أما في المغرب الأقصى فطنجة، وسلا، والدار البيضاء، وغيرها.

وكان الفينيقيون ينشئون قرب هذه الموانئ أسواقا للتجارة، يعرضون فيها بضائعهم على البربر، ومخازن للبضاعة، وبيوتا يسكنونها أيام قامتهم في تلك الناحية للتجارة، أو للاستراحة، فنشأت بهذا على الشاطئ المغربي والأندلسي قرى عديدة ازدهر بعضها حتى صارت مدنا كبرى كعوتيقة في غرب قرطاجنة على الساحل فإنها كانت عاصمة شمال افريقية، وعروس تلك النواحي حتى تأسست قرطاجنة فاخملتها، وكقادس في الأندلس.

### علاقة البربر الحسنة بالفينيقيين

وقد رحب البربر بالفينيقيين لما رأوا من حسن معاملتهم وطيب نواياهم، ولما يستفيدون منهم من أساليب الحضارة، وألوان المدينة، كما أحسن الفينيقيون إلى البربر لمعاملتهم الجميلة، وباصطناع رؤسائهم بالهدايا والاحترام، وبالتبجيل والإعزاز، فتوثقت

الصداقة بين الجنسين. فوج الفينيقيون في المغرب أحسن الأسواق. وكان البربر أحسن الزبناء. وأكرم المعاشرين؛ فانتعشت جارة الفينيقيين وازدهرت وأصبح المغرب وجهتهم في التجارة. ومعدنهم لغنى في المواد الخام التي يحتاجونها في الصناعة. وأصبحت الأساطيل الفينيقية التي تغدو وتروح مثقلة بالصادرات والواردات هي السحائب الروية التي يرقب البربر في المغرب طلوعها. وترقب فينيقيا إقبالها غير أنهم يرقبون طلوعها في زرقة البحر متهادية. لا في زرقة السماء مرعدة.

وكانت التجارة بين البربر ولفينيقيين مقايضة. يأخذ الفينيقيون من البربر الأنعام والصوف. والجلود. وريش النعام. والعاج. والصمغ. والزيت. والحبوب التي يتزودون بها. وغير ذلك من سلع المغرب في ذلك الزمان. ويدفعون إليهم من مصنوعاتهم. وما يجلبونه من المشرق. كالثياب المصبوغة. وأواني الزجاج والفخار. والأسلحة. والخمور. وغير ذلك من السلع التي يقتنيها البربر للضرورة أو للزينة.

ان البربر امة ذكية طموح نحت حضارة. وتغرم بالجمال ولهم ذوق كونه فيهم بيتهم الطبيعية الجميلة. لذلك رحبوا بالفينيقيين الذين حملوا إليهم الحضارة. ورأوا فيهم جمال المدينة.

وكان الفينيقيون يختلطون بالبربر اختلاطا كبيرا. وكانوا يغشون قراهم. ويمتزجون بهم في الأسواق. وكانوا يستعملون جماعات كبيرة من البربر في شحن السفن وإفراغها. وفي الحراسة. وفي كثير من الأعمال التجارية الأخرى. وقد كان هذا من أسباب امتزاج البربر بالفينيقيين وتدريبهم على كثير من الأعمال الفينيقية وصناعاتها.

وقد ظل الفينيقيون جماعات تجارية منبثة في ساحل المغرب الطويل من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي. ليس لهم من المنشآت إلا مراكزهم التجارية التي شاركهم البربر في بعضها فصارت مدنا أهلة. كمدينة (عوتيقة) في غرب قرطاجنة. وليس لهم رابطة في المغرب كرابطة الدولة جعلهم في مكان واحد متحدين. حتى نشأت الدولة البونيقية فجمعت شتاتهم. واستظلوا جميعا بظلمتها. وتفتحت وأشرقت في المغرب بالعلم والمدينة الراقية. فنفخت في البربر روح الحياة. فهبوا إليها مستبشرين كما يهب البازي لنور الصباح. فاقتبسوا من علمها وحضارتها. فدخلوا في ربيعهم. وأمسوا كالبونيقيين في العلم والحارة والرقي. فكيف نبتت هذه الدولة البونيقية المباركة التي بذر بذورها في المغرب هذه الجماعات الأولى من التجار الفينيقيين؟

## نشأة الدولة البونيقية

كان الفينيقيون في القرن التاسع قبل الميلاد قد بلغوا في الحضارة ولغنى الذري الرفيعة. فانغمسوا كل الانغماس في النعيم. وأطلقوا العنان لشهواتهم. فأصابتهم أمراض الحضارة والانغماس في الملذات. فانحلت أخلاقهم. وسلطت عليهم الأنانية والحسد. واستولى عليهم حب المادة فصار كل امرئ في الدولة -سيما الطبقات الارستقراطية- يعمل لنفسه لا يبالى بالمصلحة العامة. وبسلامة الدولة. فكثرت الفتن الداخلية في فينيقيا. وتناحر الناس وتقاتلوا على الرئاسة والأموال. فانعم الصفاء. وشاع الظلم والعدوان وسادت سياسة الغاب فيها. فصار القوي يأكل الضعيف والمحروم يحسد المحظوظ. والمرؤوس يعمل للثورة على الرئيس.

وكانت فينيقيا إلى هذه الفتن الداخلية آلت تنهكها. وتصنع لا زوالها. قد أصيبت بأعداء أقوياء من الخارج يهاجمونها. ويقضون مضجعها بعدوانهم وحروبهم العارمة التي لا تخبو. وكان من أولئك الأعداء الذين يقلقون راحة فينيقيا في هذه العهود الآشوريون في العراق.

وكانت طبقة الشباب المثقف في فينيقيا سيما في العاصمة (صور) تحب الهدوء والاستقرار. ان عملهم هو التجارة والصناعة وإيماء الأموال. فرغبتهم الشديدة. وأملهم الكبير ان يعم السلام ربوعهم. وتهدأ الأيام؛ ولكن فينيقيا مريضة بفساد النفوس. انها قد دخلت في هرمها فلا يمكن شفاؤها من الهرم. لابد من مكان آخر بعيد عن فينيقيا يجدون فيه الهدوء. ويليق لبناء الدولة التي يريدون. أنهم يعرفون المغرب وجماله. سيما افريقية وخصبها وبهاءها. ويعرفون البربر وكرم نفوسهم. وحسن عشرتهم. وترحيبهم بالفينيقيين. فصار المغرب متجه أنظارهم. بودهم لو انتقلوا إليه جماعات كبرى فاستقروا فيه. وأنشأوا فيه الدولة الفينيقية التي تسعدهم وتوسع لطموحهم. وظل هذا الأمل يراود كثيرا من شباب فينيقيا الطموح. ويجيش في صدور كثير من خاصتها وذوي الرأي والتدبير فيها. حتى انتقلت عليسة ديدون إلى المغرب فانتقل ذلك الشباب الصالح الطموح معها. وتلاحق بها كثير من خاصة فينيقيا وذوي المواهب ولكفاءة والثروة فيها فاستوطنوا المغرب. فنشأت فيه دولتهم. فما هي الأسباب التي جعلت عليسة ديدون تفر إلى المغرب وتستقر فيه؟ ان السبب الأول والأصيل هو القلاقل في فينيقيا. وهرم فينيقيا. ومرضاها بأمراض الحضارة والانغماس في الملاذ. فرات عليسة

بثاقب نظرها ان المغرب أحسن لها. ومجاورة البربر الذين لا زالوا على الفطرة اسعد لها من مجاورة هؤلاء الماديين المتحاسدين من قومها. ذا هو السبب الأصيل في انتقالها إلى المغرب. ومع هذا السبب الأصيل سبب آخر مباشر جعلها تخزم الحقائق. وتمتطي غوارب الأمواج. وتسرع إلى المغرب الهادئ الجميل. فما هو السبب المباشر لنفور الغزاة من كناسها. وإيثارها المغرب وطنها لها. والأمازيغ أهلا لها. وجيرانا يسعدونها؟

## فرار عليسة ديدون إلى المغرب وبناء مدينة قرطاجنة

### شخصية عليسة

كانت عليسة امرأة شاة فينيقية الأصل يجري في عروقتها دماء الملوك. وكان أبوها (مطو) ملك صور عاصمة فينيقيا. وكان داهية قوي الشخصية فورثت عليسة منه دهائه وقوة شخصيته.

وكانت عليسة إلى ذكائها وقوة شخصيتها جميلة بارعة الجمال. فرغب فيها عمها الكاهن. وكان أعظم شخصية في الدولة بعد الملك. فتزوجها. وكان هذا لكاهن غنيا كثير الأموال والكنوز. وكان وجيها يحبه الناس ويجلونه لماله ولوظيفته الدينية. قال الدكتور توفيق الطويل: «فمات (مطو) ملك صور فعين ابنه بيغماليون خلفا له في الملك. وكان فتى يافعا. وكانت لبنته غاية في الحسن والجمال. فبني بها خالها (وقيل عمها) عاشرياص وهو كاهن (هيرقليس). وكان مهيب الجانب. موفور الحظ. لا يعلوه بين الشعب إلا الملك وحده. وكان إلى هذا ثريا عري الثراء. وقد خاف على أمواله الطائلة من غائلة الملك وحشمه. ومن الحاسدين له. فخبأها في الأرض بعيدا عن مسكنه».<sup>31</sup>

وكان بيغماليون يعرف كنوز عمه (عاشرياص) فبلغ خبر دفنها في الأرض. فعزم على الحصول عليها. فاستشاط غضبا على عمه عاشرياص ورآه عقبة في سبيل هذه لكنوز. كما حسده لما يتمتع به في الشعب من حب واحترام. من يدري لعل الشعب يسأمه لسوء سياسته فيتجه إلى عمه فيتوجه بدلا منه. فيصبح هو الملك على صور. لآبد من إزالة هذا الرجل الذي يمنعه من الوصول إلى كنوزه الخبأة. ويشاركه في حب الشعب وتقديره. فاخترط بيغماليون المالك لطاغية سيفه فقتل عمه عاشرياص !!

وكانت عليسة ذكية حازمة. وكان لها أعوان وحاشية من الشباب المثقف الشجاع في صور. وكان معها أيضا كثير من خاصة صور وذوي الغيرة والذكاء والشجاعة فيه. فأعانوها وشدوا أزرها. فحملت كنوز زوجها الخبأة فهربت هي وحاشيتها من الشباب

31 - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ١٧ ط الثالثة بالقاهرة وقد تصرفنا في عبارة النص لينسجم بأسلوب هذا الكتاب الأدبي.



والخاصة إلى المغرب. وكان طريقها على البحر. فأقلعت سفنها في جنح الظلام متجهة إلى قبرص لتحتمي بها ريثما ينقطع الطلب. ثم سارت إلى المغرب الأمين فحلت فيه. وجعلته وطنها الدائم.

قال الأستاذ احمد صفر: «فرست عليسة هي ومن معها بجزيرة قبرص. فتلقاهم كاهن تلك لجزيرة بكل حفاوة وأهدت إليه عليسة من أموالها.

وكانت العادة بقبرص ان يرسوا بناتهم في أوقات معينة إلى الشاطئ ليضحين بتولتهن للإلهة فانوس. ويقوم ذلك عندهن مقام المهر. وهذه العادة تسمى بالبغاء المقدس. فاخترت عليسة من أولئك الفتيات الخارجات إلى الشاطئ ثمانين فتاة لا زلن عذارى طاهرات. وأخذتهم معها إلى المغرب ليكن زوجات للشبان الكثيرين الذين انتقلوا معها إلى المغرب»<sup>32</sup>.

ووصلت عليسة إلى المغرب فقصدت افريقية وكانت قد سمعت بجمالها وحسن موقعها. وكان الملاحون والخاصة الذين معها يهدونها إلى أحسن موقع يعصمها ويليق بها في المغرب. فنزلت في شمال افريقية<sup>33</sup> فأسرع إليها فرحبوا بها وبمن معها. وسمع بها ملك البربر يوباس في شمال افريقية قرطاجنة ونواحيها. ففرح بمقدم عليسة ففسح لهم في بلاده. فجالت عليسة هي وخاصتها في شمال افريقية يرتادون مكانا يبتون فيه المدينة التي يكون عاصمتهم وقاعدة دولتهم. فرأوا مكان قرطاجنة (في الشمال الشرقي لمدينة تونس اليوم) فأعجبوا به لخصائصه الكثيرة الحسنة فاختره لبناء المدينة.

### خصائص موقع قرطاجنة ومزاياه الكثيرة

قال الأستاذ احمد صفر: «اخترت عليسة لبناء قرطاج شبه جزيرة خارجة في البحر لها شبه كبير بالموقع الجغرافي الذي تأسست فيه مدينة صور. خصوصا إذا اعتبرنا ان سبخة أريانة كانت متقدمة داخلية في البر أكثر مما نشاهد اليوم. وكانت عبارة عن خليج كبير يسمى (خليج عوتيقة) وكان مصب وادي مجردة لا يبعد عن مدينة قرطاجنة أكثر من خمسة أميال. وكان الردم الذي أحدثه وادي مجردة بنقل التراب والغرين عظيما جدا. ونشأ عن رواسب وادي مجردة سهل السكرة الذي زاد في عرض البرزخ أو العنق الفاصل بين خليج عوتيقة من جهة والبحرين من جهة أخرى. وزاد كذلك ابتعاد مصب مجردة

32 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 87 ط أولى بتونس.

33 - نريد بإفريقيا معناها القديم وهو القطر لتونسي اليوم:

عن مدينة قرطاجنة نحو غار الملح حتى ان (عوتيقة) التي كانت في ذلك العهد مرسى على شاطئ البحر أصبحت الآن تبعد عنه بخمسة أميال»<sup>34</sup>.

### فرح الملك يوناس والبربر ببناء قرطاجنة ونشأة الدولة البونيقية

وعزمت عليسة ومن معها من حاشيتها على بناء مدينتهم. عاصمة دولتهم في هذا المكان الأمين الحصين الجميل. ففاوضت ملك البربر في تلك الناحية يوناس) وطلبت إليه ان يبعتها المكان الذي تأسست فيه المدينة. فعلم ملك البربر ما يكون لبلاده من خير وما يكون فيها من التقدم والازدهار إذا نشأت فيها قرطاجنة فصارت منارا للعلم. ومنبعا للحضارة ينهل منه قومه. ومثلا أعلى ينسج لبربر على منواله. ورأى ما يكون للمغرب كله من حياة وتقدم وازدهار إذا استقرت فيه عليسة ومن معها من ذوي العلم والمهارة والإخلاص والنية الحسنة. ان المغرب لا زال على البداوة. وان قومه البربر ي زالوا على الجهالة. لا يعرفون من الحضارة إلا قليلا. ان فيهم استعدادا كاملا للتقدم والرقى. واقتعاد أعلى الذرى في العلم والحضارة. لابد من نشوء دولة راقية بين ظهرانهم. تنفخ فيهم الحياة. وتأخذ بأيديهم للنهوض. ان البربر امة ذكية طموح. ستتفتح عيونهم إذا أشرق لهم نور العلم والمدينة. فيسرعون ليه إسراع النحل إلى الزهور. ان نشأة قرطاجنة وإنشاء الفينيقيين لدولتهم في شمال افريقية شيء ضروري لنهضة المغرب كله. وازدهار افريقية. ويقظة البربر وتقدمهم !

هذا ما رآه الملك البربري (يوناس) وهذا ما رآه مجلس شورا من رؤساء القبائل. وهذا ما أدركته الخاصة في كل قبيلة بربرية في تلك الناحية. فرحبوا بطلب عليسة. وباعوها المكان الذي طلبت. وهو بقعة من الأرض تسع المدينة الناشئة قبل ان تتسع وتستفيض. فدفعت لهم ثمنها فقبلوه. على انه رمز لاعتراف عليسة بملكهم للمكان. أما الثمن الحقيقي لذي ينتظرونه من عليسة وقومها فهو العلم والحارة. والتقدم. والنهوض للمغرب كله.

### أكاذيب المؤرخين المستعمرين على البربر

ان المؤرخين الأوروبيين المستعمرين. وحداهم في ذلك بعض المؤرخين المحدثين المغاربة قد رووا: ان ثمن الأرض التي اشترتها عليسة كان مالا جلد ثور من الذهب. وان مساحة الأرض كان ما يحيط به الجلد إذا اقطع سيورا دقيقة. وبعضهم يصف البربر بالغفلة وعليسة بالغش والخداع فيقول: انها فاضت الملك البربر (يوباس) على ان يكون لها من الأرض

34 - مدينة لمغرب العربي ج 1 ص 91 ط مطبعة العمل بتونس 1959م.

مقدار ثور. فعمدت إلى قطعه سيورا. فأخذت أكثر مما توهمه الملك البربري. واستطاعت بدائها ان تدفع الثمن القيل وتأخذ الأرض الواسعة !! ان هذا هراء. وأسطورة باطلة. فما كانت عليسة لتخدع ملك البربر وقومه بهذه الحيلة. وهي تطلب وهم. وتعمل لرضاهم. وتحرص على خلق الطمأنينة والثقة بها في قلوب البربر. وما كان ليوناس القوي بنفسه وبقومه الشجعان الصناديد. ان يسكنوا لعليسة. ويتركوها تستقر هي وقومها في المغرب. وهي تخدعهم. وتهينهم بهذه الحيلة. لو فعلت عليسة ذلك لثارت عليها ثائرة البربر. ولفعلوا بها فعل البزاة الهائجة بالحمامة الضعيفة إذا أرادت ان تحتل وكر البزاة !

ان عليسة كانت ضعيفة في المغرب. لم تكن لها قوة حربية. ولا جيش كبير يرهب البربر فتستطيع الجراءة على (يوباس) وختله. وخداعه بهذه الحيلة المكشوفة. ألا ترى كيف عمدت إلى الانتحار لما طلب الملك يوباس ان يتزوج منها.<sup>35</sup> انها لم تستطع ان تمنع نفسها منه بعد ان تأسست قرطاجنة ورسخت عروقتها في المغرب. وتلاحقت بها أفواج غزيرة من فينيقيا. وانضم إليها قومها المنبثون في مراسيهم ومدنهم بساحل المغرب الطويل فغزر جمعها. وتأيدت بهم في افريقية. فكيف تستطيع خداع يوباس. وهي ضيف في المكان. وقومها وأنصارها جماعة يسرة وتلك الناحية.

ان الأوروبيين المولعين باحتقار البربر قد أرادوا بهذه القصة ان يوحوا إلينا ان أجدادنا كانوا جهلا أغبياء متوحشين فاستطاعت امرأة ان تضحك على ذقونهم. وتخلبهم بقليل من الذهب للماع فيزهدها في أرضهم وفي وطنهم الجميل !! وما علموا ان التاريخ ق شهد للبربر بالذكاء والدهاء. وبالفتنة والإيذاء في كل أدوارهم حتى في عهود بداوتهم قبل ان يتحضروا.

لقد حب يوباس بعليسة وصحبها. ورحب بهم البربر لعرفتهم بالفينيقيين قبلها بعهود طويلة. هؤلاء الفينيقيون الذين أحبهم. واستفادوا منهم علما وحضارة وغنى. أنهم ظرفاء ! قد أورتهم البحر من مياهه سلاسة في الطبع. وهم يتصاعدون إليهم من اليم كما تتصاعد السحاب كلاهما خير للمغرب وسبب ازدهار وعمران ! ان أشرعة سفنهم إذا لاحت لهم في اليم وهم مقبلون إليهم من فينيقيا ليرونها أجنحة في سيرها الله للمغرب لتطير به. وان الأمواج البيضاء التي تقدم سفنهم هي العنوان الجميل لهم. وهي علامة على نيتهم البيضاء وقلوبهم البيضاء للمغرب. أنهم يحبونهم. وان الفينيقيين بحسن نيتهم. وإعجابهم بالبربر. واحترامهم وحبهم لهم.

35 - انظر هذه القصة في صفحة من هذا الجزء.

وحسن معاملتهم قد جعلوا البربر يحبونهم. ان هذا الحب وهذه الثقة. وذلك الإعجاب بالفينيقيين هو الذي جعل الملك يوباس يرحب بعليسة وقومها. ويفسح لهم في بلاده. ويرضى بإنشاء دولة لهم في أرضه. لا الذهب. ولا حيلة عليسة وهاؤها. وإذا كانت عليسة قد قطعت جلد الثور سيورا أحاطتها بالمكان فما أحاطت به كان لها. إذا كان هذا هو الوقع كما ذكر المؤرخون فان ذلك باتفاق مع البربر علموه وارتضوه.

ان ملأ جلد ثور من لذهب هو الثمن لمعقول يحيط به إذا قطع سيورا. سيما في مكان خال من عمران كمكان قرطاجنة. وفي روبة على خليج قد يزهده البربر في سكنائها والانتفاع بها. أنهم يهبون لسكنهم الجبال المنيفة. أما الربى المنخفضة فقلما يسكنونها.

ان البربر جنس كريم ذكي. قد أتاحه الله للمغرب فعمره وحماه من الأعداء في كل العهود. ان المغرب وطنهم الأثير وهم أبناؤه الأوفياء. فما كانوا لبييعوا جزءا منه بالمال حبا للمال وحده. وما كان لأجنبي ان يخدعهم ويحتل أرضهم بالحيلة. سيما عليسة وقومها. ان يوباس أكثر منهم عددا. وأقوى شوكة. يستطيع ان يبطش بهم وبيتلعهم لو أحس منهم شرا.

### نشأة قرطاجنة

وكان تأسيس قرطاجنة في آخر القرن لتاسع قبل الميلاد. انه في سنة 814 قبل الميلاد مسيح عليه السلام. فجدت عليسة وجد أصحابها في بناء مدينتهم. وسموها (قرب حدشت) ومعناها القرية الحديثة ثم تطور هذا الاسم فصار بع ذلك قرطاجنة. وقد وجدت عليسة وقومها من البربر كل مساعدة في بناء المدينة. أنهم يقومون لهم بقطع الأخشاب من الغابات. ومدهم بمواد البناء والعمل كإجراء ناشطين مخلصين في بناء المدينة وتعميرها. وقد استطاعت عليسة وقومها بنشاطهم وبراعتهم. وبمساعدة البربر ان ينشئوا مدينتهم في سرعة وإتقان. واستطاعوا ان يعمرها. فاشتهر أمرها. فانتقل الفينيقيون المستقرون في مراكزهم بساحل المغرب الطويل إليها. فصارت هي عاصمتهم. وهي سوقهم الأكبر. ومرفؤهم الأثير.

وكانت عاصمة الفينيقيين قبل قرطاجنة. واكبر مدينة لهم في المغرب هي عوتيقة. وكانت في غرب قرطاجنة. وكانت في تلك العهود مرفئا كبيرا في البحر. وكان البحر متصلا بها قبل ان يردم. ثم تقلص لبحر عنها بما تراكم فيه من الردم بالأودية لتي تنصب فيه سيما وادي مجردة. ولما نشأت قرطاجنة رحلت طوائف كبيرة من الملاحين والتجار

وذوي المواهب واليسار من عوتيقة إلى قرطاجنة فاستوطنوها. كما انتقل إليها جماعات كبيرة من الفينيقيين من قراهم المنبثة في الساحل فاستقروا بها. فاتسع بهم نطاقها. وغزر جمعه. وكانوا من الأسباب في عمرانها السريع. وتقدمها ورفيها.

وكانت قرطاجنة في القرن الأول والثاني من عمرها وفي لنصف الأول من القرن الثالث في طفولتها، وعلى البساطة في الحياة. وفي درجة متوسطة في الحضارة. إلى ان نكبت صور عاصمة الفينيقيين في المشرق بالبابليين الذين سيطروا عليها في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. وبالفرس الذين جعلوها تحت نفوذهم. وعقلوها عن الحركة والنشاط. وقيدهم بقيود العبودية. وكان ذلك في النصف الأخير من القرن السادس قبل الميلاد. ثم تسلط عليها اسكندر الأكبر في لقرن لرابع قبل الميلاد فهدمها. ان هذه المحن التي تواتت على (صور) في المشرق كانت سبب تقدم لقرطاجنة في المغرب. لقد نتقل أهل صور. سيما الأغنياء والعلماء وكبار التجار والصناع والفلاحين. وذوو المواهب ولاقتدار إلى قرطاجنة فسكنوها. وجعلوه وطنهم الدائم. وواصلوا نشاطهم فيها. فانتفعت قرطاجنة كل الانتفاع بهم. فتغير حالها في القرن السادس قبل الميلاد ولبست شبابها. وبلغت أقصى ما وصلت إليه في حضارة والعمران. وفي الغنى والقوة.

وكان القرن السادس بعد نشأة قرطاجنة بقرنين ونصف - كان ذلك القرن هو لعصر الذهبي لقرطاجنة وهو أيام شبابها وعزها واستقرارها. وخلوها من المنافسين والأعداء الأقوياء الذين يزاحمونها. ويعكرون صفوها بالحروب ولازمات.

وقد نتقل إلى قرطاجنة وإلى أطراف الدولة البونيقية كثير من سراة البربر ورؤسائهم الذين يؤثرون الحضارة والنعم. ويختارون لسكنهم العواصم المتحضرة. والنواحي المتمدنة الجميلة. فشاركوا في حضارة قرطاجنة. وحضارة الدولة البونيقية كلها. وكنوا من أسباب عمرانها وتقمها وازدهارها؛ كما انتقل إلى قرطاجنة وإلى الدولة البونيقية جماعات من اليونانيين، ومن الرومان. ومن الإسبان. ومن سكان مختلف الجزر والشواطئ في البحر الأبيض المتوسط فاستقروا بها. فانتفعت قرطاجنة والدولة البونيقية بهذه الأجناس كلها. واستخدمتهم في مختلف أعمالها. وأكسبتهم من ثقافتها. فكانوا عمالا. وصناعا بارعين فيها.

وكانت نشأة قرطاجنة في آخر القرن التاسع قبل الميلاد هي بداية نشأة الدولة البونيقية في افريقية. ان الفينيقيين لم يقتصر على قرطاجنة وحدها بل فاضوا على شمال افريقية وانبثوا في وسطها فامتزجوا بالبربر كل الامتزاج. واتسعت حدود دولة

قرطاجنة فوصلت في المغرب إلى طبرقة. وفي الشرق سرت الأكبر. وفي الجنوب إلى قابس. فأصبح شمال القطر التونسي اليوم. ووسطه وجنوبه. وساحل طرابلس إلى سرت الأكبر تابعا لقرطاجنة. هي عاصمته. والرأس الذي يدبر أموره. ويسوسه في مختلف نواحيه.

وكما تأثير البربر بالفينيقيين واخذوا علمهم وحارتهم. تأثر الفينيقيون المستقرون في قرطاجنة وافريقية بالبر. وأثرت ليبيا<sup>36</sup> في مزاج الفينيقيين. واخذوا كثيرا من العادات البربرية. وسرت في لغتهم كثير من الكلمات البربرية. واقتبسوا في كتابتهم بعض حروف البربر. كما اخذوا بع طقوس ينهم. هذا إلى تزوج الفينيقيين بالبربريات. فتكون في افريقية جنس عليه طابع ليبيا. فيه من فينيقيا خصائصها. ومن المغرب ميزاته. فسمى لذا أولئك الفينيقيون المستقرون في قرطاجنة. والذين استوطنوا افريقية والمغرب بونيقيين. وسميت دولتهم التي نشأت بنشأة قرطاجنة بالدولة البونيقية. وهذا الاسم مقتبس من ليبيا وفينيقيها. وكانت افريقية تسمى قبل هذا الاسم المزجي (بليبيا فينيقيا).

انه لم يعد اغلب سكان العاصمة والمدن في دولة قرطاجنة بربرا خاصا. ولا فينيقيين صرحاء. بل هم من الدماء الفينيقية والدماء البربرية التي امتزجت. وهم أبناء فينيقيا والمغرب يحملون طابعها الذي امتزج بطابع المغرب فصار شيئا فريدا. وصبغة متميزة تبعد بعض الابتعاد عن صبغة فينيقيا الأصلية وطابعها.

### تجديد شباب الفينيقيين في المغرب بالدماء البربرية الزكية

ان امتزاج الماء البربرية بالدماء الفينيقية في عروق أبناء قرطاجنة البونيقية هو سبب عظمتهم وخلوهم من الهرم والضعف الذي أصيبت به فينيقيا أيام عظمة قرطاجنة وشبابها. فلولا الجنس لبربري العتيد الذي طعم الدماء الفينيقية. ولولا اختلاط لفينيقيين بالبربر وتأثيرهم بهم. لظلوا على الهرم الذي أصاب آباءهم في فينيقيا. ولاستمروا على الضعف الذي أصاب دولتهم في لشرق فلا تقوم لهم قائمة في المغرب. ولا يكونون على القوة والشباب وطول العمر الذي حظيت به دولتهم.

### علاقة قرطاجنة بفينيقيا وبصور ووفاءها لهما

وكانت قرطاجنة والدولة البونيقية كلها في أول أمرها وأيام نشأتها مرتبطة ارتباطا كبيرا بالعاصمة لفينيقية (صور) وكانت تدفع إليها الإتاوات في كل عام. وتقدم إليها

36 - نقصد بليبيا هنا مناها الواسع الأول وهو المغرب كله.

الهدايا في كل مناسبة. وترسل القرابين إلى آلهة صور. وترى صور وفينيقيا هي أما. والجذع الذي تفرعت عنه.

### إعجاب الفينيقيين بالمغرب وتحقيق مثلهم الأعلى فيه

وكانت صور وفينيقيا كلها ترى قرطاجنة جزءا منها. انها من إنشاء الفينيقيين. ومن عملها هي. وأنها الأمنية التي طالما ترددت في نفوس أولى الرأى فيها ق تحققت وبرزت إلى الوجود. أنهم قد رأوا هرم دولتهم في المشرق. وتهديد الأعداء لها. ان فينقيا يجاورها الأشوريون. والبابليون. والفلسطينيون. والفرس. والمصريون وكلهم أعداء لها بالمنافسة. والرغبة في الاستيلاء عليها وعلى خيراتها. انها في خوف دائم من هجوم هؤلاء عليها. وأنها في حروب متصلة مع هؤلاء الجيران. وأنها لعديمة الاستقرار. وهو ما تنشده أمة تجارية مسالمة غنية مترفة كالفينيقيين. فكروا في إنشاء دولة لهم في مكان آمن غنى. وبين قوم كرماء النفوس أقوياء فضلاء يختلطون بهم فيكسبون من شبابهم للدماء الفينيقية فتتقوى. ويورثون من قوة نفوسهم ومثانة أخلاقهم للفينيقيين فيتجدد شبابهم. ويشفون من الهرم الذي أصابهم بطول البناء. والانغماس في الترف والملذات. بطول العمر الذي عاشته دولتهم في مكان واحد. انها شجرة عفت تربتها فتضاءلت. فلا بد من تربة جديدة تنقل إليها. وبفروع شابة تطعم بها. وبجو قوي يجدد فيها الشباب. وكانوا يعرفون المغرب وغناه وجماله وموقعه الممتاز. انه بعيد عن أعدائهم الشرقيين. ولا تجاورهم فيه دولة تنافسهم وتكيد لهم. وتعكر صفوهم بالحروب. وان في المغرب الأمازيغ ! تلك الأمة الكريمة الباسلة القوية. انها لا زالت على الفطرة وعلى شباب النفوس. لم تفسدهم الحضارة. ولن تهن قواهم بطول البناء والانغماس في الشهوات. لقد جربوهم طويلا بمعاشرتهم في مراكزهم التجارية. وفي مدنهم التي أنشئوها في المغرب كعوتيقة. فوجوا منهم حسن الجوار. والمساعدة في العمل. لقد استطاعوا ان يعملوا وينجحوا في تجارتهم وفي كل أعمالهم بالمغرب بفضل مساعدة البربر لهم. وبفضل الحب وحسن العشرة التي حظوا بها من كل طبقات البربر. ان البربر هم الأمة الكريمة التي ترحب بهم. وتؤازرهم. وان دماءها الكريمة القوية هي الدماء التي يروى ان تمتزج بدمائهم. وان شخصية البربر الممتازة القوية هي التي تجد نفوسهم. وتورثهم القوة والمثانة في الخلق فتجدد دولتهم. ويكون لهم مستقبل مشرق في الحياة. ان عادة النقلة والارجال ثابتة فيهم: لا يصعب عليهم ان يتركوا وطنهم الأول إلى مكان بعيد إذا كان ذلك الوطن موبوءا. وكان سبب ضعف لهم وزوال. إلى المغرب الجميل الغنى الأمين أيها الرفاق. ان تربته الخصبة الكريمة. لتشبه تربة فينقيا بل هي أحصب منها.

وهو أوسع وأرحب آفاقا. وان جوه الصحي الجميل لشبيهه بجو فينقيا الجميل. وان في المغرب مئات من لفينيقيين منبئين في ساحله الطويل من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي. ان فيه أهلهم وإخوانهم. وهو وطنهم. ستتجدد فيه دولتهم. فلا بد من لارخال إليه. وبناء عاصمة فيه تكون نواة الدولة الزاهرة ومنبعها ! هذا م كان يجيش في قلوب سراة فينقيا وذوي الرأى فيها. لهذا فرت عليسة إلى المغرب وفرت معها جماعة كبيرة من لشباب المثقفين الذين يرون الدولة الجديدة لأنفسهم ولقومهم الذين سيلحقون بهم. فأوت هي ومن معها إلى المغرب. فبادرت إلى إنشاء قرطاجنة وشمر من معها في التخطيط والبناء. ولم يكن فرارها إلى المغرب مرجلا. ولا انتقالها إلى وطن الأمازيغ مصادفة. بل هو عزيمة وأمل كان يجيش في نفوس الخاصة في فينقيا منذ أمد طويل. فنفتته هي ومن معها. فنشئت قرطاجنة فرأنها الفينيقيون كلهم عاصمتهم الجديدة فانقلوا إليها نكبت صور. وارخلوا إليها زارقات ليعمروها ويجددوا دولتهم في رحابها حتى قبل نكبة صور. وأحست قرطاجنة انها بنت صور. وامتداد لها. وفرع منها فخضعت لها خضوع البر والمحبة. وعطفت عليها عطف الوفاء والولاء. فكانت في أول عمرها في القرنين الأول والثاني. وفي النصف الأول من الثالث. قبل خراب صور. مرتبطة بها. تدفع ليها من خزنتها إتاوة في كل عام لتتقوى به . وكانت تستورد بضائعها وتصدر إليها من مواد المغرب ما ينعش صناعتها. كم كانت تنجدها في الحروب. وتشد أزرها في كمل الأزمات. وتقف بجانبها في الصراع الذي يشب مع أعدائها. ان قرطاجنة هي مصدر البر والإحسان لذي زان أيام صور وفينقيا في آخر عمرها واكتسب به خفة وحلاوة. لقد لفظت أنفاسها وهي تشعر بكثير من الراحة والرضى لأنها تحس بقرطاجنة الحنون. وهي تلفظ أنفاسها. تمسح براحتها الشفوق على جبينها. وتكسب الماء البارد في فمها. فتخفف عنها حرقة الموت. وتغمرها بدموعها أيضا فتشعر بأنها ليست وحيدة في العالم. ويرأف الموت بها فيستل روحها في رفق لان الدموع المدرارة حول سريرها قد أكسبت من رقتها للموت فرأف به !

تلك هي نظرة صور وفينقيا إلى قرطاجنة والى الدولة البونيقية. وذلك هي علاقة هذه الدولة بفينقيا. ان عليسة إذا اضطغنت على أخيها وفرت منه فإنها لم تضطغن على فينقيا. بل ظلت وفيه لها. وظل كل البونيقيين على ذلك الوفاء وعلى تلك الصلة إلى ان لفظت صور أنفاسها وخربها الإسكندر. فضعفت بعد ذلك العلاقات لاستيلاء الأعداء عليها. ولانتقال أكثر أهلها إلى قرطاجنة.

## امتزاج الماء العربية بالدماء البربرية بقرطاجنة وصلة المغرب بالمشرق

وكانت قرطاجنة هي الخلفة الذهبية، والصلة الحريرية التي ربطت المغرب بالمشرق، ووجدت ما أبلت الأيام من صلة المغرب بالمشرق. وكانت دماء الفينيقيين هي الدماء العربية الأولى التي انسكبت في عروق المغرب، فأكسبت للمغرب وراثته عربية زكية في دمه ولسانه مهدت للعرب الفاتحين، وللغة القرآن فوق ذلك الامتزاج السريع أيام الفتح الإسلامي بين العرب والبربر، وسرت العربية الفصحى في لسان البربر فنطقوها في سهولة وفصاحة، وتعلموها في سرعة ويسر، فلم تقف العجمة وقصور الألسنة في طريق انتشارها في كل أنحاء المغرب في زمن قصير.

## طموح الملك يوباس ومحسنة عليسة

وأنشأت قرطاجنة عاصمة البونيقين وتأسست بذلك الدولة البونيقية. وكان السبب المباشر لذلك هو فرار عليسة ديدون وحلولها في المغرب. لقد رحب بها وبقومها ملك البربر في شمال افريقية يوباس، ثم أحبها وفتن بجمالها فطلب يدها للزواج، وأحب ان تكون ملكة قرطاجنة زوجته لينضم ملكها إلى ملكه، ويتم الامتزاج بهذا الزواج بين قومه والفينيقيين. هل رحبت عليسة بالملك البربري يوباس. ل كان قلبها خال من حب قديم راسخ الأصول فتستطيع الميل إلى يوباس. وهل هي امرأة عادية تمتلكها غرائزها وحظوظها الخاصة فتعطي بيدها لزوج يسودها؟ انها ملكة. وان قلبها مشغول بالحب القديم الراسخ لزوجها الفقيد، وأنها لوفية له كل الوفاء: فماذا سيكون أمرها؟ هل ستبقى لنا عليسة الشابة الجميلة الذكية المخلصة أمدا طويلا فنأنس بوجودها، ونرى قرطاجنة تكتسي من طلعتها بنور الضحى ومن جمال شخصيتها وشخصها بسحر الربيع؟

## طموح الملك يوباس ونهاية عليسة ديدون

### شخصية عليسة وشخصها الفتان

وكانت عليسة ديدون امرأة شابة، ذكية، مثقفة، حازمة، مخلصة لقومها، غيرة عليهم تتفانى في خدمتهم، وتقضي كل أوقاتها فيما يعود بالنفع لهم وفيما يعجل بعمارة قرطاجنة وازدهارها، ويعجل بنشأة الدولة الكبرى التي تحق مثلها العليا

لقومها. وكان جبينها الصلت الواضح لا يكسوه ظل ناصيتها الجميلة وحده، ولكنه يكسوه معه تقطيب خفيف، وسهوم رقيق من إدامة الفكر في مشاكل قرطاجنة والحيرة على آمالها الكبرى في الدولة وخوفها ان لا تحقق.

وكان قومها كلهم يحبونها لقوة شخصيتها، وذكائها وثقافتها، وحسن تدبيرها، وإخلاصها لهم، وكانوا يرونها ملكتهم فيطيعونها وينفذون أوامرها.

وكنت عليسة إلى قوة شخصيتها وثقافتها البالغة، ومكانتها السامية في قومها جميلة بارعة الجمال. قد أتاه الله القوام الرشيق والوجه المشرق، والعينين اللتين تتحلى فيهما قوة الشخصية وسحر الأنوثة الكامل.

وكان جو شمل افريقية قد زاد لجمالها الفينيقي شجوبا، وكساها بالسحر الساحر الذي لا زلنا نراه في صبايا تونس الخضراء اللائي يمتزج نور الصباح بحمرة لورد في وجوههن الفتانة، ويصقلهن الجو الجميل بحسنه البالغ، فتري فيهن نضاعة مشرقة، وضاء مترققا في اللون، واهابا بالغ الطراوة والحسن كأنه ورق الورد النضير.

وكان البونيقيون يعجبون بجمال عليسة، ورأها البربر فأعجبوا بثقافتها وجمال شخصيتها وحسنها الفتان، وحدثوا عنه في مجالسهم، فسمع الملك يوباس بثقافة عليسة وبجمال شخصيتها، وحسنها البار، ورأى طاعة قومها لها، ومنزلتها السامية في قرطاجنة، فعلم انه إذا تزوجها فسيحظى من ثقافتها وجمال شخصيتها بالجو المشرق الأنيس الذي يزيل من حوله خشونة البداوة، وأنها ستكون المفتاح الذي يفتح به كل قلوب الفينيقيين في المغرب فيمتلكها كما يريد.

ان جمال شخصيتها لا يزيد على جمال البربريات البار، ان فيهن من تفوقها في جمال الجسم، ولكن ثقافة عليسة بنشأتها في بيئة الملك والحضارة، وقوة الشخصية التي زادت لها الحن التي تعرضت لها، وما تحمل من أعباء إنشاء الدولة مع قومها، وما تشعر به من عزة الملك وقوة الرئاسة، وهو الذي يميزها ويجعلها امرأة فريدة، بالغة الحسن، لا يجد مثلها في نساء الجميلات !

وكان الملك يوباس معتدا بنفسه، ومزنته السامية في شعبه، وكان يعلم ان عليسة وقومها عليهم له حق صاحب الدار البار الكريم على ضيفه الذي غمره بكرمه وبره، فمنى نفسه بالحصول عليها، انه كفاء لها، انها ملكة قومها وهو ملك شعبه، فلئن ثقفتها المدرسة فعرفت كثيرا ما لا يعرف من الفنون، فقد ثقفته الحياة والتجربة فعلم من شئون البربر وأمور المغرب ما لا تعرف، وانه إلى ذلك اعز منها عشيرة، وأكثر جندا،

وأشجع جيشا. أنهما كفتان. ان زواجه منها سيزيد للبربر امتزاجا بقومها وإخوة لهم ومودة راسخة فيزداد تأثرهم بحضارة الفينيقيين. ثم انها عازبة. فهل يليق الشباب وهذا الحسن في عليسة ان يبقى بدون زوج محب يرعاه فلا يتصوح؟ ! لابد ان يتزوجها. ولا بد ان تقبله. فعصف به الحب الشديد. والاعتداد البالغ بالنفس. وإصرار البربر وقوة إرادتهم. فعزم على إرغامها على الزواج إذا رفضت فاستل برائينه كالأسد إذا تأهب للحصول على شيء باقتداره.

قال لدكتور توفيق: «فأرسل يوباس في طلب الذين يتزعمون (قرطاجنة) المدينة الجديدة. وأشعرهم بأنه يريد الزواج بملكتهم. وان رفضها ينجر عنه حرب ضروس تنتهي بمدبنتها الناشئة إلى الخراب العاجل والفناء المحقق»<sup>37</sup> فعلم أولئك الزعماء ما يستهدفون له من عداوة يوباس إذا رفضوا هذا الزواج أو رفضته عليسة. ورأوا آثاره الجميلة في البربر وفي الملك يوباس. وفي توثيق الصداقة بينهم وبين البربر فروا به. فما زالوا بعليسة يحاجونها حتى سدوا وجوهها كل مهرب. وأشعروها بوجوب القبول لفائدة قومها. فلم تخر جوابا. فسألتهن ان يمهلهن ثلاثا فلا يعجلوا بالزواج.

وكانت عليسة مشغولة القلب بمثلها الأعلى الذي تشرع في تحقيقه. وهو إنشاء دولة في افريقية ترث فينيقيا. وتجد شباب قومها. ان تفكيرها وأوقاتها كلها منصرفة إلى هذا. ان تحقيق هذا المثل الأعلى هو الذي يجعل لحياتها قيمتها. وان الأمل في تحقيق الدولة الجديدة هو الذي يملأ الفراغ الكبير الذي تركه موت زوجها الحبيب في قلبها. لولاه ما استطاعت البقاء بعده.

وكانت عليسة إلى هذا تحب زوجها كل الحب. وكان كل شيء لها في الحياة. فلما ماتت تلك الميتة الفجائية الأليمة بقيت متعلقة به. لقد ذهب من لوجود. ولكن بقي خالدا في قلبها. وكانت تحس بروحه ترفرف عليها في كل لحظة. انه معها لم يفارقها. أنا ليست عازبة. انها لزوجها. انه معها يراها؛ فكيف تتزوج إنسانا غيره وهو يراها ! لا يمكن هذا أبدا! فأصرت ان لا تتزوج. ولكن يوباس سيفتك بقومها ويقضي على ولتهم لناشئة إذا رفضت ان تتزوجه. سينقض عليها فيأخذها امة ذليلة. فعزمت على أمر فيه خلاصها وخلاص قومها من غصبة يوباس.

### انتحار عليسة

قال: «فمرت عليسة بإقامة كومة (كبيرة) من الحطب بطرف المدينة. وأشعلت النار

37 - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة لتوفيق الطويل منقول بالمعنى ص 20 ط ثالثة في القاهرة.

فيها. وتقدمت لها القرابين من شياه وثيران. ثم ارتقت بنفسها تلکم الكومة (المتأججة ناراً) والسيف بيدها. والتفتت إلى شعبها قائلة: إنكم تريدون من ان ذهب إلى زوجي... ها أنا ذاهبة! ثم استلت سيفها من غمه وغيبته فيصدرها. وألقت بنفسها في النيران! وهكذا انتهت عليسة. فصارت تقدس بقرطاج مثلما تقس الآلهة»<sup>38</sup> وطوت عليسة صفحة حياتها. ولكن قرطاجنة الناشئة والدولة البونيقية استمرت في صعودها ونشأتها إلى ان تمت. وكانت كما تمت عليسة وتمنى قومها. فكيف صرت قرطاجنة بع عليسة؟ وكيف كانت الدولة البونيقية؟ ما حدودها وما درجتها في الرقي والعمران؟

### عظمة الدولة البونيقية وعاصمتها قرطاجنة

كان البونيقيون الذين هاجروا مع عليسة إلى المغرب. والذين يلتحقون بهم من فينيقيا في كل يوم. أهل جد ونشاط. وذوي علم وتدبير. وأصحاب طموح وغرام بالمعاني. لهم نفوس عملية نفوس عملية تجعلهم لا يجدون الراحة والمتعة إلا في العمل. ولا يظفرون بالنشوة إلا في الكد واللغوب. ومع نفوسهم العلمية الطماحة. عقول مستنيرة بالعلم الصحيح. تغرب طرق النجاح. والأساليب الصحيحة في العمل. والوجهة الحسنة التي تبلغهم المراد. وكان إلى هذين السببين للنجاح أتصفهم بالنية الحسنة. أنهم لا يبغون لأحد شرا. ولا يستعدون للأضرار بأحد. أنهم يريدون عمار افريقية لأنفسهم. وللبربر. ولكل من يقصدهم بنية حسنة. وإنعاش المغرب ولأخذ بيده لينهض نهضته الكبرى. ان من طباعهم الراسخة التي ورثوها من أجدادهم. بث العلم في الأوطان الجاهلة. وتعليم الحارة للأمة البدوية. والأخذ بيد كل من يتصلون به من الشعوب إلى طريق العز والغنى والسعادة. لذلك أئجهم الله. وبارك لهم وأيدهم. فبلغوا كل ما أرادوا في الحياة.

وكانت عزيمة هؤلاء البونيقيين الكرام ان ينشئوا قرطاجنة ويجعلوها اكبر عاصمة في الدنيا. واسعد مدينة في العالم؛ وينشئوا الدولة البونيقية ويجعلوها أحسن خليفة لفينيقيا تواصل مساعيها في بناء الحضارة الإنسانية. وتخلفها في إسعاد البشرية بما تقم إليهم من علمها وحضارتها. وتكون أقوى وأحسن ارث لها يخلفها في ميدان التجارة. وفي كل الميادين الاقتصادية والعلمية التي تفوقت فيها على الأمم. وصارت فيها المثل الأعلى للإغريق ولكل الشعوب الناهضة. فأخذت حذوها ونسجه على منواله.

38 - الضمير في قل يرجع إلى توفيق الطويل والنص في ص 22 نفس المصدر المذكور قبل.

## عظمة قرطاجنة

وكان للبونيقيين العاملين العلماء المخلصين ما أرادوا. وما كاد القرن السادس قبل الميلاد ينتصف حتى تبوأ قرطاجنة الذروة. فصارت أعظم مدينة في المشرق، وأكبر عاصمة في الدنيا. بسعة أرجائها، وكثرة عمارتها، وشيوع العلم والعمل فيها، وبقصورها الشاهقة، وبساتينها الغناء، وحماماتها البديعة، ومعابدها الضخمة، وملاعبها الواسعة الجميلة، وساحات اجتماعاتها العامة التي تتوسط الأسواق وتكون في وسط المدينة، ومدارسها الكثيرة للصغار المتدئين وللكبار الجامعيين، ومصانعها الكبيرة المختلفة، وأسواقها البيعة المنظمة ان لكل صناعة سوقها. فهناك سوق الأقمشة، وسوق الأسلحة، وسوق العطور. وكل ما نرى عليه دولة الرومان والإغريق، وتنطلق به آثارهم من نظام في المدن، فان قدوتهم التي حاكوها، والأمة التي تتلمذوا لها فآخذوا عنها الحضارة والنظام وتنسيق المن وتجميلها، إنما هي قرطاجنة والبونيقيون في المغرب!

وكان الأغنياء في قرطاجنة كثيرين. وكانوا يتنافسون في بناء القصور البديعة، ويتسابقون في فنون الترف والمتعة، ويتبارون في كل ما نريد في أبهة قرطاجنة وجمالها وبذخها، فأصبحت مضرب الأمثال في الغنى والحضارة والجمال. فقصدها السياح من كل أطراف العالم، وتهافت عليها ذوو الثراء الذين ينشدون المتعة والأبهة والجمال من كل أنحاء الدنيا.

وكنت لأسواقها العامرة، ولبراعتها في التجارة، ولتفوقها في كل فنون الاقتصاد رخيصة الأسعار، يستطيع كل فقير فيها ان يجد عملا، ويعيش عيشة راضية هنيئة. انهال مدينة العلم والعمل، والنظام والجمال.

وقد اتسعت أرجاء العاصمة قرطاجنة حتى صار طول سورها في آخر عمرها كما ذكر (بولبيس) الذي شاهد قرطاجنة في الحرب البونيقية الثالثة سبع عشرة ميلا. <sup>39</sup> وكان ارتفاع ذلك السور ثلاثة عشر مترا. وكانت أسوارها بالغة العرض لا يستطيع الأعداء نهبها بسهولة.

وكانت قرطاجنة لعظمتها كثيرة السكان. لقد قصدها الناس من كل أنحاء العالم الشرقي والغربي فسكنوها. فحلوا فيها للتجارة والعمل، أو للمتعة والراحة والتنعم بخيراتها وجمالها. وقد بلغ عدد سكانها سبعمائة ألف نسمة، وقيل أكثر من ذلك. وهذا عدد لم تبلغه مدينة في ذلك الزمان إلا كانت مدينة عظيمة لا مثيل لها في اتساع الأرجاء وفي الخيرات والرخاء.

## حدود الدولة البونيقية

وكان غرض البونيقيين من النشاء قرطاجنة ان تكون عاصمة لدولتهم في المغرب، لذلك يم يقتصروا عليها، ففاضوا على افريقية فملكوها كلها، فصارت كلها وطنهم، فانشأوا في كل أنحاء المدن الزاهرة، ومئات من القرى ف المناطق الزراعية، وترقت افريقية بهم وازدهرت وصارت أحسن جهة في المغرب، فاجتهد إليها أنظار الأمم والشعوب من كل أنحاء الدنيا، لغناها وحضارتها، وأسواقها التجارية الكبرى، وصناعاتها وكل ما تستلزمه الدولة الراقية والشعب الذي يتسم ذرى العلم والحضارة والتقدم.

أما حدود الدولة البونيقية في أيام شبابها وعظمتها فكانت كمن الشرق خليج سرت الأكبر وكان ساحل طرابلس كله لها، وافريقية كلها شمالها وجنوبها لها، وساحل نوميديا وموريطانيا الشرقية والغربية إلى طنجة، كان ساحل المغرب في قبضتها أما دواخل البلاد فكانت مستقلة، ولما انزوت وتكمشت في آخر عمرها صارت حدودها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب قسطنطينية وهي بلاد الجريد، ومن الغرب شرق في طبرقة، ومن الساحل قابس وبقية الساحل إلى طرابلس. ثم أزدادت تكمشا بهجوم مصينيسا عليها.<sup>40</sup>

وكانت قسطنطينية جزءا أصيلا في الدولة البونيقية إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استولى عليها مصينيسا فصارت تابعة لدولته. وقد اعتنى البونيقية بقسطنطينية فازدهرت فيها الفلاحية، والتجارة، وانتشرت فيها الثقافية، فصارت أغنى الأمكنة وأسعدها في جنوب المغرب كله.

هذه هي حدود الدولة البونيقية، ما آثارها ومجالها الاقتصادي وعمرانها، فانه لم يقتصر على ترابها، بل تجاوزه إلى كل أنحاء المغرب، سيما نوميديا الشرقية التي كانت تحت حمايتها.

## حماية البونيقيين لنوميديا الشرقية

وكان البونيقيين قد اتسعوا في جاراتهم وشئون حضارتهم كلها إلى نوميديا الشرقية، وهي جزء من شرق الجزائر اليوم يبتدئ من شرف طبرقة، وينتهي في غرب هبون (عنابة) وفي الجنوب إلى تبسة. وكان البونيقيون قد غمروا هذه النواحي بزرافات كبيرة من الصناعات الماهرين، والتجار لكبار، والفلاحين البارعين ومن العلماء فعمروها، واخذوا بأيدي البربر فيها. وقد رحب بهم البربر لما رأوا من حسن نيتهم في وطنهم، ومن جميل

وعملهم. ولغتهم. ولم يكن مجالهم في العمل هو افريقية فقط وإنما افريقية هي منبعهم ومقرهم الدائم.

وكانت قوافل البونيقيين التجارية تخترق جيتوليا. صحراء المغرب. ومن ناحية فزان وغامس. وورجلان وغيرها ذاهبة آتية إلى بلاد السودان. وكانت تتصل بالبربر الجيتوليين في طريقها فتتاجر معهم وتستأجرهم لدلالاتها على الطريق. وخفارتها في السبل الخيفة. وتأثرت جيتوليا في المغرب أيضا بهذه الدولة المباركة التي كانت كالنهر الزاخر يروى كل نواحيه. وتسري انداؤه بعيدا عنه فتخلق الخصب والحياة.

تلك هي حدود الدولة البونيقية ومستعمراتها. ومحمياتها. ومجالها في العمل بالمغرب. فما نظامها السياسي؟ ان النظام السياسي لكل دولة هو عنوانها. وهو سبب وقيها أو انحطاطها! لقد ترقى دولتنا البونيقية. ودخل بها مغربنا الكبير في عهده الزاهرة. فما هو النظام السياسي الذي كانت عليه هذه الدولة الماجدة فأسعدتها؟.



آثارهم فيهم. ودخلت نوميديا الشرقية تحت حماية قرطاجنة. فبسطت عليها جناحها الحنون. ووقتها من القلاقل والاضطرابات الذي يتعطل به العمران. وقد عاشرت البربر فيها أحسن عشرة. فاحترمتهم. وقامت أعمال كبرى من اجلهم. فكانوا لها أصدقاء. يتجندون في صفوفه إذا اشتبكت بالأعداء. وينطوون على أعماق الود والاحترام لها.

### ازدهار نوميديا بفضل البونيقيين

ان البونيقيين لنفوسهم التجارية المسالة. ولإبء النوميديين وشجاعتهم. وكثرة عددهم. ولا يستطيعون مخاشنة البربر في نوميديا. وإلا استحال عليهم المقام فيها. وهي ضرورة لهم كمتسع حيوي لهم.

وكان البربر أذكيا طامحين فاستفادوا من البونيقيين الذين اختلطوا بهم في نوميديا. فاخذوا علومهم وصنائعهم. وكل فنون حضارتهم فأمست نوميديا كلها سيما الجزء الشرقي منها كافريقية في العلم والحضارة والغنى. وأصبح البربر فيها يبارون البونيقيين في كل الميادين. وينافسونهم في الملك والسلطان.

ان نهضة نوميديا وامتيازها بالثقافة والاستعداد للتقدم إلى اليوم. يرجع سببه إلى زمن بعيد. وهو الزمن الذي حظيت فيه بعناية البونيقيين فاخذوا بأيديها أكثر من كل أنحاء المغرب الأخرى. فنهضت واختلطوا بها أكثر فكانت آثارهم الحسنة فيها أعمق. ثم توالى عليها أسباب أخرى للتقدم والرقى من افريقية كان حظها منها أكثر من حظ بقية أنحاء المغرب الأخرى.

### المستعمرات البونيقية

وكانت الدولة البونيقية قد ورثت فينيقيا في السيادة في البحر الأبيض المتوسط. سيما في الحوض الغربي منه. فكانت أهم الجزر في البحر الأبيض المتوسط من مستعمراتها. وكانت صقلية. وسردينيا. وكورسيكا من مستعمراتها. كما احتلت الأندلس فكان في قبضتها. فأنشأت فيها مدنا مهمة. ومرافئ كبرى منها قرطاجنة في الساحل الشرقي الجنوبي. وقادس في الساحل الغربي. وقد انتفعت في تجارتها وصناعتها وفي حمايتها لساحل المغرب الأوسط والأقصى ومراكزها التجارية فيه باحتلال الأندلس وسيطرتها عليه.

وكان المغرب كله في مختلف أجزائه مجالا للبونيقيين. وقد فتحوا فيه أسواقهم. وأنشأوا مراكزهم التجارية واختلطوا بالبربر. فاخذ البربر عنهم عاداتهم الراقية.

الأغنياء. لهذا كان الحكم في يد الطبقة الأروستقراطية. وقد ظل في أيديهم إلى القرن الثالث ق.م. فاستولى على الحكم في الدولة آل برقة الذين رأس منهم الدولة عملقار وحنبل وصدر بعل. فاضعفوا نفوذ مجلس الشيوخ الذي يتكون من الأغنياء. واعتمدوا على الشعب فصاروا يرجعون إليه في المهمات. ويستعينون به في رجحان كفتهم على خصومهم الأروستقراطيين.

ان تقديم قرطاجنة للأغنياء إلى الحكم واعتمادها عليهم في تسيير أمور الدولة. هو سبب نكبتها. وتفوق الرومان عليها حتى دحروها وأزالوها من الوجود.

ان الكفاءة العقلية والخلفية والإخلاص والتحية. ونكران الذات هو ما يجب ان يتوفر في الهيئة الحاكمة. ويراعي في انتخاب الحكام. وهذه الشروط لا تتوفر كلها في الأغنياء. سيما الإخلاص للدولة. ولتضحية بالمصالح الخاصة للمنفعة العامة. والجرأة والأقدام والشجاعة. ان اغلب الأغنياء أذلاء أنانيون. يميلون إلى الراحة. ويؤثرون ان يخفضوا رؤوسهم على لدعة على ان يرفعوها إذا كان في ذلك مشقة أو تضحية. وهم قوم باردون لا يشتعلون إذا وجب الاشتعال. أنهم ماء بارد لا تشتغل فيه النيران. لا يورث للأمة إلا صداها إذا اقتضت عليه. أما ذوو النفوس المشتعلة لشجاعته وغيرها. فهم الذين تتقدم بهم الأمة. ويحفظون الدولة ويورثون لأقوامهم ما يورثه النفط للذبابة العتيدة من قوة فتتفع في الطرق الموحلة. وتخرق الخنادق. وتصد الجبال !

كانت الدولة البونيقية في اغلب عهودها على النظام الجمهوري. وفي أيام الجمهورية ازدهرت الدولة. وانطلقت كل كفا أنها للعمل. وانتفعت بنبوغ أبنائها. فترقت وحققت آمالها في كل الميادين. وكانت أغنى وأرقى دولة في العالم.

وكانت الهيآت الحاكمة في الدولة البونيقية تنقسم إلى أربعة أقسام. السلطة التنفيذية. والسلطة التشريعية. وهيئة المراقبة والتفتيش. والهيئة الاستشارية أو المحكمة.

### السبتان

أما السلطة التنفيذية فيتولاها رئيسان ينتخبهما مجلس الشيوخ من عائلتين مختلفتين. ومدة رئاستهما سنة. ثم ينتخب غيرهما بعد عام أو يعيد انتخابهما إذا بدا صلاحهما وامن زبغهما واستبادهما. وسبب تقصير مدة الرئاسة لهذين الرئيسين هو خوف الدولة من استبداد الرؤساء. وانحرافهما عن طريق الحكم الجمهوري. إلى استئثار الملوك الرأي. واستبادهما في الأمور.

## النظام السياسي للدولة البونيقية

كانت الدولة البونيقية دولة عتيدة وأمة راقية. وقد جابت الأقطار. واختلطت بالدول الراقية. وبالأمم المتمدنة. فشاهدت مختلف النظم السياسية فيها فتكونت لها خبرة تامة في مجال السياسة. ودراية كاملة بأنواع الحكم التي تصلح بها الدولة. فعرفوا كيف يضعون دستورا يليق بمزاجهم. ويتفق مع شخصيتهم العلمية وطموحهم. ويليق بمواقع دولتهم في المغرب. هذه الدولة التي منيت بالمنافسين الأقوياء من الإغريق والرومان. وحلت فيها أجناس كثيرة ليست كلها صديقا يعمل لخير الدولة وصلاحها. فسعدت الدولة البونيقية بدستورها الحكيم الذي لم تقلد فيه أحدا. وإتم وضعيته على حسب مثلها العليا. وحلاجاتها ونبع منها فكان أحسن ما يليق بها. وق أعجب أرسطو شيخ الفلاسفة الذين عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وعاصر الدولة البونيقية إبان ازدهارها وعرف أخبارها؛ أعجب هذا الفيلسوف بدستور البونيقيين وأثنى عليه. ورآه أحسن دستور يليق بهم. على ما فيه من عيوب انتقدها الفيلسوف الحكيم وعابها عليهم.

وكان نوع الحكم الذي اخذ به البونيقيون على حسبهم في الرقي والنضوج. فكانوا في أول أمرهم على النظام الملكي الذي ألفوه في فينيقيا. وكانت عليه الدول الكبرى في تلك العهود. وكان من ملوكهم المشهورين عملقار الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وفي القرن السادس قبل الميلاد اختار البونيقيون النظام الجمهوري فاخذوا به. وظلت عليه الدولة إلى ان لفظت أنفاسها في القرن الثاني قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

### تمجيد البونيقيين للمال وأصحاب الثراء

وكانت الدولة البونيقية امة تجارية حب المال وتمجده. لذلك ساد فيها الأغنياء. وكان سبب التقدم فيها هو المال. فعلى حسب غنى المرء تكون منزلته في المجتمع. وكانت الوظائف العليا في الدولة لا يتولاها إلا الأغنياء. وكان مجلس الشيوخ الذي هو مصدر التشريع. والهيئة الحاكمة في الدولة لا ينتخب له إلا الأغنياء. وكانوا يشترطون على المرشحين لمجلس الشيوخ ان يدفعوا للدولة مبلغ كبيرا من المال. وهو ما لا يستطيعه إلا

ووظيفة هذين الرئيسين هو تنفيذ ما تقرره السلطة التشريعية وهي مجلس الشيوخ، واستدعاء مجلس الشيوخ للانعقاد، ورئاسته، وإدارة جلساته، وتعيين المسائل التي يبحثها، وقيادة جيوش البر والبحر وغير ذلك، وكان البونيقيون يسمون هذين الرئيسين بالسبطين، وكل منهما سبط.

### مجلس الشيوخ

أما السلطة التشريعية فيتولاها مجلس الشيوخ، ويتركب من ثلاثمائة عضو، عضوية كل واحد منهم مدى الحياة، وينتخب أعضاؤه من كبار التجار والصناع والفلاحين، وهم أرباب الثراء الواسع، وكذلك كبار قواد الحرب.

ويشترط في العضو المنتخب لهذا المجلس ان يكون من عيان الأمة، ومن سراتها، وهم الأغنياء في هذه الدولة التي تمجد المال، وتجعله سببا للتقدم، كما يشترط فيه ان يكون من الكهول الذين حنكتهم التجارب وتكونت لهم منزلة في الأمة، وان يكون بونيقيا أصيلا، لا دخيلا من الجنسيات الأخرى.

أما وظيفة هذا المجلس فهو الإدارة العليا لجميع شئون الدولة، فهو الذي يشهر الحرب، ويقرر السلم، وهو الذي يولي قوا الجيش ويعزلهم، وهو الذي يسن القوانين الجديدة، أو يعل القديمة وغير ذلك من مهمات الدولة.

ان مجلس الشيوخ هو رأس الدولة المفكرة، وسلطتها التشريعية، في قبضته كل الأزمنة، وهو المهيم على كل الأمور، ليس لمجلس الشعب معه أي سيطرة، وأي نفوذ في الدولة.

### محكمة المائة

ومن أجهزة حكم في الدولة البونيقية محكمة المائة وأعضاؤها في الحقيقة مئة وأربعة، تنتخبهم الهيئات الخماسية التي تتركب من ابرز أعضاء مجلس الشيوخ، وأكثرهم كفاءة، وأحسنهم ماضيا في المجلس، وهذه الهيئات الخماسية لا ينتخبها المجلس ولكن ترشحها الطبيعة، فهم زبدة المجلس وخياره، يتطوعون بأنفسهم لعضوية هذه الهيئات، ويقومون بعملهم بدون اجر، وهم إلى هذا يستمرون أعضاء في مجلس الشيوخ، «ويمكن اعتبار هذه الهيئات الخماسية التي حدثنا عنها (ارسطاطليس) كلجان تتكون في مجلس الشيوخ، وتتفرع عنه للاختصاص ببعض الأصناف من المسائل كالأموار الخارجية، والجيش، والبحرية، والمالية، والأمور لدينية، وغير ذلك، وهي التي تنتخب أعضاء مجلس المائة»<sup>41</sup>

41 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 108 الطبعة الأولى بتونس.

وعمل محكمة المائة هو مراقبة السبطين، وهما رئيسا الدولة، وقواد الجيوش، وجميع الحكام والموظفين الكبار في الدولة، ومحاکمتهم عند الاقتضاء، ومحاسبتهم على كل تقصير يكون منهم في شئون الدولة.

وكان إنشاء هذا الجهاز الحكيم في الدولة، في منتصف القرن الخامس ق.م، وكانت ثورة داخلية قد نشيت في قرطاجنة، انتهت بسقوط آل ماقون (الذين كانوا يتولون الحكم) وبإنشاء مجلس يتركب من مائة حاكم أو قاض يقع اختيارهم من بين الشيوخ، وتسمى هذه المحكمة العليا ديوان المائة، وبعد إنهاء كل حرب كان يقف لقواد أم هذه المحكمة لتناقشهم، في أعمالهم، وخاسبهم على تصرفاتهم، وتطالبهم بعرض جميع التفاصيل المتعلقة بنشاطهم، كل ذلك لحمل هؤلاء القواد على الانقياد والخضوع، ولحماية لجمهورية من (استبدادهم) ومحاولتهم قلب نظام الحكم، أو الاعتداء على سلطة الدولة»<sup>42</sup> هذه هي الهيئات الحاكمة التي تباشر مهام الدولة، ويدها الحل ولعقد، وهي التي أدارت الأمور في أول الأمر في حزم ودهاء وإخلاص، فازدهرت الدولة، وصارت أحسن دولة في العالم.

### مجلس الشعب

ومع هذه الهيئات الحاكمة هيئة استشارية أو للتحكم هي مجلس الشعب يلتجئ إليها مجلس الشيوخ أحيانا ليحكمها في المسائل التي يقع فيها خلاف بينه وبين السبطين، ولكن قلما يقع هذا، لان السبطين كانا يتحاشيان معارضة مجلس الشيوخ وإثارته فقلت المسائل التي اعر على المجلس.

وهذا المجلس ينتخب أعضاؤه من صغار التجار والصناع، والفلاحين، ومن العمال، ويسمى مجلس السوق، وقد سلب مجلس الشيوخ في أول الأمر حقوقه، فصار أداة لا عمل لها تركت لإيها العامة أنهم يشاركون في الحكم، وان الدولة ديمقراطية تشارك في حكمه كل لطبقات، وقد بقى هذا المجلس معطلا إلى ان توالى الحكم آل برقة وهم من طبقة الشعب في لقرن الثالث والثاني ق.م، وكان آل برقة ضد العائلتين الأروستقراطيتين اللتين تولتا الحكم قبلهم وهم الماغونيون، والحنونيون فاستعانت بالشعب عليهما وعلى مجلس الشيوخ الذي كان اوروستقراطيا بعارض البرقاويين الشعبيين، فرجع مجلس الشعب اعتباره، وأصبح له في سياسة الحكومة كلمة، وفي الميدان السياسي اعتبار.

هذا هو لنظام السياسي للدولة البونيقية في عهود أزهارها وعظمتها، وهو أحسن

42 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 105 ط أولى.

نظام يوجد في ذلك الزمان. ويهتدي إليه عقل الإنسان في تلك العهود.

ان اختلاط الفينيقيين بالبربر وامتزاج لم البربري بالدم الفينيقي قد اكسب للفنيقيين خصائص البربر وهي الميل إلى حكم الشورى. وكره الاستبداد والمركزية الطاغية في الحكم. فآثروا النظام الجمهوري العادل. فكانوا من اسبق الناس إلى حكم الشورى. والى هذا الأسلوب الجمهوري الذي قلدهم فيه الرومان فسعدوا.

ان المغرب من أول الأقطار التي اهتمت إلى النظام الجمهوري الحقيقي فشرعته للناس. وان فضله على الإنسانية بهذا لعظيم. وان ما بلغه في قيمه في ظل دولته البونيقية العظيمة من وقى وسعادة ومجد لمكافأة له على طبعه السليم الذي هداه إلى هذا النظام. وعلى نضوجه الذي جعله يأبى حكم الفرد المستبد. ويؤثر حكم الجماعة العادل.

لقد كان مجلس الشيوخ في قرطاجنة يتصف بكثير من الحيف. وكان يتعصب للطبقة الغنية ويمن لها مصالحها. ولكنه كان أرأف بالأمّة. وأحسن سياسة. وأهدى سبيلا من حكم الفرد الذي يعتمد على الحديد في إخضاع الشعب. ويتصرف في الأمّة تصرف المالك في قطعان الغنم التي أعدها للمجزرة !

هذا هو نظام الدولة البونيقية السياسي. فكيف كان جيشها وقواتها العسكرية الأخرى؟

## الجيش والأسطول

### ضعف الشخصية الحربية في البونيقيين

كان البونيقيون امة تجارية مسالمة. تؤثر الهدوء والسكون. وتبتعد عن الخصام والصدام. فبودهم ان تكون الأيام نسيما رخاء يضاعف نعيمهم وترفعهم الذي ينغمسون فيه. ويوافق نفوسهم التجارية التي تحرص إلى امتلاك لناس والأوطان بالود والإحسان. ولا بالسيف والسنان. لهذا كانوا اضعف من جيرانهم البربر والرومان في الشجاعة. وكانت الشخصية الحربية فيهم ضعيفة. ولم يكونوا ذوي اعتناء بتقوية أجسامهم. وإتماء الشخصية الحربية فيهم. والتدرب على فنون القتال. والحرص على التفوق في لفنون العسكرية كما كان الرومان. وكما كان جيرانهم البربر في نوميديا وفي أنحاء المغرب الأخرى.

كان البونيقيون لا يلبسون السلاح إلا للدفاع. وتراهم يستنقلون الحرب. وتهرب منها نفوسهم. فبودهم ان لا يقاتلوا. لهذا تغلب عليهم الرومان وأزلوهم من الوجود.

وكان للبونيقيين جيش دائم لا يتجاوز عدده خمسين ألفا. وكان يربط في الثغور ويقيم في المدن الكبرى. لحفظ الأمن في الدولة وحراسة الأمّة من الأعداء. وكان جيشا مسلما اتخذ للدفاع لا للهجوم. لذلك أم تحتفل به الدولة فتنمى عدده. ليكون اكبر قوة عسكرية في البحر الأبيض المتوسط تحتفظ مصالحها التي يهددها منافسوها الأقوياء.

وكان الجيش الذي ذكرنا هو جندها الدائم المرابط في الثغور. وكان قليل العدد. هذا في وقت السلم. أما إذا عبست الأيام. وتحرك الأعداء. ودعت الظروف ان تكشر من أنيابها فان جيشها من أبنائها المجندين يبلغ عشرات الآلاف. ولكن جلهم متحضر ذو نفس مسالمة لا يغني غناء كبيرا في الحروب.

### اعتماد البونيقيين على البربر في حروبهم الكبرى

وكن البونيقيون في ذلك الجيش الدائم قليلين. وجل هذا الجيش من البربر الليبيين أهل افريقية. وكانت قرطاجنة تعدهم من رعاياها. وكانت في آخر أمرها لما فسدت

أخلاقها بالحضارة تضطهدهم وحتقرهم، وتظلمهم في أموالهم وأنفسهم. فحقوا عليها، وضعف الإخلاص ولحماس لها في قلوبهم. وكانت قرطاجنة ق فرضت على هؤلاء البربر التجنيد الإجباري. فالفت منهم أكبر قسم من جيشها. وكان جلهم من المشاة. أما الفرسان المغاوير، وأهل الكر والصدام، فكانوا من نوميديا. يتطوعون في الجيش البونيقي. أو تستأجرهم الحكومة البونيقية. وهذان القسمان من البربر هما اللذان تتألف منهما القوة الحربية الباسلة في الدولة، وهما الخلب القوي الذي سطت به قرطاجنة على الأعداء، فلولاها لكانت اضعف في ميدان الحروب. وما استطاعت ان تخوض المعارك الطاحنة مع اليونان والرومان في حروب صقلية وفي الحروب البونيقية. فتنتصر في كثير من المعارك، وترد الأعداء الذين يحاولون القضاء عليها.

كانت قرطاجنة تعتمد في حروبها على لبربر سيما النوميديين، وتراهم أهم قسم في جيشها. وكانت تستأجر فئات من المحاربين الأوروبيين والإفريقيين<sup>43</sup> السود، ولكنهم أقلية في جيشها بالنسبة إلى البربر. وكان هؤلاء الأوروبيون والإفريقيون يقومون بأعمال خاصة في الحرب. فكان الإفريقيون السود يحملون الرماح، والغاليون سكن فرنسا القدماء يحملون السيوف العريضة، والإسبان يجعلون السيوف الرقيقة، وأهل جزر (الباليار) يرمون بالآلاتهم الحجارة الصغيرة أو كرات الرصاص. وكان لكل طائفة من هؤلاء براعة خاصة في القتال. فانفتح بهم البونيقيون جميعا في حروبهم. ولكن هؤلاء وان كانوا بارعين في القتال فهم أبناء بطونهم، يدفعهم الأجر الذي يأخذونه، والسلب الذي يظفرون به الحروب. لا إخلاصهم للدولة، وغيرتهم عليها. أما البربر وهم الفرسان النوميديون، والمشاة الإفريقيون، فكانوا أكثر إخلاصا وحباً للدولة. يقاتلون في صفوفها بغيرة وحمية. وهم الذين كانوا الجمهور في جيش حنبعل القرطاجي الذي قهر به الرومان، وحاصر به روما واخذ بتلابيبها. ولو أحسنت قرطاجنة إلى البربر في آخر عمرها سيما إلى الإفريقيين في ترابها، والذين كانوا جيرانها في ليبيا ونوميديا وموريطانيا، وامتلكت قلوبهم بالإحسان، لانتفعت بشجاعتهم كل الانتفاع، وما استطاع الرومان ان يتغلبوا عليها.

وكانت قيادة جيوش في الدولة للأسرة البرقاوية. وقد نبغ منها عدة قواد كانوا من أفاذ العالم في الشجاعة وقيادة الجيوش. منهم حنبعل، وعملقرط، وصدريل

43 - نريد بالإفريقيين الزواج من أبناء جنوب افريقية بالمعنى العصري لافريقية. أما في بقية الأمكنة في هذا الكتاب فإذا ورد اسم افريقية فالمراد به القطر التونسي اليوم.

## الأسطول التجاري والحربي

وكان للدولة البونيقية أسطول ضخم يخر العباب إلى الأقطار النائية، ويشق البحار إلى الغايات البعيدة التي لم يصلها غيرهم من الأمم. ان البونيقيين أبناء اليم. نبتوا في أكنافه، فأواجه لا تفتأ من مناغاتهم، وهم لا يفارقون البحر كأن بيينه وبينهم رحما ماسة. قد ذلوا غواربه، برعوا كل البراعة في الملاحة، فكانوا في الزمن لقديم كالانجليزية والأمريكان في هذا العصر في كثرة الأساطيل، وفي التمكن من أعنة البحر. يركبونه إلى أي ناحية شاءوا. وكان أسطولهم قد بلغ خمسمائة سفينة، وملاحهم عشرات الآلاف. وقد استولوا على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط كله. فوضعوا أيديهم على شواطئ ليبيا وعلى صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، وعلى جزر الباليار، وعلى الأندلس، وعلى الشواطئ في جنوب فرنسا.

وكان أسطول البونيقيين ينقسم إلى قسمين. أسطول تجاري، وأسطول حربي، ولكل منهما نظامه ورجاله وشكل سفنه. وسفنهم هي فلك ضخمة فيه صفوف كثيرة على جانبيه من المقاذيف، وعليها شرع يبسطونه إذا هبت الريح فتزجهم إلى المقصود.

وكانت السفن التجارية ذات حيزوم مستدير، وشكلها غير بالغ الضخامة. أما السفن الحربية فضخمة الشكل. معقبة الصدر، لها صفوف كثيرة من المقاذيف قد تصل التسعة.

وكان للدولة في قرطاجنة أكبر مرسى للسفن يوجد في ذلك الزمان. وكان ينقسم إلى قسمين: إلى مرسى تجاري، ومرسى حربي. ومكانه في شمال جون لكرم، بين صالمبوودرمش. والمرسى التجاري مستطيل الشكل طوله 456م وعرضه 325م أما المرسى الحربي فأكبر من التجاري، وهو مستدير، في وسطه جزيرة القيادة البحرية.

وكان للدولة مصانع كثيرة ضخمة لصنع السفن وإصلاحها. وكانت سفنها لا تضاهي في الضخامة، والمتانة والجمال. وكان البحر يهددها في حجره، فتتهادى منتشية بلمساته اللطيفة، وأنغامه لعذبة وكانت أشرعته تخترق الأجواء في البحار النائية فترفع اسم الدولة في كل مكان.

تلك هي القوة الحربية للدولة البونيقية. فكيف كانوا في التين. ان الدين هو قوة الأمة وسبب تقدمها، فما تجردت منه لا تجردت من كل قواها ومن رشادها. فصارت حيوانات ضارية يأكل بعضها بعضا، فيقعون جميعا في الهاوية. بقد كانت الدولة البونيقية عظيمة، فما هو دينها، وما تمسكها به، وما أثره فيها؟

الجماهير التي معها. وبلغ عددهم خمسة آلاف نسمة. لأنفسهم لما احتل الرومان قرطاجنة وأحاطوا بالمكان الذي اعتصموا به. إلا مظهرها لهذه العقيدة الدينية الراسخة في قلوب البونيقيين.

وكان دين البونيقيين وألتهتهم هي إلهة الفينيقيين ودينهم. وقد زالوا له ما أعجبهم من دين البربر. كما عبدوا اله البربر (عمون) وكان من أربابهم الكبرى.

وكان القرطاجنيون قد اقتبسوا من كل أمة اتصلوا بها ما أعجبهم من دينهم وأوثانهم. فكان ينهم وأوثانهم مزيجا من أديان وأوثان الأمم التي عاشروها سيما البر والمصريين.

وكان من إلهة البونيقيين التي يعبدونها بعل حمون. وتأنيت بينبعل. وملقرط. واشمون.

### احترام البونيقيين لرؤساء الدين وإجلالهم

وكان للبونيقيين كهنة ورؤساء للدين يقومون بالمعابد. وقيمون لهم الطقوس الدينية. ويقومون بوعظ الناس في المدن والقرى. وترسيخ الدين في نفوسهم. وكان البونيقيون يحترمون هؤلاء الرؤساء الدينيين. ويجلونهم. كما كان الحكام والقادة وكل الطبقات الرفيعة جملهم. لأنهم عنوان الدين الذي يقسون. ومظهر الصلاح والخشوع وكل الأخلاق التي يحبونها ويجلونها.

«وكان لكهنة ينتمون في الغالب إلى أعلى الطبقات الأرستقراطية. وكانت القسيسية وراثية على الأقل بالنسبة للحبر الأعظم. ولم يفرض التبتل على النساء الكاهنات مثلما كان ذلك مفروضا على الفستاليات برومة. وكذلك لم تفرض العزوبة على الكهنة من الرجال.

وبمناسبة إقامة الحفلات والطقوس الدينية كان الكهنة يلبسون زيا خاصا وصفه لن المؤرخون اللاتينيون كما يأتي: ثياب أرجوانية. فلانس وجباب من كتان. أردية طويلة الذيل. تزينها في الوسط شقة أرجوانية وعصيات. وان لباس لكاهنة القرطاجنية عريسة بعل المنقوشة على غطاء الناووس الموجود بمتحف قرطاج كان بدون شك لباس كاهنة عظيمة الشأن. وهو يشبه لباس الكاهنة المصرية. ويعبر أحسن تعبير عن الأناقة اليونانية»<sup>45</sup>.

45 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 621 الطبعة الأولى بتونس 1959م

## قوة تدين البونيقيين، وألتهتهم التي يعبدونها

كان البونيقيون متمسكين بدينهم كل التمسك. وكان دينهم خرافيا. ولكنهم كانوا يؤمنون به إيمانا عميقا ورثوه من أجدادهم. وركزه في نفوسهم مغامراتهم في البحار. وما كانوا يحيطون به أنفسهم في كل مكان من أجواء دينية. ومن تماثيل تذكرهم بدينهم في كل مكان.

وكان البونيقيون يؤمنون بوجود اله هو خالق هذا الكون ومدبره. وكانوا يرمزون إليه بتماثيل يقصدونها ويقربون إليها مختلف القرابين.

كان البونيقيون ينشئون أبناءهم على الدين. ويبثونه في مجتمعهم بكل الوسائل وفي كل المناسبات. ومن شدة تمسكهم بالدين أنهم سمو أولادهم بأسماء تل على عبوديتهم وخضوعهم لألتهتهم. ومن الأسماء الشائعة فيهم للذكور (معطبل) أي عطية بعل. (عبد اشمون) واشمون من ألتهتهم. و(عملقرط) أي عبد ملقرط. وملقرط من ألتهتهم الكبرى في افريقية وفي فينقيا و(حنبعل) أي حن عليه بعل. وبعل من ألتهتهم الكبيرة. وبار كبعل يعني باركه بعل.

أما الإناث فيسمونهن (بنتبعل) و(عريسة بعل) يعني خطيبة بعل وأمة بعل.

وكان أمراء الدولة وقوادها يقدمون القرابين للآلهة. وقيمون لذلك احتفالات كبرى. يسرع إليها الشعب المتين. ورعوسهم منكسة للآلهة. وقلوبهم تفيض بالتقديس والخشوع لها !

وكانت الخاصة والعمة كلها تسرع إلى المعابد إذا أهم الدولة مكروه. أو حاق بهم سوء. كجب أو وباء. فيقربون القرابين الغالية إلى ألتهتهم. ليرتفع عنهم ما يخشونه. «وق قدم القرطاجيون للنار حين حاصر عاصمتهم قائد الإغريق (اغلاتوكلاس) مائتي طفل من أنبل الأسر. وخف ثلاثمائة رجل إلى التطوع يومئذ فرحين (فالقوا بأنفسهم في النار فاحترقوا) ليرضى الله عن أمتهم فينقذها بما هي فيه من ضيف وشدة»<sup>44</sup>.

وكانت عادة الحرق. حرق الأبناء. وحرق لنفس. من العادات الدينية الراسخة في نفوس البونيقيين. وما حرق عليسة ديدون لنفسا. وحرق زوجة صدر بعل لطفلها ولنفسها. وحرق

44 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 120 لوق تصرفنا في عبارة لنص لنزيده وضوحا.

## الآثار الحسنة للدين في نفوس البونيقيين

كان الذي تدين به الدولة البونيقية وثنيا باطلا، ولكنه أجدى البونيقيين كثيرا، وكان من أسباب عظمتهم، واستقروا دولتهم، وشيوع كثير من الأخلاق الحسنة في مجتمعهم، فسعدوا بها، وأورثتهم الهناء والأزهار. لقد كان البونيقيون يؤمنون إيمانا عميقا بأنه ما يرضى الرب ويجلب لهم كل خير، ويحفظهم من كل ضرر، لاستقامة في السلوك، وترك الظلم والعدوان، والإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، وطاعة أولى الأمر، وإتقان العمل والإخلاص فيه، وغير ذلك من الأخلاق الحسنة التي يهدي إليها العقل الصحيح والفطرة السليمة. ويؤمنون بان ما يسخط الرب ويسلط عليهم كل البلاء، وهو الاتصاف بعكس الخلالا المذكورة. فيأتون الحسنة بدافع من الخشية القوية فيصير بالتكرار عادة في نفوسهم يأتونه بدافع العادة والدين، ويتركون الصالحات بدافع من الخوف الشديد فيكون الترك عادة في النفوس، وترتبط الأعمال السيئة التي تكون شهوات تشهره إليها النفوس بعواقبها الوخيمة وهي سخط الرب وعقابه العاجل فلا تبدو لهم في ألوان منكرة تنفر عنها النفوس، فيتصرفون بإتيان الخلالا الحميدة، ويترك الأفعال السيئة، ويكون ذلك خلقا فيهم يشيعه أولو الأمر في المجتمع بقوانين الدولة، وقوة الحكومة، ويغرسه الآباء والمعلمون في نفوس الناشئة بالتربية الصحيحة، والتعليم الرشيد.

## أسباب الدين في نفوس البونيقيين

هذا هو الأثر الحسنة للدين في نفوس البونيقيين. لقد كانوا من أشد الأمم تمسكا بالدين، والتجاء إلى ألهتهم، وكان من أسباب قوة الدين فيهم ركوبهم البحار وإبعادهم في الرحلة، ما منهم إلا وقد عصف به البحر مرارا فرأى الموت الأزرق يفغر عليه، فلا يكون له التجاء إلا إلى قوة الله الذي يؤمن ب. والبلاء الهاجم الذي يزيد على قوة الإنسان ما يوقظ الدين في النفوس، وهذا ما يبتلى به البونيقيون في البحر من ثوراته، وهجمات الأعداء عليه، وفي البر من غارة المنافسين لهم الإغريق والرومان.

## الدين هو سبب عظمة كل فرد وكل دولة في الوجود

ان الدين هو الذي يلجم النفوس فتقف في حدودها، ويضبط الغرائز فلا يندفع صاحبها إلى الموبقات، ويحمل صاحبه بدافع الخوف الشديد فيتسمم بالصالح، ويأتي الأعمال الحسنة الكريمة التي تسعده وتسعد المجتمع معه، وما خلا مجتمع من لادين إلا سادت فيه الرذيلة، وامتنع فيه الاستقرار والهناء، وما تجردت دولة من الدين إلا كان تجردا

لها من الروح الذي تحيا به، فتكون في الحياة جيفة ننتنة خبيثة لا تمور إلا بالديدان والنتن من موبقاتها، ويسلط الله عليها كل الحشرات من أعدائها فترتع فيها كما تريد.

ان الدين هو سبب الإخلاص والعدل والرحمة، وكل حسن من الأخلاق، فهو لا العلم ولا العقل، ولا القانون ولا أي قوة في الوجود تكف النفوس وتلجم الشهوات، وتوقف المرء في حدوده لا يتعداها، وإذا خلا المرء من الدين كان وحشا ضاريا لا تصرفه إلا غرائزه، ولا يرسم له طريقه إلا أنانيته التي يكون بها لقومه بلاء وجحيما..

كانت الدولة البونيقية متدينة، فسدت واستقلت لها الحياة وظفرت بالأيام الضاحكة، فازدهرت، وحققت مثلها العليا في كل النواحي، سيما في الميادين المادية التي يجاهدون فيها، فما هي حضارة هذه الدولة السعيدة، وما درجتها في التقدم والعمران؟

الخامس والرابع والنصف الأول من القرن الثالث ق.م . وكانت دولتهم قد حجرت على الإغريق والرومان في المعاهدات التي عقدها مهما ان ينزلوا بسردينيا. أو شواطئ ليبيا وافريقية للتجارة. فاحتكرت التجارة في هذه البقاع لنفسها. وأصبحت أسواقها الرائجة لا يزحمها فيها احد.

وكانت قرطاجنة اكبر سوق في العالم. وكانت أنواع البضائع من مختلف أنحاء الدنيا مكدسة فيها. وكان التجار من مختلف أقطار العالم يقصدونها للتجارة ويقيمون فيها.

### السكة البونيقية

وكانت جارة البونيقين إلى القرن الخامس بالمقايسة. يأخذون بضاعة ببضاعة. ثم ضربوا سكة لهم في القرن الخامس في صقلية وفي القرن الرابع<sup>46</sup> ضربوا سكتهم في قرطاجنة فصاروا يتعاملون بها أيضا في الأسواق.

وكانت البضائع البونيقية من مصانعها الكبيرة. وصناعتها الزاهرة. وثمار أرضها الخصبة ما عمرت به أسواقها. وأشاع الغنى والرخاء فيها.

وكانت الطبقات المثقفة في المدن البونيقية. وسراتها. وأغنياؤها يشتغل معظمهم بالتجارة. لذلك ترفت التجارة فيها. وحازت دولتهم قصب لسبق في مضمراها. هذا إلى أسطولهم التجاري الكبير. وبراعتهم في الملاحة. وغرامهم بالمغامرات البحرية. والأسفار إلى البلدان النائية. وموقع افريقية الممتاز. انها وسط بين الشرق والغرب. تستطيع ان تمد أيديها إلى كليهما.

### الفلاحة

وكانت ارض المغرب فلاحية. فيها كل أسباب الخصب والنماء. سيما شمال افريقية حيث نشأت قرطاجنة. ان وادي مجردة الكبير يتفق فيها. فاستغل البونيقيون مياهه في الفلاحة. سهولة الخصبة للزراعة. كما امتلكوا اغلب أراضي افريقية. انتزعوها من البربر بوسائل مختلفة. فازدهرت الفلاحة فيها كل الأزهار. وكانوا يتقلون من مختلف جهات العالم كل ما يليق بجو المغرب من الأشجار المثمرة. والمزروعات الجيدة. ومن الرياحين وأشجار الزينة. كما اعتنوا بما وجدوه من مزروعات البربر: الشعير والقمح. وأشجارهم: التين والزيتون فأكثروا منها. ونشروها في كل أنحاء افريقية. فصارت افريقية بنشاطهم

46 - العد قبل الميلاد يكون بالتنفس لا بالزيادة فالقرن الخامس قبل الرابع والثالث قبل الثاني.

## حضارة الدولة البونيقية وعظمتها

كانت الدولة البونيقية قد ورثت الحضارة الفينيقية وزادت عليها. فازدهرت كل الازدهار في كل النواحي. وكانت على الرقي والجمال في كل الأركان. وكانت افريقية في عهدهم مثال الحضارة والجمال والرخاء. وكان يحج إليها عشاق الحضارة والجمال. والمترفون الذين يرغبون في الرفاهية والنعيم والبهاء. فيجدون فيها ما لا يجدون في غيرها من الأمم التي سبقتها إلى الحضرة. وتنسيهم افريقية أوطانهم بحسنا وحضارتها فيتخذونها مقرا دائما.

وكانت الدولة البونيقية دولة العمل والنشاط والرحلة والاقتناس من غيرها. لا جمد على المألوف. ولا تركد في رقعته فيكون لها نوع واحد من الحضارة. بل تضرب في بلاد الله الواسعة فتختلط بالأمم المتمدنة كالمصريين. والأشوريين. والإغريق. والهنود والصينيين. وغيرهم. فتقتبس من حضارتهم وأساليبهم في العمل أحسن ما عندهم. فتضيفه إلى ما عندها. لذلك أسرع في طريق الحضارة. ووصلت فيها القمة في أمد قصير.

وكانت حارة الدولة البونيقية ولية حضارات الأمم التي اختلطت بها. ولكنها تحمل طابعها. لق هضمت تلك الحارات وصاغتها صياغة جديدة على حسب مزاجها. وتقاليدها. وحاجاتها. لذلك نسبت الحضارة إليها. لأنها أثرت فيها. ورتقت بها. وأصبحت شيئا ممتازا يحمل طابعها. وبل عليها.

### التجارة

كانت الدولة البونيقية دولة تجارية ممتازة. فأثرت بالتجارة الثراء الواسع. وكانت أسواقها البونيقية الراحبة سبب الغنى العريض. والرخاء البالغ الذي كانت عليه.

وكان البونيقيون ابرع الأمم في التجارة. وكانت شخصية تجارية ممتازة حببتهم الأمم. وفتحت الأسواق العالية الراحبة لهم. وكان يرحب بهم للتجارة حتى منافسوهم الإغريق والرومان. ويعجبون بهم. ويتلمذون لهم في أساليب التجارة الراحبة وطريق امتلاك قلوب الأمم فتفتحت لهم أسواقها.

وكان البونيقيون قد احتكروا جارة الخوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في القرن

وعملهم، وبراعتهم في الفلاحة مثلا أعلى في الخصب وأزهار الفلاحة للبربر، فحذوا حذو البونيقين في أساليب الفلاحة فاعتنى البربر وعمرت أراضيهم، وعم الجمال كل أنحاء المغرب، بالمزارع الواسعة، والحدايق الغناء التي صارت ترصع أنحاءه بفضل البونيقين الذين اخذوا بأيدي البربر فنهضوا نهضتهم الكبرى.

ومن الأشجار التي نقلها البونيقيون إلى المغرب فانتشرت في جنوبه كل الانتشار النخل ! فإنهم حملوا إلى جنوب افريقية أنواعه الممتازة فانتشرت منه إلى كل أنحاء الجنوب في المغرب، وأدرك البربر بذكائهم مزايا النخلة وبركاتهما عليهم فاعتنوا بها، ونشروها في الجنوب، فصار المغرب من معان التمر الجيد الممتاز الذي لا يوجد في أنحاء العالم الأخرى. ونقل البونيقيون إلى المغرب أشجار الجوز واللوز والرمان وغيرها، فانتشرت فيه انتشارا كبيرا. وكانوا ينقلون ثماره إلى الأمم المجاورة، مع زيت الزيتون، والتمر، والتين الجفف، وغيرها من غلل المغرب الممتازة، فيكون إقبالا كبيرا في الأسواق عليها لما تمتاز به ثمر المغرب من حلاوة ونكهة، وطول بقاء.

ان الفضل في أزهار الفلاحة في المغرب للبونيقين، وان انتشار غرس الزيتون وأحسن الطرق لاستخراج الزيت منه يرجع إلى البونيقين لا إلى الرومان كما يدعى المستعمرون المتعصبون ! الرومان لم يرغبوا في المغرب فيحتلوه إلا لخصبه وكثرة خيراته وغناه الواسع، وحضارته الراقية بفضل الدولة البونيقية، والدول البربرية التي عاصرتها في آخر عمرها وورثت حضارتها، وواصلت عمالها بعها في كل الميادين ! ان الرومان تدفعهم بطونهم لامتلاك الأوطان، فلو كان المغرب بلادا فقيرة حالية ما حثتهم نفوسهم بالاستيلاء عليه، بل كانوا يهربون منه ولو ترامى عليهم.

لق برع البونيقيون كل البراعة في الفلاحة وكانوا أساتذة العالم فيها، وقد وضعوا فيها التليف القيمة: منها كتاب (ماقون) الذي ألفه في الفلاحة في آخر القرن السادس ق.م. وقد أعجب به الرومان فأمرت حكومتهم بترجمته إلى اللغة اللاتينية، كما انتفع به البربر، وكان مما ورثوه من علوم البونيقين.

### الصناعة

وقد اعتنى البونيقيون بالتعدين، وبرعوا فيه كل البراعة فاستخرجوا من مناجم المغرب الغنية الحديد والنحاس والرصاص وغيرها، فصنعوا منها أنواع الأواني والآلات والأسلحة، وأنواع الحلي من أقراط وأساور، وخواتم، وغير ذلك.

كان البونيقين قد أفادت أسفارهم صناعتهم فتعرفوا إلى معادن المواد الخام الجيدة

الرخيصة في مواطنها، فحملوها إلى افريقية، فصنعوا منها كل ما تستلزمه حضارتهم الراقية، وما تحتاجه الشعوب التي يتاجرون معها؛ كما استوردوا العبيد فاستعملوهم في الصناعة فظفروا بالأيدي العاملة الرخيصة، فحصلوا على الربح الكثير بتكاليف قليلة، فائروا بالصناعة أيضا، فكانت من أسباب غناهم البالغ، وقد استطاع البونيقيون بأسفارهم إلى أوروبا واسيا، وافريقية «ان يستوردوا العاج والجلود من ليبيا، والعبيد من السودان، خشب الأرز من صور، والبخور واللبان من بلاد العرب، والنحاس من قبرص، والحدي من ألبا والصفيح من (كورنول) بالجلتراء، والنيذ من بلاد الإغريق، والفضة من اسبانيا، والذهب والأحجار الكريمة من جزائر ملابار، والشمع والعسل من كورسيكا، والراتنج من شمال إيطاليا، والكهرمان من البلطيق، والكبريت من صقلية»<sup>47</sup> هذا غير ما يستخرجونه من مناجم المغرب الغنية من مختلف المعادن النفيسة وما ينتجه لهم المغرب من مواد الخام التي لا تحصى.

### الحياكة والصباغة

وقد اعتنى البونيقيون بالحياكة فبرعوا فيها كل البراعة، لق زرعوا الكتان والقطن في المغرب، وربوا فيه دود القز، فاستخرجوا منه الحرير، كما انتفعوا بصوف المغرب الجيد، فصنعوا ثياب الحرير، والصوف، والقطن، والكتان، كما صنعوا الزرابي المزركشة الجميلة، والوسائد المطرزة البديعة: وقد نوه الشاعر اللاتيني (حرميت) من شعراء القرن الخامس ق.م. بزرابي قرطاجنة الجميلة ووسائدها المطرزة الرائعة كما أعجب الأمم بسائر منسوجاتها فانتشرت في الأسواق، كما برعوا في الصباغة، وصنعوا الثياب الأرجوانية الفاخرة التي لا يلبسها إلا الملوك والأمراء.

### الدباغة

واعتنى البونيقيون بالدباغة، فصنعوا الأحذية الجميلة، والسروج المذهبة، واغمدته السيوف المزركشة، وأنواعا أخرى من المرافق وضروب الزينة.

### الصياغة

وبرع البونيقيون في الصياغة، فصنعوا من الذهب والفضة أنواعا من الحلي الجميلة المرصعة بالجواهر الكريمة، وكانت النساء في افريقية وفي المغرب يتزين بأنواع الحلي، فوجدن في حلي قرطاجنة، ما يضاعف جمالهن الفتان، وحسنهن البارع.

47 - قصة الكفاح بين رومة وقرطاجنة لتوفيق الطويل ص 43 ط. الثالثة في القاهرة 1375 هـ 1955 م.

## صناعة الزجاج

وأُتقن البونيقيون صناعة الزجاج، وأخذوها عن المصريين فزادوا فيها، فترقت على أيديهم. وكانوا يصنعوا من الزجاج الأواني المزخرفة وغيرها، والنوافذ الملونة، وضروب الزينة للأبنية والإنسان.

## الفنون الجميلة

وكان للبونيقيين غرام بالفنون الجميلة. فبرعوا في النقش على الصخور، والخشب، والنحاس، وفي صنع الدمى الجميلة من العاج والعظام، وفي صنع التماثيل، وفي التصوير. كما برعوا أيضا في شؤون الزينة. فقطروا العطور الأريجة، وكانت عطور المغرب متارة لذكاء رائحتها، وتعدد أنواعها. وأنها إلى الآن أحسن ما يقتنى المرء من العطر الفواح المنعش.

## الفن المعماري

وقد برع البونيقيون في البناء والتخطيط، فانشأوا القصور البديعة، وحفوها بالحدائق الغناء المرصعة بأنواع الأشجار، والزهور والرياحان. كما انشأوا الديار العالية ذات ست طبقات، وكانت ديارهم بالسطوح كما نرى الديار العربية اليوم بالمغرب. وانشأوا المدن العامرة التي كنت مثلا في النظافة والنظام والجمال، والأمن. فيها الميادين الواسعة، للاجتماعات الشعبية، والحمامات الساخنة الواسعة الفخمة تراها عامة في أنحاء المدن للشعب، وخاصة في قصور الأغنياء المترفين. ان المغرب سيما افريقية. لازال إلى اليوم أكثر بلاد الإسلام اعتناء بالنظافة، وغشيان الحمامات الساخنة الفخمة الساترة الأمينة الموجودة في كل أنحاء البلاد.

ان البونيقيين امة النشاط والعمل والأسفار. من كان حب العمل، والطموح، ومخالطة المم المتمدنة طبيعته، يبلغ أعلى الدرجات في العلم، والمدنية، والرقى. ويقتبس حسنة الأم ويسعد بها !

## اللغة البونيقية وأدبها

وكانت اللغة البونيقية هي الفينيقية قد داخلتها كثير م الكلمات البربرية ولهجاتها، فصارت تسمى البونيقية لأنها مزيج من اللغتين. كم تأثر الخط البونيقى بالخط البربري فاقتبس بعض حروفه. والبربر شعب قوي الشخصية لا تتصل بهم امة إلا ويؤثرون فيها، ولو كانت أكثر منهم حضارة، وأرقى في المعرفة ! كما ان البونيقيين شعب مغرم بالكمال، يأخذونه من كل جنس، ويلتقطونه من كل مكان. وقد اعتنى البونيقيون بلغتهم فترقت وغزرت مادتها، وصقلت أذواقهم، فصارت منسجمة ببيئتهم المترف، ومجتمعهم المتحضر. وكانت لغتهم هي العربية محرفة في لهجته وفي كثير من جملة بما داخلها من البربري والمصري القديمة، والإغريقية، والأهم التي اختلط بها البونيقيون واختلطت بهم. وكان البونيقيون يضيفون إلى لغتهم كل ما راقهم من الألفاظ، وبعد ان يعربوه، ويخضعوه لقواعد لغتهم ولهجتها، وقد رقت لغتهم فاتسعت لحضارتهم الراقية، ومصالح دولتهم الكبرى. فكانت هي اللغة الرسمية للدولة، يكتبون بها في الدواوين، ويحطبون بها في الأماكن العام، ويؤلفون بها الكتب لعلمي. وهي لغة الأب، والأغاني، وبها يقع التخاطب في الأسواق، والسمر في الجامع وبلي البونيقية في الأهمية وكثرة الاستعمال اللغة البربرية، فإنها لغة السواد الأعظم من أهل المغرب.

## إقبال البربر على اللغة البونيقية ومحافظة عليهم عليها

وكانت اللغة البونيقية لما داخلها من البربرية ولهجة البربر، ولعذوبتها ورشاققتها، وخفتها على اللسان، قد راقت البربر وأعجبوا بها؛ وأوها مفتاح العلم المتعطشين إليه، وسبب الاتصال بالبونيقيين الذين يعجبون بحضارتهم، فاقبلوا عليها، فتعلموها، فانتشرت انتشارا واسعا في كل أنحاء المغرب، وأتقنها الرجال والنساء من البربر، ونشأت ناشئتهم وهي تتكلم لغتين وتحسنها، البربرية والبونيقية. وقد ظلت اللغة البونيقية منتشرة في البربر يتكلمون ويكتبون بها إلى ان جاءت العربية فحلت محلها، وذلك في لقرن السابع المسيحي بعد ثمانية قرون ونصف م انقراض الدولة البونيقية وزوالها من الوجود.

وقد برع البونيقيون في كل العلوم التي تستلزمها التجارة والصناعة، والملاحة،

من الوجود؟! أين البربر الأوفياء. أين الأمازيغ الأبطال؟! لم يحفظوا دولتهم من الذئاب العاتية! لقد أضاعتهم قرطاجنة. وخسرت ودهم. وجعلتهم أعداءها! وذلك لسوء حظها!! ماذا خسرت ودهم ومتمى؟



فوضعوا فيها التالف القيمة بلغتهم. وقد ضاع أكثرها في حريق قرطاجنة. ولو بقيت لظفرت الإنسانية بكنوز نفيسة. وثروة علمية تزيدها أنشواطاً إلى الأمام. أما الأب فأرى انه كان ضعيف في اللغة البونيقية لان هذه الأم كان غرامها بالتجارة والصناعة. ومثلها الأعلى الذي يوجهها ويكيف أمورها ماي. وهو جمع أكثر ما يمكن من المال. فاعتنوا أكثر بكل ما يحقق مثلهم الأعلى في المال. والعلوم. سيما التجارة. والملاحة. والصناعة هي لوسيلة الكبرى لتحقيق أموالهم الكبرى في ميدان المال والاقتصاد. أنهم أم يتغلب فيها الإدراك على الوجدان. لهذا أرى ان الأب كان ضعيفا عندهم. وعنايتهم بالعلم كانت أكثر. وكعبهم في مجاله كان أعلى. وعلى انه لا بد ان يكون لهم أب جميل للدعاية السياسية. والتجاري. وللأغاني الشعبي. ولتحلية الأسمار العذبة في قصورهم البديعة. والتربي والتهديب. ولا يمكن لأمة ان تبلغ الذروة في الماديات مهما كان ضعف وجدانها. ولا يكون لها أب يعبر عن ذلك الوجدان.

لقد ورث الرومان علم البونيقين. وترجموا كتاب (ماقون) في الفلاحة. لان العلم بضاعة عالمية لكل الأمم. واعرضوا عن الأدب البونريقي. وقتلوه بكل وسيلة في المغرب لأنه لعظمة هذه الأمة التي أزالوها من الوجود. وفي العهد الروماني بالمغرب دخل البربر في عهود الجهل والظلمات. فضاع منهم كثير من تراث البونيقين. ومنه ما حفظوه من أدبهم. ولما جاءت العربية وحلت محل البونيقين في المغرب اندرست البقايا القليلة من أب البونيقين كالأمثلة السائرة. والكنيات. والحكم. وزالت بزوال اللغة البونيقية وانقرضها. واقبل البربر على العربية فأتقنوها. وقدموها. وصارواهم حمايتها وأسوارها الحصينة في المغرب الكبير!!

هذه جملة قصيرة في حضارة هذه الدولة العظمية تصور لك شخصيتها. أثارها العظيمة في المغرب. ولو أطلقنا العنان للقلم فحللنا عناصر شخصية هذه الأمة العظمية. وتتبعنا أدوارها كلها لملاّت هذا المجلد وارتبت عليه.

هذه هي الدولة البونيقية! كانت عظيمة. قوية بمالها. علمها. وكثرة مستعمراتها! فلماذا استطاع الرومان ان يقضوا عليها؟! كان ذلك للأمراض النفسية. وللهرم الذي تمكن فيها. ولاستيفائها لحياتها. ولفتوة الرومان وقوتهم. ولماطحة الإغريق لها وهي في الكهولة فعجلوا بشيخوختها.

ما هي الأمراض النفسية التي قيدت الدولة البونيقية للرومان فأجهزوا عليها. وفي أي حروب حرقوا قرطاجنة ودمروها. ورفعوا الصخرة الكبير وكروا بها رأس دولتنا فزالت

### ظلم البونيقيين للبربر وغطرستهم وجبروتهم

وكان حب المال. والإثراء البالغ منه. والانغماس في الحضارة والنعيم الذي اضعف نفوسه البونيقيين فصاروا للرومان نعاجا يثقلها سمنها عن النطاح. ق أورثهم ضروا وغطرسة وجبروتا على البربر في افريقية. وتنكرا وسوء عشرة لجيرانهم البربر في نوميدا. وصاروا مستعمرين هم امتصاص أموال البربر. واستعمارهم. وركوبهم مطايا رخيصة إلى أغراضهم.

«وكانت معاملة المستعمرين البونيقيين لرعاياهم الليبيين أبناء البلاد. وحتى النوميديين المعتبرين تحت حمايتهم. كانت على غاية من الغلظة والقساوة. أنهم كانوا لا يحتلون بلدا إلا وفرضوا على أهله الذل والهوان. ووضعوا أيديهم على كافة ما تنتجه أراضيهم. واخذوا يمتصون أموالهم التي حصلوا عليها بعرق جبينهم حتى يصبهم الفقر. ويدركهم اليأس والجوع والظنى. وقد درت هذه الطريقة على القرطاجنيين الذهب الكثير والمال الطائل. ولو أنهم كانوا ينفقون الكثير منه في الحروب مع أعدائهم. خصوصا في الحرب البونيقية الأولى مع الرومان: تلك الحرب التي ضعفت أحوالهم. وأفرغت خزائنها فاضطروا إلى زيادة تشديد الوطأة على أبناء البلاد المساكين الذين أصبحوا مسخرين في أيديهم كالأنعام. يعتصرونهم كما يشاءون. ويمتصون دماءهم. وينقلون كواهلهم بالضرائب لجحفة. ويجبرونهم على دفع جباية العشر. وكانت ترتفع في أوقات الحرب إلى ربع أو إلى نصف ما تنتجه فلاحتهم. وكذلك العبيد (من البربر الذين استعبدهم) أولئك الذين يقومون بأعمال مرهقة فوق أراضي الطبقة الارستقراطية البونيقية. وقد كانت من قبل أراضيهم فافتكوها منهم. هؤلاء كلهم كانوا ساخطين ناغمين يتربصون الفرص للتحرر والانتقام»<sup>48</sup>.

وكان البونيقيون في أول أمرهم يحتلون ساحل افريقية الذي لم يكن فيه من لبربر إلا الشيء القليل. وينشئون فيه مدنهم. وكانوا يعتمون في الإثراء على التجارة في الخرج. فجاوروا لبربر في افريقية وفي نوميدا أحسن مجاورة. وأحسنوا إليهم. واستخدموهم في مختلف أعمالهم. فتفتح لهم باب واسع للرزق والثراء. واخذوا بأيديهم لينهضوا. واعتنوا بتعليمهم وثقيفهم. فأحبهم البربر. وشعروا منهم بحنان الأم الرعوم. ورأوا منهم رعاية الأب الحجب ولكنهم في آخر القرن الخامس قبل الميلاد أصيبوا بمنافسة الإغريق لهم في التجارة وفي التوسع في صقلية فأرأوا ان الأرض هي منبع الثروة المأمون. فلا ب لهم من الفلاحة مع التجارة. فاحتالوا على أراضي البربر في وسط افريقية

48 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 202 ط أولى تونس.

### هرم الدول البونيقية وأسبابه

كان الفينيقيون الذين انشأوا قرطاجنة والدولة البونيقية قد حملوا في نفوسهم أسباب الهرم والضعف الذي أودى بدولتهم في فينقيا. وجعل الأعداء يتغلبون عليها ويوارونها التراب. وكانت دمائهم قد ضعفت بالعمر الطويل. وبطول الكد والبناء والعمل المتواصل الذي قامت به فينقيا قرونا كثيرة. ولكن اختلاط هؤلاء الفينيقيين الذين انتقلوا إلى المغرب بالبربر. وسريان الدماء البربرية القوية في عروقهم. ومفارقتهم لنعيم الحضارة الذي كان ينهك نفوسهم في صور. واتصافهم بخشونة البداوة. وكدهم وجهدهم في بناء عاصمتهم وإنشاء دولتهم في افريقية: ان ذلك كله سيما امتزاجهم بالبربر ق جد شبابهم. وأورثهم قوة في الخلق استطاعوا بها ان يستأنفوا عمرهم الطويل في المغرب. ولكن هؤلاء البونيقيين لم يستطع اختلاطهم بالبربر ان يشفيهم من علة ما أصيبت بها امة إلا عجلت بهرمها وضعفها. وقيدتها عن القراع والجهاد. وجعلتها أكلة للأعداء الأقوياء. ان هذه العلة الموروثة في البونيقيين هي حب المال وعبادة المادة.

### ضعف أخلاق البونيقيين بالانغماس في ملاذ الحضارة وإفراطهم في النعيم

وكان حب البونيقيين للمال. وعكوفهم على جمعه قد جعلهم يثرون الثراء البالغ. فانغمسوا في البذخ وفي الملاذ ونعيم الحضارة. فوهنت نفوسهم. وضعفت أخلاقهم. فصاروا لا يطيقون الحرب. وأهوال الجهاد فاستسلموا للرومان الأقوياء. واستطاعت روما الفقيرة المتينة الأخلاق. ان تتركب ظهر قرطاجنة الغنية السمينة. وان تنشب مخالباها وأنيابها فيها وتمزقها إربا وتبتلعها!

وكان خلق المسألة الذي أورثته للبونيقيين نفسيتهم التجارية قد زاد في آخر عمرهم بالبذخ وهرم الدولة. فصاروا لا يطيقون سماع صليل السيوف. وعافت نفوسهم دوي المعارك لذي يراه الرومان لقوة نفوسهم ألد من ذوي الرعود المبشرة بالغيث في سماء المجدب العطشان!

وجنوبها فأخذوها وفرقوها على أثريائهم. واستخدموا البربر الذين جردوهم من أراضيهم وأفقروهم عبيدا مسخرين بالحاجة وبالقهر في فلاحه تلك الأراضي! وأصبح البربر عندهم مزاحمين في افريقية التي أرادوا ان تكون لهم كلها. وأصبحوا في نظر البربر مستعمرين غاشمين يعملون للقضاء عليهم! فتكونت عداوة قائمة بين البونيقيين والبربر الإفريقيين. وصار البربر في افريقية وفي نومديا يتمنون زوال هذه الدول الهرمة التي صارت كلا عليهم. وصاروا يرقبون الفرصة للثورة والانتقام. وللقضاء على هذه الدولة التي صارت لهم زوجة الأب الشرسة المشاكسة. لا تنطوي لهم إلا على الكره. ولا تعمل إلا للإضرار بهم. فيتحررون. وينشئون دولتهم. التي ترعاهم وتعمل لصالحهم.

وكانت افريقية ونومديا في أول النصف الثاني من القرن الثالث ق.م. نارا من الحقد والبغض للبونيقيين. فوجدوا فرصتهم فانفجروا. وكانوا من أسباب ضعف الدولة. فاستغرقت في هرمها. وازدادت وهنا بالعدو الداخلي. وخسرت مخالبتها وأنيابها وقوتها التي تصول بها من البربر الصناديد. فاستطاع العدو الخارجي ان يتغلب عيها.

قاتل الله حب المال الذي يورث الأنانية واطم والجبروت فيخسر صاحبه كل شيء في الحياة! لقد خسر البونيقيون أصدقاءهم البربر. وجعلوهم بالجبروت وسوء العشرة أعداء الداء. متى ثار البربر على قرطاجنة. وصفعوها صفعات أليمة أورثها الدوار الذي ترنحت به فاستعدت للسقوط؟



## ثور البربر على البونيقيين

كان ذلك في آخر سن 241 ق.م. وكانت قرطاجنة قد أصيبت بالحروب البونيقية مع الرومان. وكانت الحرب البونيقية الأولى ق أنهكت البونيقيين وأفرغت خزائنتهم. وانتهت في سنة 241 ق.م. بهزيمتهم وخروجهم من صقلية خاسئين. فرأى البربر الإفريقيون عدوتهم قرطاجنة تسقط من شد الإعياء. ويدركها الوهن بفراغ خزائنها. انها لا تستطيع ان تدفع أجور جيشها الذي تستخدمه وهم فسخط عليها. انها لا تجد الجيش الذي تضربهم به إذا ثاروا عليها. ان هذا الجيش نفسه سينضم إليهم إذا بذروا له بذور الذهب. وأطمعوه في المال. ان الوقت مناسب لانتقام. والتحرر من البونيقيين المستعمرين. فشمروا (ماطوس) زعيم البربر في افريقية فأشعل قومه فثاروا. وثار مع الفرق الأجنبية في الجيش البونيقية مطالبة بأجورها. فقادها ماطوس في ثورتها. وضمها إلى قومه الثائرين. فأمسى الكل جيشا جرارا يزحف به ماطوس على قرطاجنة ليخنقها فتلفظ أنفاسها. ورأت قرطاجنة أسوأ أيامها. وشاهدت الموت الأحمر يتفجرها من عيون الأمازيغ!

وكان (ماطوس) من ضباط الجيش البونيقية كما أرى. وكان من البربر الإفريقيين الذين تسخرهم قرطاجنة في حروبها. فبرع في فنون الحرب. واطلع على أسرار الدولة فرأى ضعفها المالي والعسكري بعد حروب صقلية التي أنهكتها. وبعد هذه الحروب البونيقية الأولى التي طرحها فيها الرومان أرضا فصارت تتخبط في هزيمتها وشيخوختها.

وكان ماطوس غيورا على قومه البربر مخلصا لهم. وكان مثلهم يغلي حنقا على الدولة البونيقية التي تحتقر قومه. وتضطهدهم. وتتجبر عليهم. وتظلمهم في أنفسهم وأموالهم. وتريد ان يكونوا دائما أرضها الذلول. تطؤها بالنعال. وتشقها بالحارث. فعزم على الثورة. وحرير قومه من عنت هذه الدولة وظلمها. فوجد فرصته. هاهو جند الدولة المأجور. وهو جيشها الدائم الذي تكبح به الثورات الداخلية. يثور عليها لعجزها عن دفع أجورهم. ان عددهم عشرون ألفا. وأكثرهم من البربر الإفريقيين. والنوميديين. انه زعيمهم. وهم ملتفون حوله ليقودهم في ثورتهم. ان ثورتهم ليست لعجز قرطاجنة عن دفع أجورهم. ولكن فجرها فيهم بغضبهم لها. وحنقهم عليها.

لو أحسنت إليهم لراشوها في الأزمان، ولأخذوا بأيديها إذا سقطت. بل انها لو أحسنت إليهم لحاربوا لها الرومان في صقلية بإخلاص وحماس فتنتصر عليهم. ان البربر امة وافية، وهي في الشجاعة والفروسية، والصبر على مكاره الحروب أكثر من الرومان!

ان ثورة البربر عليها وطنية، وان غرض ماطوس ان يحرر قومه من الظلم، وينتقم من عدوتهم المتغطرسية. «فراح يعقد الاجتماعات، ويخطب في جماهير البربر مشجعا ومحمسا، وحاتا على المقاومة في ثبات وعزيمة، وأوفد رسلا إلى المن والقرى الإفريقية، والقبائل النوميديية، يدعوهم إلى الكفاح، والمشاركة في المقاومة، فلبوا نداءه، وانضوا تحت لوائه، وانضم إليه سبعون ألفا من المقاومين»<sup>49</sup>.

### شجاعة المرأة البربرية ووطنيتها الصادقة

وهبت النساء البربريات في افريقية وقمن بواجبهن في الثورات الوطنية. ان الثورة في حاجة إلى المال، وان ماطوس زعيمهن في حاجة إلى الأموال ليدفع منها أجور الغالبين والجنود المرتزقة غير البربر ليقبوا في جانبه، فمدت كل منهن بيدها إلى نحرها وأطرافها فانزعت حليها الذهبية والفضية فتبرعت بها لصندوق الثورة! ان حمرة العزة، وإشراق الكرامة آلت ستزين وجوههن أحسن زينة لهن من هذه الحلي. وتبرع النساء الأخريات بما استطعن من مال، وتبرع رجال البربر للثورة! بأموالهم «فتجمعت عند ماطوس أموال كثيرة لدفع ما كان يطلبه الجنود من أجورهم، والمجابهة المصاريف اللازمة للمقاومة والكفاح»<sup>50</sup> وكانت النساء البربريات لباسات يحمسن أبناءهم وأزواجهن، ويزدن لنار الثورة إذكاء في القلوب، وكانت زغاريدهن إذا ساروا إلى الحروب، وإذا اشتبكوا بالقرطاجنيين في المعركة، هي لوقود لقوى الذي يؤجج حماسهم، ويذكي نار قلوبهم أكثر من خطب القادة، وحث لرؤساء! وشاركت لمرأ لبربرية في هذه الثور، بمدوات الجرحى، وخدمة الجنود، والتجسس على العدو، أنهم نار على البونيقيين الذين لم يرين منهم غير الظلم والاحتقار! ان البربر يغفرون كل الذنوب إلا ذنب الاحتقار والاستبداد! أنهم أباء أعزاء، أنهم شعلة الجريدة المتأججة لا يورثها التنكيس إلا إشعالا وقوة، فتحرق اليد التي تنكسها، وهي لمن يرفعها نور ينير له المفاوز و يبلغ به الغايات!<sup>51</sup>

وقسم ماطوس جيشه لمحاصرة لمدن الكبرى واحتلالها فأرسل جيشا إلى عوتيقة فحاصرها وشدد عليها الخناق، وأرسل جيشا آخر فحاصر بنزرت، وسار هو بجيش كبير

49 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 203 \_ 204 ط أولى بتونس الخضراء.

50 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 205 ط أولى بتونس..

51 - جريد النخل وكل هش من الوقود إذا نكس ازداد اشتعالا.

فحاصر لعاصمة قرطاجنة وضيق عليها ليستنزلها لحربه و تعطي بيدها فيحتلها. وكان الثوار يعيثون فساد في أموال البونيقيين. هذه الأموال التي تعز عليهم أكثر من كل شيء. ان لفتك بها يشق قلوبهم، وكانوا يقطعون الأشجار، ويتلفون أموال البونيقيين. تلك هي حرب الضعيف مع القوي، وأسلوب الوطنيين مع المستعمرين الطغاة. فوقع البونيقيون في شر عظيم، وكانت كبرياؤهم تزيدهم هما، وتضاعف عليهم البلاء. هؤلاء البربر الذين يرونهم خدما وعبدا، يمرغون سادتهم في التراب، فيعفرون وجوههم في الحلل المذهبة، والتيجان لمشرقة! انه لبلاء كبير! واشتد الحصار على البونيقيين.

### فزع البونيقيين لأكبر قوادهم عملقرط ليخمد الثورة العارمة

كان البونيقيون يظنون هذه الثور زوبعة تخمد سريعا، فها هي عشرات الشهور ومئات الأيام تمر وهي لا تزدد إلا تأججا عارمة. ان عدوهم الأمازيغ الأقوياء انه لا يتغلب عليهم إلا اكبر قادتهم، وكبر قوة يستطيعون جمعها، ففزعوا إلى اكبر قادتهم (عملقرط برقة) وسألوه ان ينقدهم من هذا البلاء، فشمر عملقرط في بطولته وهائه فألف جيشا مدريا مخلصا للوطن بلغ عدده عشرة آلاف جندي، واخذ معه سبعين فيلا يقومون في الهجوم مقام الدبابات الثقيلة اليوم، وكان عملقرط لذكائه يعلم ن البربر الشجعان لا يستطيع التغلب عليهم إلا بجيش قوي من البربر. ان البربر في الفروسية وفي حرب العصابات أقوى، وشجع وامهر من البونيقيين. ان جنه مشاة يغنون بحسن قيادته وبالفيلة التي تمهد لهم الطريق إذا كانوا مع المشاة البربر، ولكن لا طاقة لهم بالفرسان النوميديين الذين يصلون بهم ماطوس، فاستطاع عملقرط ان يستميل إليه الملك (نارفاس) ملك نوميديا فانضم إليه في عشرين ألفا من الفرسان النوميديين الأقوياء الشجعان، فتقوى بهم عملقرط، فنازل ماطوس، وقواده في عدة معارك، فوقعت بين الفريقين معارك أغرقت افريقية في الدماء، وكان البونيقيون يبغضون البربر بغض المستعمرين للوطنيين الذين لا يعطون بأيديهم وأرجلهم للقيود، وكان لبربر في بغض البونيقيين، كما وصفنا، وكان كلاهما قويا، فدامت المعارك الطاحنة مدة طويلة، وكان تهمها وأكبرها معركة الجسر التي وقعت قرب قرطاجنة، والمعركة التي وقعت بنفريس (خنقة الحجاج) في جنوب قرطاجنة، ومعركة لمطة في جنوب حضرموت (سوسة) وهي التي اسر فيها ماطوس.

وكان اغلب الثائرين مع ماطوس من جماهير الساخطة، ان لهم شجاعة، ولكن ليس لهم دربة تجعلهم ينتصرون على الجيش المدرب، وعلى قائد عبقرى محنك (كعملقرط)

فاستطاعت قرطاجنة ان تتغلب على ماطوس وتقضي على ثورته. فقتل ماطوس<sup>52</sup> وكثير من جنده فسكن البربر ولكن إلى حين.

وكن اشتغال هذه الثورة في آخر سنة 241. ونهايتها في أول سنة 237 ق.م. ومدتها ثلاث سنوات وأربعة أشهر.

وكانت هذه الحرب لما وقع فيها من الفضائح من الجانبين. ولما كان فيها من القساوة والأهوال تسمى في التاريخ (بالحروب التي لا تغتفر) !

واستطاعت قرطاجنة ان تخمد هذه الثورة التي قام بها الجماهير. كما قضت على ثوراتهم التحريري التي سبقت هذه في سنة 396 ق.موفي سن 378 ق.م. وفي مناسبات أخرى كثيرة؛ فهل استطاعت ان تكسب ود لبربر بالحسن. وتمتلك قلوبهم بحسن السياسة؟ فيسندوها في شيخوختها. ويقارعوا لها لرومان الذين يفغرون لابتلاعه؟ انها لم تفعل شيئا من ذلك. لقد استمرت على طبعها القديم في معاملة البربر فازدادوا حنقا عليها. ورأوا عقبة في سبيل حريتهم. وبناء المغرب الكبير الذي يتمنون. فشمروا لإزالتها. وكانوا عون الرومان في القضاء عليها.

### أخطاء البونيقين مع الملك مصينيسا وعداوته لهم

ومن أخطاء البونيقين قلبهم ظهر الجن لملك نوميديا (مصينيسا) وخریش منافسه (صيفاقس) عليه. فخلقوا من مصينيسا الملك القوي. والصدیق المخلص عدوهم اللدود. كما ملأوا قلوب النوميديين بهذا الصنيع عداوة وبغضا لهم. فوقف مصينيسا في صف الرومان. وكان اكبر قوة لسبيون في معركة جامة التي قضى فيها لرومان على الدولة البونيقية. ثم أجهزوا عليها بعد ذلك. فلو كان مصينيسا لها في المعركة. أو لازم الحياذ. لامكن ان ينتصر البونيقيون على الرومان بفضل مساعدة صيفاقس الملك البربري وجيشه القوي الباسل.

### ثورة مصينيسا على الدولة البونيقية وسعيه للقضاء عليها

وكان مصينيسا قد رأى فظائع البونيقين في البربر. سيما في ثورة ماطوس. وعلم تاريخها المنكر في بناء قومه في افريقية. ورأى معاملتها المنكرة له. فعلم انها لا تريد خيرا للأمازيغ أبناء المغرب وأصحابه الحقيقيين. وأنها سبب تأخر المغرب وانقسامه. ورأى

52 - لما اسر عمقرط ماطوس أرسله إلى قرطاجنة فعذبوه في وحشية وفضاعة. ومثلوا به تمثيلا فظيعا. ثم أعدموه في ساحة عامة وسط أفرح القرطاجنيين ونشوتهم بهذا المنظر الأليم.

أبضا ضعفه وهرمها وطمع الرومان فيها. فأيقن مصينيسا انه إذا لم يهزم هذه الدولة العجوز ويمتلك افريقية. ويقف سدا حديديا في وجه الرومان لا يستطيعون اختراقه. فان الرومان سيقضون عليها فيحلون محلها في افريقية. فيقع المغرب في شر كبير. ويصبح بين ساعدي الأسد الروماني يخنقه. ويمزقه. ويبتلعه كما يشاء. ويملك أيتها العجوز السمينه المتهاككة ! لقد أطمعت الذئاب والنسور لا فحومت علينا. إنما أنت طعام موبوء. ولحم نتن يملأ الساحة بالذباب! لا بد من إزالة الدولة البونيقية! ليتوحد المغرب. ونجوا من مكائدها ومن غزو الرومان. هذا ما عزم عليه مصينيسا ملك نوميديا وموريطانيا الشرقية المخلص القوي. واعلم شخصية في المغرب. فصار يغير على أطرافها ويقطعها جزءا ويكيل لها الضربات القاصمة. وعزم على احتلال العاصمة والقضاء عليها.

وكان مصينيسا بجيوشه في نوميديا وموريطانيا الشرقية وحزبه القوي في قرطاجنة من أسباب ضعف الدولة البونيقية فأجهز عليها الرومان. فلو أنصفت البربر وامتلكت ودهم بالحسن. وصادقت ملوكهم ودولهم الناشئة لكانت عزيزة مكرمة. تعيش أكثر مما عاشت وإذا ماتت فموتة الأم المبجلة المحبوبة تلفظ أنفاسها في حشايا الحرير بين عطف أبنائها البريرة الذين يحفظون بمواساتهم وقع الموت عليها. ولكنها خسرت ود البربر. وصيرتهم لها أعداء. ففقدت اعضدها وجندها القوي المخلص فاستطاع سبيون قائد الرومان ان يفتك بها كما يريد. ويطأها برجله فيخنقها. فتلفظ أنفاسها. ويحرقها بالنيران! فما هي الحروب التي خاضتها الدولة البونيقية في صقلية مع أعدائها فأنهكتها. وكيف قضى عليها الرومان في المغرب فزال من الوجود؟

قرطاجنة بخمسين ميلا. ان البونيقيين دخلاء مستعمرون لا بد من إزالتهم من صقلية. ورأى الرومان البونيقيين في صقلية وفي البحر الأبيض المتوسط كله النواة القاسية في التمرة الشهيبة التي يلو كونها. تصدم أضرارهم. وتمنع من ابتلاعها! فشمروا لإزالة البونيقيين من صقلية. ومحوهم من البحر الأبيض المتوسط كله. ومن المغرب ليكون ذلك كله لروما. انها خلقت للسيادة والسلطان. فوَقعت الحروب البونيقية بين الأمتين البونيقية والرومان. وكانت حروبا مهولة طويلة. فلمن تكون العاقبة؟ انها لاقاهما خلقا لان الله كتب بالغلبة في هذا الوجود لذوي الأخلاق القوية وحدهم وقرر انه لا تكون القوة، والنصر. والظفر بالمنى إلا لذوي النفوس الصالحة والأخلاق المتينة!

### حروب صقلية 580 إلى 264 ق.م

كان الفينيقيون من قديم الزمان يعرفون أهمية جزيرة صقلية التجارية، وموقعها الممتاز في غرب البحر الأبيض المتوسط فاننشئوا في النصف الثاني في القرن التاسع ق.م. في شمالها الغربي وفي غربها مراكز تجاري. وقواعد بحرية مهمة منها: (بالرم) و(سليديس) في شمال الجزيرة، و(معطية) في غربها. ولما نشأت قرطاجنة ورثت هذه القواعد في صقلية وزادت قواعد أخرى في شمال صقلية وغربها وهي الناحية القريبة إلى قرطاجنة في افريقية. وأصبحت السيطرة والنفوذ في غرب صقلية للبونيقيين.

وكان الإغريق ينافسون الفينيقيين والبونيقيين في كل الميادين. فأنشئوا في نصف القرن الثامن ق.م. في صقلية على الساحل الشرقي مراكز وقواعد بحرية منها نكسوس، وسرسقوسة، ومسينة، وقطانية. وأسسوا على الساحل الشمالي هيمار، وفي الساحل الجنوبي غيلية، وسلنطة، وقمرين، وجرجنتي.

وكانت المنافس على أشدها بين الدولتين الكبيرتين البونيقية والإغريقية سيما في صقلية. وفي سنة 580 اعتدى الإغريق على البونيقيين فأرادوا ان ينشئوا مدينة في غرب صقلية في منطقة نفوذ البونيقيين. فنار البونيقيون واشتبكوا بالإغريق في معركة حامية فهزموهم ومنعوهم من إنشاء مدينتهم. واستمرت الحرب بين هاتين الدولتين وكانت سجالا بينهما. فأنهكهما كليهما. وكان الباعث لهذا الحرب هي المنافسة القديمة بين الفينيقيين والإغريق. والمنافس على صقلية. وق دامت هذه الحرب وهي نخبو وتشتعل. وتهدأ سنين ثم تور. ودامت لا قرون وستة عشر عاما. ابتدأت في سنة 580 وانتهت في سنة 264 ق.م.

وكانت الدولة البونيقية في ريعان شبابها. وكان الإغريق كفتا لها لا يتفوقون عليها في الشجاعة وفي متانة الأخلاق، وقوة الشباب. فاستطاع البونيقيون في آخر الأمر ان يتغلبوا على الإغريق ويسيطروا على جزيرة صقلية حتى الجناح الشرقي منها.

وكان الرومان ق نهضوا نهضتهم الكبرى، ونشأت ولتهم العارمة. وخلت في شبابها فارات ان تتمطى وتمتد إلى صقلية فاصطدمت رجالها القويتان بالدولة البونيقية. ان صقلية جزء من ايطاليا متصلة بها وقريبة منها. انها لا تبعد عنها إلا بميلين، بينما تبعد

والشبهوات قد أودى بأخلاقهم. فاتصفوا بالأنانية وحب الذات. وبالتكالب على الشهوات. وعبادة المال لا المجد. وبالتمسك كل التمسك بالحياة. فأورثهم هذا جبنا جعلهم يفرون من الحرب المقدسة في الدفاع عن الأوطان. والحفاظة على الدولة. ويؤثرون الخضوع للأعداء. والحياة الذليلة والعار على الموتة الشريفة في مواطن العزة والكرامة وللإباء.

وكان البونيقيون لاستيلاء الأنانية وحب المال على نفوسهم متنافسين. يتناطحون على الرئاسة. ويتناحرون منت اجل الزعامة. فأضعفهم الشقاق. ووهنت ولتهم بعدم الاخاد. فتصدعت جدرانها. ووهنت أصولها. وعشش فيها الخراب.

وكانوا إلى هذه الأمراض التي تقيدهم للأعداء وتطمح فيهم الطامعين. مسالمين. قد أورثهم انصرافهم إلى التجارة. ضعفا في الشخصية الحربية. فنشأوا وهم لنفوسهم المسائلة يهربون من العنف. ويكرهون الصدام. ويجفلون من الحرب. ويعافون منظر لاء. وكانوا في أول أمرهم. وعند نشأة دولتهم. يحاربون بعض الحرب إذا أرغمتهم الظروف. ولكنهم في آخر أمرهم أهملوا التدريب العسكري. وعولوا على جيشهم المأجور الذي لا يستमित في الدفاع. ولا يبذل كل الجهد في الحروب !

وكانوا إلى هذا كله امة هرمة. قد اوهن قواها طول البناء. واستنفد طاقتها الحيوية العمل المتواصل الجبار الذي استمر خمسة قرون ونصف قرن. وأدركها عجز الشيخوخة. وإصابتها أمراض الهرم كلها. واستوفت حياتها كاملة. وكتب الله ان تزول. فسلط الله عليها لرومان في الحروب البونيقية.

ويلك أيتها البقرة السمينة التي يتعالى خوارها في عرين الأسد الهصور. ويمتد منخرها إلى حماه المصون لبالغه الجرأة والنهم! ! هذا ما قاله الرومان الأقوياء في نفوسهم للدولة البونيقية لما تغلبت على الإغريق فاحتلت صقلية وأصبحت كلها في قبضتها وحت نفوذها. ووعت يدها على الجزء لشرقي فجاورت الرومان. ان صقلية ملاصقة لايطالية. انها وطنهم. وزهي بابهم الواسع إلى البحر الأبيض المتوسط الذي عزموا على امتلاكه. وهي اقرب إلى المغرب الذي صمموا على اختلاله واستعمارها. فشمر الرومان لطردهم البونيقيين من صقلية وتجريدها من كل مستعمراتها. والقضاء عليها بعد ذلك في عقر دارها. هذه خطتهم. وهذا ما عزموا عليه.

### الحرب البونيقية الأولى 264-241 ق.م.

ونشبت الحرب البونيقية الأولى في سنة 264 ق.م. ودامت إلى 241 ق.م واستمرت ثلاثا وعشرين سنة كانت الحرب فيها سجالا في أول الأمر بين البونيقيين والرومان. ثم

### الحروب البونيقية 264-146 ق.م

كان الرومان في القرن الثالث قبل الميلاد قد شبوا عن الطوق. وخرجوا من دور الطفولة. وبلغوا قمة الشباب. فأصبحوا دولة فتية تتأجج بالنشاط. وتتقد بالقوة. وتزخر بالأمال. وتتحلب أشداقها على الأوطان الغنية: فرامت ن تمت وتتسع. فوجدت الدولة البونيقية قد سبقها إلى الميادين التجارية. والى المراكز الحربية. والى الجزر المهمة المحيطة بها في البحر الأبيض المتوسط فاحتلتها. واحتكرتها لنفسها: فأل الرومان ان يزيلوا عن طريقهم هذه العقبة. ويكسروا هذه الدولة. ويحلوا محلها في كل المواطن والبقاع.

### أسباب عظمة الرومان وغلبتهم للبونيقيين

وكانت الأمة الرومانية متقشفة في عيشتها. فأرهقت حياة التقشف شجاعتهم. وقوة الإخلاص للدولة في نفوسهم. وأشعرت كل فرد بحاجته إلى أخيه. فأزاد انضماما إليه. واتحادا معه. وجعلتهم حياة التقشف هذه. والتربية الحسنة التي يربي بها الرومان أبناءهم. وترى بها الدولة شبابها وشعبها. وجعلتهم على أخلاق عظيمة. ومكنت فيهم الصفات لحسنة التي تسود صاحبها. وتورثه لتقدم والغلبة والسيادة. من هذه الأخلاق العظيمة التي اتصف بها الرومان حب الموت في سبيل الدولة. والتضحية بالمصالح الخاصة للمصلحة العامة. والاتحاد. والتضامن. الانقياد للرؤساء. وحسن الاختيار للزعماء. وعدم التنافس والشحناء. والابتعاد عن حياة الرفاهية والكسل التي توهن النفوس وتضعف الأجساد. والاعتناء بالتدريب العسكرية وأنواع الرياضة البدنية التي تكسبهم قوة في الأبدان. ومثانة في الأخلاق!

كان الرومان أذكيا طموحين. عزموا على امتلاك لنديا. والسيادة على العالم. فعلموا ان ذلك لا يكون إلا بالأخلاق العظيمة. والأجساد الصحيحة. والمهارة في الحرب. فجدوا كل الجد في الحصول على هذه لقوى لثلاثة فأدركوها. فحققوا كل آمالهم في الحياة. ونازلوا الدولة البونيقية فصرعوها. ثم أجهزوا عليها.

### أسباب ضعف البونيقيين وزوال دولتهم

وأما البونيقيون فكانت المدنية المفرطة. وحياة الرفاهية. والانغماس في الملاذ

## نقل سبيون الحرب إلى أفريقية

وكان الرومان أباة أقوياء. فخرج كبراءهم غزوا حنبعل لهم في عقر دارهم. وطمعه فيهم. وعزمه على إبادتهم وإزالة دولتهم في الوجود. فزادوا حنقا على الدولة البونيقية. وعملوا إنهم إذا تركوهم في الوجود فإنها لا تعدم من أبنائها قائدا عبقريا شديد العداوة لروما كحنبعل لعظيم. فيجدد الكرة عليها. ويقف سدا في طريقها. ويحول بينها وبين امتلاك لمغرب لواسع الغني الجميل المتحضر!

ويملك أيتها البقرة السمينة المستأسدة! جاء آكلك. لن نتركك بالقرون النطاحة بعد اليوم. ولا بد بعد تقييدك من الإجهاز عليك! هذا ما قاله سبيون الإفريقي في نفسه لما نزل في عوتيقة بجيوشه في أكتوبر سنة 204 ق.م. وكان في عشرين ألفا من جنده المدرب. أبناء روما المخلصين. فوجد مصينيسا ملك نوميديا ثائرا على البونيقين. فجره إليه. ورأى مصينيسا بدهائه فرصته في غزوة سبيون فاغتنمها. فأسرع إليه ليستعين به في دك هذه الدولة العجوز التي جردته من ملكه. وأساءت إلى البربر. ووطأتهم برجلها! فتقوى سبيون بانضمام مصينيسا الملك الشاب البطل. والقائد العبقرى إليه. وبانضمام جيش كبير من فرسان نوميديا كانوا جند مصينيسا وحزبه! فأيقن بالانتصار على البونيقين. وعلى حليفهم صيفاقس الملك البربري القوي. ان سبيون يحسب ألف حساب لصيفاقس وجيشه الباسل الذي يسند البونيقين ويحارب معهم! فها هو مصينيسا بجيشه البربري القوي معه. سيفل الحديد بالحديد. ويكل صيفاقس إلى مصينيسا. ويشتغل هو بصدر بعل قائد البونيقين الذي خرج إليه. فوقعت معركة كبيرة بين مصينيسا وصيفاقس كان النصر فيها لمصينيسا. فاسر صيفاقس ومزق جيوشه. وقضى على قوته.

## استغاثة قرطاجنة بحنبعل وإسراعه من إيطاليا وتوليته على الدولة

كما حرق سبيون معسكر البونيقين. وهجم عليهم فقتل مقتلة كبرى. ثم كر عليهم في معركة ثانية فهزمهم شر هزيمة. فاستغاثت قرطاجنة بحنبعل فأسرع إليها من إيطاليا. فولته حاكما عاما على الدول. ووضعت في يده كل مقاليد. وأعطته حق التصرف في كل الأمور. ان حنبعل بطل صنديد يفوق سبيون في الدهاء والشجاعة والإخلاص. ولكن سبيون يصول بأمة فتية تستقبل الحياة. وبجند من أبناء روما المخلصين قد أذكاهم النصر. وضاعف قواهم الظفر. ومعه مصينيسا الملك العبقرى. والقائد العظيم. بجيشه القوي من الفرسان الأبطال. أما هو فيصول بأمة عجوز. وبجيش اغلبه

تفوق الرومان على البونيقين فدحروهم في المعارك. وكسروا أسطولهم في الصدام. وأرغموهم على الانسحاب من صقلية كلها. وألزموهم بدفع غرامة حربية قدرها بعض المؤرخين بعشرين مليوناً من الفرنكات الفرنسية الثقيلة الغالي. فملك الرومان صقلية كلها. ثم عدوا على لمستعمرات البونيقية في البحر فملكوها أيضا. فملكوا في سنة 237 ق.م. كورسيكة وسردينية ملكوها بون حرب. وكان البونيقيون حينئذ مشغولين بثورة البربر عليهم. فاغتنم الرومان الفرصة فجردوها من تلك المستعمرات.

## الحرب البونيقية الثانية 218-201 ق.م

وكان الرومان يرقبون الفرصة لمنازلة البونيقين ثانية وإجلأئهم من الأندلس. والقضاء عليهم في المغرب. فحركهم لذلك حنبعل لهجومه على إيطاليا. ومحاولته تفكيك وحدتها. واحتلال رومة. والقضاء على الدولة الروماني. ان الرومان هم عدو الدولة البونيقية. إنهم عازمون على إبادتها. فلماذا لا تعاجلهم وجعلهم أكلتها! فصمم حنبعل القرطاجني. طل المغرب الكبير على إزالة لدولة الرومانية. فجهز جيشا كبيرا اغلبه من البربر الصناديد. استطاع حنبعل بإحسانه وحسن نيته ان يجعلهم أصدقاء للدولة البونيقية فحاربوا معه في إخلاص. فاخترق بهم جبال البيرنية في شمال الأندلس. وجبال الألب. فغزوا الرومان في عقر دارهم. واخذ بمخانقهم. وحاصر رومة. ولكن الدولة البونيقية الهرمة فتت في ساعد حنبعل العظيم وأبت ان تمده بالمدد اللازم لينتصر على الرومان. فافلت الرومان من قبضته. واستولوا على الأندلس في سنة 207 ق.م. فاخرجوا منها البونيقين.

## تولية سبيون حاكما عاما على إيطاليا وإعطاؤه الحكم المطلق

وكان الرومان يحسنون اختيار رؤسائهم وقادتهم. لا يتقيدون في ذلك بعرق ولا مال. بل يراعون الكفاءة وحدها. فأروا براعة سبيون الإفريقي في قيادة الحرب في الأندلس. وإخلاصه وكفاءته. فولوه رأسة الدولة في رومة وجعلوا في يده كل الأزمه

. وحت تصرفه كل القوات. وسمعوا له وأطاعوا. ووقف مجلس لشيوخ في رومة. وكل الهيئات والطبقات وراء سبيون العبقرى تؤيده وتشد أزره. وتمده بكل ما يريد من جند وسلاح. ومن رأي ومشورة. فصر سبيون البطل في ثورة الشباب وتصميم الصناديد. وحنق الأباة بأسنانه. وعزم على سحق الدولة البونيقية. وإرغام حنبعل على الانسحاب من إيطاليا. والتخلي من خطته. وإشغاله بمشاكل ولته التي سيجعلها تعاني سكرات الموت.



بطل المغرب الكبير حنبعل بن عملقراط

مأجور. قد قتلته الهزيمة. واخمد قواه الإنكسار. لو كان البربر أصدقاء لدولته لسقى بهم سبيون وجنده الموت الزؤام. وعفرهم بالهزيمة! لو كان مصينيسا حليفا له لاستطاع ان يكيل لسبيون على الصاع صاعين. ويريه فتكة الأسود الضارية بالنمورا! ولكن دولته بحمق الهرم. وغطرسة الغنى. وظلم الأناية جعلت البربر أعداءها. وصيرت مصينيسا عدوها اللدود. لا يتمنى إلا زوالها! ويل البونيقيين! وويل قرطاجنة! انها تريد ن ينازل سبيون المدجج بسيوف الهند الفتاكة. بالعصي الرخوة الواهنة. وناطق جبل الصوان في جيش البربر والرومان. بقوارير قرطاجنة التي أوهنتها الحارة! ولكن لا بد من الأقدام. ان الرومان في عقر داره. إذا لم يسر إليهم ساورا إليه. ان حنبعل العظيم لا يقاتل من وراء أسوار قرطاجنة كما يفعل الجبناء. بل يبرز إلى عدوه فيقاتله في العراء.

### معركة جامة الفاصلة 202 ق.م.

وفي سنة 202 ق.م. في شهر أكتوبر التقى الجيشان جيش حنبعل. وجيش سبيون ومعه الملك مصينيسا بجيشه لقوي الباسل. فوقعت بين حنبعل وعدويه سبيون ومصينيسا المعركة الفاصل في (جامة) في الجنوب الشرقي لمدين (الكاف). وكانت معركة رهيبه. أبدى فيها حنبعل شجاع خارقة. وثباتا منقطع النظير. ولكن من يحارب بالعصي ي يتغلب على خصمه الشجاع الذي يهجم عليه بالسيوف. لا بد ان يغلب! فولى جيش حنبعل الأدبار. فاننصر عليه مصينيسا وسبيون كل الانتصار. فلم يسع البونيقيين إلا الخضوع. فأرسلوا إلى سبيون يطلبون الصلح. فاشتراط عليهم شروطا ثقيلة جرد البونيقيين من قواتهم العسكرية. وجعلهم في المستقبل لحما على وضم تتناوله روما في أي وقت تشاء. فقبل البونيقيون لهزمهم وجنبهم تلك الشروط.<sup>53</sup> فوقع الصلح فكان قاصم الظهر الأولى للبونيقيين. والقيد الذي أوثقت به روما قرطاجنة ريثما تشحذ السكين فتغمده في أوداجها. فرجع سبيون إلى روما ظافرا. وهو يتلفت وراءه. فيرى الدولة البونيقية موثقة في القيود. شاخصة لبصر تنتظر نهايتها.

ويلك أيتها البقر السمينه لقد حطمت قرونك ووضعت الجامعة في عنقك فلا بد من جزرك لتهنأ روما. وتتقلب في المغرب كما تشاء! وفرحت روما بانتصارها. ورأته مقدمة للاستيلاء على افريقية. ولقضاء على الدولة العجوز التي تشاكسهم. وتطمع لإزالتهم من الوجود!

53 - من شروط الصلح المشؤوم: ان تسلم قرطاجنة للرومان ما تملكه من سفن حربية ما خلا عشر سفن ثلاثية متوسطة تستيقها لحراسة سواحلها. وان تسلم كل أفيالها. وان لا تروض أفيالا بعد اليوم للحرب. وان لا تقوم بحرب ولو كانت دفاعية خارج افريقية أو داخلها إلا بإذن من رومة. وان تدفع غرامة حربية قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة.

## إغارة مصينيسا على الدولة البونيقية والاستيلاء على أطرافها

وكان مصينيسا بعد هذه المعاهدة من سنة 201 إلى سنة 149 ق.م. قد اغتنم الفرصة في الدولة البونيقية فصار يغير على أطرافها، فاقطع منها أجزاء واسعة من غربها وجنوبها فضمها إلى مملكته. فبقيت الدول محصورة في جزء من ترابها الواسع الذي كان لها.<sup>54</sup> وكان مصينيسا قد عزم على احتلال افريقية كلها قبل ان يسبقه الرومان إليها. ثم يقرب لهم ظهر الجحش. ويمنعهم من غزو المغرب. وكان حزب مصينيسا في قرطاجنة يود ان يستولي هو على افريقية ليحفظها من الرومان المناكيد. فشعر الرومان بقصد مصينيسا فسارعوا لاحتلال افريقية.

## الحرب البونيقية الثالثة والقضاء على الدولة البونيقية 149-146 ق.م

وكان عداء الرومان لقرطاجنة رأس الدولة البونيقية يزداد تأججا على الأيام. وكان (كاطون) احد كبار مجلس الشيوخ الروماني. ومن خطباء روما الفصحاء ينادي بتهديم قرطاجنة. ويؤجج العداوة لها في القلوب. وقد زار افريقية في آخر أيام قرطاجنة فأعجب بحضارتها وكثر خيراتها. وعلم ان قومه إنما يغزون الأمم طمعا في خيراتها. فأراد ان يؤجج الرغبة في قلوب الرومانيين. فاخذ تينات معه من تين قرطاجنة. وفي أثناء خطابه في مجلس الشيوخ يحرض على قرطاجنة نثر تلك التينات الكبيرة من كفه أمام المجلس. وقال لهم: «انه ليس بينكم وبين الأرض الإفريقية التي تنتج هذا التين إلا مسير ثلاثة أيام». فتكونت الرغبة في قلوب الرومانيين في احتلال افريقية. والقضاء على الدولة البونيقية وتهديم قرطاجنة وإزالتها من الوجود. وأصبح (تهديم قرطاج) شعارا يهتف به خاصتهم وعاصمتهم يطالبون به مجلس الشيوخ:

وقررت روما احتلال افريقية والإجهاز على فريستها البونيقية. فصارت تبحث لها عن ذنوب الحمل مع الذئب. فوجدت عذرا واهيا فتسببت به. (فجهزت جيشا كبيرا يشتمل على ثمانين ألفا المشاة. وأربعة آلاف من الفرسان. و150 سفينة حربية. منها 50 سفينة خماسي. ما عدا المراكب التي كانت مشحون بالعدد والأثقال: فسيرت ذلك إلى عوتيقة في ربيع سنة 149 ق.م.

وكان هذا الجيش العرمرم تحت قيادة سبيون الأصغر الإيميلي. وهو سبيون آخر غير سبيون الأكبر الإفريقي الذي نقل الحرب إلى افريقية. وما كادت قرطاجنة تسمع بزحف

54 - انظر حدود الدولة البونيقية في آخر حياتها في الخريطة في آخر هذا الكتاب.

هذا الجيش إليها حتى انتفض مجلس الشيوخ البونريقي رعبا وهلعا وأعطى بيده إلى روما. فجردها سبيون الإيميلي ما تبقى لها من قوة حربية. ثم أمر القرطاجنيين بالخروج من عاصمتهم ليهدمها! ومن الذي يعطي برأسه مختار للفؤوس لتهدمها! فثارت غزيرة المحافظة على في نفوس الدهماء في قرطاجنة. فاستعدوا لمدافة الرومان. فغلقوا أبوابهم وشرعوا في بناء السفن الحربي من أبوابهم التي خلعوها. وفي صنع السلاح. وتبرعت نساء قرطاجنة للوطن بشعورهن الجميلة التي كن يعتنين بها كل الاعتناء. ويرينها أحسن جمالهن فحلقتها لتصنع منها للسفن. والأوتار للقسى! وضحي كل فرد في قرطاجنة بكل عزيز. واستعد للموت فداء للوطن. فحاصر الرومانيون قرطاجنة حصارا شديدا دام ثلاث سنين. فأجهدهم الحصار. وأودى بهم الجوع والمرض! وكان في هذه الأثناء قد وقعت معارك طاحنة بين الرومان والبونيقيين في عدة أنحاء من افريقية. ودعا اللؤم والجبن وضعف الشيخوخة كثيرا من المدن البونيقية الكبرى فانضمت إلى الرومان. ومن تلك المدن عوتيقة. وسوسة. ولمطة وقلم سبيون أظفار افريقية كلها. ووعها تحت قدمه. وبقيت العاصمة فصمم على فضاها.

وفي ابريل من سنة 14 ق.م. تسورها من ضاحية (مجاور) وهي حي الأغنياء في شمال المدينة. ولعل ذلك قد وقع الأنفاق معهم: فاحتله! فثارت الجماهير في قرطاجنة. ووقعت في العاصمة المناضلة معارك طاحنة بين سبيون وأهل المدينة في الشوارع والسطوح والبيوت وفي كل مكان. فامتألت شوارع قرطاجنة ودورها بجثث القتلى. وغرقت في الدماء الغزير التي تسيل في أزقتها وفي كل أنحائها. فاعتصم الجماهير في قلعة بربوة (بيرصة) وهي أكثر الأماكن حصانة في المدينة. فزحف إليهم سبيون فحاصرهم هم فقاتلوه فقتلوا مريرا. ثم تغلب عليهم فاحتل القلعة فأشعلها نارا. كما اشغل النار في كل أنحاء المدينة. بعد ان أباحها لجنده فنهبوا أياما. فاستولوا على كل نفيس فيها. ووصل سبيون إلى مكاتب قرطاجنة الكبرى فاخذ ما فيها من كتب علمية وأعطاهم لأبناء مصينيسا الذين خلفوا أباهم في الملك. وحرقت ما عداها. فبقيت قرطاجنة عشرة أيام وهي تحترق. فانت النيران عليها. ثم أمر سبيون جنده فاعملوا فيها المعاول فهموها. وأزالوها من الوجود. وصارت قرطاجنة العتيقة أرضا خالية سواء فحرتها الرومان.

وقد دامت معركة قرطاجنة سبعة أيام بلياليها والقتال المرير يجري في أنحائها. وكانت زوجة صدر بعل قائد قرطاجنة في هذه الحرب قد اعتصمت هي وطفلاها في المعبد. فسلم زوجها نفسه للرومان ذليلا مهانا. أما هي فكانت شجاعة أبية! فأوقدت نارا عظيم في المعبد. فأغمدت المدينة في قلب طفليها فالقتها في النار. ثم غابت مدينتها

ومدنت المغرب فصار جنة فتانة فطمع فيه الجراد الروماني! ان فضلها على المغرب الكبير. وان منها على أجدادنا لعظمة.

### موقف مصينيسا الحكيم في الحرب البونيقية الثالثة

لقد هاجم الرومان افريقية للقضاء على الدولة البونيقية. فما عمل مصينيسا في هذه الغزوة؟ لى لازم الحياء. انه لا يريد ان يعين الرومان لأنه يكرههم. وبوده ان يفشلوا في عزوتهم لافريقية ليحتله هو فينجوا المغرب من ويلات لرومان. إنهم شر يهدد المغرب وبلاء يريد ان ينشئ مخلصه في الأمازيغ! وقد توفي مصينيسا في سنة 148 ق.م. قبل احتلال قرطاجنة بحوالي عامين. وفي نفسه ان لا ينجح سبيون في القضاء على الدولة البونيقية ويرجع خاسئا إلى بلاده. ولكن لله كتب على المغرب ان ينتصر الرومان.

ووقعت افريقية في يد الرومان. أما باقي أنحاء المغرب فكانت تنعم بالهناء والحرية ولسعادة في ظل الدول لبربرية الكبرى. وفي رعاية ملوكها المخلصين. فكيف نشأت هذه الدول البربرية الكبرى. فأسعدت المغرب. وتركت لنا صفحات مشرقة من البطولة والمجد. وجعلت المغرب يرفع لواء الحضارة والعلم عاليا لما كانت اغلب الأمم والجهالة!؟

متى نشأت هذه الدول وأين مواطنها. وما أحوالها؟.



في صرها. وألقت نفسها في النار وهي تقول:«النار ولا العار!» وفعل ألف قرطاجني مثل فعلها. فالقوا بأنفسهم في النار فاخترقوا!

وبلغ الرومان مرامهم في الدولة البونيقية فأزالوها من الوجود. وفي قرطاجنة

فحرقوها وهدموها. ثم عموا إلى المدن التي حاربتهم: بنزرت. وقليبية ونابل فهدموها. فزالت الدولة البونيقية من الوجود. وذاب من بقي من البونيقيين في جنس البربري لعتيد. واحتل الرومان افريقية وجعلوا عاصمتهم عوتيقة. ثم أرسلوا نظرهم في المغرب في شرهة بالغة وفي عداوة أيضا. فأروا جماله وغناه. فعزموا على امتلاكه. ولكن فيه الأمازيغ الأبطال! ان دولهم العظيمة قد تكونت وهم يكرهون الرومان ويتقدون عداوة ومقتالهم. ان مستقبل الرومان في المغرب دهور قراع مرير. وحروب هوجاء! فبقي الرومان في افريقية على استعداد دائم للطوارئ. وأيديهم إلى سيوفهم يشنون عليها.

أما البربر فقد ورثوا حضارة البونيقيين. وعلمهم. ولغتهم. وتمسكوا بها. وازدادوا فيها. ولم يستطع الرومان ان يقضوا على الحضارة البونيقية التي استمرت في المغرب ثمانى قرون ونصف. إلى تمام الفتح الإسلامية. ثم حلت الحضارة الإسلامية محلها.



### عملة البطل العظيم الملك مصينيسا

وكانت مدة الدولة البونيقية في المغرب ست قرون وثمان وستين سنة. (668) نشأت في سنة 814 ق.م. وانقرضت في سنة 146 ق.م. وهي التي أيقظت البربر. وحضرتهم.

# الدول البربرية الكبرى

240 ق.م - 40 م

## الدول البربرية الكبرى 440 ق.م-40م

### تمسك البربر في عهودهم الأولى بنظام اللامركزية

كان لبربر في وطنهم الخصب الجميل المغرب الكبير على نظام القرية والقبيلة في نظامهم الاجتماعي. فكل قري تحكم نفسها لا تريد ان تتدخل غيرها في شؤونها، وكل قبيلة يسوسها زعمها<sup>55</sup> الذي تختاره وتقدمه، وتجعله رئيسها، لا ترضى ان تسيطر قبيلة أخرى عليها، ولا ان يتخل رئيس آخر في شؤونها، وذلك لان البربر مفضون على حب الحياة الاستقلالية، مجبولون على الغرام بالحرية، يهونون اللامركزية في احكم. وتراهم يعتمون في شؤونهم على أنفسهم، لا يتكلمون على حكومة ولا على قبيلة. وإذا اجه احدهم إلى قبيلته فعلى انه عمادها وعضدها الذي يقويها وينعشها. وقد ثبت الاستقرار والسلام، والطمأنينة التي دام عليها البربر قرونا في العهد الحجري، هذا الطبع في نفوسهم انه لم تكن هناك في ذلك العصر دولة قوية تهدم بالاحتلال، ولا عدو جبار يخافون سطوته، فيرغمهم ذلك على الاجتماع والتكتل، والانضمام كلهم تحت رئاسة ملك واحد، ليدفعوا الأعداء، ويحفظوا وطنهم من المغيرين.

وكانت الحياة البسيطة التي يحياها البربر في عهودهم الأولى تستلزم ذلك، فحاجاتهم قليلة ومآربهم معدودة، ومثلهم العليا فردية، ويستطيع كل فرد ان ينال حاجاته، وكل قبيلة وجماعة صغيرة ان تحقق كل أغراضها. أما المدينة، وحياة الحضارة المعقدة، والمثل العليا الجماعية التي تستلزم أنظمة كثيرة، وأمة متكاملة تخضع لحكومة واحدة فذلك ما لم يكن عليه البربر في عهودهم الأولى قبل البونيقين.

ومن أسباب تمسك البربر بنظم لقري خصب وطنهم وغناؤه وجماله وسعته، وقناعتهم به، فلم يشرهوا إلى أوطان أخرى يتوسعون فيها، ويكملون بخيراتها موارد وطنهم، فيدعوهم ذلك إلى التكتل والخضوع لرئيس واحد يقودهم في تحقيق المثل الأعلى الجماعي الذي يملأ قلوبهم.

55 - من أولئك الزعماء الملك يوباس الذي اشترت منها عليسة مكان قرطاجنة فهو زعيم ورئيس للقبيلة الحالة في المكان لا ملكا على افريقية كلها.

## نشأة الممالك البربرية

وقد دام البربر قرونا على نظام القرية والقبيل، ولا يعصف بهم خوف فيتكتلون، فان كان فهو خوف القبائل بعضها من بعض، وهو ما وحد كل قبيلة ورص صفوفه لتضمن لغالبة والقوة وعيشة الاستقلال؛ حتى اتصلوا بالبونيقين فتعلم البربر منهم لدني الرقية، واقتبسوا منهم العلوم والفنون، فتكون لهم مثل أعلى جماعي في الملك والسلطان، فتغيرت حيثهم فصرت تستدعي أنظمة وقوانين جيدة كالتي كان عليها البونيقيون، فصارت القبائل البربرية ينضم بعضها إلى بعض، وينتخب الجميع رئيسا واحدا يسوسهم، فتكونت الإمارات البربرية في النواحي، ثم ازداد البربر في الرقي والحضارة، وصار لهم مثل أعلى جماعي يسيطر عليهم وهو ان يصبحوا دولة عظمى كالدولة البونيقية، فدعا ذلك الإمارات إلى الامتزاج والتكتل، وصار أعلى الأمراء شأنًا، وأكثرهم كفاءة وقوية، وأغزهم عددا هو ملك المطاع، وأصبح الكل رعيتة، يقوهم في طريق الحضارة، وينافس بجهودهم وعملهم الدائب في البناء والتشييد الدول البونيقية التي كان البربر اكبر من نافسها في آخر أيامها.

وكانت نوميديا سيما القسم الشرقي منها اسبق إلى الرقي، وأسرع في التقدم من بقية أنحاء المغرب الأخرى، وذلك لمجاورتها للبونيقيين، ولكثرة امتزاجها بهم في السلم والحرب، في المدن والأسواق، وفي الحروب التي كانت نوميديا اكبر عون للبونيقيين.

وكانت نوميديا أكثر رقيا من موريطانيا الشرقية، وموريطانيا الغربية، وجيتولية، وارسخ قدما في الملك والسلطان، وأكثر دفاعا عن المغرب، ومحافظة على استقلاله وحرية.

ان أكثر الملوك الكبار الذين نهضوا بالمغربي، عملوا لتوحيدهم، وشرفوه بعبقريتهم وإخلاصهم وشجاعتهم كانوا من نوميديا، ولا نجد في الموريطانيتين الشرقية والغربية إلا ملكا واحدا كان عظيما، وشارك في نهضة المغرب واستقلاله هو صيفاقس ملك موريطانيا الشرقية، وسنعرض في الفصول المقبل لكل من عرفنا من ملوك البربر الكبار والدول البربرية العظمى، وتقف فيها وقفة شافية، ثم نلم بالممالك الصغرى استيفاء للحلقات ووصلا لأحداث التاريخ بعضها ببعض.

من هؤلاء الملوك الأبطال والزعماء المخلصون العباقر الذين انشأوا للمغرب الكبير دوله العظمى، فعاش مدلا رافها تقلب في حجرها في الدمقس والعطور، ويحتال في الحضارة والغنى والعلم والسعادة؟! من هؤلاء المحسنون الذين خرجوا بالمغرب من البداوة

والتفكك والجهالة، فوحوا أجزاءه في كل الجهات، وأنشأوا لنا ممالك عظيمة أورت للمغرب الكبير حضرة وعلمًا، وتركت فيه وراثة زكية هي التي أنعشها الإسلام وضاعفها، فقام المغرب لتأسيس دوله الإسلامية العظيمة، للاستقلال عن الأمويين والعباسيين قبل اغلب النواحي في العالم الإسلامي.

ان أول هؤلاء الملوك العظماء والزعماء المخلصين هو صيفاقس، فمن هو؟ وما شخصيته، وما حدود مملكته، وما آثاره في قومه، وما بقية أخباره؟



ناحية. ويستتبع بقية القبائل المحيطة بها فننقاد له. ولم يستطع صيفاقس ان يسود على أمراء النواحي في موريطانيا الشرقية ويستتبع. ويوجد موريطانيا الشرقية ويجعلها ملكة واحدة إلا لقوة قبيلته. ومجدها. وكثرة عددها. وكانت اكبر القبائل في موريطانيا الشرقية سيما في وسطها وغربها. وهي الأمكنة التي نشأت فيها ملكة صيفاقس. كانت اكبر القبائل في تلك النواحي هي زناتة.



### عملة الملك صيفاقس

وكانت عاصمة صيفاقس هي مدينة صيغة في شمال تلمسان. والعاصمة لا تكون إلا في بلاد القبيلة التي يقوم عليها الملك ويستند إليها الملك سيما في مدافعة الأعداء. وكانت تلك المناطق من غرب مدينة (مليانة) إلى غرب مدينة صيغة لزنانة. وكانت الرئاسة فيها قبل الإسلام لزنانة. وكان من ملوكهم (وصلات بن زمار) الذي أدرك أول الفتح الإسلامي. ثم استمرت رئاستهم لتلك الناحية إلى ان نشأت الدولة الرستمية في منتصف القرن الثاني الهجري بالمغرب الأوسط فدخلوا فيها. وبايعوا أئمتها. ثم خضعت تلمسان وغربها للدولة الإدريسية. ان زناتة هي القبيلة الكبرى في موريطانيا الشرقية ولا يمكن ان يكون الملك من غيرها. ان شدة شوكة صيفاقس. وطول مدته في الملك جليل على انه ستند إلى أقوى قبيلة. وليست في موريطانيا الشرقية سيما في الوسط والغرب منها إلا زناتة أرى ان صيفاقس من زناتة. واختياره مدينة صيغة عاصمة له في وسط بلاد زناتة من الأدلة على انه منهم. ومن ذؤابتهم. وفروعهم الكبرى.

أما والد صيفاقس وأسرته فان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئاً عنها. ان والد صيفاقس لو كان ملكاً لذكره المؤرخون. وارى انه من سرارة زناتة وأفذاها. ان الابن مظهر لوالد وأجلى

### ملكة صيفاقس الكبرى 202-230 ق.م

#### حدود ملكة صيفاقس

كنت ملك صيفاقس في أول لأمر هي موريطانيا الشرقية. وحدها من الشرق غرب مدينة بجاية. ومن الغرب وأي ملوية. ومن الجنوبي حد جيتولية الشمالي. ثم اتسعت ملكته في سن 205 ق.م. فاستولى على نوميديا كلها فصار حد ملكته يبتدئ شرقاً من طبرق. وينتهي غرباً في وادي ملوية. غير ان ملك صيفاقس لنوميديا لم يدم إلا سنتين ثم قتل فانفصلت نوميديا عن موريطانيا الشرقية. فصارت ملكته مستقلة تحت ملكها مصينيسا

وكانت عاصمة دولته (صيغة) وهي مدينة كبيرة غرب نهر (تافنة) في موطن خصب ومكن منيع. وهي في شرق وأي ملوي قريبة من الشاطئ. وتبعد عن شرق وأي ملوية بخمسة وأربعين ميلاً.

#### نسب صيفاقس وشخصيته العظيمة

أما نسب صيفاقس فان بأيدينا من التاريخ لقيم ومن آثار صيفاقس لم يتعرض له ولم يخبرنا بقبيلته. وإذا استعنا بما نعرف من طبع البربر في عهود بداوتهم. وأيام نشأة ممالكهم الكبرى. وبمن كان يحل في المكان الذي كانت فيه عاصم صيفاقس استطعنا ان نعرف قبيلته.

ان لبربر أيام نشأة ممالكهم لا تين القبيلة منهم لغير زعيمها لذي تختاره منها والجهة لغير أمير من الأمراء الذين ينتخبون من قبائلها. ولا يمكن ان يكون صيفاقس من قبيلة أخرى في المغرب الأدنى جاء بجيوشه وقواه فاخضع المغرب الأوسط وساد فيه. لو وقع ذلك لحدثنا التاريخ بحروب صيفاقس لإخضاع موريطانيا الشرقية. ولا يمكن ان تخضع له بدون حروب طويلة الأمد. عنيفة هوجاء تحفظ أخبارها وتصل لنا. ا صيفاقس من المغرب الأوسط. ومن موريطانيا الشرقية التي ساد بها. ومن أقوى قبيل فيها.

وكان الملك في تلك العهود يقوم على العصبية. فأكبر الملوك قبيلة هو الذي يملك

مرآة لهما. فما كان في صيفاقس من بطولة وذكاء. ومن همة وعزيمة. وغيرها من صفات الرجولة التي جعلت البربر يقدمونه إلى الرئاسة. ويرتضونه للزعامة ويقبلونه ملكا لدولتهم الناشئة؛ ان هذه الصفات قد ورثها من أبويه. فهما مصدرها لهذا نحكم بأنه ابن عائلة ماجدة. ومن أبوين كريمين. وان أباه وأجداده كانوا من سادات زناتة. ومن رؤسائها الكبار.

ان البربر لا يجدون المرء لعظاميته. ولكن لحقيقته. لأخلاقه العظيمة. ومواهبه العقلية الناضجة. هذه الصفات التي تورث ولا تكتسب. انها تنمو في الآباء. وتكمل في الأبناء. وإذا مجدوا إنسانا لأصله الشريف. ولإبائه العظماء فلأنه مظهر لذلك الشرف. وأسباب تلك العظيمة. قد ورثها وتمت نموها الكبير فيه.

كان صيفاقس من والدين كريمين. فأورثاه كل مواهبه الأخلاقية والعقلية. وربياه أحسن تربية. وعلماه وهذابه. فنشأ رجلا مثقف العقل. متين الخلق. عالي الهمة. وكان من الملوك العصاميين الذين يرقبون العروش بأنفسهم ي بسواعدهم الآباء وتملق الحاشية. ورشوة القادة والجيش.

وكان صيفاقس جميل الخلقة. بهي الطلعة. وكان يلتحي فتزيد اللحية غي مهابته وجلاله وحسن منظره. وكان متين الأسر. صحيح الجسم. قد أتاه الله قوة في الشخص والشخصية معا.

وكان صيفاقس قد نشأ والجولة البونيقية قد أسبغت على المغرب حضارتها. وبنث غي أرجائه علومها وفنونها. فتأثر بالحضارة البونيقية. واخذ حظه من علومها فكان مثقف العقل. تبدو ثقافته في سياسته الحكيمة للدولة. تلك السياسة التي أورثته إعجاب البربر الأعراف الطموحين. فبقي ملكا على الدولة أكثر من سبعة وعشرين عاما. وتبدو في دهائه الذي استطاع به ان يجعل البونيقيين أعداءه الذين جردوه من دولته. أصدقاءه الذين يعينونه على استرجاع الدولة. واسترداد العرش. من يدري؟ لعل أباه قد أرسله أيام شبابه وإبان تكونه إلى قرطاجنة. فتقلب في معاهدها العلمية. وتعلم منهم السياسة. وانغمس في المدينة البونيقية في اكبر معادنها فاخذ منها أحسن ما تحتاجه الدولة القوية. والأمة الناهضة. ان زعماء البربر وملوكه كانوا يبعثون بأبنائهم ليتعلموا في قرطاجنة ويتكونوا في معاهدها وبيئتها الراقية.

وكان أبواه قد اختارا له اسما يدل على آمالهما الكبرى فيه. لقد سمياه صيفاقس وصيفاقس اسم بربري «معناه المحروس. والحمي. والمدجج بالسلاح»<sup>56</sup> ان آمال أبويه فيه ان يكون من الأبطال الأقوياء الذين يخوضون المكاره. وميادين الموت الزؤام في سبيل المثل العليا. فسمياه صيفاقس. المحفوظ الحمي الذي يحفظه الله. وتحفظه شجاعته وقوته. لا يستطيع أعداؤه التغلب عليه. ولا يدرون ليقظته من أين يأتونه.<sup>57</sup> وقد يكون صيفاقس هو الذي اختار هذا الاسم لنفسه فاشتهر به. وقد يكون قومه هم الذين أطلقوه عليه. وسواء كان أبوه. أو هو. أو قومه. فان الاسم يدل على البطولة والهمة. والآمال الكبرى المعقود في هذا الرجل العظيم.

وكان صيفاقس طموحا كل الطموح. فأورثه طموحه البالغ منافسة جيرانه ملوك نوميديا. والعدوان على مصينيسا. فأودى به عدوانه. وسلط الله عليه الرومان الذين استعان بهم في التوسع فافترسوه. وذلك هو جزاء الله العادل لكل باغ على أخيه. ولكل من يعين الظالمين ويستعين بهم في بلوغ مآربه.

كان صيفاقس في سنة 230 ق.م. ملكا على موريطانيا الشرقية. وقد يكون اعلى العرش قبل ذلك بسنين. وقد تكون ولايته في هذا العالم. وقد يكون هو الذي انشأ دولته. وقد يكون غيره فتمت على يده. ان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عن نشأة هذه الدولة. وعن الزمن الذي نشأت فيه. إذا كان صيفاقس قد استطاع في سنة 230 ان يكون ملكا على موريطانيا الشرقية الموحدة. فان توحيد إماراتها. ومزجها في دولة واحدة يقتضي زمنا طويلا لا يقل عن عشر سنين.

كان صيفاقس ملكا على موريطانيا الشرقية. وفي موريطانيا الشرقية جبال القبائل. وجبال صنهاجة. وأهلها قوم ذوو منعة وعزة وقوة لا يخضعون لغيرهم. إنهم لم يخضعوا للرومان على قوتهم. ولم يخضعوا للدول المغربية الإسلامية التي نشأت في القرن الثاني الهجري. وأثرت زاوية الباسلة. وصنهاجة القوية الاستقلال في مواطنها الحصينة. تحت رئاسة أمرائها الذين تنتخبهم كل منهما لرئاستها. وارى ان صيفاقس كانت له السيطرة على السهول. وعلى القبائل الصغيرة في الجبال. فاكتفى من زاوية وصنهاجة بمهادنته. وعدم التعرض لدولته.

56 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 176.

57 - والعرب يسمون البطل الشجاع البهمة بضم الباء وسكون الهاء وهو الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

### نهوض صيفاقس بدولته ورقبها وسعادتها وقوتها بفضل مساعيه

وكان صيفاقس ملكا طموحا مخلصا لدولته فبناها في كل النواحي. فنشر العلم في رعيته، ورقى الفلاحة والتجارة، والصناعة، وكل أسباب الغنى والقوة التي تجعل الدولة تقف على قدميها، وترفع رأسها، وتحظى بالاستقلال الكامل الذي يحرص عليه البربر، ويرونه اعز شيء في الحياة، ودون الدواوين، واخذ بنظم البونيقيين في الإدارة.

وقد ضرب صيفاقس النقود باسمه، وبني هو ورعته القصور العالية، والميادين الواسعة الجميلة في المدن، والحمامات الفخمة، وكل ما تمتاز به قرطاجنة من فنون الحضارة والنعيم. وقد ازدهرت موريطانيا الشرقية بفضل دولة صيفاقس وشاع فيها الغنى، والرخاء والسعادة، وانتشرت فيها الحضارة البونيقية التي اخذ بها صيفاقس وأهل دولته، فهضموها واثروا فيها، وجعلوا عليها طابعهم، وكيفوها على نحو يليق بمزاجهم.

### عناية صيفاقس بجيشه وبالقوة الحربية في دولته

وكان صيفاقس بعيد الهمة، نافذ البصيرة، غيوراً على دولته، فرأى طموح ملوك نوميديا، ورأى طماع الرومان في المغرب، وان هو نفسه مغرماً بالتوسع، ليصبح ملكاً لمغرب كله، ويرث الدولة البونيقية، ويجعلها أكلته قلب ان يفترسها الرومان، ويحلوا في المغرب، فيكونوا شرا ووبالا على أهله جميعاً، فاعتنى بجيشه فقواه ودربه، فصار قوة يستطيع ان يدافع ويهجم بها من يريد، وقد كان عدد جيشه في معركة جامعة التي أعان فيها البونيقيين على الرومان ستين ألف جندي، وانه ليستطيع ان يجند من البربر الذين دربهم واعدهم للحروب أكثر من هذا في الحروب التي يعتمد فيها على نفسه.

وكانت دولة صيفاقس هادئة، مطمئنة، سعيدة به، معجبة بإخلاصه وكفاءته، فلذلك طالت مدته في الملك، ولم يذكر لنا التاريخ قيام ثورات داخلية عليه.

### علاقة صيفاقس بالدولة البونيقية

وكان صيفاقس مهادناً للبونيقيين في افريقية، وقد لازم الحياد في الحروب التي تخوضها الدولة البونيقية مع الرومان في اسبانيا وإيطاليا في الحروب البونيقية الثانية، ثم ساءت علاقته بالبونيقيين في افريقية، فتنمر لهم وكشر عن أنيابه، لم يذكر المؤرخين

سبب العداوة التي نشأت بين صيفاقس والبونيقيين. من يدري؟ لعل ميل البونيقيين إلى غولة ملك نوميديا، ومنافس صيفاقس الكبير في المغرب، والصدقة القوية التي تربط بين البونيقيين والنوميديين، حتى أعان الملك نافارس والد غولة البونيقيين في محنتهم بثورة ماطوس، بعشرين ألف فارس، وجند حنبعل آلافاً من الفرسان النوميديين كانوا أعضاده ومخالبه وأنيا به، في حروبه مع الرومان، ونالت نوميديا وملكها غولة الحظوة البالغة عند البونيقيين، وخطب صدر بعل اكبر قواد الدولة ابنته صفونيسب، عادة قرطاجنة إلى مصينيسا ابن غولة ليوثق علاقة الدولتين، ويؤكد الصداقة بين النوميديين والبونيقيين، فيكونوا يدا واحدة، فخاف صيفاقس ان يأتي يوم يعين فيه البونيقيون الملك غولة على التوسع، والقضاء على دولته، فأوغروا صدره بإيثار منافسه، وأثاروا مخاوفه بما ظنه من خريصهم وأعانتهم عليه، فصار مستعداً للانفجار عليهم، فنفجر بهذه العوامل النفسية، أو بعامل آخر مباشر من الحوادث التي لا تشغل النار بدون هذه العوامل النفسية.

### محالفة الرومان لصيفاقس وإثارته على غولة والبونيقيين

وكان الرومان في حروب ضروس مع البونيقيين في الأندلس وفي ايطاليا، ان فرسان حنبعل الذين يحاصر بهم روما، وينازل بهم الرومانيين من النوميديين، وفرسان صدر بعل القائد القرطاجني الذي يحاربهم في الأندلس من النوميديين، ان البربر هم قوة قرطاجنة ومخالبها وأنيا بها، فلا بد لهم من حلفاء من البربر، ان لم يصلوا بشجاعتهم في حروبهم، فإنهم يشغلون غولة بن نارفاس ملك نوميديا بحرب داخلية تصرفه عن إعانة البونيقيين، وتأييدهم، ان غولة هو حليف قرطاجنة المخلص، واكبر قوة تمسكها في الحروب، وتورثها المرأة والثبات في المعارك، والأقدام على محاربتهم، ان غولة عدو الرومان، لا بد من محاربتهم، ولكنهم لا يستطيعون ذلك، إنهم في شغل بحروبهم في أوروبا مع البونيقيين، ان حنبعل يأخذ بتلابيبهم، لا بد لهم من حليف من البربر يضربون به غولة، ويشغلون به قرطاجنة بحرب يثيرونها عليها في المغرب، هذا ما رآه القائد الروماني في الأندلس بوبليوس سبيون<sup>58</sup>، وأخوه اقناووس بدهائهما، فاجتهد أنظارهما إلى صيفاقس، انه قريب من

58 - هو والد سبيون الإفريقي بطل جامعة والثاني عمه، وكانا قائدين لروما في الأندلس، وهما اللذان أحرزا الانتصارات على البونيقيين وأخذا منهم الأندلس، ثم جاء سبيون الإفريقي فأجهز على البونيقيين في الأندلس.

التراب البونيقي في افريقية لان غولة يقف في طريقه. وارى انها على بعض المراكز البونيقية في شاطئ موريطانيا الشرقية. ان هذه المراكز البونيقية قديمة في المغرب. وهي ضرورية لهم في حروبهم باسبانيا ولا أرى إنهم زهدوا فيها فاحتلها صيفاقس منذ زمن بعيد. فضمها إلى دولته

### هجوم الملك غولة وحلفائه البونيقين على صيفاقس والقضاء على دولته 213 ق.م

وكان غولة ملكا داهية. وكان يعرف ما يضر له صيفاقس. وما ينطوي عليه من كره لحلفائه البونيقين. فاخذ حذره منه. وصار يرقبه. وكان صدر بعل قائد البونيقين في الأندلس كذلك.<sup>59</sup> وكانت قرطاجنة ترقب صيفاقس. وتتوجس منه شرا. فعملت بمخالفته لروما. وباستعداده لحربها. ورأت عدوانها على مراكزها. ورأى غولة تهيأ صيفاقس للعدوان عليه. وساء ان يفتح الباب للرومان المستعمرين أعداء المغرب الذين يمنون أنفسهم باستعمارهم. ويستقدمهم إلى المغرب. ويمكن الأفعى من اتخاذ أول حجر لها في المغرب. انها خيانة وطنية كبرى! وانه لعدوان كبير عليه وعلى حليفته! وها هو يبدوهم بالعدوان فيشن الحرب على مراكز حليفته! فعزمت قرطاجنة وعزم غولة على مهاجمة صيفاقس والقضاء عليه. فجهزت قرطاجنة. وجهز غولة جيشا كبيرا كان أكثر جنده من جيش غولة. فسار تحت قيادة مصينيسا بن غولة. وكان مصينيسا في عنفوان الشباب وعمره خمسة وعشرين سنة. وأسرع صدر بعل القائد البونيقي بجيش من الأندلس فانضم إلى مصينيسا. وسار تحت لوائه. فأحس صيفاقس بزلزلة الأرض تحت سنايك الجيش الزاحف نحوه. ورأى الأفق الشرقي يكسوه القتام بالكتائب المتقاطرة من قرطبة عاصمة غولة. فعلم انها الحرب الضروس التي كان يتمنى ان يكون هو البادئ لها والأقوى فيها. فاستعد للصدام. واخذ الأهبة للمعركة الفاصلة.

وكان ذلك في سنة 213 ق.م. فوقع المعركة الرهيبة في موريطانيا الشرقية بين غولة وحلفائه البونيقين. وبين عدوهم صيفاقس. وكان صيفاقس بطلا صنيديا. وكان جيشه قويا. فوقع المعركة الفاصلة بينه وبين مصينيسا قائد جيش غولة والبونيقين. وكانت معركة مهولة صبر فيها الفريقان. وصمم كل منهما على محق الآخر! فسالت الساحة بالدماء. وتكدست الجثث في الميدان. وبلغت المعركة نهايتها في الهول والشدة! **وقتل في المعركة ثلاثون ألفا من جند صيفاقس. ومن جيش غولة والبونيقين العدد** 59 - صدر بعل هذا هو ابن عملقرط برقة اخو حنبعل وليس صدر بعل والد صفونيسب الذي سيأتي خبره.

الأندلس. ويسهل الاتصال به. وإذا احتاجوا إلى إعانته فانه يستطيع إمدادهم. وإذا احتاج هو إليهم فإنهم يستطيعون الوصول إليه في وقت قصير. انه جارهم وقريب منهم. ثم هو بعد ذلك ملك قوي. وبطل صنيدي. يضاهاى غولة في عظمة الملك. وفي كثرة الجند. وهو منافس لغولة. بوده ان يزيله من نوميديا فيضمها إليه. ليتفتح طريقه إلى قرطاجنة فيبتلعها. انه رجل طموح يحب التوسع والاستيلاء. فما أسهل استمالاته إذا منوه بتحقيق هذه الآمال. ان يقضي على غولة. ويستولي هو على افريقية. ان صدره يغلي منافسة لغولة انه يراه قذى في عينه. وأشواكا تؤله في نعله. ان صيفاقس هو الذي يمكنهما استمالاته والاستعانة به على أضعاف البونيقين. فصار يرقبان فرصتهما لاستمالاته حتى ساءت للاعقته بالبونيقين. ورأوه يكشر لهم ويثور عليهم. فأرسلوا إليه ثلاثة من قوادهم الدهاة الذين يحسنون استمالة القلوب. فما زالوا بصيفاقس يشعلون نيرانه على غولة. ويخوفانه من هجومه عليه في يوم من الأيام بتحريض البونيقين. ويحرضانه على الدولة البونيقية العجوز. ويطمعانه في الاستيلاء على افريقية. انه إذا لم يفعل فان النوميديين هم الذين يرثونها.

وكان صيفاقس مستعدا من قبل لمحاربة غولة. ومحاربة البونيقين. فأصغى إلى الرومان. ورضي بان يكون حليفهم فيحارب غولة ما دام البونيقيون في شغل بحروبهم مع الرومان. ومادام اكبر قسم من جيش غولة خارج المغرب يحارب مع البونيقين. ان الفرصة مواتية. فشرع يستعد للحرب.

### استعانة صيفاقس بالرومان في تدريب جيشه على حرب المشاة

وكان البربر بارعين في حروب الفرسان. انه لا يشق لهم غبار في الحرب وهم على الخيل. وفي حرب العصابات. أما حرب المشاة فإنها جديدة عليهم لا يعرفونها. والرومان فيها ابرع. وهم يتقنون أساليبها ويعرفون مكائدها أكثر من البربر. فلا بد من براعة على حرب المشاة ليستطيعوا محاربة غولة والبونيقين الذين تمرنت جيوشهم على حرب المشاة بحاربة الرومان. فاستبقى صيفاقس احد القواد الرومان الثلاثة وهو (اسطاطوريوس) ليدرّب جيشه على حرب المشاة. ونشط صيفاقس في الاستعداد للحرب الضروس. ثم هاجم بعض المراكز الحربية البونيقية في الساحل فهزم جنودها. وعات فيها. ان المؤرخين قد ذكروا انه هو البادئ بالحرب. ولم يذكروا لنا مكان هذه الحرب. ولا يمكن ان تكون في

الوفير. وكان جيش غولة أكثر تدريباً. وكان البونيقيين يظاهرونه. وكان مصينيسا قائده بارعا في القيادة. وكان يتقيد حماسا وكرها للرومان ولصيفاقس الذي يعرف نواياه في دولة أبيه. فأشعل جيشه حماسة. وضاعف قواه. فكر على صيفاقس فهزمه فولى الأديار. فاحتل مصينيسا (صيغة) عاصمة صيفاقس. واستولى على دولته فضمنها غولة إليه.

### انهزام صيفاقس إلى موريطانيا الغربية وتجديده الكرة

وكان صيفاقس بطلا صنيديا- لا يعطي بيده. ولا ييأس. فانهزم إلى موريطانيا الغربية. والتجأ إليها. فأعاد تنظيم جيشه. واستمال بعض الموريطانيين الغربيين فكون منهم جيشا وقادة بنفسه. فسار إلى مصينيسا وكان ذلك في سنة 212 ق.م بعد شهور من المعركة الفاصلة الأولى. فوجد مصينيسا مستعدا له فوقعت بينهما معركة فاصلة أخرى كان النصر فيها لجيش غولة. فانهزم صيفاقس مرة ثانية إلى موريطانيا الغربية والتجأ إليها. ولا بد ان ان يكون قد اعتصم ببعض جبالها المنيعه. فعول على حرب العصابات. وكان يعرف ان حروب الرومان قد هاضت جناح البونيقيين. واستحوذت على مواردهم وقواهم العسكرية. وان غولة قد أرسل جيشه ومعظم قواته الحربية إلى الأندلس لتشد أزر البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وأنهما لا يستطيعان ملاحقته ومحاصرته في جباله ومواصلة الحرب ضده مدة طويلة. ثم ان الرومان حلفاءه في تقدم في الأندلس. سيقصمون ظهر البونيقيين بضرباتهم. ثم يسرعون لنجدته وإرجاعه إلى مملكته. ثم ان شعبه يحبه. وأنصاره هم الجمهور في دولته. سيثورون إذا وجدوا فرصتهم. فأرسل إلى شعبه يقوي عزمته. ويحي الأمل والحماس في صدره. ويعلمه بعزمه على مواصلة الكفاح. ان الثبات والكفاح العنيد المخلص هو سبب النجاح. فنظم صيفاقس فلول جيشه. فعول على حرب العصابات التي يتقنها البربر كل الإتقان. فماذا وقع بعد ذلك. هل رجع صيفاقس إلى عرشه. واسترجع دولته. أم بقي شريدا في الجبال؟

### رجوع صيفاقس إلى ملكه. وتجديده لدولته 212 ق.م

كان صيفاقس بطلا صنيديا. ورجلا داهية. وقائدا محنكا. لا تؤثر فيه السقطة. انه يتشبث بالأرض فيتناهض. ويقف على قدميه. وهو أكثر رسوخا غي موقفه. لا يتزلزل ولا يسقط!

وكان يشن على غولة والبونيقيين حرب العصابات ويغير عليهم من مكمنه. فيقلق راحتهم. ويقتل من جنودهم. لقد صمم على استرجاع مملكته والعودة إلى عرشه. انه

لا يخمد و لا يستسلم. ان البربر لا يطفئون سريعا. ولا يستسلمون للأمر الواقع إذا كان يس شرفهم. وبغض من قدرهم.

وكان الملك غولة حليف البونيقيين بعد انتصاره على صيغ=فافس قد أرسل جيشه إلى تحت قيادة ابنه مصينيسا إلى الأندلس لنجدة البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وكان البونيقيون في حروب عنيفة مع الرومان في ايطاليا وفي الأندلس. لا يستطيعون ان يقوموا بحرب طويلة الأجل مع صيفاقس في المغرب. ان هذا فوق طاقتهم. وما يضعفهم في حروبهم مع الرومان. فرأوا مهادنة صيفاقس وامتلاك وده. ولكن صيفاقس قد اظهر الاستعداد لمصالحتهم. والإعراض عن الرومان ونبد الحلف الذي عقده معهم.

وكان إلى هذه الأسباب التي تمنع الملك غولة والبونيقيين من مواصلة الحرب ضد صيفاقس حب الموريطانيين الشرقيين لملكهم صيفاقس. إنهم يؤثرونه. وله أنصار وشيعة كبرى في كل مدينة. إنهم يتحينون الفرصة للثورة ليسترجعوا دولتهم وملكهم. ان زناتة القوية الباسلة وهي البتر. لا ترضى ان يتسلط عليها غولة وقومه وهم من كتامة. ومن البرانس. ان جبينها الذي ألف التاج لا يمكن ان يستقر غي الرغام طويلا. لا بد ان يثور وتطرح أعداءها أرضا. وتسترجع عزها وملكها الشريد في الجبال. ان غولة لا يستطيع المحافظة على موريطانيا الشرقية. وجيشه بعيد عنه في الأندلس. ان اقل ثورة داخلية في موريطانيا سيذكيها صيفاقس. ويؤيدها الرومان. فتصير حربا تزلزل أركان ملكه. من يدري؟ لعل الثوار ينتصرون عليه فيقع م لا تخمد عقباه. ان صيفاقس لن يستسلم. ولن ييأس. وقد بنجده الرومان بجيش قوي فيزحف على المغرب كله فيملكه. يجب استرضائه وتهديته. ان هذا لا يمكن إلا بإرجاع مملكته إليه؛ ويجب إرضاء الموريطانيين الشرقيين الساخطين وامتلاك ودهم. وهذا لا يكون إلا بإرجاع دولتهم. وعودة ملكهم إلى عرشه. لقد نبذ صيفاقس حلف الرومان. وأجدى فيه الدرس القاسي الذي القوه عليه. ان رماحهم قد طعنت حلف الرومان فقتلته. سيلازم صيفاقس الحياذ ويصادق قرطاجنة فيكونون يدا واحدة على الرومان. هذا ما رآه الملك غولة بدهائه. وهذا ما رأته قرطاجنة. ففتحوا لصيفاقس باب الصلح الذي يقرعه. ومجال الإخاء الذي يعالج أقاله.

وكان الملك غولة عظيما وكرم النفس مع صيفاقس. انه لم يستسلم للعاطفة في هذا الأمر. ان صيفاقس عدوه ومنافسه الأكبر. وقد سعى لمحقه. ولكن الرومان أكثر عداوة واشد خطرا. فيجب التفرغ لحربهم وسد أبواب المغرب في وجوههم. ان صيفاقس أخوه. وهو من سراة البربر. يعمل لإحياء المغرب وازدهاره. لا لاستعباده وقتله كما سيفعل

الرومان لو تسلطوا عليه. ان شعبه يحبه لأثاره الحسنة فيه. ولما رأوا من الخير. والعز والحياة الكريمة على يده. ان صيفاقس أخوه. فليرجع إلى ملكه والى شعبه. والى مواصلة جهاده. وأعماله الكبرى في إنعاش موريطانيا وإسعادها. فرفع غولة والبونيقيين أيديهم عن موريطانيا الشرقية. فرجع صيفاقس بعد شهور من اندحاره والتجائه إلى موريطانيا الغربية إلى عرشه. فسر به شعبه. وفقت البلاد لأوبته. وسكنت زناتة وأخواتها غي موريطانيا سكون الرضى لا سكون التحفز كما كانت من قبل. ورجع التاج إلى جبين صيفاقس. واسترجع ملكه بفضل ثباته. ونضاله. وإخلاصه لشعبه. وحب شعبه له. فواصل أعماله في البناء. وجهوده غي إسعاد موريطانيا الشرقية وترقيتها في كل النواحي. وقد لازم الحياء في الصراع الذي يجري بين البونيقيين والرومان. إلى ان توفي غولة بن نارفاس ملك نوميديا في سنة 206 فتغيرت الأحوال في نوميديا. وأصبح صيفاقس أقوى ملك في المغرب. وأعظم قوة حربية تستطيع إجاد قرطاجنة في محنتها بالرومان. فماذا وقع فصار صيفاقس هو صديق قرطاجنة وحليفها الكبير في المغرب بعد ان حاربها وسعى في هلاكها؟ ولماذا أجهت قرطاجنة إلى صيفاقس وهو عدو النوميديين الذين نصرها. ونبتوا معها في حروبها مع الرومان؟

### محالفة صيفاقس للبونيقيين وأسبابها 206 ق.م

كان غولة بن نارفاس ملك نوميديا ملكها قويا. وبطلا عظيما. ورجلا بالغ الدهاء. وقوي الشخصية. محبوبا لدى رعيته؛ فاجتهدت إليه قرطاجنة في الحروب البونيقية فجعلته حليفها. وعرف هو أيضا خطر الرومان على المغرب فسارع إلى جدة البونيقيين فوقف في صفهم. وقارع معهم الرومان الذين يسعون للقضاء على الدولة البونيقية لتفتح لهم الأبواب. وتمهد لهم السبل لامتلاك المغرب واستعباده. والقضاء على دولته الناشئة. وظل غولة اكبر حليف للبونيقيين. ودام البونيقيون وهم يتوددون إلى النوميديين والى الملك غولة. ويوثقون الصلة بهم بكل الوسائل. فخطب صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير ابنته صفونيسب لمصينسا ابن غولة ليؤكد الصداقة بين الدولتين بالمصاهرة. ولكن لما توفي غولة في سنة 206 ق.م. تغيرت نظرة البونيقيين إلى الدولة النوميديية. وفترت علاقتهم به. وذلك لضعف الملك الذي خلف غولة. انه أخوه (دلغاص) وهو شيخ هم. ضعيف الشخصية. لا يتصف ببطولة أخيه وهائه. انه لا يستطيع ان يغني غناؤه في نصره البونيقيين. إنهم في عنفوان الحرب البونيقية الثانية. لقد انتصر عليهم الرومان في معارك أوروبا. فهزموهم في الأندلس. وطردوهم من اغلب بقاعها.

وامتلكوا جزرهم في البحر الأبيض المتوسط. وأنهم يطمحون بأنظارهم المسعورة إلى افريقية يريدون امتلاكها. ان البونيقيين في خطر داهم. وظرف عصب! ان الأسد الروماني الهائج يفرغ عليهم لبيتلغهم. ويجعلهم فرنا في أحشائه! فلا بد لهم من حليف قوي يستعينون به في مدافعة العدو القوي. وصديق بطل كغولة يقف بجانبهم غفي الحنة. ويجلو ببطولته عنهم الكرب. فنظروا فوجدوا ان صيفاقس هو أقوى ملك في المغرب. وانه أحسن لهم من (دلغاص) ببطولته وهائه. ورسوخ قدمه في الملك. وبجيشه القوي الباسل الذي أعده للمكاره. فرغبوا في صداقته. وعزموا على محالفته. ولكنه مجروح الفؤاد. مزور عنهم لإيثارهم لغولة والنوميديين. وهم منافسوه وأعداؤه. إنهم لا يستطيعون امتلاك وده مع اتصال صداقتهم لأسرة غولة والنوميديين. ان الجمع بين صداقة دلغاص خليفة غولة وبين صداقة صيفاقس صعب أو مستحيل. لابد من اختيار احدهما. هل يغني عنهم دلغاص الهرم شيئا. ان النوميديين أبطال صناديد. وان مصينسا بن غولة فارس مغوار. وقائد عظيم. انه مع جيشه يبلي البلاء الحسن في جانبهم بالأندلس. لولاه ولولا جيشه القوي الباسل لكان الرومان قد أجهزوا عليهم في الأندلس منذ زمن بعيد. ولكن الدولة برأسها. وملك الدولة هو الرأس والعمود الفقري الذي تقوم عليه. ان دلغاص ملك النوميديين ضعيف. وهو شيخ متهالك في آخر عمره. وابنه قابوصة الذي سيخلفه في الملك اضعف منه. ان القانون في وراثة الملك بنوميديا ان يخلف الملك الذاهب أسن رجب في أسرته. وليس مصينسا البطل القوي المخلص هو الاسن في الأسرة. فيتولى الملك بعد عمه دلغاص. انه في الدرجة الثالثة. فابن عمه قابوصة أسن منه. فهو الذي سيخلف أباه دلغاص. ان الخطر محقق. والأيام عابسة! ومستقبل الدولة النوميديية بملوكها الضعفاء إلى صيفاقس من فتل له في الذروة والغارب. وأزال سخائم صدره. ودعاه إلى محالفتهم. وليمتلكوا وده وثيقة اظهروا الزهد في الملك دلغاص. وعدم الاكتراث بدولته. وقطعوا علاقاتهم به. وأبطلوا علاقة المصاهرة التي كانت ستربطهم بالدولة النوميديية فحولوها إلى صيفاقس ودولته. صفونيسب! غادة قرطاجنة! وغزالة المغرب! ومنية الفرسان المثقفين. والأمراء الكبار! وابنه صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير! وكانت لمصينسا فجعلوها لصيفاقس. وخطبها له صدر بعل مبالغ في استرضائه. واجتذابه. وبعث الطمأنينة في قلبه. ودليلا على قطع كل علاقاتهم بالنوميديين وبعائلة غولة.

وكان صيفاقس يدرك خطر الرومان على المغرب. وكان موقنا بان دلغاص الضعيف لا يستطيع مؤازرة الدولة البونيقية فتقوى على مدافعة الرومان عن المغرب. ان الرومان

### اجتذاب الرومان لمصينيسا وإرغام البونيقيين له على محالفتهم

وكان الرومان يرقبون الأمور في المغرب. فعرفوا محالفة البونيقيين لصيفاقس واطرحاهم لمصينيسا، وثورة مصينيسا عليهم، فأرسلوا إليه يعرضون عليه ان يكف عن حربهم. انه هو ساعد البونيقيين القوي. ومخلبهم الجبار الذي يبطشون به في الأندلس. وهو الذي يمسخهم في المعركة. لولاه لانهدموا وملكوا الأندلس جميعا. وجنبعل الذي يطرق بقنواته أبواب روما! أليس فرسانه وأقوى جنده من النوميديين. ان كف مصينيسا عن حربهم سيف في عضد جنبعل أيضا. وهو نصر لهم في كبل اليايين. ان مصينيسا رجل ذكي يعرف خطرهم. وهو أكثر كرها لهم من صيفاقس. إنهم لا يطمعون في ان يتحول بجيشه في الأندلس. فيحارب معهم البونيقيين. حسبهم ان يرحل إلى نوميديا ويشعلها حربا عوانا على قرطاجنة. ويجعل صيفاقس يستبقي قواته في المغرب ليحارب بها مصينيسا ويدافعه بها عن دولته ودولة حلفائه. فأرسلوا إلى مصينيسا ففتلوا له في الذروة والغارب. وأشعروه باستعدادهم لإعانتته إذا أراد.

### أسباب محالفة مصينيسا للرومان

وطلبوا محالفته. فحالفتهم مرغما ليستعين بهم في المحافظة على ملكه إذا تألب عليه صيفاقس والبونيقيون. وطلعت عليه أمواجهم. وأرغموه على التمسك بالأفعى لينجو من الغرق! ان نية صيفاقس فيه وفي دولته العدو الحقود الذي لا يرضى ببقائه في الوجود. ان جيوشه قد أضناها الجهاد في اسبانيا. وان أموره في نوميديا مختلفة بثورة الثوار. أما صيفاقس فجيوشه مستريح. وأموره منتظمة. ودولته مستقرة. لا بد له من حليف قوي يسنده إذا عصفت به صيفاقس. فلم يجد إلا الرومان فرضي بهم حليفا.

كان ذلك في سنة 206 ق.م. فانتصب مصينيسا على عرشه. فجرد عبقرية ليرم دولته. ويندفع بها في طريق العظمة. وتكون أقوى دولة. وأغنى امة في المغرب. فتحرك الحسد والحقد والطمع في صيفاقس. وخرق الخوف وافن الرأي في قلوب القرطاجنيين. فهاجموا مصينيسا للقضاء على دولته. فكيف وقع ذلك. وما أسبابه؟ ولن تكون الدائرة في هذه الحروب التي أطربت الرومان لأنها مزقت المغرب. ووسعت الهوة بين البونيقيين وصيفاقس وبين مصينيسا؟ ان المغاربة لن يتحدوا بعد اليوم ضدها؟.

عدوه وعدو المغرب جميعا. لقد اطرحهم واعرض عنهم. ونبذ حلفهم. ووظأه بنعاليه. ان صدورهم تغلي حنقا عليه. ثم ان الدول البربرية هي الغرض الذي سيستهدفه الرومان بعد قضائهم على الدولة البونيقية لكي يزيلوها فيتأتى لهم امتلاك المغرب. ان الخطر يداهم المغرب. ويدهم دولته. لا بد من محالفة البونيقيين ومناصرتهم. ان أيديهم تمتد إليه. ان الدولة البونيقية في هرمها. قد تنجح بمؤازرته في دحر الرومان. وقطع أطماعهم عن المغرب. فيكون هو الوارث لها. فيوحد المغرب كله في دولة واحدة. وصفونيسب! انها القمر الذي سيتألق في سماء كهولته فيجدد شبابه. ويضاعف قواه. ويكسو بنوره وسحره أيامه. فتقبل عليه باسمه جميلة كصفونيسب. نضيرة فتانة كمحياها الفاتن. وروحها الساحرة! لا بد من مصافحة اليد التي تمتد إليه من الدولة البونيقية. لئن لم يتحد معها فان طوفان الرومان سيغرقهم جميعا. فأسفر وجه صيفاقس للبونيقيين. وتعانقا. وأصبح حليفهم. فشمر عن ساعديه لمناصرتهم. والهجوم على كل من بناوئهم. ورحب بخطبه صفونيسب. وأرجأ الزفاف إلى اليوم السعيد الذي لا يراه بعيدا.

### غضب مصينيسا لتنكر البونيقيين لدولته وأسرته

وكان مصينيسا مشتبكا بالرومان في الأندلس ينصر البونيقيين. ويخوض لجح الحروب الهوجاء من اجلهم. وعيناه إلى المغرب يرقب ما يجري في دولته وفي دولة منافسهم صيفاقس. فرأى جنوح البونيقيين إلى صيفاقس واطرحاهم لدولته. وعدم الاكتراث بشئونها. وهاهم يزهدون فيه هو أيضا فيبطلون خطبته لصفونيسب. هذه الحبيبة التي ملكها قلبه. وأضحت أمنيته الحلوة. ومصدر انسه وسعاده في أهوال الحروب. فثارت نائرتة. وأحس بالقرطاجنيين يحثون التراب على رأسه. ويهينونه ويهينون دولته. ثم ثارت العاصفة في دولته. وقتل الثوار ابن عمه قابوصة. واستولى على العرش وهو وارثه الشرعي. والبونيقيون يصفقون للثوار. ويؤيدون صيفاقس في الكيد له. ان صيفاقس حريص على إزاحته عن الملك حسدا له. وحقدا عليه. انه يريد ان تكون نوميديا ضعيفة بملوكها الضعفاء لئبتلعها متى أراد. ان البونيقيين يزينون له ذلك ويؤيدونه. لقد قلبوا له ظهر الجن! لم الاستبسال في مدافعة خطر الرومان خارج المغرب. والشتر والخطر في دولته؟! فأسرع إلى نوميديا فاسترجع عرشه من أيدي الثوار. فلربح عليه. وامسك بكل الأزمة في الدولة. ورمي قرطاجنة بعيون تتقد بالمقت. وتتأجج بالعداوة. لا بد من تأديبك أيتها العجوز الرعناء. وأرسل يده إلى قائم السيف يقلقله ليثار لشرفه. ويؤدب الذين غدروا به. واستخفوا به وبقومه.

أمله في الاستيلاء على نوميديا. فصر بأسنانه. وحقده القديم على النوميديين. وحسده لمصينيسا. وخوفه منه ينص به فؤاده. ففاوض حلفاءه القرطاجنيين فيما يرى. فوجدهم على رأيه. يجب القضاء على مصينيسا! ان العجوز الحمقاء لم تعمل للصالح بين الملكين البربريين. وامتلاك ودهما معا ليقفوا جميعا سدا من حديد في وجه الرومان. بل أغرت صيفاقس بمصينيسا. واذكت عداوته. ووافقت على هواه. وانسأقت مع أطماعه. واراها الغرور انها تستطيع بصيفاقس وحده ان ترد جيوش روما الكاسرة التي تتأهب للانقضاض عليها! فجهز صيفاقس جيوشه. وكتب كتائبه. وباغت مصينيسا بهجوم عنيف!

كان ذلك في سنة 205 ق.م فلم يشعر مصينيسا إلا وصيفاقس يغشى ملكة بجيوشه الجرارة. فثار للدفاع. وأسرع إليه قومه من أنحاء نوميديا. فوقعت معارك طاحنة في نوميديا بين الملكين. وكان كلاهما يقود جيشه ويباشر القتال في المعركة. فثبت مصينيسا ثبات الأبطال. ودافعه النوميديون عن دولتهم دفاع الأسود. ولكن صيفاقس كان أقوى وأكثر استعداد للحرب ذ. فكر على مصينيسا فهزمه. فاستولى على ملكته. ودخل قرطبة عاصمة نوميديا فاحتلها. فتحقق أمله. ووقع ما كان يرجوه. لقد انتقم من أعدائه القدماء. واستولى على نوميديا فاتسعت ملكته. وان تحقق أمله الآخر لقریب. انه أمل بالغ الجمال والحلاوة بملؤه بالسعادة والبهجة! صفونيسب! خطيبته الحسناء. ستزف إليه في قرطبة فتتم أفراحه. وتكمل سعادته.

ما هذه الزغاريد المتعالية في قرطبة عاصمة صيفاقس الجديدة؟ انها زغاريد العرس الكبير. فزفت صفونيسب إلى صيفاقس في حفلات كبيرة حضر فيها أمراء قرطاجنة وسراتها.<sup>62</sup> ولكن صيفاقس ما كاد يتطعم شهر العسل. وما كادت نشوته بانتصاره وزفاهه تتم حتى دعى إلى حرب جديدة. انه مصينيسا الملك البطل! لا يستسلم ولا ييأس.

### إغارة مصينيسا على البونيقين واستنجادهم بصيفاقس

وكان مصينيسا لما انهزم قد التجأ إلى جبال طبرقة المنيعه. فعزم على حرب العصابات. وملك أيتها العجوز الرعناء! لابد من تهديك! ان الدولة البونيقية هي عدوه الأكبر في المغرب. انها هي التي أغرت به صيفاقس. انها منبع الشر وسبب الفرقة! فكتب كتائبه فصار يغير على المدن الغربية البونيقية وينزل عليها ضرباته. فارتاعت

62 - أرى ان زفاف صيفاقس بصفونيسب كان في قرطبة بعد ان جاور البونيقين لا قبله.

## هجوم صيفاقس على مصينيسا

### واستيلاؤه على نوميديا 205 ق.م

كان ذلك في سنة 205 ق.م. وكان مصينيسا قد استرجع منذ شهور ملكته من أيدي الثوار. وانتصب ملكا على نوميديا. فشرع ينظم جيشه. ويصلح ما أحدثته الفتنة نت التصدع في دولته.<sup>60</sup> ويقوي نفسه ليرفع رأسه على منافسيه وأعدائه في المغرب.

وكان صيفاقس رجلا طموحا. وكان شديد الحقد على مصينيسا والنوميديين. أليس مصينيسا هو الذي هزمه في الحروب الواقعة بينه وبين أبيه. انه هو الذي جرده من ملكه. وسلبه عرشه. وجرعه الغصص. وسحبه في التراب! ها هو ينتصب ملكا على نوميديا. انه بطل صنيدي. ورجل داهية. وسياسي حنك. وعبقري سيجعل دولته بالغنى والحضارة تكسف دولته. سيكون أقوى منه ملكا واعز جانبا. ان شعبه يحبه. سيلتف كله حوله. وهو شاب أقوى منه. وأكثر حماسا. واقدر على مواصلة العمل في السياسة. وقيادة الحروب. ومنازلة الأقران في الجلال. قد يتحرك عداؤه القديم لدولته. فيهجم عليه فيصرعه. فيستولي على ملكته. انه يغلي حنقا على حلفائه البونيقين وعليه. لا بد نت التخلص منه والانتقام من دولته. لابد من الاستيلاء على نوميديا الغنية الجميلة. فيتم ملكه. ويكون جارا لحلفائه البونيقين. يستطيع إجتادهم إذا هوجموا. والاتصال بهم. أما الآن فان ملكة نوميديا تفصل بينهما. ولا يصل بينهما إلا جيتوليا.<sup>61</sup> وفيها القبائل البربرية القوية التي تكره البونيقين لاستعبادهم للبربر في افريقية. ان طريقه عليها لا يكون أمنا. وهناك البحر وهو في قبضته الرومان. ان أساطيلهم تجوب أنحاء. وسيعتني مصينيسا بأسطوله فيكون بحر نوميديا الذي يصله بافريقية في قبضته. ان انتصاب مصينيسا ملكا في نوميديا تهديم للحلف الذي يربطه بالبونيقين. وخطر يهدد ملكه. انه عدو له لابد من الانتقام منه. يجب ان يعالجه ما دامت أموره مضطربة. ودولته مصدعة بالفتنة التي قلقت أركانها. وما دام جيشه لم يستجم من أتعاب الجهاد العنيف. والحروب المريرة الطويلة التي خاضها ضد الرومان في الأندلس. انه إذا استجم وانتظمت أموره. لم يستطعه. ان الفرصة مواتية للانتقام من عدوه. وحقيق

60 - هي فتنة الانقلاب الذي قام به الناثر مزوطيل على ابن عمه الملك قابوصة.

61 - جيتوليا هي الصحراء انظر أقسام المغرب في الباب الأول من هذا الجزء.

## اتخاذ صيفاقس قرطبة عاصمة ملكه

وكان صيفاقس قد فرح بتوسع مملكته، فجعل قرطبة عاصمته، فانتقل إليها ليراقب عدوه عن كثب. وكان سعيدا بصفونيسب التي وجد فيها ما ينشد في المرأة من أنوثة وثقافة، ومن جمال وذكاء، فبوه لو استمرت الأيام الهادئة، ليتفرغ لمباهج ملكه، ويستمتع طويلا بملكه العريض. وزوجته الحسناء؛ ولكن قلبه يحدثه بان أيام الهناء قليلة، وان الزمان العابس القمطرير هو ما يستقبله. ان الرومان يستعدون للانقضاض عليه وعلى حليفته قرطاجنة.<sup>64</sup> وان مصينيسا يربط في جبال نفوسة يبري برائينه، ويجدد أنيابه، ويستعد للهجوم الكبير. ثم جاءه النذير بان ما يخشاه قد وقع. ان الرومان قد نزلوا في افريقية في جيوش جرارة فانضم إليهم مصينيسا فذي عصابته. وان جيش مصينيسا يغزر جمعه ويتضاعف عدده بمن ينضم إليه من النوميديين والبربر الإفريقيين. ثم جاءه الصريح من قرطاجنة. يستنجد به. فعلم ان أيام الدعة والهناء قد ولت. فودع زوجته وعاصمته قرطبة. فسار في ستين ألفا من جنوده لنجدة البونيقين، وملاقاة سبيون الإفريقي ومصينيسا.

كان ذلك في سنة 203 ق.م. وكان قائد البونيقين هو صدر بعل والد صفونيسب. وكان قد خرج في جيش كبير فوصل صيفاقس فاجتمعا على العدو. وكان مصينيسا في جيشه وفرسانه الأقوياء مع سبيون. فنشبت حروب عنيفة بين الطرفين. فرأى سبيون قوة صيفاقس وشدة شوكته فأراد ان يفرق بينه وبين البونيقين، ويمنع اتصالهما.

## مكيدة سبيون لصفاقس والبونيقين وانتصاره عليهما

وكان صيفاقس قد نزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل قائد البونيقين. فنشبت الحرب بين القرطاجنيين والرومان. فظهر سبيون الانهزام مكيدة، وخاطب محاربيه في الصلح. وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين، وحال دون اتصالهما. ومن الليل هجم هو على صدر بعل. ومصينيسا في رهطه على صيفاقس، واحرقا معسكريهما<sup>65</sup> وانهاالا عدوهما بالسيفوف. ومات بالحريق وبالسيف من جيش صيفاقس والبونيقين أربعون ألفا، واسر خمسة آلاف. وكانت ضربة قاضية على صدر بعل وصيفاقس. وكان ذلك في ربيع سنة 203 ق.م.

«وفي شهريونيه من سنة 203 ق.م. اخذ صيفاقس وصدر بعل يعدان العدة للهجوم  
64 - نريد بقرطاجنة الدولة البونيقية كلها من باب ذكر الجزء وإرادة الكل في الجاز المرسل.

65 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 129 ط بيروت 1963.

قرطاجنة بهجومات مصينيسا. انه بطل صديد لا تطيق الاشتباك به وجيشه بالغ الجرأة ويحاربهم بأسلوب العصابات الذي لا يتقنه البربر. فاستغاث البونيقيون بصيفاقس. فجهز جيوشه الجرارة، وأرسلها تحت قيادة اكبر ضباطه (بوكار) في سنة 204 ق.م. فاشتبك بمصينيسا في معارك حامية، ثم حاصره بكثرة جيوشه، وفل كتائبه، فدافع مصينيسا دفاع الأبطال. وثبت في المعركة ثباتا منقطع النظير. فانهمز جنده «فلم يبق إلا هو مضرجا بدمائه (مثنخا بالجراح) وحوله أربعة من رفاقه، تطارده فرقة من جنود بوكار. فرمى بنفسه في نهر وجأ إلى الضفة الأخرى. وكان ذلك حول مدينة (قليبيا)».<sup>63</sup>

## استعداد مصينيسا للإغارة على عدوه وهجوم صيفاقس عليه

وكان مصينيسا بطلا عظيما لا يستسلم ولا يهين. فأوى إلى مغارة في جبل منيع فأشاع انه مات لينقطع عنه الطلب. فأسى جراحه حتى برئت، وجمع فلول جيشه. وأرسل إلى شعبه في نوميديا يبشره بأنه حي، ويؤذنه بالجهاد، ويدعوه إلى النضال، فأسرعوا إليه، وأسرع إليه البربر من افريقية فاستطاع ان يجند جيشا كبيرا فيه ستة آلاف من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان. فعزم هذه المرة ان يجعل صيفاقس هدفه. هذه الذي ما فتئت قرطاجنة تتخذة مخالبا فتدميه بها. يجب تقليم أظفارها العجوز الرعاء بالقضاء على صيفاقس. انه يختال في قرطبة، ويتقلب في الحرير مع صفونيسب، ويظن ان النوميديين قد خضعوا بأيديهم. وان مصينيسا قد أصابه الوهن وأدركه اليأس! فعسكر مصينيسا في الجبال المنيعه بين هبون (عنابة) وقرطبة (قسطنطينة) فعزم على حرب العصابات ضد صيفاقس.

كان ذلك في سنة 204 ق.م. وكان صيفاقس على حذر من عدوه. فعلم بقوة مصينيسا وتجدد جيشه، وان مصينيسا لا زال قوة يمكن ان تودي بدولته وتهدم ما بناه. فشمّر عن ساعده، فجهز جيوشه، وقسمها قسمين. قاد هو قسما، وقاد لبنة فرمينة قسما آخر. فزحفوا نحو مصينيسا، وأحاطوا بالجبال التي اعتصم بها، فوقعت معارك عنيفة بين الملكين دامت مدة كبيرة وكان صيفاقس هو الأقوى، ففكر بجيوشه على جيش مصينيسا فهزمه، فشتت شمله فعلم مصينيسا انه لا يستطيع التغلب على صيفاقس إلا بحليف قوى، وفي ظروف أخرى غير هذه ان فرصته آتية لا ريب فيها فأوى إلى جبال نفوسة في جنوب سرت الأصغر (قابس) وجنوب طرابلس، فاعتصم بها، وأوته نفوسة وعصمته من أعدائه فلم يقع عليه الطلب فبقي هناك يرقب فرصت.

63 - موجز تاريخ الجزائر العام للأستاذ عثمان الكعاك ص 56 ط بتونس 1344هـ.

المعركة لما كبا به جواده، فاقتنصه أعداؤه. وتلك عاقبة الظلم، ومآل الظالمين! وكان سبب انهزام صيفاقس أيضا هو هرم حليفته وضعفها واغتراره بكثرة جيشه. وبانتصاراته الماضية على مصينيسا، انه لم ينضم إلى صدر بعل ليكونوا جبهة واحدة، بل نزل في معسكر وحده. والسبب أيضا هو قوة مصينيسا ومضاؤه وحسن قيادته، ومناصرة النوميديين له فغزر جمعه.

### مدة صيفاقس في الملك وأثره في دولته وفي المغرب

وكانت مدة صيفاقس في الملك حوالي ثلاثين سنة. من حوالي 230 إلى سنة 202 ق.م. وكان ملكا عظيما، ورجلا من رجالات المغرب الممتازين. نهض بموريطانيا الشرقية وترك في المغرب أحسن الآثار. وكان شعبه يحبه، وقبيلته زناتة تتمسك بملكه. وكان قد اعد ابنه فرمينة للملك بعده. فالتقت موريطانيا الشرقية حول فرمينة، واختارته ملكا يحفظ دولتهم، ويقوم برئاستهم وقيادتهم مقام أبيه. فكيف كان فرمينة في الملك؟ وكيف كانت موريطانيا الشرقية؟

على عدوهما، ولكن خاب مسعاهما. وانتصر (مصينيسا) وسبيون عليهما بجبهة جندوبة في سهول (سوق الأربعاء) ثم عسكر سبيون (في مكان تونس) واخذ يهدد مدينة قرطاجنة»<sup>66</sup>

### انتصار مصينيسا على صيفاقس وأسرته 202 ق.م.

وكان مصينيسا قد كثر جمعه، وأسرع إليه قومه من أنحاء نوميديا، فعزم على القضاء على صيفاقس واسترجاع ملكه. فكر عليه في سنة 202 ق.م. فوقعت بين الجيشين ملحمة كبرى. وكان صيفاقس يباشر القتال بنفسه، فكبا به جواده فاخذ أسيرا. وسار به مصينيسا وهو أسير فدخل عاصمته قرطبة، وقضى على أحلام عدوه، فاسترجع مملكته، وانفصلت نوميديا عن موريطانيا الشرقية.

### اعتقال صيفاقس ووفاته

وأرسل سبيون الإفريقي الملك صيفاقس إلى رومة فطافوا به في الشوارع، ثم القوا به في السجن. فوجد صيفاقس نفسه بعد العرش الرفيع، والتاج الذهبي، وبعد قصور قرطبة، وصيغة، وبعد التقلب في الحرير وبين أحضانه صفونيسب؛ بعد هذا العز البالغ، والترف الكامل، يجد نفسه في ظلام السجن، ترهقه القيود الثقيلة، وتقتله اهانة الرومان وإذلالهم! وكان وهو في سجنه يتخيل الدخول به في روما مكبلا، وفرسان روما يحيطون به، والتجول به في الشوارع، وجماهير رومة تشمت به، وتصيح في وجهه، وتسمعه العجائز والصبيان والرعا ما يسول الحقد والطيش لهم من منكر القول وبذئ الكلام. فيحس بالذلة تقتله، وبهذه المناظر تصميه، فلم تطل مدته غي السجن فمات غما وحسرة في سنة 201 ق.م.

### أسباب انهزام صيفاقس

وكان صيفاقس هو أول من استعان بالرومان وحالفهم، وفتح لهم باب المغرب. فابتلاه الله بالأفعى التي ادخلها إلى وطنه، فكان مغرز أنيابها المسمومة.. وهكذا يبتلى الله بالمستعمرين كل من أعانهم في احتلال وطنه، والعدوان على أبناء جلدته.

وكان صيفاقس طموحا فاعتدى على أخيه مصينيسا فجرده من ملكه، واستولى على مملكته، وظلم ظلما كبيرا بهذا العدوان. فنصر الله مصينيسا عليه، وكبه في

66 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 229 تونس 1959.

موريطانيا الشرقية لما ولى الملك في سنة 202 ق.م. أشواطها في طريق التقدم والازدهار. وفي الغنى والحضارة. ان البربر قد نهضوا نهضتهم الكبرى بفضل تأثرهم بالبونيقين. فصمموا على ان يحيوا حياة كريمة. وبلغوا بمغربهم الذروة الرفيعة في العز والغنى والحضارة. فانشأوا دولتهم. وما صيفاقس ومصينيسا في ثقافتها وعبقريتهما إلا ثمرة من ثمار نهضة البربر العامة. وما دولتهم إلا ثمرة لتلك النهضة القوية. وانبثقت منهم. وقامت على أكتافهم. فهم روحها وسندها. وهي لهم. تعمل خيرهم. وملوكها سادة مخلصون. يرتفعون إلى عروشهم بأكفهم. وهم من اختيارهم. لا يرضخون للقوة. ولا يستطيع احد ان يملكهم بالعصا. وبذلهم بالجبروت. هذه هي الأمة البربرية الناهضة القوية العظمية في هذه العهود. تندفع إلى الأمام بوعيتها ونضوجها. وهي كالشجرة في ربيعها تواصل نموها وثمارها وان جذ فرع منها. ليست محمولة على أكتاف ملكها. وتقف إذا مات. وتجمد إذا ذهب. انها امة تسيروا وراثتها. قد انتشرت فيها الثقافة. فاذا كنت وورثتها القوية. فامتلات بالعزة والثقة بالنفس. وأججت فيها دولها اعتدادها بنفسها. فارتفعت رعوس البربر شامخة. لا يسودهم إلا من أرادوا. ولا يرتقي عروش دولهم إلا من ارتضوا. ولا يثبت على كراسي ملكهم إلا الأقوياء المخلصون. أما الضعفاء فتنتفيهم عنها. كما تسقط الفروع الحية الحشف البالي. والأوراق اليابسة. لقد ذكرنا هذه الحقيقة لتعلم بطلان ما قاله المؤرخون الأوروبيون من ان الرومان كانوا عند اعتقال صيفاقس كل شيء في المغرب. فهم الذين ولوه على عرش أبيه. وبفضلهم بقيت دولة صيفاقس في موريطانيا الشرقية!

### وفاء فرمينة للبونيقين ومؤزرته حنبعل

وكان الملك فرمينة وفيا للبونيقين. و متمسكا بحلفهم. يؤازرهم في الضراء. ويقف إلى جانبهم في حروبهم مع الرومان. وكان من أنصار حنبعل لما كان يستعد لمعركة جامعة «وواعده ان يمد بالرجال والمؤونة»<sup>67</sup>.

## دولة فرمينة بن صيفاقس 158-202 ق.م

### شخصية فرمينة القوية

كان فرمينة ابن صيفاقس. وكان صيفاقس قد اعتنى بتربيته. فغرس فيه خصاله الحميدة. وأنشأه على الجلد والرجولة. وعلمه الفروسية. ودربه على قيادة الجيوش. وعلمه وثقفه. فكان من سراه عصره. ومن الشباب اللامع في عهد أبيه. وكان أبوه يمرنه على شئون السياسة. وبعده ليكون خليفته في الملك. وكان يستكفي به في المهمات. ويسد ثغور الدولة الخطيرة. ويراه ساعده وسنده إذا حزب الأمر. واكفهرت الأيام. لما تهيأ مصينيسا في سنة 204 لخربه. واعتصم بالجبال الوعرة. وعزم صيفاقس على ان يخوض معه الحروب الطاحنة. ولم يجد إلا ابنه فرمينة فاسند إليه قيادة قسم من جيشه. فأغنى فرمينة غناء كبيرا. وكان كما يريد أبوه ودولته فغي الشجاعة والثبات. وفي الجلد والدهاء وبراعة القيادة. فنال صيفاقس بفضل مؤازرة فرمينة مناه. فانتصر على عدوه.

### إعجاب البربر بفرمينة وإيثارهم له خليفة لأبيه

وكان فرمينة قوي الشخصية كأبيه. وقد ورث خصائصه التي نال بها التقدم والرفعة في قومه. فرضية البربر رئيسا. وقدموه عليهم ملكا. وقد ظهرت كفاءته غي عهد أبيه فالتفتت أنظار موريطانيا الشرقية إليه. فأحبه البربر واجلوه. وأعجبوا بإخلاقه وكفاءته. وتمنوا ان يكون رئيسهم وملك دولتهم بعد أبيه.

وكان فرمينة لما اعتقل أبوه رجلا ناضجا. قد حنكته التجارب. ودرسته الأحداث. وأحكمه تقدم السن. ولما اعتقل والده. سارع إليه قومه في موريطانيا الشرقية. وسارع إليه شعبه فيها. فرفعوه إلى عرش الملك. فخلف أباه في رئاسة الدولة. فالتف شعبه حوله. فلم يستطع احد ان يزعه. وأزره قومه الأقوياء فلم يستطع منافس ان يثور عليه.

وكان فرمينة كفئا للملك. فأدار دولته أحسن إدارة. وساسها أجمل سياسة. واعتنى بنشر التعليم. وبالزراعة. والصناعة. وكل أسباب الرخاء. وضرب النقود باسمه. وواصل أعمال أبيه في بناء الدولة في كل الميادين. وكان شعبه راضيا عنه. معجبا به. لم يحدثنا التاريخ بقلقل وقعت في عهده رغم طول عهده في الملك. وقد واصلت

ويقروا في عقولنا ان أجدادنا كانوا ضعفاء، وان القوة والعظمة إنما هي للرومان. وان البربر امة ضعيفة لا شأن لها. قد ركعت تحت أقدامهم. واستسلمت لهم لما اخذ ملكهم أسيرا!!!

ان الرومان في الحرب البونيقية الثانية في افريقية لم يكونوا هم الأقوياء. ولم يكن لهم تسلط على أي جزء من المغرب لقد جاء سبيون الإفريقي إلى المغرب. نزل في افريقية. وهو يحك جنبه ألما من ضربات حنبعل الذي يحاصر رومة ليحتلها. وما نزوله في افريقية . ونقل ميدان الحرب إليها إلا ليفك الحصار عن عاصمته. وجبر حنبعل على الخروج من بلاده. وقد عجزوا ان يخرجوه عنها بالقوة. فأخرجوه بهذه الحيلة. لم يكن سبيون اكبر قوة حربية في المغرب. انه لولا إعانة مصينيسا له بجيشه القوي من النوميديين الأبطال. وتصديه لصيفاقس. وصرفه عن سبيون وجيشه. لرينا صيفاقس يركب سبيون الإفريقي ويمرغه في التراب. ان البونيقيين والبربر جيش صيفاقس لم ينتصر عليهم الرومان إلا بالبربر. لقد عمد سبيون إلى المكيدة<sup>69</sup> ليفرق بين جيش صيفاقس وجيش البونيقيين. وهاجمهما. وهما آمنان وعلى غير استعداد. لأنه رأى سطوة الجيشين في القتال. وليقن انه إذا استمرت المعركة طويلا فان جيشه الروماني سيوطأ كالهشيم تحت سنابك جيش صيفاقس والجيش البونريقي.

وكان مصينيسا يبغض الرومان ويمقتهم. ويراهم عدو وطنه الأكبر. ولكن الحاجة تدعوا إلى أكل الميتة العفنة. والغريق يتمسك بالأفعى المسمومة. وقد استعان بهم في محاربة عدوه صيفاقس والبونيقيين. كانا يجتمعان عليه فلا يطيقهما. فرأى ان الرومان سيسغلون البونيقيين. فيبقى صيفاقس وحده فيهاجمه بأنصاره الذين يتواردون عليه من نوميديا وافريقية. فحارب مع الرومان. فاسترجع ملكته بحد سيفه وبدماء شهدائه. وكان له الفضل في الهزيمة التي حاقت بالبونيقيين. فاستدعوا حنبعل من ايطاليا. وفكوا حصارهم عن روما. لولاه لهزم سبيون. فيشد ذلك من أزر حنبعل في ايطاليا. من يدري؟ القرطاجنيين يبعثون إليه نجدة قوية من جند صيفاقس فيركب بها ظهور الرومان. ويفتح بها أبواب روما كما فتحها جنسريق ملك الوندال في المغرب لما تدرع بالجند البربري ففتح بها روما العجوز. انها الآن فتية. ولكن حنبعل أقوى وأعظم من جنسريق.

لقد رجع مصينيسا إلى دولته. واسترد عرشه بسيوفه. وفرح به النوميديون وأزره ونصره. ولو ذهب إليهم باسم الرومان لثاروا في وجهه. وأعانوا صيفاقس عليه.

69 - انظر مكيدة سبيون في صفحة 205 من هذا الجزء.

## دعاوي المؤرخين الأوربيين الباطلة واحتقارهم للدول البربرية القوية

وكانت موريطانيا الشرقية. وزناتة قوم صيفاقس. هي التي تمسكت بفرمينة. ورضيته ملكا عليه. لقد اعتقل صيفاقس. وخسرت دولته معركة حربية. ولكن الدولة في شبابها. وعنفوانها لم تنكسر. ولم تهن. ان صيفاقس ابنها. هي التي أجبته. انه من ثمارها. وليست هي من ثماره. ان فيها من يحلفه. لقد هزم الرومان بالحيلة لا بالقوة. وبفضل النوميديين ومصينيسا. جيشا من جيوشهم. ولم يحتلوا موريطانيا فيقضوا على دولتهم. ويأخذوا بناصيتهم. ويولوا عليهم من أرادوا. ويصبحوا لهم مستعمرة يقدمون إلى رئاستها وملكها من يشاءون.

ان بعض المؤرخين المحدثين الذين يقلدون الأوربيين في دعائهم الباطلة. ولا يعلمون عقولهم في تاريخهم ليستنبطوا منه الأحكام الصحيحة. قد ردوا دعوى المؤرخين الأوربيين الذين يوهمون الناس ان الرومان قد قبضوا على ناصية المغرب في الحروب البونيقية الثانية. وأنهم أهل الحل والعقد فيه بعد اسر صيفاقس. يتصرفون في أموره. ويقسمونه على من يريدون. ويولون على عروشهم من يشاءون. وقد جاهل هؤلاء المؤرخون الدول البربرية الفتية القوية التي وقفت في وجه الرومان. تحفظ المغرب من تسلطهم قرنا ونصفا. رغم استيلائهم على افريقية. واحتلالهم لجزء من المغرب. وحرصهم وتكالبهم على امتلاكه كله.

قال هؤلاء:«فرمينة. قسمت رومة ملكة والده بينه وبين مصينيسا. وأعطته هو مصييليا، ملكة والده الأصلية».<sup>68</sup>

ان هذه الدعوى توهم ان المغرب قد استسلم للرومان. فصار في قبضتهم. فولوا فرمينة على عرش أبيه. وأعطوا مصينيسا ملكة نوميديا. ونحن نشكر الرومان الأسخياء على هذه الهبة. ونثني على صدقهم السخية. ونرثي لإخواننا المؤرخين الذين يثقون بكل ما يقول الأوروبيون في تاريخ أجدادهم. واغلبه يريدون به ان يحولوا إلينا بالضعف.

68 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 130 بيروت 1963.

لقد كان مصينيسا عازما على محاربة الرومان بعد ان يتخلص من البونيقيين. وكان النوميديون واغلب البربر في المغرب على عزمته. فلم يكن الرومان بالأصدقاء حتى يخضع لهم البربر. فيتساهلوا معهم تساهل الكريم. فيتكون لهم نفوذ في المغرب من أول حاول لهم فيه في الحرب البونيقية الثانية.

ان سبيون ما كان ليستطيع ان يمنع فرمينة من عرش أبيه. وخلافته لوالده. وما كان ليقدّر على منع مصينيسا من العودة إلى عرشه. لان أمور المغرب كلها في يد أبناء البربرة الأقوياء. وعودة مصينيسا إلى عرشه. وولاية فرمينة الملك في قبضة الدولتين البربريتين القويتين نوميديا. وموريطانيا الشرقية لا للرومان!

لو كان الرومان هم الذين أحسنوا إلى فرمينة فولوا الملك على دولة أبيه. ما وقف في صف حنبعل عدو الرومان. وما مده بالميرة والرجال. وكان يلزم الحياد أو يعين الرومان. سيما والرومان الجائعون كانوا فغي اشد الحاجة إلى حبوب المغرب. والى الميرة في الحروب الطويلة التي يخوضونها. وبعد حصار حنبعل لروما وتخريبه لمزارعها فأقفرتها إيطاليا من الأقوات.

لقد كان عدو سبيون هو حنبعل والدولة البونيقية. ولا زالا كابوسا يجثم على صدره. فهو يريد القضاء عليهما. ولم يكن بالقوى الذي تخلص من كل أعدائه. وانتصر الانتصار النهائي على الدولة البونيقية. وحل محلها في المغرب. حتى يدعي إنسان ان الرومان أصبحت لها كلمة غي شئون المغرب. لقد كانوا يومئذ ضعفاء. فلولا خرق البونيقيين الذين خسروا ود البربر. وعادوا مصينيسا وأثاروه عليهم. فوقف هؤلاء في صف الرومان. وناصر مصينيسا سبيون ما استطاعوا ان يهزموا حنبعل في واقعة جامعة.

لقد كانت الدول البربرية قوية في ذلك القرن. وكانت في ريعان شبابها وقوتها. وكان الرومان يخطبون ودها. ويتزلفون إلى ملوكها. ويطلبون منهم الميرة. والفيلة. والعدد الحربية. ولما قضوا على الدولة البونيقية وحلوا محلها في افريقية. في سنة 146 ق.م. لم يستطيعوا ان يتقدموا شبرا واحدا في نطاق الدول البربرية وترابها لقوتها وخوفهم من فتكها. فظلوا قرنا كاملا من الزمان وهم يعملون لإضعاف نوميديا بالمكيدة والدس. وبكل ما أوتوا من عبقرية وبراعة في توهين الأمم بشق صفوفها. وإذكاء الفتنة بين أبنائها؛ ثم لم يستولوا على نوميديا إلا بعد حروب يوبا الأول التي انتصروا فيها بخيانة بعض ملوك البربر. وظلوا قرنا ونصفا وهم يكيدون لموريطانيا الشرقية. ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها إلا بيوبا الثاني وابنه بطليموس وهما من البربر.

كانت الدول البربرية قوية في آخر القرن الثالث قبل الميلاد وفي القرن الثاني. وكان الرومان وهم يريدون السيطرة على المغرب في حيرة وخوف اللصوص الذين يطمحون إلى سلب القافلة الدارعة بالحرس الشجعان الذين يفتكون بكل اللصوص! ولولا تفرق البربر وخاسدهم ما استطاع الرومان احتلال المغرب والسيطرة عليه بعد هذا الأمد بقرنين ونصف من الزمان. قاتل الله الحسد! فهو الداء العياء. الذي جعل البربر وهم اسود أقوياء. تصرعهم الذئاب الرومانية. وترتع في أحشائهم !!

### اتحاد موريطانيا الشرقية بنوميديا وأسبابه

كان فرمينة ملكا مخلصا. ورجلا ذكيا. وكان يكره الرومان. ويراهم عدوه الأكبر. وسم الغرب الزعاف. وكان يعلم انه بودهم ان يظل عدوا لمصينيسا. وان يتحاربا. وان تظل موريطانيا الشرقية دولته على شقاق وأحقاد مع نوميديا دولة مصينيسا. فغير نظرته إلى مصينيسا فلم يعد يراه عدوا كما كان يفعل أبوه. وتناسى أحقاد القديمة عليه. فعاش مسالما مؤاخيا لمصينيسا. لم يحدثنا التاريخ بحرب وقعت بينهما. رغم طول عهدهما في الملك.

وكان مصينيسا رجلا عظيما مخلصا للمغرب. فعلم ان اتحاد المغرب وتأزره هو السبب الوحيد للخلاص من السرطان الروماني الذي يتهدده. ومن سباع البحر التي تحدد أنيابها وتتحفز للوثرب عليه. فجهد لامتلاك ود فرمينة وود أهل دولته. وجعل نصب عينيه توحيد الدولتين نوميديا وموريطانيا الشرقية في دولة واحدة لتقوى على صد الرومان. وتسد في وجوه المستعمرين الأبواب التي سيسرعون بها الفتنة. ويضربون ملوك المغرب بعضهم ببعض. وقد استطاع مصينيسا بدهائه وحسن نيته. وبعبقريته في الإجارة والسياسة ان يمتلك ود فرمينة وأهل دولته. وإعجابهم واحترامهم. وان يزيدهم شعورا وإدراكا لخطر الرومان. فأيقنت موريطانيا الشرقية ان انفصالهما عن نوميديا هو ما يرده الرومان ليسهل عليهم ابتلاع المغرب. وان المستقبل دهور قراع ونضال مرير مع الرومان. فلا بد من الاستعداد له. وان أول الاستعداد هو الاتحاد مع نوميديا. أنهما وطن واحد. وأمة واحدة. فحرام ان ينقسما إلى دولتين. ونظرت موريطانيا الشرقية فرات إخلاص مصينيسا. وذكاءه وتفانيه في بناء المغرب. وازدهار نوميديا وسعادتها وقوتها به؛ ورأت بطولته ودهاءه. وبراعته في مداورة الرومان ومرأوغتهم. فرغبت فيه. وأيقنت انه لا يستطيع ان يقود المغرب غي هذه الدهور المشحونة بالعواصف والزلازل غيره. وكان مصينيسا يجتذبهم إليه. ويحبب إليهم الوحدة. فتوفي فرمينة في حوالي 158 ق.م. فزال كل الأسباب المانعة من الاتحاد. فاخة الموريطانيون إلى مصينيسا فرأى أيديهم

تنبسط له، ووجوههم تنش في وجهه. فبسط ذراعية لموريطانيا الشرقية وبسطت له ذراعها. فتعانقت نوميديا وموريطانيا فصارتا دولة واحدة. وكان ذلك بعد وفاة فرمينة. ان التاريخ لم يحدثنا بهجوم مصينيسا على موريطانيا وضمها إليه بالقوة. لو استعمل القوة لقاتله الموريطانيون بالعنف فتقع بينهما حروب كبرى لا يسكت عنها التاريخ. ولا يقعد الرومان عن لاستغلالها. ولكنني أرى ان العدو الواحد الذي أدرك الموريطانيون خطره. وإعجابهم بعبقرية مصينيسا وإخلاصه للمغرب كله. ودهاء مصينيسا وبراعته في امتلاك القلوب. لقد استطاع ببراعته ان يجعل الرومان المستعمرين يحبونه. وهم الذين يكرهون كل رجل قوي في المغرب الذي يمنون أنفسهم بازدراده؛ ان هذه الأسباب هي التي جعلت مصينيسا ملكا على موريطانيا لا القوة التي اعتمد عليها في ضمها إليه.

وكانت مسألة فرمينة لأخيه مصينيسا. والاحترام المتبادل بينهما. هو أصل المودة التي تكونت بين الدولتين فاتحدتا.

### وفاة فرمينة ومدته في الملك

وكانت وفاة فرمينة حوالي سنة 158 ق.م وارى انه توفي في شيخوخته. انه في سن مصينيسا لا اقل منه. ومدته في الملك حوالي ست وخمسين سنة. من سنة 202 إلى حوالي 158 ق.م. ثم اندرجت موريطانيا الشرقية تحت جناح مصينيسا الملك البطل العظيم. فازدادت الأيام ابتساما للمغرب. وأصبحت قرطبة هي عاصمة اغلب أجزاء المغرب. وانحصر الملك في هذه النواحي الشاسعة من المغرب في كتامة قوم مصينيسا. فمن هم الملوك العظماء الذين انشأوا مملكة نوميديا ومهدوا لمصينيسا العظيم. وكيف كانت شخصية مصينيسا. وما أعماله في المغرب. وما هي آثاره الكبرى فيه؟

## نشأة الممالك النوميدية

### نهضة نوميديا وأسبابها

كانت نوميديا مجاورة لافريقية حيث نشأت دولة البونيقين. وانتشرت حضارتهم. وازدهرت مدينتهم. وكان البونيقيون قد توسعوا في نوميديا الشرقية إلى عنابة. فبسطوا حمايتهم عليها. ورأوا جزءا من وطنهم. فهاجرت طوائف كثيرة منهم فاستقروا فيها للفلاحة. والتجارة. والصناعة. والتعليم. والإدارة. فكثرت اختلاط البونيقين بالبربر فتأثر بهم البربر كل التأثر. ولم يمض زمن بعيد حتى كان البربر في نوميديا الشرقية يبارزن البونيقين في كل الميادين. وسرت هذه النهضة من نوميديا الشرقية فعمت كل أنحاء نوميديا. وتسربت إلى أجزاء المغرب الأخرى في الموريطانيتين الشرقية والغربية.

وكان البربر والنوميديون من كل أنحاء نوميديا يسافرون إلى قرطاجنة. وإلى المدن البونيقية الكبرى فيقيمون فيها مدة طويلة للتعليم في مدارسها ومعاهد العلم فيها. أو التجارة. أو للعمل في مصانعها ومزارعها وأسطولها. أو للجندية. ثم يرجعون إلى أوطانهم في نوميديا وهم يحملون حضارة قرطاجنة ولغتها وعلومها. وأساليبها الراقية في العمل فينشرونها في بلادهم. ويبثونها في أنحاء نوميديا. فترقت نوميديا وثقفت. ونهضت نهضتها الكبرى في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. وكانت اسبق إلى النهضة من كل أنحاء المغرب الأخرى. وما كاد القرن الثالث ينتصف حتى كانت نوميديا قد نشأت وترعرعت فيها مملكة نوميدية كبرى تضم وسط نوميديا وغربها. ثم استولت على شرقها يعد ذلك. وهذه المملكة هي التي نشأت في نوميديا الوسطى في مدينة قرطبة. ثم بسطت جناحها شرقا وغربا. فضمت نوميديا كلها إليها.

### عاصمة نوميديا الكبرى

وكانت عاصمة الدولة النوميدية في أيام عزها وعظمتها وقوتها منذ زمن الملك نارفاس إلى عهد (يوغورطة) هي مدينة قرطبة (قسنطينة) وتسمى أيضا سيرنا. وأنا اختار قرطبة لأنه أشبه بلهجة البربر. وقرطبة اسم معناه المدينة. والظاهر ان المدينة قد

نشأت مع الممالك البربرية في القرن الثالث قبل الميلاد.

وكانت قرطبة تتوسط نوميديا شرقها وغربها. شمالها وجنوبها. وهي إلى الشمال أدنى. وإلى الساحل الخصب الجميل اقرب. وكانت في رأس جبل منيف صخري منيع هو ما يؤثر البربر لمدنهم وقراهم. يحيد بها من جهاتها الثلاث الشرقية والغربية والشمالية خندق صخري شديد العمق هو مجرى وادي مساغا. وكان الخندق عميقا يبلغ أكثر من مائة وهو الحصن الطبيعي لها. لا يمكن اختراقه. واقتحام قرطبة من جهته. ومن اجله اختار البربر هذا المكان موقعا لعاصمتهم. واختاروا قرطبة قسبة للمكهم. وكانت تحيط بقرطبة الجبال الكاسية بالغابات. والسهول الصالحة للزراعة. وهي كثيرة الأمطار. وفيرة الخيرات. جيدة الهواء. أنيسة بهيجة. يشعر داخلها بأريحية تداخله. وبأنس كبير يعمر صدره. وبنشاط بالغ يحبب إليه العمل والكد. وقد أثرها البربر عاصمة لدولتهم لتلك المزايا الكثيرة. ولجودة هوائها وجمالها البالغ. انها تليق للحضارة. وتساعد على التمدن والرقي. ولا تزال قرطبة (قسطنطينة) هي عاصمة نواحيها. والمدينة البارزة الأثيرة في الجزائر.

تلك هي عاصمة نوميديا في أيام عزها فما هي الممالك التي نشأت فيها؟

### ملكة نارفاس الكتامي

كان أول ملك عرفناه في نوميديا هو نارفاس الكتامي. وكان بطلا كبيرا. وملكا قويا. له النفوذ الواسع في نوميديا. والكلمة المسموعة عند البربر. وقد استنجد به قائد قرطاجنة الكبير عملقرط في سنة 240 ق.م لإخماد ثورة الزعيم الوطني البربري ماطوس وقومه البربر الإفريقيين على الدولة البونيقية. فسار إليه في عشرين ألفا من فرسانه. فكان قوة كبرى لعملقرط. بفضلها استطاع ان يقضي على ثورة ماطوس وجنده الشجعان المخلصين.

وكان نارفاس مخلصا لدولته. كان من زعماء النهضة في نوميديا. ومن الملوك المصلحين الذين نضحوا في البربر روح العزة. وغرسوا فيهم المثل العليا فنهضوا لتحقيقها. ولا ندري متى توفي نارفاس. كما تجهل التفاصيل عن دولته في كل جوانبها. فكل ما تدل عليه أخباره القليلة الواردة في التاريخ القديم هو انه ملك قوي. ومن لخلصين لدولته. ومن حلفاء الدولة البونيقية الأوفياء. ولما توفي خلفه في الملك ابنه غولة.

وكان غولة كوالده نارفاس. مخلصا لقومه. محبا لرعيته. حريصا على نهضة البربر وتقدمهم. وقد آتت نهضة والده ومساعيه في الدولة ثمارها في عهده. فكانت دولته أكثر ازدهارا. وكان هو أكثر قوة. وابرز شخصية في المغرب الكبير.

### ملكة غولة ابن نارفاس

وكان غولة بن نارفاس ملكا عظيما. مخلصا لقومه. غيورا على رعيته. يحب لها التقدم والرفعة والغنا والازدهار: فعمل لنشر العلم في مملكته. وبث الحضارة البونيقية فيها. وسعى لتوحيد نوميديا. فتوحدت على يده فكانت ملكة تشتمل على نوميديا كلها من طبرقة إلى غرب بجاية. ومن البحر إلى جبال أوراس.

### إعجاب غولة بالحضارة البونيقية وصداقته المتينة للدولة البونيقية

وكان غولة معجبا بالحضارة البونيقية. وكان يرسل أبناءه إلى قرطاجنة ليتعلموا فيها. ويطلعوا على الحضارة البونيقية في اكبر معادنها. ليعودوا بالصالح النافع منها إلى وطنهم. وكانت علاقته بالدولة البونيقية علاقة صداقة. وكان بينهما حلف ومودة.

وكان البونيقيون معجبين الملك غولة. وبإخلاصه لشعبه. وغيرته على المغرب الكبير كله. وقد اتخذوا كل الأسباب لتوثيق علاقتهم به. فخطب صدر بعل اكبر قواد قرطاجنة ابنته صفونيسب لمصينيسا بن غولة. تقوية للعلاقة بغولة وأهل مملكته. وكانوا يستنجدون به في حروبهم مع الرومان فينجدهم بجيشه. وبالفيلة المدربة التي في الحروب غناء الدبابة الثقيلة اليوم كما كان يمدهم بالميرة. والعدد الحربية. وبالنصيحة والمشورة. وقد حارب مع قرطاجنة<sup>70</sup> الملك صيفاقس الذي تنمر للبونيقيين. وحالف الرومان أعداءهم. عزم ان يضرب قرطاجنة من خلف. فانتصر عليه غولة. واستطاع ان يهزم جيوشه القوية التي دربها أحسن تدريب. واعدها ليفتح بها افريقية. ولولا غولة وقوة جيشه؟ ومضاء قائد ابنه مصينيسا ما استطاع البونيقيون التغلب على صيفاقس. وكان يفترسهم. ويعجل بانقراض دولتهم.

### استيلاء الملك غولة على موريطانيا الشرقية

ولما هزم الملك غولة صيفاقس في سنة 213 ق.م استولى على مملكته. فضمها إليه. فصار ملكا على نوميديا وموريطانيا الشرقية. وقد دام ملكا على الناحيتين حوالي سنة. ثم رأى انه من الحكمة. ومن الخير لموريطانيا والمغرب. ان يرجع صيفاقس إلى مملكته. فرده

70 - إذا قلنا قرطاجنة فإننا نريد الدولة كلها. وإذا قصدنا العاصمة فقط فإننا نذكر المدينة.

إليها. لم تثنه الأحقاد. ولا الأنانية. وإنما كان في قبضة عقله الرشيد. وغيرته القوية. وكرم نفسه الذي يزين له الإحسان إلى جاره وأخيه صيفاقس.

كان غولة هو حليف البونيقيين المخلص في المغرب. فأرسل جيشه في سنة 213 ق.م إلى الأندلس. فأجد البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وكان ابنه مصينيسا هو قائد الجيش. فقارع الرومان ودافعهم. ومنعهم من الاستيلاء على جنوب الأندلس. وما استطاع الرومان ان يطردوا البونيقيين من الأندلس ويستولوا عليه إلا لما فارقهم مصينيسا وجيشه النوميدي القوي الباسل.

إذا كان نارفاس هو منشئ الدولة النوميديية. فان غولة هو الذي أرسى أسنها ورسخ عروقهها. ووجهها التوجيه الحكيم. وغرس فيها المثل العليا. وهي الحياة الحرة الكريمة في عز وهناء. وفي علم وقوة وغناء. والمحافظة على الاستقلال المغرب. وحرية البربر وعزتهم من الرومان الجشعين الذين يفترون على المغرب ليفترسوه.

وكان غولة معجبا بابنه مصينيسا. فاعتنى بتربيته. وتمنى تحقيق هو مثله العليا في المغرب. فيوحده. ويكون أجنحة لدولته. وروحا للمغرب. وعزا وقوة للبربر. فكان ما أراد.

وكانت وفاة غولة في حوالي سنة 208 ق.م. فلم يرث ابنه مصينيسا ملكه. بل سبقه إلى العرش اثنان من أسرته. لماذا سبقاه؟ ألكفاءتهما ولياقتهما للملك أكثر من مصينيسا ما هو السبب؟ وماذا وقع للملكين اللذين سبقاه؟

## سبب عدم خلافة مصينيسا لأبيه في الملك

### وأحوال نوميديا بعد وفاة غولة

كان الملك وراثيا في نوميديا. وكان القانون السائد في وراثية العرش ان يتولى الملك أسن رجل في الأسرة المالكة. ولم يكن مصينيسا بعد وفاة والده هو الأسن. بل كان عنه دلقات بن نارفاس اخو غولة هو الأسن. وابن عمه قابووسة. ثن يكون هو في الدرجة الثالثة من حيث السن.

### ثورة مزوطيل في استيلاؤه على الملك في نوميديا

ولما توفي غولة خلفه أخوه دلقات في الملك. وكان دلقات شيخا كبير السن واهن القوى. لم يلبث ان توفي بعد قليل من وفاة أخيه. فتولى الملك بعده ابنه قابووسة.

وكان مصينيسا في هذه المدة التي توفي فيها أبوه. وتولى عمه. وابن عمه الملك. في

الأندلس يحارب الرومان. وكان اغلب جيش نوميديا النظامي معه بعيدا عن المملكة. فوجد المنافسون فرصتهم للتمرد والاستيلاء على الملك في نوميديا. ولو كان مصينيسا مع ابن عمه قابووسة ما استطاع منافس ان يثور عليه. كان يشد أزره. ويقمع الثائرين.

وكان مزوطيل من أسرة غولة المالكة. وكان طموحا يحب الملك والرئاسة. وكان جريئا مقداما. وكان له حزب يناصره في نوميديا. وبطانة قوية تؤيده. ومن وراء صيفاقس الذي يحقد على مصينيسا. ويسعى ان لا يتولى الملك. فصار يكيد له. ويؤيد منافسيه عليه.

فثار مزوطيل على الملك قابووسة فقتله. وأقام أخوا الملك المقتول (لاقوماز) على العرش. وكان اقل سنا من مصينيسا. وكان ضعيفا قاصرا. فأقام مزوطيل نفسه وصيا عليه. فصار هو الملك المتصرف. وفي نفسه ان يزبح لاقوماز عن العرش إذا تمكن من الأمور وانتصر على معارضييه. سيما على مصينيسا.

### عدوان مزوطيل على مصينيسا وكيد صيفاقس

وكانت ثورة مزوطيل عدوانا على مصينيسا. ان عرش نوميديا له بعد ابن عمه قابووسة. ها هو مزوطيل يولى لاقاموز الملك وهو اصغر منه سنا ويستبد عليه بأمر الملكة.

وكان صيفاقس يؤيد هذه الثورة. ويعمل جاهدا لإقصاء مصينيسا الرجل القوي العبقري عن عرش نوميديا. انه يريد ان يتولى الملك فيها أناس ضعفاء ليفترسها إذا أراد. لقد عزم على الاستيلاء عليها ومجاورة حلفائه البونيقيين. وكان البونيقيون يؤيدون هذه الثورة. وغرضهم هو غرض صيفاقس. وضمايرهم لمصينيسا هي ضمايرهم. فاضهروا رضاهم وتأييدهم لمزوطيل فأسرع مزوطيل بعد ثورته إلى صيفاقس ليستعين به في الإبقاء على ملكه. ومحاربة مصينيسا معه إذا ثار عليه.

### قضاء مصينيسا على ثورة مزوطيل

وكان مزوطيل يسير في موريطانيا الشرقية منتشيا بلذة الملك. وبقرب لقائه بصيفاقس فيكونان يدا واحدة على مصينيسا. ان مصينيسا في الأندلس غريق في الحروب مع الرومان. انه إذا لم يقتله الرومان فان سيوفه وسيوف صيفاقس هي التي ستقتله. فيصفوا له الجو. فيكون هو الملك في المستقبل. وكانت المزارع الجميلة التي خف طريقه. والجبال الكاسية بالغابات تضاعف نشوته بالنصر الذي حازه في نوميديا على قابووسة. وما تورته أحلام المستقبل من بهجة ومسرات. وكان يمني نفسه بلقاء صيفاقس.

يخرج إليه في موكبه الجليل فيستقبله ويرحب به، أو يبعث إليه وفدا من سراة الدولة يستقبلونه، ويدخلون به العاصمة (صيغة) في أبهة وجلال. وكان مع مزوطيل كوكبة من الجند تحفظه في طريقه. فرأى غبارا فظنه وفد الاستقبال. فنظر فوجد مصينيسا في كوكبة من الجند ينقض عليه. فاعمل مصينيسا سيوفه في رقاب جند الثائر الباغي فجندوا أكثرهم، فرأى مزوطيل الموت الأحمر يحيق به، والفناء يسرع إليه، فطار بفروسه وفر هاربا إلى صيفاقس، وانهزام بقية جنده وولوا الأديار. فأسرع مصينيسا السير فدخل نوميديا. فأسرع إليه أنصاره، انضم إليه الجمهور من أهل دولته فبايعوه بالملك، فاحتل قصر الإمارة في قرطبة فهرب الملك لاقوماز وبطانته إلى صيفاقس. وكان مزوطيل قد سبقهم إليه، فمدهم صيفاقس بجند وحثهم على محاربة مصينيسا، وأجج عداوتهم له. فهاجموا به على نوميديا رجاء ان يثور أنصارهم في الداخل فيستطيع التغلب بالجيش الموريثاني على مصينيسا. ولكن جمهور النوميديين كان مع مصينيسا. وكان هو لحزمه قد اعد جيشه لمثل هذا الهجوم فكسر جيش لاقوماز. وأرسل إلى لاقوماز من استصلحه، وأرجعه إليه، فأضفى عليه من الألقاب ما يرضى غروره، وكلفه من أعباء الملك بما يستطيع، فسد الباب على صيفاقس الذي عزم ان يثير الفتنة عليه بهذا الملك الضعيف. وأصبح مصينيسا هو ملك نوميديا، فتفتحت أبواب الخير بملكه للمغرب، وأقبلت العهود السعيدة على البربر لما اخذ بأزمة أمورهم هذا الملك الخالص العبقري. فما قبيلة هذا الملك العظيم؟ وما وراثته ونشأته؟ وكيف كانت شخصيته؟ وما أخباره وأعماله العظيمة التي بنى بها دولته، وأحسن بها كل الإحسان إلى المغرب الكبير؟

### دولة مصينيسا بن غولة بن نارفاس 202-148 ق.م

#### قبيلة مصينيسا

كانت قبيلة مصينيسا هي كتامة. القبيلة البرنسية العتيقة المشهورة في التاريخ الإسلامي بإنشاء الدولة العبيدية، وبإعانة المعز لدين الله في فتح مصر وإنشاء مدينة القاهرة. وكانت مواطن كتامة في صدر نوميديا، وفي أحسن الأماكن بها. كان من مدينة بجاية غربا آلة مدينة سكيكدة شرقا كله موطن لهذه القبيلة الكبرى البربرية. ان نشأة الدولة النوميديية في مدينة قرطبة وحواليها الدليل على ان هذه القبيلة هي التي أنشأتها، وان الملوك المنشئين لها نارفاس وغولة منها. ان الملك في القديم يكون بالعصبية، فأقوى القبائل في الناحية هي التي يكون الملك فيها، وليس في نوميديا

أقوى من كتامة، ولا أحسن موطنا وامنع بقاعا منها. ان قرطبة مدينة كتامة هي التي ولد فيها ملكهم وهي أحسن مدينة في المغرب، لذلك جعلوها عاصمة ملكهم، وظلت هي العاصمة إلى ان استولى الرومان على نوميديا.

#### ميلاده ووراثته ونشأته

ولد مصينيسا في سنة 238 ق.م في عهد جده الملك نارفاس، من والدين كريمين هما غولة، وأمه المازيغية الفاضلة. أننا لا نعرفها، ولكن مصينيسا يدل عليها. فالولد بضعة من أبويه، وعنوان لهما كليهما، سيما الأم، ان غولة ابن الملك نارفاس، والرجل الحصيف العالي الهمة، لا يختار زوجته إلا من البيوتات الكريمة، ولا يرضى قرينه حياة إلا امرأة تماثله في الشخصية؛ وتنسجم به لشدة الشبه، وتقارب المزاج.

وقد ورث مصينيسا كل صفات والده غولة وجده نارفاس وزاد أبواه فتميا وراثته الزكية بحسن التربية، وبالتعليم، وكل وسائل الثقافة، وكانت دولة نارفاس أيام نشأة مصينيسا في زمان ترعرعها، وكان الملكان البربريان يعلمان ان قوة الخلق، وشرف الطباع هما قوة الدولة، وسبب تقدمها، فغرسا في أبنائهما وأحفادهما، وفي الرعية هذه القوة ليكون أولئك الأبناء أجنحة الدولة تطير بها إلى النجوم، وكان الزمان في نوميديا أيام نشأة مصينيسا أيام بناء وتكوين للدولة وعمل عاصف، وجهود متصلة؟ ومقارعة للأعداء، وليست أيام استقرار، ودعه، وترف، وتوحي بالفتور، وتجعل أبنائها على ضعف القوارير التي يعاقرونها، ووهن الحرير الذي يغرقون فيه! فنشأ مصينيسا بوارثته وبيئته العلمية، صلب القناة، نشيظا، مجدا، يحب العمل، ويعرم بالنصب والمغامرة في سبيل المعالي، وقد أورثه أبوه وجده مثلهما الأعلى، وهو نهضة المغرب وقوته بالعلم، والغنى، والخلق الكريم؛ وتوحيده، وحفظه من المستعمرين الذين يطمعون في الاستيلاء عليه، فنشأ وهذا المثل الأعلى يستولي على قلبه ويمتزج بدمائه، ويوجهه في أعماله، ويؤثر التأثير البالغ في تكوين شخصيته.

#### شخصيته العظيمة

وكان مصينيسا قد ورث من أبويه صحة الجسم، ومتانة البنیان: فكان على التمام في خلقته، وعلى القوة في جسمه، كان طويل القامة، عريض المنكبين، واسع الصدر، غليظ الرقبة، مفتول العضلات، قد أتاه الله قوة تامة، في الجسم، غالبت ضعف الشيخوخة، فستطاع ان يقود جيشه بنفسه، ويخوض أكبر معركة مع أعدائه البونيقيين، وينتصر

عليهم الانتصار الباهر وعمره ثمان وثمانون سنة. وولد له وهو ابن ست وثمانين عاما. وكان له من صلبه أربعة وأربعون ولدا. وذلك لما يمتاز به من قوة في الجسم، وامتانة في البنیان.

وكان ما خاضه من الحروب منذ نعومة أظافره، وإنشاء أبويه له نشأة رياضية، وتقشفه في عيشه، من أسباب ما يمتاز به من قوة البنیان.

### قوة جسمه وجمال خلقته

وكان مصينيسا إلى قوة جسمه، جميل التركيب، قد أتاه الله طلعة بهيجة، وقسمات رائعة، مع جلال وقوة. فكان جماله الخلقي من عناصر الشخصية القوية المحبوبة التي يتمتع بها. وأنت إذا نظرت إلى رسمه لا تمال نفسك من الإعجاب بما وهب الله لهذا الرجل من جمال في القسمات، وبهاء في الطلعة، مع قوة وجمال ومهابة ترغمك على احترامه وإجلاله!

وكان مصينيسا يلتحي، وكانت لحيته مستديرة<sup>71</sup> فزادته مهابة وجمالا وجلالا في النفوس!

### ذكاءه وسعة علمه

وكان مصينيسا ذكي الفؤاد، راجح العقل، نير البصيرة، بالغ الدهاء، له نظر بعيد يستكشف العواقب، وإدراك عميق يعرف به الأسرار الدقيقة. وكان ثقافة عالية بالمدسة، والتجربة، والحنن الكثيرة التي تسلطت عليه. وكان أبوه بعد أن أم تربيته وتعليمه الابتدائي في قرطبة قد أرسله وهو شاب إلى قرطاجنة، فأقام فيها مدة طويلة ينهل من معاهدها العلمية، ويطلع على حضارتها وسياساتها ونظمها، وأساليبها الراقية في التجارة والصناعة والفلاحة، وفي كل الشؤون. فعلم كل ذلك، وجهد في نشر أحسنها في دولته.

وكان مصينيسا محبا كل الحب للعلم! فأورث حبه لأبنائه ورعيته، فلما فتح الرومان قرطاجنة، وكان معهم غولوسة بن مصينيسا بجيش كبير من نوميديا، فتكالب الرومان على جواهر قرطاجنة، وطرّفها، وكنوزها، ونهبوا الغنائم الكثيرة اختار غولوسة ومن معه من البربر من الغنائم مكاتب قرطاجنة فأعطيت لهم، فحملوها إلى نوميديا فانتفع بها المغرب كل الانتفاع.

71 - انظر رسمه في صفحة 170 من هذا الجزء.

وكان مصينيسا يتقن اللغة البونيقية ويحبها كحبه للغته البربرية، وقد جعلها مع اللغة البربرية لسان الحكومة في دولته، ولغة الدواوين. وكان ينشرها في رعيته، لأنها لغة العلم ومفتاح المعرفة في ذلك الزمان.

وكان معجبا كل الإعجاب بالحضارة البونيقية والإغريقية، فوجه أبناءه وقومه إليهما ليأخذوا منهما أحسن شيء يليق بالدولة القوية التي بينيها.

### عظمة خلقه وكرم سجاياه

وكان مصينيسا إلى ذكائه الوقاد، ورجاحة عقله، ودهائه، وعلمه الواسع، عظيم الخلق، وكرم السجاياء، شريف النفس شرفا حبه إلى كل إنسان حتى أعدائه، وأورثه الإعجاب والاحترام حتى من ألد خصومه. وقد أعجب به الرومان واجلوه وهو يحاربهم مع البونيقيين في الأندلس، ويكيل لهم الضربات، ويؤذي بجيوشهم، فجعلوا نصب أعينهم مصادقته وامتلاك وده، ليكون حليفهم. وكان شعبه يحبه كل الحب ويحس منه بأشبال الوالد الرحيم على أبنائه. لم يكن متجبرا كالمملوك، ولا قاسيا كالأمراء الشامخين ولكنه كان زعيم رعيته، يراهم منه؟، ويرونه منهم، يمتزج بهم، ويمتزجون به. كان رحيفا بشعبه، شفوفا على الضعفاء، ذا حنان ورقة للأطفال، يفاكه أصدقاءه، ويداعبهم، ويحسون به ماء سلسا للطفه، وتواضعه، ودمائة خلقه. وإذا جد الجد وكان من أعدائه الألداء، فانه مر العداوة، شديد الصولة، قوي الفتكة، يحرق بالشر المتطاير من عينه، ويرهب حتى الأسود بطليعة المتجهمه العكرة اعتكار السماء بالسحاب الأسود إذا استعدت لرمي صواعقها!

كان مصينيسا شجاعا، جرى القلب، قوي الإرادة، ثابت الجنان، لا يرهبه الأعداء مهما تكاثروا، ولا تؤثر في عزمته الهزائم مهما تواتت، ولا يضعف من طموحه النكد وأدبار الأيام، وقلة الوسائل، ان الحن، والنكبات والأرزاء، وشدة العقبات لا تزيده إلا تصميمًا، وإصرارا ومضاء، وثباتا في سبيل غايته، إقداما نحو هدفه إلى ان يبلغه.

وقد بدت شجاعته وجرأته ودهاؤه منذ نعومة أظفاره، فاختره والد غولة قائدا لجيشه وعمره خمس وعشرون سنة. فهاجم على صيفاقس الملك القوي فانتصر عليه انتصارا باهرا، وجرده من مملكته، وضمنها إلى دولة أبيه. وقد أعجب به البونيقيون فاصطحبوه معهم إلى الأندلس. فكان أكبر قوة دافعوا بها الرومان وثبتوا بها في جنوب الأندلس فلم ينهزموا.

كان مصينيسا مثالا في الجرأة والثبات وقوة القلب، ان الأهوال التي تطفئ غيره لا

تزيدة إلا تضربا وقوة وتصميما. لقد والى عليه صيفاقس والبونيقيون الحروب المريرة. والهزائم المتتالية وجردوه من مملكته، فبقي وحيدا في الجبال، ليس معه إلا عصابة قليلة من فلول جيشه، فلم ييأس، ولم يخمد، فأشعلها نارا على أعدائه، فنغص عيشهم بهجمات وفتكه، فأرسل إليه صيفاقس أكبر قواده بوملكار في جيش كبير، فناهضه بوملكار وطارده، وهو في عصابة قليلة، فأحيط به، وهزم بوملكار عصابته، وقتل أكثر جنده، ولم يبق إلا في أربعة من رفاقه، وهو يقاتل ويجالد، وجروحه تتخنة، ودماءه تتفجر من أنحاء جسمه الذي مزقته سيوف الأعداء ورماحهم، فطوقه بوملكار من ثلاث جهات، وفي الجهة الرابعة أمامه نهر عميق يصطخب، فأيقن بوملكار أن مصينيسا واقع في قبضته، أو يهلك في النهر، ولكن النجم لا تطفئه السحب، ولا يذيبه الغمام، فمرق مصينيسا في النهر العميق الواسع سباحة، وسهام الأعداء تنصب عليه من كل جانب وتقع عليه، وهو لا يهن ولا يضعف، فنجى إلى الضفة الأخرى، واختفى عدوا عن عين الأعداء، فأوى إلى مغارة في جبل منيع فأسى جراحه فاندملت، فجدد الكرة على أعدائه البونيقيين وعلى صيفاقس في حرب أشد، وجيش أقوى، فهزمه صيفاقس للمرة الثالثة، وشنت جموعه، فبقي في حفنة قليلة من فلول جيشه، فلم يهن، ولم يستسلم، ولم ييأس، لقد رأى بذكائه المستقبل فعلم أنه له، وأبت عليه إرادته القوية، وشجاعته النادرة، ومضاؤه، وجلده، وثبات أن يستسلم لأعدائه، ويأس من استرداد ملكه، والانتقام من أعدائه، فأوى إلى جبال نفوسة فاعتصم بها حتى وافته الفرصة، فكر على أعدائه فهزموهم شتر هزيمة، فاسترجع مملكته، وعاد إلى شعبه.

#### إخلاصه وتضحيته

وكان مصينيسا مخلصا لقومه، غيورا على المغرب كله، ليس أنانيا ولا بخيلا، ولا من الطبقة الأرستقراطية الشحيحة التي لا تعمل إلا لنفسها، ولا تفكر إلا في مصالحها، بل هو للدولة كلها، وللمغرب جميعه، حارب مع البونيقيين الرومان سنين في الأندلس لأنهم خطر على المغرب كله، ولما تولى الملك شمر للاطلاع، فبث الحضارة والعلم في البربر، وقضى في الجهاد الإصلاحى عمره، لم تلهه مباحج الملك، ولم تصرفه عن واجبه نحو قومه قصوره، وزينة الحياة التي أقبلت عليه.

#### دهاؤه وحسن سياسته

وكان مصينيسا بارعا في السياسة، داهية كل الدهاء في تصريف الأمور، استطاع بحسن سياسته ودهائه أن يوحد جل المغرب ويجعله دولة واحدة، رغم ما رسخ في

القبائل البربرية وفي أنحاء المغرب من حب الاستقلال، والهرب من الرضوخ للدولة الواحدة. ونال بحسن سياسته احترام البربر جميعا، ورضاهم كلهم، ولم يثير عليه نائر من رعيته، ولا زاحمه على الملك منافس من قومه.<sup>72</sup> وقد لجح بالدهاء وحسن السياسة، وحكمته في الإصلاح في تغيير كثير من طباع البربر التي تضرهم، وتمنع قيام الدولة الكبيرة فيهم، فانشأ بالإصلاح والتعليم وحسن السياسة جيلا مثقفا من البربر حقق آماله وآمال المغرب، ووجه البربر إلى الوجهة الحسنة التي تسعدهم.

وكان الرومان يتضورون جوعا إلى مغرب، فبودهم ان يبتلعوه، ولكن مصينيسا بذكائه وحصافته، وبحسن سياسته ودهائه، دافع خطر الرومان عن دولته، حتى رسخت أصولها، واشتدت أركانها، فأصبحت سدا في وجه الرومان يخشون الاقتراب منه، لقد روض التنين الروماني الهائج فجعله طوق الحرير، واكتسب احترام الرومان وصدقتهم، فكفوا عن دولته فحظي بالاستقرار والهناء دهورا طويلة، وحظيت الدولة من بعده، فبني ما بنى، وقام في الدولة بما قام به من إصلاح كبير.

#### صفاء طريته وحسن نيته

وكان مصينيسا ابيض القلب، حسن النية، لا يحسد ولا يحقد، صافي الطوية، فابيضت له الأيام، ورآه البربر نور الصباح فاجتهد إليه الأنظار التي تفيض بالحب والإكبار من كل أنحاء المغرب، وبارك الله له، فحقق آماله في الحياة

#### كرمه وسخاؤه

وكان مصينيسا مجبولا على الكرم والتضحية، فمع تضحيته بحياته وأوقاته لصالح الدولة وفائدة الشعب كان يتكرم بماله، ويقدم الولائم الفاخرة في قصوره لختلف طبقات الأمة، فيجتمع بهم، ويتحدث إليهم، ويسمع منهم، ويوجههم التوجيه الحكيم، ويلبسهم ملابس الأبر الرحيم لأولاده، ويمتزج بهم امتزاج الصديق المحب بأصدقائه، ولا يتكبر، ولا يعتزل الشعب كالمملوك المتجبرين.

#### زهده في المادة وتقشفه في العيش

وكان مصينيسا إلى نشره للحضارة في دولته، وإعجابه بالمدينة البونيقية والإغريقية وسعيه لبثهما في المغرب: كان إلى ذلك زاهدا في المادة، ومتقشفا في عيشه، ينزه نفسه عن الاسترسال مع الهوى، والانغماس في الترف والملاذات، لأنه يقتل المواهب،

72 - نريد بعد الاستقرار وتخلصه من صيفاقس في صدر أيامه في الملك.

ويفسد الأخلاق. ويعجل بهرم الدولة وزوالها. فكان مثالا لأبنائه ودولته في الزهد في المادة، والتعسف في العيش. لقد انتصر على البونيقيين في سنة 150 ق.م. في حرب كبيرة، فاستولى على معسكرهم، وكان حافلا بالازواد الدسمة. وكان هو أزهى أيامه في الملك، وعلى رأس دولة تضم جل المغرب المتحضر، وفي غنى واسع، وثراء عريض، وبعد النصر الباهر الذي يستغرق فيه أُناده في المذات، ويشبعون الشهوات، زاره سبيون الاميلي قائد الرومان في خيمته، فوجده «واقفا أمامها يأكل خبزا يابسا»<sup>73</sup>.

تلك هي شخصية مصينيسا المصلح الكبير، والزعيم الخالص والملك الفذ الذي نهض بالمغرب، وجعل منه دولة كبرى وقفت قرنا كاملا سدا منيعا في وجه الرومان. حفظ المغرب الحر، وحمي البربر من استعمارهم الجهنمي. ان أعماله الكبرى في المغرب، وجهاده ونضاله لدليل على تلك الأوصاف التي ذكرنا، وعلى هذه الشخصية التي يجب على المغرب ان يذكرها دائما بالإكبار والاحترام.

لقد صفقت نوميديا بارتقاء مصينيسا إلى عرش ملكها، فماذا وقع لهذا الملك العظيم، وما هي أعماله الكبرى بعد ان استقر وهدأت له الأيام؟

### حروب مصينيسا ومسااعيه الكبرى لتوحيد المغرب

كانت ولاية مصينيسا للملك في سنة 206 ق.م بعد ان قضى على ثورة مزوطيل، فما كاد يستقر في عرشه، ويعتن بدولته، ويبدأ إصلاحه حتى هاجمه صيفاقس والدولة البونيقية ففضوا على دولته، واحتل صيفاقس مملكته.

وكان البونيقيون بعد وفاة الملك غولة قد استخفوا بخلفائه في الملك، فحولوا حلفهم إلى صيفاقس، وقطعوا علاقتهم بنوميديا، وأبطلوا خطبة صفوينيسب لمصينيسا، وزوجوها لصيفاقس، قلبوا ظهر الجن لمصينيسا واضمروا الشر له ولدولته، فساء ذلك مصينيسا، وعلم إنهم يتآمرون عليه، فبعد هذه القطيعة لا بد ان يهجموا على نوميديا ويستولوا عليها، ولما أيد البونيقيون ثورة مزوطيل وعدوانه عليه، أيقن مصينيسا بضمائر البونيقيين السيئة نحوه ونحو دولته، فأرغموه على محالفة الرومان ليتقوى بهم على أعدائه، رغم مقتته للرومان، ومحاربتهم لهم سنين طويلة، لأنه يراهم شرا للمغرب، وبلاء عليه.

73 مدينة المغرب العربي ج 1 ص 179 ط. أولى بتونس.

### محالفة الرومان لمصينيسا

وكان الرومان في الأندلس هم الذين سعوا بكل جهد لاجتذاب مصينيسا إليهم لما وقعت القطيعة بينه وبين البونيقيين، وذلك لإعجابهم ببطولته، وعبقريته، وإخلاصه لخلفائه، فعرضوا عليه حلفهم فقبله مكرها، وكان ذلك في سنة 206 ق.م.

### كيد صيفاقس وعدوانه عليه وتجريده من مملكته

وكان صيفاقس والبونيقيون قد عزموا على فتح نوميديا، فما كاد مصينيسا يتولى الملك حتى أشفقوا على أملهم ان ينهار، وأيقنوا إنهم إذا تركوا مصينيسا طويلا في الملك فإنهم لا يستطيعون التغلب عليه، فعاجلوه قبل ان ترسخ أقدامه، ويصلح الأمور في جدولته، ويرأب الصدوع التي حدثت فيها بفتنة مزوطيل، فهاجمه صيفاقس والبونيقيون في خريف سنة 206 ق.م فدارت بينهم حروب طاحنة، وكان مصينيسا غير مستعد لها، فتغلبوا عليه، فاحتلوا نوميديا فضمها صيفاقس إلى دولته، ولكن مصينيسا بطل شديد المراس لا يستسلم ولا ييأس، فاعتصم بالجبال فصار يشن على البونيقيين وعلى صيفاقس حرب العصابات، فأرسل إليه صيفاقس جيوشه القوية فدارت بينهم معارك طاحنة في سنة 205 انهزم فيها مصينيسا، وخرج منها متخنا بالجراح، ثم جدد الكرة في سنة 204 ق.م. على صيفاقس في جيش كبير جمعه في شرق نوميديا، فسار إليه صيفاقس بنفسه ومعه ابنه فرمينة فهزموه في حروب طاحنة وقعت بينهما، وطارده في الجبال حتى أخرجه من نوميديا وافريقية، فأوى إلى جبال نفوسة، فأواه أهلها؛ وأكرموه، وعصموه من أعدائه، فبقي هناك يستعد ويرقب الفرصة للهجوم على أعدائه، واسترجاع مملكته، وكان معه في جبال نفوسة ما افلت معه من جيشه، ومن تلاحق به من أنصاره من نوميديا، فوضع مصينيسا يده قائم السيف، واعد جيشه للنضال، وعيناه إلى افريقية ونوميديا يرقب الفرصة للهجوم، فحانت له الفرصة الكبرى في سنة 203 ق.م فاغتنمها، لقد نزل جيش الرومان في افريقية تحت قيادة اكبر قوادهم سبيون الإفريقي لمحاربة البونيقيين وحليفهم صيفاقس، فأسرع مصينيسا إلى حلفائه الرومان ليستعين بهم على استرجاع مملكته.

### هجوم مصينيسا على صيفاقس واسترجاع مملكته 203 ق.م

وكان سبيون الإفريقي يخاف فتكة صيفاقس وفرسانه النوميديين، انه كفاء للبونيقيين الذين أضعفهم هرم الدولة، وأعيتهم الحروب الطويلة، ولكن صيفاقس، ودولته الفتية، وجيشه القوي الباسل إذا ناصر قرطاجنة فان كفتها تكون هي

الرابحة في المعركة ! لابد من مناصرة مصينيسا له. انه حليفهم فتنفس الصعداء لما رأى مصينيسا ينضم إليه. ورأى النوميديين والبربر الإفريقيين يسارعون إلى ملكهم وقائدهم المحبوب مصينيسا فيغزروهم جيشه. فوقع الحروب! فشغل سبيون البونيقيين. فهجم مصينيسا على صيفاقس. لابد من سحقك أيها الحسود الظالم! فانتطح الجبلان ووقع الحروب المهولة. وكان الله مع المظلوم. مع مصينيسا لحسن نيته. فهزم عدوه صيفاقس وأسرته. فأسرع إلى قرطبة فدخلها. فتربع على عرشه القديم. فسرت نوميديا بعودته إلى الملك. وأقيمت الأفراح والزينات في قرطبة. وفي مدن نوميديا وارتفعت الزغاريد. احتفالا بإحياء دولتهم وعودة ملكهم وزفافه. لقد تحققت له أمنياته. استرجاع مملكته وخطيبته.

### زواج مصينيسا بخطيبته صفونيسب

وكان مصينيسا يحب خطيبته صفونيسب كل الحب. وكان يحارب الرومان في الأندلس. فتنوالت عليه مكاره الحروب الطاحنة وتهاطل عليه السهام والضربات فتثخنه. وتشتد عليهم الأيام<sup>74</sup> بتقوى الرومان عليهم. وهو لا يحس البلاء ولا يكثرث بالأهوال. لأنه يعيش في أماله الباسمة: يوم يحتفل فيه هو وقومه بدحر الرومان في الأندلس. وبزفاف صفونيسب إليه ! ان أخبار بطولته. ومعاركه مع الرومان تبلغها فتنتشي بها فتزيده التزاما إلى صدرها! ان قبلاؤها المعطرة بأنفاسها ليشعر بها نتثال على محياها كلما هب النسيم الجنوبي من المغرب! انها حبيبته. والرباط المتين الذي يوثق الحب بين البونيقيين والنوميديين. وكان مصينيسا وفيها فدام على حبه لصفونيسب. ولم تستطع القطيعة التي وقعت بينه وبين صدر بعل والد صفونيسب والبونيقيين. تنكر البونيقيين وإبطال خطبته وزواج صيفاقس عدوه من صفونيسب لم يستطع كل ذلك ان يزيده إلا تعلقا بهذه الغزالة التي أعطاها قلبه !

وكانت صفونيسب تحب مصينيسا. وتعجب ببطولته. وشخصيته القوية. بشبابه وجماله. وبما ترى من المستقبل الزاهر له. فلما أرغمتها السياسة وأبوها على تزوج صيفاقس الكهل. شعرت بامتعاظ بالغ. وبقي لاسم مصينيسا رنين موسيقي عذب في أذنها. وذكرى جميلة في أعماقها.

وكان صيفاقس قد اتخذ قرطبة عاصمته ومقره فنقل إليها صفونيسب. ولما احتل

74 - الضمير في عليهم يرجع إلى مصينيسا وحلفائه البونيقيين الذين كان يحارب معهم في الأندلس.

مصينيسا قرطبة واسر صيفاقس. فانتهت أيامه في المغرب. كانت صفونيسب في قصر الإمارة في قرطبة.

صفونيسب حبيبة العمر وخطيبة الشباب! ! فعزم مصينيسا على الزواج منها. وأرسل إليها فرحبت. ان الحب القديم لا زال حيا في أعماقها. وان دولتها في خطر ومصينيسا هو منقذها إذا استطاعت ان تجعله حليفها. ستفعل. ان زواجها منه واجب وطني أيضا. فارتفعت الزغاريد في قصر الإمارة وسطعت البخور. ووضع مصينيسا عنه لأمة الحرب ولبس حلة العروس. وتم اللقاء بين الزوجين الحبيين! وأمضى مصينيسا ليلة العمر الفريدة مع حبيبته. فغسلت صدره. وجلت قواه من سواد السنين السود التي مرت عليه وكانت ليلة واحدة! وفي الصباح جاءه سبيون فظنه مصينيسا مهنا بالفتح وبالزفاف. فخلا به. فسأله في رفق ولكن في عمق ان يتخلى عن صفونيسب. ويدفعها إليه لي! أخذها أسيرة مع صيفاقس إلى رومة. انها ملكة يشرف رومة أسرها!

### مخاوف الرومان وانتحار صفونيسب

وكان سبيون يعلم ان مصينيسا مستعد لبغض الرومان. انه يمقتهم في داخل نفسه فخاف ان توجج صفونيسب هذا المقت فيصير عداوة. وتزين له محالفه قومها. ويومئذ يتعذر عليه الانتصار على حنبعل والبونيقيين إذا تخلى عنه مصينيسا وحالف أعداءه. ان هذا الزواج خطر على روما.

وكان مصينيسا أبيا فأبى ان يتخلى عن صفونيسب. فوقع خصام شديد بين سبيون ومصينيسا. يستحيل ان يدفع إليه مصينيسا زوجته ولو أدى الأمر إلى القتال ان مصينيسا أبي وفي. سيموت دون من يحب! وسمعت صفونيسب بإلحاح الرومان في أخذها ليدخلوا بها أسيرة ذليلة روما. ثم يقتلها الرومان. أو يعدونها أمة حقيرة فجسم لها خيالها المشبوب وضعف الأنثى هذا المصير. وتذكرت ما حل بابيها صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير. وما حل بقومها البونيقيين من هزيمة. وما ينتظر دولتها على يد الرومان من عواقب سيئة. ان أيام العز والهناء قد ولت. وفقدت الحياة لذتها. الموت ولا العار! ان سبيون عازم على أخذها ذليلة إلى رومة! لن يكون ذلك. ان خلاصها بيدها!

وكان مصينيسا يشتد مع سبيون ويأبى عليه اسر صفونيسب. وعزم على مخاشنته ورده خاسئا إذا تجاوز حدوده! فدخل عليه من اخبره ان صفونيسب قد ماتت! لقد جرت السم فقتلت نفسها!

قال الأستاذ احمد صفر: «وتزوج مصينيسا بالأميرة صفونيسب امرأة صيفاقس

وكانت خطيبته. وكان يهواها؛ ولكن هذا الزواج لم يدم أكثر من ليلة واحدة. لأن سبيون كان يخشى تأثير هذه الأميرة البونيقية على بعلها الجديد. فأمر مصينيسا أن يسلمه إياها كبقية الأسرى؛ ولكن الأميرة اختارت الانتحار على الذل والعار.<sup>75</sup>

### ابتداء مصينيسا أعماله الإصلاحية وتوحيد المغرب

كان مصينيسا في السابع والثلاثين من عمره لما رجع إلى ملكه. وكان في عنفوان الشباب. وفي مرحلة النضوج. فشمر لبناء المغرب. وللنهوض بالبربر ليحتلوا الذرى التي تليق بشرف عرقهم. وبما وهبهم الله من الاستعداد للكمال! وكان صيفاقس هو العدو القوي المشاكس الذي كان يمنع مصينيسا من الاستقرار والهدوء الذي ينشده لبناء دولته. والبدء في إصلاحه. والعمل لتوحيد المغرب ليقف صفا واحدا في وجه الرومان. فتخلص منه. وكان ابنه فرمينة وخليفة صيفاقس في الملك قد اتعظ بما وقع لأبيه. وأدرك خطر الرومان؟ فأحسن مجاورة مصينيسا. وقد استطاع مصينيسا بدهائه وإخلاصه وإعجاب البربر به أن يجعل أهل موريطانيا الشرقية أصدقاءه. فرضوا به ملكا فانظموا إلى دولته. فانتسج مجال العمل لمصينيسا وحققت الخطوة الأولى في توحيد المغرب الذي يتمناه مصينيسا. ويعمل جاهدا له.

وكانت الدولة البونيقية عدوه. ولكنها لا تستطيع محاربتة. ان الهرم. والإعياء من الحروب. ونفسها المسالمة تغلها عن حربه. ثم ان الرومان قد قيدوها له. لقد اشترطوا عليها غي معاهدة الصلح تن لا تحارب أحدا إلا بإذنتهم. ومصينيسا حليفهم. فبودهم ان ينقض عليها فيضعفها فيسهل عليهم القضاء عليها والحلول محلها في افريقية. فما كانوا ليأذنوا لها في حربه.

### مهاجمة مصينيسا للدولة البونيقية واقتطاع جهاتها في المغرب والجنوب

وكان مصينيسا غيورا على المغرب. وكان بعرف أطماع الرومان ونواياهم السيئة للمغرب. وكانت الدولة البونيقية قد أودى بها الهرم. وكانت تتداعى للسقوط. فحرص مصينيسا على ان يحتلها هو ويمتلك افريقية قبل ان سبقه الرومان. ان غرضه من

75 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 229 ط أولى بتونس

لم يكن ما قلناه في زواج مصينيسا خيالا. بل هو ما توحى به نصوص التاريخ. وما يستنبطه المؤرخ إذا حلل النصوص واعمل النظر فيها. ان ذلك الزواج لم يقع إلا في الجو والأحوال الوجدانية التي ذكرنا.

مهاجمتها هو هذا. وليس ما ظنه بعض المؤرخين من ان الرومان هم الذين يغرونه لإضعافها لهم. ان مصينيسا يمقت الرومان ويراهم بلاء على المغرب. وعدوه اللدود الذي لا يرجو له خيرا.

وبلك أيتها العجوز التي أساءت إلى البربر. وبثت الفتنة بينهم ! أيتها الثمر الحلوة التي تجذب الذباب إلى المغرب ! لا بد من إزالتك ليتوحد المغرب وينجو من خطر الرومان ! فشمر مصينيسا لالتهم أفريقية قطعا وضمها إلى دولته والقضاء على الدولة البونيقية بالتدريج.

### إعجاب البربر الإفريقيين والبونيقيين الأحرار بمصينيسا ومطالبتهم بانضمام افريقية إلى نوميديا

« ان افريقية للإفريقيين. ولا ينبغي ان يكون إلا للإفريقيين »<sup>76</sup> هذا هو شعار مصينيسا الذي ينادي به في المغرب. ويبثه في افريقية ليهب البربر ليحرروا واطانهم من المستعمرين البونيقيين. ويسبقوا الرومان قبل ان يتسلطوا عليهم فيقعوا فيما أدهى. وهب البربر الإفريقيون وكثير من البونيقيين المخلصين ينادون بانضمام افريقية إلى نوميديا لتنجو من الاحتلال الروماني. ويجدد مصينيسا شبابها. ان البونيقيين لا يستطيعون الدفاع. فمصينيسا وحده هو الذي يستطيع ان يقف في وجه الرومان. وكان هذا الحزب الكبير الذي تكون في قرطاجنة وفي أنحاء افريقية قد زاد لمصينيسا حرصا على احتلالها. فما كاد يستقر في ملكه. ويشعب صدوع دولته. ويهيئ جيشه وأسطوله. ويجعل دولته بإصلاحه تقف على قدميها. وترفع رأسها. وتفتح ذراعيها لضم المغرب كله. حتى ابتداء في التهام افريقية. فهاجم النواحي الغنية العامرة التي جاور نوميديا من ترابها فاستولى عليها. «فاستحوذ على ساحل سرت الصغير بخليج قابس. وهو الجهة التي كانت تعرف بجهة الأسواق التجارية. وكانت مشهورة بمدخلها وغناها. وكان ذلك في سنة 162 ق.م»<sup>77</sup> فصار جنوب افريقية كله من مدينة صيفاقس تابعا لنوميديا دولة مصينيسا. وكذلك ساحل طرابلس الخصب الغني بأسواقه التجارية الكبرى إلى خليج سرت الكبير.

وفي سنة 154 ق.م استولى على الجهات الفلاحية الخصبة (في الشمال الغربي والوسط الغربي لافريقية) كجهة دقة. وجهة السهول الكبرى. وهي سوق الأربعاء وسوق

76 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

77 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 178.

الخميس (جندوبة) حيث يمر وادي مجرزة<sup>78</sup> فامتدت حدود دولة مصينيسا الشرقية، وتوغلت في شمال افريقية ووسطها. فكان الحد الشرقي للدولة النوميديّة شرق مدينة باجة؛ وشرق تبرسق، ومدينة دقة إلى جبال أولاد عون، فيضم إلى دولة مصينيسا هذه السهول الخصبة التي يفيض عليها وادي مجرة الكبير، والتي اعتنى بها البونيقيون كل الاعتناء، فكانت بساتين غناء، ومزارع منظمة راقية تتخللها سواق للري، وكل ما تحتاجه الفلاحة المنظمة الراقية.

وكان مصينيسا عازما على احتلال افريقية كلها، فأشفق الرومان من اتساع دولته وخافوا ان يستولوا على افريقية كلها سورا حديدا في وجوههم، فلا يستطيعون احتلال المغرب كما يريدون. فسارعوا لاحتلال افريقية في سنة 146 ق.م وحالوا دون توحيد مصينيسا للمغرب، وابتدأوا في الكيد لهذه الدولة البربرية الكبرى التي أرغبت الرومان وغلت أيديهم عن احتلال المغرب كله قرنا كاملا من الزمان. ووقفت في وجوههم سورا حديدا يحفظ المغرب، لا يستطيع الرومان الأقوياء الجشعون اختراقه !.

وفي سنة 158 ق.م استطاع مصينيسا بدهائه ان يضم موريطانيا الشرقية إلى نوميديا فاتسع حد دولته غربا فكان وادي ملوية.

### حدود دولة نوميديا

وكانت حدود دولة مصينيسا في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد تبتدئ شرقا من شرق باجة ودقة فتضم كل سهولها إلى نوميديا، ثم تنحدر جنوبا فتضم جنوب افريقية كله من جنوب مدينة صيفاقس، وساحل طرابلس إلى خليج سرت الأكبر، فالحد الأقصى الشرقي لدولة مصينيسا هو خليج سرت الأكبر، وحدها الغربي هو وادي ملوية.

هذه هي دولة مصينيسا، وقد حقق مثير من أمله في توحيد المغرب، فلو طال عمره وأبقت الأيام شبابه، لحارب الرومان في افريقية وقذفهم في البحر، فيضم افريقية إليه، ثم موريطانيا الغربي ببالغ دهائه، فيصبح المغرب الكبير كله دولة واحدة، فيتحقق في التاريخ القديم ما لم يستطع تحقيقه في تاريخ المغرب كله إلا الدولة الأموية العتيدة في فترة قصيرة من الزمان، ودولة الموحدين الكبرى التي وحدت المغرب الكبير وحققته أملا من أماله الغالية الكبرى.

وكان مصينيسا حازما كل الحزم، يباشر أمور الدولة بنفسه، وكان يقصد أنحاء دولته

78 - نفس المصدر ص 178 ط أولى بتونس.

فيتفقد أمورها، ويطلع على سير الأمور فيها بنفسه، وكانت له مراكز إدارية كبرى في المدن الكبرى في كل ناحية من نواحي الدولة، فيقصد تلك المراكز فيتصل برعيته، ويجتمع برؤساء القبائل فيتفاوض معهم في مشاكلهم، ويوجههم في أمورهم أحسن توجيه، ويؤكد بينهم الإخاء والمودة.

### المراكز الإدارية الكبرى في دولة مصينيسا

وكانت له ثلاث عواصم ينتقل بينها، ويقوم في كل واحدة منها ردحا من الزمان على حسب مشاكلها، فعاصمته الكبرى في وسط الدولة هي قرطبة، وهي العاصمة العامة ومقر الحكومة؛ وعاصمة الجناح الشرقي في دولته، وهو غلاب افريقية وجنوبها الذب احتله، هي سيكا (مدينة الكاف) وكانت سيكا مدينة جميلة متحضرة، وكان لمصينيسا فيها قصر فخم وحدائق غناء، وكان يقيم في سيكا ويتفق أمور تلك النواحي بنفسه، ويحل مشاكلها بدرأيته وحنكته، وكان يولم لرؤساء القبائل البربرية في تلك النواحي الولائم الفاخرة، فتنصب الموائد، وتوضع فوقها ألوان الأظعمة في أوان من فضة وصال من ذهب، وتقع أثناء تلك الموائد حفلات موسيقية رائعة<sup>79</sup>

ويفعل مثل هذا في قرطبة وصيغة عاصمة الجناح الغربي لدولته.

لقد كان مصينيسا متقشفا في عيشه، ولكن دولته كانت متحضرة، وهو كان يريد ان يرى الجمال في كل أنحاء مملكته؛ ونور الثقافة والتمدن وجمال الأخلاق في وجود كل رعيته.

تلك هي حروب مصينيسا مع أعدائه، ومساعيه الكبرى لتوحيد المغرب، وعواصمه في جهات الدولة، فما هو إصلاحه فيها، وأعماله العظيمة لنهضة المغرب وازدهاره؟

### إصلاح مصينيسا ونهضته الكبرى بالدولة

كان مصينيسا مخلصا لدولته، وغيورا على قومه، ومحبا للمغرب كله، قد عزم ان ينهض بدولته وبالبربر كلهم النهضة الكبرى التي جعلهم امة قوية سعيدة، وتقف في وجه الرومان، وتزاحمهم، وتنتصر عليهم في البحر الأبيض المتوسط، فابتدأ العمل، وقدم للنهضة أسبابها القوية، ومقدماتها الصحيحة، وهي التربية الحسنة، والتعليم الرشيد.

79 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 179 ط أولى بتونس.

## اعتناؤه بالتربية والتعليم في الدولة

كان مصينيسا يؤمن ان قوة الأمم وسبب سعادتها ومجدها إنما هي الأخلاق الحسنة، وصفاء النفوس، وثقافة العقول، وان الرومان إنما سادوا الأمم العالة المتحضرة بمثانة الأخلاق، وتمجيد القوة ! فعليه ان يبث هذين السببين في أمته. انها أكرم عرقا من الرومان، وأكثر استعدادا للمجد منهم فإذا كانت مثلهم في هاتين الخلتين انتصر عليهم، واقتل أبواب المغرب في وجوههم.

ان التربية والتعليم هما الحياة السعيدة ! هما الغني والقوة ! هما سبب الرفعة والمجد ! هذا ما نقشه مصينيسا بدعايته، ودعاية أنصاره من الشباب المثقف المصلح في قلوب أهل دولته. وهذا ما نقشه في صدورهم بخطبه، فغرس فيهم حب العلم، والاعتناء بالتربية، وتمجيد الأخلاق الحسنة، والسلوك القويم، وفتح لهم المدارس للتعليم في المدن والقرى، وتسارع الأغنياء والمثقفون إلى إعانة الحكومة في فتح المدارس، وبث الدعاية للتربية والتعليم، وكانت طبقة كبيرة من البربر سيما في قرطبة وشرق نوميديا قد ثقفت وأخذت حظها من العلم في المدارس البونيقية في افريقية أو في نوميديا الشرقية التي جعلوها تحت حمايتهم، أو في قرطبة التي كانت فيها مدارس كثيرة، فعينها مصينيسا للتعليم في دولته، ثم استقدم المعلمين المخلصين من البلاد البونيقية، وأرسل البعثات العلمية الكبيرة إلى قرطاجنة، فنضجت فيها في مختلف العلوم، فانبثت في أنحاء مملكته، تنشر الثقافة، وتمحو الأمية، وتبث روحا جديدة في البربر: تعلم صغارهم في المدارس، وكبارهم في الجامع، والحمامات<sup>80</sup> والنوادي. فأحب الناس العلم فتنافسوا في تعليم صغارهم، وصار العلم والخلق الحسن هو سبب الاحترام والرفعة في المجتمع، وهو أساس التقدم والسلطان في الدولة، فتراحم الناس على موارده، وتأججت في نفوسهم الرغبة فيه.

وكانت اللغة البونيقية قد انتشرت في البربر سيما في نوميديا قبل مصينيسا فزادها مصينيسا انتشارا في البوادي والقرى لأنها لغة العلم والحضارة الراقية، فسهل على مصينيسا تثقيف البربر لانتشار اللغة البونيقية فيهم، فانشأ في زمن قصير جيلا من المثقفين كون منهم الجهاز الصالح المخلص القوي لدولته.

## إصلاح مصينيسا لدين البربر الوثني

80 - كانت الحمامات أمكنة للاجتماع في ذلك الزمان سيما عند البونيقيين والرومان وإذا كان البربر قد ورثوا الحضارة البونيقية فلا بد ان تكون فيهم هذه العادة

وكان البربر امة متدينة، تتمسك بدينها وتقده. فتناول مصينيسا بإصلاحه دين البربر أيضا. لقد كان دينهم بسيطا ساذجا، لا يترك الآثار الحسنة في نفوسهم، ولا يعودهم تمجيد الأشياء العظيمة، كالقوة، والجمال، والزراعة، وغيرها من الأشياء التي يجب ان تعتني بها الدولة المتحضرة وتقبل عليها. فدعا مصينيسا البربر إلى عبادة كثير من أوثان الإغريق، والبونيقيين، والرومان كافروديت إلهة الجمال، والأوثان الأخرى التي ترمز إلى القوة، والى الخير، أو إلى الزراعة، وغيرها من المعاني التي كان يقدها الإغريق والبونيقيون المتحضرون، والرومان الأقوياء.

وكان مصينيسا يقصد بهذا ان ينشئ قومه على تمجيد المعاني التي ترمز إليها تلك الأوثان مصينيسا ان ينتفع بالدين الوثني الخرافي الباطل في تربية البربر، وتوجيههم إلى الوجهة الحسنة التي يريد، ولو أدرك مصينيسا الدين الإسلامي العظيم لكان اكبر من يتحمس له، ويدعو قومه إليه، لأنه يعلم بذكائه انه دين القوة والجمال والخير وكل معنى حسن في الوجود !

## اختيار مصينيسا لجهاز الدولة

وكان مصينيسا مخلصا للدولة، يعمل لصالح الأمة لا لنفسه، وكان يؤمن بان وظائف الدولة واجبات ثقيلة لا حظوظا وجوائز يتحف بها الأصدقاء، ويتملق بها أناس، ويستكثر بها الأتباع والمؤيدين الذين يسندون بظهورهم الراكعة عرشه المتداعي، ويحدثون بأيديهم المصفقة دوبا لشخصية الهزيلة يلفت الأنظار، ويرضي غرور نفسه، فاخترت موظفي الدولة من الرجال الصالحين المخلصين العاملين الذين لهم دراية بالعمل، وكفاءة للوظيفة، واعرض عن الذباب المتهافت على المناصب، وعن الضعفاء الذين يريدون ان يكونوا عالة على الدولة، يرتعون في خيراتها ويمتصون دماءهم وهم رافهون لاهون، فازدهرت دولته بهذا الجهاز القوي المخلص، ووجد مصينيسا من أعضائه هؤلاء القوة التي أسرعرت بالدولة في كل نواحي العمران، والغنى، والقوة، والتقدم.

## اعتناؤه بالجنس والتربية العسكرية في الدولة

وكان مصينيسا عازما على الاستيلاء على افريقية، وعلى مقارعة الرومان وحفظ المغرب من احتلالهم، فاستعد كل الاستعداد بإنشاء جيش قوى وأسطول كبير، وقد بث التربي العسكرية في دولته، وكان البربر يمجدون الفروسية والبطولة، والبراعة في فنون القتال، فاذكي مصينيسا هذا الطبع فيهم، وانشأ شباب دولته عسكرية، كل منهم يحسن ركوب الخيل، واستعمال السلاح، واختار من هذا الشباب جيشا دربه أحسن

تدريب. وكان فيهم الفرسان والمشاة. وقد أقام لهم من البربر الذين حاربوا الرومان مع البونيقين من يعلم حرب المشاة التي يتقنها الرومان أكثر من غيرهم؛ وأقام المصانع الكثيرة لصنع الأسلحة. واستكثر من الخيل النوميديّة المشهورة في ميادين القتال. وحث شعبه، وفرض على جيشه تعلم السباحة، والبراعة في المصارعة، وألزمهم بكل ما يقوي البنية، ويذكي الشجاعة، ويجعل صاحبه أسداً يفترس أعداءه.

### تمجيد مصينيسا وأهل دولته للقوة والفروسية

وكان مصينيسا يمجّد الفروسية والقوة، ويفرس في شعبه تمجيدهما، وقد رسم في نقوده مع صورته رسم الفرس منطلقاً أو مستعداً، علامة على تمجيد الفروسية؛ ورسم مع الفرس سهماً أو قناةً مركوزة علامة على تمجيد القوة. وكانت هذه النقود تغرس في الناس الاعتناء بالقوة الحربية، والاستعداد العسكري. وتعلمهم وجعلهم يؤمنون بأن غنى المال في عصرهم الذي تسلط فيه الرومان، وعز الدولة لا يكونان إلا بالفروسية والقوة التي يدحرون بها الرومان المستعمرين!

وكان شعار مصينيسا الذي يزدان به في صور نقوده ليس التاج الذهبي، ولا ريش النعام، ولا أنواع الزينة كما يفعل الملوك الضعفاء، بل شعاره الذي يعتز به هو السهم الذي يدل على القوة! يرسمه في صورته ويركزه في أظهر مكان في الصورة. كانت الدولة المغربية الكبرى التي أنشأها مصينيسا تمجّد القوة، فجدت في أسبابها، فصارت أقوى دولة في المجال العسكري بالبحر الأبيض المتوسط. وقد صارعها الرومان طويلاً فصرعتهم، ولولا خاسد البربر، واستعانة الرومان بهم على القضاء على هذه الدولة لأطعمتهم بطون الحيتان، ولدست أنوفهم في الرغام، وطببت في ظهورهم بالقنا وهي تكنسهم إلى البحر، وتغلف المغرب في وجوههم إلى الأبد! كانت حُقق ما أرادته حنبعل فخذلته أمته الضعيفة، فتحتل روما، فتقضي على شر الاستعمار في منبعه. إن البربر هم الذين صرعوا الدولة المغربية الكبرى التي أنشأها مصينيسا، في عهد يوغورطة ويوبا الأول فجثا عليها الرومان فأزهقوا روحها، وليس أبناء روما بتفوقهم على الجيش المغربي الباسل في الشجاعة والفروسية والمهارة في القتال!

### إنشاء مصينيسا أسطول دولته الكبير الحربي والتجاري

واعتنى مصينيسا بالأسطول، إن العدو سيأتيهم من جهة البحر، فلا بد من حفظ الشواطئ، ولا بد من الأسطول الذي يصلهم بالعالم في المجال التجاري. فانشأ أسطولا حربيًا قويًا رابطًا في الثغور البحرية، وأسطولا تجاريًا كبيرًا. وكان البربر قد برعوا في

الملاحة، وفي الحروب البحرية لطول ما أعانوا واستأجرتهم قرطاجنة في حروبها مع الإغريق والرومان في البحر. ولكثرة استعانة القرطاجنيين بهم في أسفارهم البحرية الطويلة، وفي القيام بأساطيلهم الكثيرة، فوجد مصينيسا شباب دولته الملاحين الكثيرين الماهرين، ومن يحسن حروب البحر، فانشأ بهم أسطولاً حربيًا وتجاريًا كبيرًا، وجيشًا بحريًا كانت ترتعد به فرائس الأعداء.

### اعتناء مصينيسا بالفلاحة وتمدين البربر الرحل

وكان مصينيسا يوقن بأن الغناء هو سبب القوة، ومال الدولة هو الأجنحة وهو السلاح؛ وهو الوسيلة الكبرى لتحقيق كل الآمال، وبلوغ كل الغايات، وإن سبيل الغنى هو العمل والنشاط. سيما في الحقول. إن أرض المغرب الخصبة الواسعة تنطوي على الذهب وعلى الكنوز، لا بد من استخراجها. إن الفأس، والحراث والدلو للسقي هي أكبر أسباب المال الوفير، والغنى الواسع في أرض المغرب الكريمة ولكن الفلاحة الناجحة توجب على الفلاح أن يقيم في أرضه، ويعطيها نفسه ويقصر عليها كل جهوده. وأغلب البربر في مملكة مصينيسا لا يستقرون في مكان واحد، وقد سماهم الإغريق والبونيقين نوميديين لكثرة ارتحالهم، ومعنى نوميدي هو الرحالة البدوي الذي لا يستوطن مكاناً واحداً، إن أغلبهم يعتني بتربية المواشي، ينتقل بها في المراعي الخصبة، ويسافر بها إلى المواطن المعشبة، ولا يستقر في مكان واحد، لا بد من تمدين هؤلاء البداءة الرحل. إنه ليس هناك شيء يمدنهم كالفلاحة التي تلزمهم على المقام في مكان واحد، وعلى بناء المدن والقرى. فبث مصينيسا دعاية طويلة عريضة حارة سخر لها كل المثقفين. فلفت البربر إلى غنى الفلاحة وعزها، وهنائها، وإلى أثارها العظيمة في الأخلاق والأجسام. إن الرومان يرون الفلاحة صناعة الأشراف، وما عداها عمل العبيد! إن الوطني الحق هو الذي يملك أرض وطنه ويستخرج كنوزها إن أرض المغرب هي الذهب وهي الغنى، وهي عز الدولة وقوتها. فاشعر مصينيسا قومه بجدوى الفلاحة، فاقبلوا عليها، فقسم على القبائل والأفراد الأراضي الصالحة، ودعاهم إلى إصلاح الأراضي البور وامتلاكها، فمن أصلح أرضاً كانت له، وكان له عشرات من الأبناء، وكانت أسرته كبيرة فدعاهم كلهم إلى العمل في الحقول وإصلاح الأراضي. فأصلح مصينيسا بجهوده الخاصة وبجهود أبنائه أراضي واسعة أصبحت ملكاً له. وكان من كبار الملاك للأراضي في دولته. « ولما مات ترك لكل واحد من أبنائه أرضاً تبلغ مساحتها ألف (هكتار) تقريباً. وكان عدد أولاده أربعة وأربعين ولداً.<sup>81</sup>

81 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 181 أولى بتونس.

وكان مصينيسا بارعا في الفلاحة، يتقن أساليبها، فزرع أراضيه، وكان مثالا لشعبه في الاعتناء بالفلاحة، فاقتدوا به، واستقروا في قراهم الكثيرة التي انشأوا في كل أنحاء نوميديا، وفي موريطانيا الشرقية أيضا، وما ان انتصف القرن الثاني قبل المسيح، بعد مكوث مصينيسا خمسين سنة في الملك حتى كانت نوميديا وموريطانيا الشرقية كإفريقية في الفلاحة، وفي وفرة المزارع والبساتين، وفي اكتظاظ الأسواق والمخازن بالثمار والحبوب ومختلف الغلال، وذاق البربر عز الفلاحة وغناها، فكانت خدمة الأرض أكبر باب للرزق يطرقونه، وأورثتهم الفلاحة الاستقرار فتحضروا، فاستطاع مصينيسا ان ينشئ لهم معاهدة التعليم، ويربيهم بقوانين الحكومة، ويجبيهم لخدمة الدولة، كما استطاع ان يغرس فيهم الأخاد والإخوة، والتعاون، فكانوا أمة متساندة مترابطة فشق على الرومان التغلب عليه.

قال بوليبس المؤرخ الروماني الذي شاهد دولة مصينيسا، «كانت نوميديا قبل مصينيسا لا تجدي نفعاً، ولا تأتي بفائدة، وكانت تعتبر غير قادرة بطبيعتها على إعطاء شيء من المنتجات الفلاحية، فكان مصينيسا أول واحد، بل كان الرجل الوحيد الذي أظهر ان نوميديا قادرة على إعطاء جميع تلك المنتجات مثلما تعطيه أية جهة أخرى، لأنه أحيا مسافات شاسعة، وتعهدا بالحرث والزراعة»<sup>82</sup>.

وقال استرابن: «ان مصينيسا مدن النوميديين وحبب إليهم خدمة الأرض والفلاحة»<sup>83</sup>.

ان ما تمتاز به نوميديا اليوم من الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة يرجع الفضل الأول إلى هذا الملك العظيم الخالص أي حبيب إلى أبناء الوطن ان تنخفض رؤوسهم في زراعة الأرض وحرثها لترفع بالعز والغنى والسعادة، وجعل نوميديا بساتين ومزارع خضراء، فأحضرت له ولدولته الأيام، وانفتح أغزر مورد للمال طفحت به خزائنها.

### اعتناء مصينيسا بالصناعة

واعتنى مصينيسا بالصناعات، وبالتعدين، وبكل ما تستلزمه الدولة المتمدنة التي خلفت قرطاجنة في حضارتها العظيمة، وورثت علم البونيقين وصناعاتهم، ومنيتهم، فطبعها بطابعها، وزادتها رقيا وجمالا واتقاناً.

82 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 180 ط أولى بتونس .

83 - نفس المصدر ص 179

### اعتناؤه بالخط البربري وتوسيعه وتجميل حروفه

وكان مصينيسا يستعمل في دواوينه مع اللغة البونيقية، فوجد ان الخط البربري لا يزال على قصور البداوة، ضيقا لا يشتمل على كل الحروف المستعملة في اللغة البربرية، فاعتنى به، فوسعه، وزاد فيه حروفا كثيرة، وزين حروفه وجملها، فصار خطأ يفي بحاجة المرء في التعبير، ويجد فيه الكاتب كل الحروف التي تتركب منا الكلمات البربرية.

ان اعتناء مصينيسا بالخط البربري دليل على انه مستعمل في الدواوين، فلو كان مهملا لا تستعمله الحكومة والشعب ما اعتنى به، وارى ان مصينيسا هو الذي وسع الخط البربري ووضع أكثر حروفه حتى وصلت ثلاثة وعشرين حرفا بعد ان كان محصورا في عشرة أحرف.

كان مصينيسا هو زعيم الأمازيغ الأكبر! نهض بهم النهضة الكبرى في كل النواحي، وأقام الدولة البربرية الكبرى التي وحدت اغلب المغرب الكبير، فاستطاع ان يقف في وجه الرومان، وقد ألقته دولته القوية الرعب في قلوب الرومان فتكمشوا في إفريقية قرنا كاملا من الزمان كلما هموا ان يمدوا يد اللص الماهر والمخاتل البارح إلى الدولة البربرية الكبرى حملت فيهم بعيون الأسود، فتنقض أيديهم، وما يدل على قوة الدولة البربرية ان الرومان لم يستطيعوا استرداد ما اقتطعه مصينيسا من إفريقية، وكان جزءا من الدولة البونيقية، فضل في قبضة الدولة البربرية إلى ان استولى الرومان على نوميديا بعد قرن كامل من احتلالهم لشمال إفريقية ووسطها.

### تعصب المؤرخين الأوروبيين للرومان واحتقارهم للبربر الأقوياء

ان المؤرخين الأوروبيين إذا كتبوا عن الحقبة من تاريخ المغرب ليحتقروا البربر، والدول البربرية، فيجعلون الرومان في إفريقية هم كل شيء، وبقيت المغرب تابعا لهم، يمثل أوامرهم، وإرادتهم، ان الرومان لو كان لهم ذلك السلطان على المغرب لاستولوا عليه كله، إنهم يرون الدولة البربرية قذى في عيونهم، إنهم يريدون ان يرتعوا في كل أنحاء المغرب، ويزردوا خيراته، ويملئوا خزائنها بموارده الغزيرة فيجدوا دولتهم القوية خرسه من اللصوص، وتمنع عنه الذئاب، وتذود عن ساحة الأفاعي والعقارب، إنهم غيظ قاتل عليها، ولو كان لهم السلطان عليها، وكانت هي ضعيفة تخضع لهم لأزالوها من الوجود !

كانت دولة مصينيسا في عهده وفي عهد أبنائه من بعده إلى يوبا الأول مستقلة كل الاستقلال لا سلطان للرومان عليها، وكان الرومان يخطبون ودها، ويقدمون الهدايا

الذهبية التنفسية إلى ملوكها يطلبون صداقتهم ويستخدمون كل دهائهم لتبقى ساكنة لا تهاجمهم.

### ملازمة مصينيسا للحياة في الحرب البونيقية الثالثة لكرهه للرومان

وكانت الدولة البربرية الكبرى في حاجة إلى الاستقرار والهدوء لتتولى صرحها، وتبنى نفسها كما تريد، فأبت أن تهاجم الرومان أو تعين البونيقيين عليهم، وحرصت على سكونهم، وكانت تبتسم لهم على عداوة قائمة في أعماقها لهم، وتبيع لهم القمح والحبوب وما يطلبون شراءه من سلع الدولة البربرية الكبرى، وأشياء المغرب الجميل. كانت الصلة بين الدولتين مادية. وكان الرومان أكبر زبون للمغرب متحضر الغني الذي يبحث عن الحرفاء ليبيع لهم ثماره وسلعه. وكانت صلة المغرب دولة مصينيسا بالرومان صلة بزبون، وصلة الجار القوي يجاوره ذو نية سيئة فحرص أن يبقيه على السكون لكي لا يثير الغبار في وجوه الصافي، ولا يخلق الكدر في أيامه الهادئة.

وكان مصينيسا قد أعان الرومان في الحرب البونيقية الثانية ليسترجع مملكته، ويقضي على أعدائه، ويستعين بهم في أضعاف الدولة البونيقية التي عزم على القضاء عليها، وضم أفريقية إلى دولته، ليتوحد المغرب، لما هاجم الرومان قرطاجنة ليقضوا على البونيقيين لزم الحياء، ولم يمد إلى الرومان يد المساعدة، رغم شدة حاجتهم إلى مساعدته، لقد تنمرت عليهم قرطاجنة، واستغلقت في وجوههم وضعفوا عن فضها بالقوة، وظلوا عامًا كاملاً وهم يصارعونها وهي واقفة في وجوههم تكيل لهم الضربات، وتبعث في قلوبهم الرعب الشديد!

ان مصينيسا يبغض الرومان، فهم أعداء المغرب الألداء، وهم البلاء الذي يخافه على قومه، فبوذ ان ينهزموا في حروبهم مع قرطاجنة فيرتدوا خاسئين، ليتولى هو فتح قرطاجنة وضمها إلى دولته، ان حزيه قوي فيها، وسيجد كثيرا من الشعب يرحبون به، ويعينونه من الداخل على فتحها، وضم أفريقية إلى دولته، لقد بقي مصينيسا على الحياء في تلك الحروب التي انتهت بتخريب قرطاجنة، لا يعين الرومان بشيء، ولا يتمنى لهم الهزائم والانكسار!

### إعداد مصينيسا لأبنائه ليكونوا اعضاءه في املك وخلفاءه في الدولة

وكان لمصينيسا أبناء كثيرون، وكان يسد بهم الدولة، ويستخدمهم في القيام بمزارعه الواسعة، وشئون الأخرى، قد اعتنى كل الاعتناء بتربيتهم وغرس فيهم أخلاق

الرجولة، وعلمهم وبهم وهياهم ليكونوا قوة للدولة واسوة حسنة للبربر.

وكانت وراثة الملك لأكثر رجل في أسرة مصينيسا، وكان مصيبسا بن مصينيسا هو الأكبر، فكان مصينيسا يدرجه على شئون الملك، ويعلمه السياسة ويوقفه على نوايا الرومان السيئة للمغرب، لما شخ مصينيسا كان ابنه مصيبسا هو عماده في إدارة المملكة، وسنده الأكبر في سياسة الدولة، وكان مصينيسا في آخر عمره هائنا مطمئنا، لا يخاف على دولته من الضعف بعده لكفاءة أبنائه، وتآزرهم سيما ابنه مصيبسا الذي تدرج على السياسة وصار يستطيع السير بالدولة في الطريق التي دفعها فيه مصينيسا لا تتعثر خطواتها، ولا يبطؤ سيرها.

وكان من أولاد مصينيسا مع مصيبسا ابنان آخران قد ورثا شخصية أبيهم وكثيرا من خصائصه هما منستابعل وغولوسة، وكان منستابعل ذا شخصية علمية اجتماعية، فاسند إليه شئون القضاء في الدولة، أما غولوسة فكانت شخصيته حربية فجعله قائد جيوشه، فاسند إليه الأمور العسكرية في دولته وقضى مصينيسا الأيام الأخيرة من حياته وهو مستريح خيف الكاهل لأن أبنائه يقومون بتدبير الدولة، وهو يوجههم ويرشدهم، ويلاحظ سلوكهم وتدبيرهم، فماذا وقع له بعد عمره الطويل المستنير!

### وفاة مصينيسا وحياطته للدولة

كان مصينيسا قد بلغ التسعين من عمره وابتدأت الشيخوخة الطويلة تثقل عليه، والجهد الكبير الذي بذله في عمره الطويل يصيبه بصفرة الخريف، وبنهاية الصباح الذي أنفذ نفسه في الإنارة! وفي أول شتاء سنة 148 ق.م. مرض ثم وافاه اجله، فارتاعت الدولة لموته، وجزع المغرب الكبير كله بوفاة هذا المصلح الكبير، والملك القوي الخالص، ولبس البربر في كل مكان ثوب الحداد لموته.

### أكاذيب المؤرخين الأوروبيين واحتقارهم للبربر

وكانت دولة مصينيسا قد استمرت بعد وفاته في استقرارها وهدوئها، لان مصينيسا بجهوده وإخلاصه وتدبيره الحكيم كان قد رسخ أقدامها في طريق لا يمكن أن تخرج منه، وسد ثغورها بالكفاءات المخلصة فلا يمكن أن تقع فيها بليلة أو تصدع، وأقام ابنه الأكبر مصيبسا على رأس الدولة وهو حي وأعطاه ختمه، وسلمه مقاليد الملك وأزمة التدبير، وأسنده بأخويه، فاحدهما للقضاء يضمن العدل الذي تصلح به الدولة وتسكن، والثاني للحرب التي تمنع الفساد وترهب المتربصين بالدولة، وتمنعهم عن الضلال والفتنة.

كان هذا التقسيم للوظائف الكبرى من عمل مصينيسا وهو حي. لم يمِت إلا ومصيبسا قد تولى كل أمور الملك. وأخواه قد أحسن كل منهما القيام بما اسند إليه. فتوفي مصينيسا وهو آمن مطمئن على دولته. انه لم يمِت فجأة في معركة فيقال انه لم يسد ثغوره بمن يخلفه. ولا مات وهو شاب فنقول انه لم يشعر بالموت فيعين خلفاءه من بعده. لقد مات وهو في التسعين من عمره. في شيخوخته الطويلة. واستعد للموت بترتيب أمور الدولة. وتنظيم كل شئونها. وإقامة الخليفة الذي يقودها من بعده. فما كان مصينيسا يترك أمور الدولة من غير تنظيم. وثغورها الكبيرة من غيرها سداد. والشيوخوة الثقيلة تنذره بالوفاة. وسنه التي أشرفت على المائة تربه أبواب الآخرة تتفتح له. وهو الحازم المخلص الغيور على دولته. العالم بنوايا الرومان وكيدهم. وعدائهم. وعدائهم للدولة. انه ما جد بناء دولته إلا لتقف في وجه الرومان. فها هم ينزلون في افريقية. ويقع ما يخشاه مصينيسا. فهل يمكن ان يغفل عن دولته فلا ينظم كل أمورها قبل وفاته. ولا يولي حليفته الصالح الكفاء على العرش قبل ماته؟ ان اقل اختلال يقع بوفاته في دولته واقل اضطراب. سيستغله الرومان وينفخون في جمره ليضعفوا الدولة البربرية الكبرى التي تقف سورا حديديا في وجههم.

وبعد. فان ولاية مصيبسا للملك. وأخيه منستابعل لثئون القضاء. وغولوسة لثئون الحربية. كان من تدبير مصينيسا وعمله نفذه وهو حي. وقد أوصى بنيه بالآحاد. وحذرهم من الرومان. وأوقفهم على عداوتهم القائمة لهم. وأطماعهم الكبيرة في المغرب. وحثهم على ان يكونوا دائما على حذر منهم. وعلى الاستعداد بالآحاد والقوة الحربية لقمعهم. وعلى يقظة من يساكنه اللص الخائن في داره. وعلى انتباه من تعشش الأفعى المساورة في بيته.

كان مصينيسا يرى الرومان أعداءه. فما كان ليحسن الظن بهم فيوصيهم خيرا بدولته. ويرجو منهم النصح لأبنائه. ويفتح لهم الباب للتدخل في شئون مملكته. وقد أساء المؤرخون المغاربة كل الإساءة إلى أجدادهم والى تاريخهم بتقليد الأوروبيين الذين جعلوا بدعاويهم الكاذبة الرومان هم أصحاب الملك والسلطان في المغرب. ومصينيسا وبنوه خاضعون لهم. والبربر مستخدمون قد أعطوا بأيديهم لأعدائهم الرومان من غير قتال ولا حروب.

كانت دولة مصينيسا قوية مستقلة كل الاستقلال. ليس للرومان عليها أي سلطان. لقد كان الرومان لما توفي مصينيسا في أيام عصبية. كانوا يصارعون قرطاجنة منذ عام كامل ليقتضوا عليها. وقد ثارت ثورتها الباسلة في وجوههم. ونفرت من النطع.

وقاتلتهم مقاتلة المستميت الذي يأبى الذل والهوان. إنهم في حروب طاحنة معها. وأنهم لغرباء دخلاء في افريقية. يخافون ثورة البربر عليهم. واستغلال قرطاجنة في وجوههم. لم يتخلق لهم في ارض افريقية عرق. ولم يتكون لهم في المغرب أي نفوذ. ولم يستقروا استقرار الإقامة والاحتلال في أي ثغر من ثغوره. إنهم أجانب فيه. يشعرون بالغربة. وتفيض نفوسهم بالقلق على مصيرهم في المغرب. ويخشون انضمام الدولة البربرية الكبرى إلى قرطاجنة. فتستطيع الوطاء على أعناقهم. وتعفيرهم في التراب ! تلك هي الدولة البربرية الكبرى دولة مصينيسا لما توفي. وتلك هي حال الرومان في افريقية. ولكن المؤرخين الأوروبيين الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ المغرب قد جعلوا الرومان هم سادة المغرب. وان أموره كلها بأيديهم. وان البربر قد خضعوا لهم فأمسوا يتدخلون في شئونهم. وان دولة مصينيسا قد عنت رقابها لهم. ومصينيسا قد طأطأ لهم. ورأهم السادة الذين يخضع لهم. والقوة التي يخشاهم. فيتذلل لها. ويخشع أمامها ! هذه هي الصورة التي رسمها المؤرخون الغربيون للبربر وللرومان. وهي بعيدة عن الصواب. وما قالوه هو خلاف الواقع. لو كان للرومان ذلك السلطان الذي ادعوه في المغرب لما توفي مصينيسا ما مكثوا قرنا كاملا من الزمان منجرحين في افريقية يحكون الدسائس لإضعاف الدول البربرية ليستطيعوا القضاء عليها. وقد قلد اغلب المؤرخين المحدثين المغاربة الأوروبيين في دعاويهم الباطلة. وأوردوها في كتبهم. فجاءوا بخلاف الحقيقة. وحققوا غرض المستعمرين الذين يريدون ان يوحوا إلينا بضعف أجدادنا وقوة الرومان. ويجعلوا أجدادنا في نظرنا. وهم اسود ذلك الزمان. شياها تثغوا في قيودها في عرين الأسد الروماني. والعكس هو الواقع كما بينا ! إليك ما قاله الأوروبيون وقله مؤرخونا المحدثون بعد ان أريتك بطلانه. وأوقفتك على ضعفه. ورايتك حال الدولة البربرية الكبرى القوية المستقلة كل الاستقلال. وحال الرومان الخائفين القلقين على مصيرهم في افريقية.

قال : الأستاذ عثمان الكعاك وقد انخدع بدعاوى الأوروبيين وكيدهم. فصور مصينيسا على غير حقيقته في صفحة 72 من كتابه (الموجز) ووصف الرومان بالسلطان الذي لم يكن أهم على المغرب. قال: «ثم لما قريت وفاة مصينيسا استقدم إليه الاميلي (قائد الرومان الذي ينازل قرطاجنة) وأوصاه بنائه خيرا. وعهد إليه ان يقسم بينهم الملك بعد وفاته !!»

وقال الأستاذ أليبي وقد رد قول الأستاذ الكعاك: ولما وصل سبيون إلى قرطنة. ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من أبنائه. فاجلس على كرسي المملكة مصيبسا.

وعين غولوسة قائدا عاما للجيش. وعين منستابعل وزيرا للقضاء» !!<sup>84</sup>

وقال الأستاذ احمد صفر في كتابه: «مرض مصينيسا مرضا عضالا. وأحس بدنو اجله. فاستقدم صديقه سبيون إلى عاصمة مملكته قرطبة كي يوصيه بأبنائه خيرا. فأسرع سبيون إليه. ولكنه وصل بعد موته بيومين. فقسم السلطنة على أبنائه الثلاثة».<sup>85</sup>

### تزلف الرومان إلى الدولة البربرية الكبرى وطلبهم ودها وحلفها

كان الرومان يخطبون ود الدولة البربرية الكبرى. دولة مصينيسا. ويحرصون كل الحرص على بقاء الحلف القديم الذي عقده مع مصينيسا. وعلى إبعادها عن الدولة البونيقية. فلما توفي مصينيسا. وأسرت الوفود إلى قرطبة للتعزية. وكان سبيون الاميلي قائد الرومان في افريقية. ذهب إلى التعزية في وفد من خاصته. فوصل بعد أسابيع من وفاة مصينيسا إلى قرطبة. فعزى الملك مصيبسا في أبيه. واستماله إليه. وسأله إعانة حربية كبرى يتقوى بها على قرطاجنة. انه قد ذهب معزبا ومستغيثا بمصيبسا. ومؤكدا للحلف القديم بين الدولتين. ولكن المؤرخين الأوربيين سيما اللاتينيون منهم قد رأوا ذهاب سبيون إلى قرطبة فقالوا انه قد ذهب ليقسم ملك مصينيسا على أبنائه ! وادعوا ذلك الادعاء الباطل الذي يصور أجدادهم الرومان سادة المغرب قبل ان يحتلوه. ويصور البربر الأقوياء الأباة امة ضعيفة خاضعة قد استسلمت للرومان قبل ان يغزوا أرضها. ويحاولوا التسلط عليها ! ! وإذا كان سبيون قد وصل حقيقة إلى قرطبة بعد وفاة مصينيسا بيومين. فانه قد ذهب إليه مستنجدا مستغيثا. فمات قبل وصوله إليه. لأننا نرى الملك مصيبسا يبعث مع سبيون الاميلي هذا قائد جيشه غولوسة في جيش كبير أيد الرومان وقواهم على فتح قرطاجنة. قال الأستاذ احمد صفر «وعاد سبيون من قرطبة إلى افريقية. مصحوبا بالقائد غولوسة. وعدد عظيم من القوات النوميدية».<sup>86</sup>

ان من يصف مصينيسا ببغض الرومان. وبقوة الدولة. ثم يقول انه أوصى سبيون بأبنائه خيرا. وجعل لهم أمر تقسيم الوظائف بين أبنائه. يناقص نفسه. ويصف

84 - تاريخ الجزائر ج 1 ص 136 ط بيروت 1963 م.

85 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 248 ط تونس 1959.

لقد رد الأستاذ احمد صقر هذه الدعاوى الأوروبية التي توحى بتعظيم الرومان واحتقار البربر في أكثر من صفحة في كتابه . منها ما ورد في صفحة 274 فلو عمل العقل المنطقي في هذه الدعاوى التي أكدها لفنها وبين بطلانها. ولكن عيب كثير من مؤرخينا أنهم لا يعتقدون في حماس ان تاريخ المغرب هو تاريخهم فيجب ان يدرسوه في عمق ويهضموه مل الهضم. ويكتبوه من جديد. لا ان يرددوا دعاوى الأوروبيين. ويحشروا ترهاتهم فيشينو كتبهم النفيسة. ويعقوا أجدادهم وتاريخهم !

86 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

الشيء بالبياض والسواد في وقت واحد. ويقول ما لا تصدقه العقول العالة وذوو الذكاء والاستنباط.

### إعجاب المؤرخين بمصينيسا وثناؤهم عليه

وقد نوه كل المؤرخين القدماء والمعاصرين بمصينيسا. واثنوا عليه. وأعجبوا بشخصيته العظيمة. وأعماله الكبرى.

قال استيفان قسال: «ان مصينيسا اكبر ملك بين الملوك في المغرب. كيوستف ابن تاشفين ألرابطي. وعبد المؤمن ألوحدى. والشريف المغربي مولاي إسماعيل هؤلاء الملوك العظماء الذين يشبهونه في وجوه عديدة».<sup>87</sup>

وقال بواسيان: « كان مصينيسا هو المؤسس الفعلي لمملكة نوميديا. وكان رجلا عظيما».<sup>88</sup>

### وفاء البربر لمصينيسا بعد وفاته

لقد توفي مصينيسا ففقد المغرب الكبير شخصية. ولكن قلوب البربر كلها ظلت قرونا وهي عامرة بذكره والإعجاب به والاعتزاز بدولته العظمى. وشخصيته النادرة وظل مصينيسا في قلوب البربر يشغل فيها الثورة على الرومان. وعلى كل أعداء المغرب الذين استعمره وأرادوا به شرا.

وكان البربر الإفريقيون يحبون مصينيسا ويعجبون به. ويعترفون بجملة. لقد حررهم من عبودية البونيقيين. وضمنهم إلى دولته البربرية الرعوم. ولما توفي ظلوا يذكرونه وقد أقاموا له معبدا بمدينة دقة في غرب افريقية أحياء لذكراه بمناسبة مرور عشر سنين على وفاته. ان مصينيسا هو زعيم البربر وأبوهم. فلزام على المغرب ان يمجده في كل أنحاء !

### عمر مصينيسا ومدته في الملك

كان عمر مصينيسا لما توفي تسعين سنة. لقد ولد في سنة 238. وتوفي في عام 148 ق.م ودفن في قرطبة أو قريبا منها. قال الشيخ مبارك أليلى «وبالحروب جنوب قرطبة قبر احد ملوك نوميديا. ويظنه مؤرخو الإفرنج لهذا العهد انه قبر مصينيسا».<sup>89</sup>

87 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

88 - كتاب قرطاجنة في أربعة عصور ص طبع حسين الجزيري بتونس.

89 - تاريخ الجزائر الميلي ج 1 ص 135 ط بيروت 1963.

وكانت مدته في الملك نصف قرن وأربعة أعوام. وكانت كلها عملا مستمرا للنهوض بالمغرب. وبناء دولته القوية التي تحفظه من الأعداء. وثورته السعادة والهناء. انه من زعماء المغرب الممتازين خدموه في إخلاص. ووهبوا له حياتهم. وشرفوه في العالم؛ فلزام على المغرب ان يفي له. ويكتب تاريخه. ويعتني به كل الاعتناء في التاريخ القديم.

وكانت عاصمة مصينيسا هي قرطبة (قسنطينة) فهو اكبر من بناها وشرفها وجعل العيون تتجه إليها من أنحاء العالم. ليت شعري هل تفي له. فتسمى شارعها من شوارعها الكبرى باسمه تخليدا له. ولفتا للأجيال إليه. ليقرأوا تاريخه. فيتعلموا منه الإخلاص والتضحية والأقدام. ويعلموا ان ووطنهم (المغرب الكبير) كان يرفع راية الحضارة الراقية. ويبني الدول العظمى لما كانت اغلب بقاع الدنيا تغط في نومها. وخبيا في الجهالة والظلمات!؟

لقد وفيت مدينة قسنطينة ليوغورطة فسمايت مدرسة كبيرة من مدارسها باسمه فهل تفي لمصينيسا فتسمى باسمه مدرسة من مدارسها. وشارعا كبيرا من شوارعها؟ ان هذا ما ستفعله مدينة قسنطينة العتيبة. وهذا ما تفعله (بلديتها) إذا كانت تعرف تاريخها وتعز به.

وبعد مصينيسا جاء ابنه مصيبسا . وكان أبوه قد مهد له كل شيء ولصلح له كل الأمور. وأزال من طريق الدولة كل العقبات. ودفع بالبربر الناهضين في قوة وبراعة في طريق لا يمكن خروجهم منه. وهو طريق العمل والنشاط والاستعداد للتين الروماني الذي يتهايا للالتفاف على المغرب. فأنساهم العمل والاستعداد كل الخزازات. والمنافسات. فآخذوا وهدأت الدولة. وظلت على استقرارها أيام مصينيسا وهنائها. فاستراح مصيبسا. فكيف كانت أيام هذا الملك الجديد؟ وكيف كانت شخصية خليفة فقيدنا مصينيسا زعيم المغرب العظيم؟

## مصيبسا بن مصينيسا 148-119 ق.م

### شخصية مصيبسا وعهده

كان مصيبسا قد ورث خصائص أبيه الخلقية والعقلية. فكان حازما. مخلصا غيورا على الدولة مثله. كما كان حصيف العقل. حسن التدبير. موفقا في سياسته للدولة فهدأت له الأيام. وأعجبت به رعيته. واتصل في عهده الاستقرار الذي أورثه مصينيسا لدولته. فلم يثر عليه ثائر في الداخل ولا في الخارج. فواصلت الدولة سيرها في طريق البناء والتشييد التي دفعها فيها مصينيسا. فازدهرت في كل نواحيها وأعلت صروحها في كل جهاتها. فانتشر العلم في الرعية. والغنى في جماهير الدولة. وحب الحضارة في طبقات الشعب. فآزاد إقبالهم عليها. فكانت الدولة البربرية هي التي تحمل راية الحضارة بعد البونيقيين. وهي التي ورثت مدينة قرطاجنة وزادت فيها. وطبعنها بطابعها.

وكان عهد مصيبسا هو الزمن الذي ظهرت فيه نتائج جهود مصينيسا كاملة. لقد تثقف البربر كما آراد. واقلبوا على الزراعة. والصناعة. واستعدوا لعدوهم بالتربية العسكرية. واقبلوا على العمل المستمر والجد الدائب في كل الميادين. وآخذوا وآزرُوا فلم تنفصل ناحية عن الدولة. وأدركوا كلهم خطر الرومان فاستعدوا لهم بالآخاذ. فقطف مصيبسا ثمار جهاد أبيه. فعاش قرير العين بحسن الآجاه الذي كانت عليه دولته بفضل والده. وبالأستقرار والهناء التي ترك مصينيسا أسبابها كاملة في الدولة.

### غرام مصيبسا بالعلم والفلسفة وعكوفه عليهما

وكان مصيبسا لما ولي الملك في كهولته. انه في التاسعة والخمسين من عمره. وكان عاقلا حكيما وذكيا عالما. وقد أيد فيه الاستقرار الذي كانت عليه الدولة رزانتة ووقاره. وحبه للعلم. وغرامه بالدراسة. كما كان جهاز الدولة الذي أحسن اختياره له فضل كبير في ذلك. وكان أخواه غولوسة ومنستابعل قد قام مل منهما بما عهد إليه أحسن قيام فكان منستابعل وزير القضاء. وغولوسة وزير الحرب. فخف كاهله. ووجد الوقت الفسيح للاستغراق فيما يحب ويهوى. وهو العلم الذي غرس حبه مصينيسا في أبنائه وفي دولته. فاقبل على خزائن أبيه من الكتب. وعلى خزائنه. وعلى خزائن الدولة التي

غنمتها من قرطاجنة. فوجد فيها ضالته من العلم والفلسفة. فكان يقضي أوقات فراغه في الكتب أو في مذكرات العلماء والفلاسفة. أو في إفادة حاشيته من واسع علمه. وغزير معرفته.

وكان مصيبسا يحسن ثلاث لغات: البونيقية، والإغريقية، والرومانية. أفادته اللغتان البونيقية والإغريقية في الدراسة والاستزادة من العلم. وكان يميل إلى الفلسفة الإغريقية. ويعتني بدراسة كتبها، ومناظرة الفلاسفة اليونان الذين يزورونه في عاصمته ويرغبون في التحدث معه لسعة علمه، وغزارة معرفته، وعمق إدراكه لإسرار الفلسفة ودقائقها.

وكان مصيبسا يدفع بشعبه في طريق العلم والمعرفة، وينفخ حبة للعلم في رعيته، فتأثر به البربر واقتدوا به، فازدادوا نشاطا في التعليم، ومنافسة في معرفة ما تركت لهم الدولة البونيقية من مختلف العلوم.

### قوة البربر واختيارهم من غنائم قرطاجنة لمكاتبها الحافلة

ان غرام مصيبسا - وهو رأس الدولة وعنوانها- بالعلم، واختيار غولوسة وجيشه الذي فتح قرطاجنة مع الرومان من غنائم قرطاجنة الكبرى لخزائن الكتب التي كانت تشتمل عليها مكتبة الدولة، دليل على نضوج البربر وحبهم للعلم والمعرفة

وكان فرح مصيبسا بتلك الخزائن التي نقلت إلى نوميديا، وفرح شعبه كبيرا لحصولهم عليها، ومجانها من الحرق والتدمير الذي عفي على قرطاجنة، وأزالها من الوجود. إنهم قد غنموا من قرطاجنة لما غنموا كتبها أنفس كنوزها، أئمن أعلاقتها، وفازوا من الغنائم بأحسن مما أخذه الرومان. لقد كان البربر أكثر نضوجا من الرومان، واعلم منهم لاختيارهم للكتب من الغنائم، ولإثارتهم للعلم الباقي، والمعرفة التي هي أنفس شيء في الوجود!

قد يكون الرومان قد رغبوا في خزائن قرطاجنة من الكتب فاستأثرت بها غولوسة قائد جيش مصيبسا، وهذا دليل على مكانة البربر وقوتهم وأثرهم الأكبر في فتح قرطاجنة، فكان لهم نصيب الأسد من الغنائم، وانتقاء القوي المنتصر من الأسلاب وهو دليل أيضا على تقرب الرومان إليهم، وحرصهم على استرضائهم، لأنهم دولة قوية يحتاجون إلى عونها ومؤازرتها في كل الميادين، فأثروهم بأنفس شيء في الغنيمة ورضوا بان تنتقل كل الكتب إلى الدولة البربرية حتى التي تمثل شخصية البونيقيين العظيمة، وهم حريصون على إزالة تلك الشخصية ومحوها من الوجود.

وقد نظر الأستاذ احمد صفر إلى الغنائم والأسلاب في قرطاجنة نظرة الطفل الذي يفتن بالمادة ويستتبهه البريق، ويحتقر المعاني ويعرض عنها، فحكم بان البربر لم يأخذوا من الغنائم إلا الفتات، وان الرومان قد بخسوهم حقهم، واحتقروهم؛ وجعل الرومان في معركة قرطاجنة هم كل شيء، يأخذون ما يريدون، والبربر معهم كالخدم مع السادة يأخذون فضلاتهم، وما يزهدون فيه! ان هذا غلط كبير. لقد كان غولوسة وجيشه البربري هم القوة الفعالة التي عجلت بفتح قرطاجنة، وكانوا يمثلون دولتهم المستقلة القوية الرافعة الرأس، وما كان للبربر ان يخشعوا للرومان، وهم يستعدون مل الاستعداد لحفظ المغرب منهم، ان الحازم الكيس كغولوسة وجيشه، لا يخنع للعدو فيطمع فيه، بل يريه جانب القوة، ويقف إمامه رافع الرأس، ويعامله معاملة الند لنده لا يرضى ان يحتقره أو يخسه حقه سيما في مجال الحرب الذي تقسم فيه الغنائم على حسب الغناء في المعركة، والدرجة في البطولة والأقدام.

قال الأستاذ صفر: «وتخلفت رومة لأبناء مصيبسا عن بعض فضلات الغنيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، فتركت لهم مكتبة قرطاج، وتنازلت لهم عن بعض الأراضي!».

ان هذا الكلام لا يليق في أسلوبه ومعانيه، انه ينطوي على احتقار العلم، والاستخفاف بالبربر، وعدم المبالاة بالتراث العلمي العظيم الذي تركته قرطاجنة، انه ليس فتانا تلك الخزائن الغاصة بالكتب البونيقية النفيسة، بل هي لباب الغنائم وخيرات السلب، وأحسن ما تختاره الأمة الناضجة الواعي، لقد أبيحت قرطاجنة للجند الفاحخ أياما، فاخذ البربر من نفائسها المادية ما يشاءون، واخذ مصيبسا قبل ذلك من أراضيها أخصبها وأغناها، ولم يترك من افريقية للرومان إلا نحو الثلث، وهامهم يستأثرون بكنوزها الأدبية، فهل بقي لهم من شيء نفيس لم يأخذوه؟!

ان عيب المؤلفين المحدثين في تاريخ المغرب هو إيمانهم بالمراجع الأجنبية وتقليدها حتى في احتقار مغربهم، والإزراء بأجدادهم، والغض من مقام البربر الرفيع، وتمجيد كل ما هو روماني، وجعله شيئا رفيعا نافعا كالسحاب ولو كان غبار المرأغة! !

كان مصيبسا عالما جليلا، وفيلسوف حكيما، يحب القراءة ويشغف بالعلم، وكانت دولته مثله في الغرام بالعلم والهيام بالمعرفة.

### غرام مصيبسا بالجمال والحضارة وتزيينه لعاصمته

وكان متحضرا قد أعجب بالحضارة البونيقية والإغريقية فاقتبس منهما الصالح

الذي يليق بدولته، وأشاعه في رعيته. وكان يحب الجمال. يريد ان يراه في كل شيء في دولته. في سيرة رعيته. وفي عقول أمته. وفي المدن والقرى. وفي القصور والجدران فاعتنى بعاصمته قرطبة كل الاعتناء. فلم يكتف بجهود البربر المثقفين في جميلهما وخصينها بل جلب إليها طائفة من اليونان. فأعانوا البربر في البناء والزركشة وعلموهم ما لم يعلموا من الفن المعماري الإغريقي. فصارت قرطبة في الجمال والروعة والزخرف والنظام عروس المغرب. وأمست للدولة البربرية الكبرى هي الحيا الفاتن في الجسم القوي وصارت للمدن في الدولة قدوة في الزخرف والنظافة. والنظام والجمال. فاقتدت بها

وكان الغنى الذي كانت عليه الدولة البربرية. والثقافية المنتشرة في طبقاتها. والاستقرار والهناء الذي تنعم به. مما جعلها تغرم بالجمال وتقبل على الزخارف والنقوش وتحرص على الحسن تريد ان يكون في كل أشيائها.

وكانت قرطبة إلى جمالها وزخرفها. حصينة عالية الأسوار والأبراج. وكانت كثيرة العمارة غزيرة السكان تستطيع ان تجند من سكانها عشرة آلاف رجل. وعشرين ألف فارس. وهذا دليل على الرخاء والهناء. وسعة الأجزاء في قرطبة. فاقبل عليها الناس من كل أنحاء المغرب.

وكان مصيبسا يحافظ على القوة العسكرية التي تركها مصينيسا في الدولة. انه يعرف ضمائر الرومان للمغرب. إنهم لص يساكنه في داره فيمناه لا تفارق مقبض سيفه. وهو لا يغفل عن جيشه وأسطوله وتقويتها والحفاظة عليهما.

### سياسة مصيبسا الحكيمه مع الرومان

وكان مصيبسا يكره الرومان كوالد. وكان حريصا على الاستقرار في الدولة لينجز البربر كل مشاريعهم. وتبني الدولة نفسها في كل النواحي. فتستطيع مصارعة الرومان ومكافحتهم. لذلك كان يهادن الرومان ويداريهم. ويسلك معهم مسلكا حكيما لا يثيرهم عليه. ولا يجعل لهم سلطانا على دولته.

وكان الرومان يحتقرون مصيبسا ويخشون جانبه. وكانوا يتخذون كل وسيلة لاستبقائه على الحلف القديم الذي ابرموه مع أبيه. وكانوا يستنجدون به في حروبهم الكبيرة فينجدهم. وكان اكبر أغراضه في إعانتهم ان يزداد الجيش البربري قوة وتمرنا على الأساليب الرومانية في الحروب. وان تذكو صفاته الحربية فلا يضعفها السلم الدائم. فان الاستقرار الذي كانت عليه دولته. وخلوها من الأعداء والحروب. مما يوهن الشخصية الحربي في جيشه. كان غرض مصيبسا من إرسال جيوشه ليحاربوا مع الرومان. لا تملق

الرومان والخضوع لهم كما يقول المقلدون. بل إرهاف شجاعتهم والزيادة في دربتهم. ومنعهم من نسيان فنون الحرب التي يتقنونها. واكتساب الأساليب الحربية الجديدة من الرومان والأمم الأوروبية والشرقية التي يشاركون في محاربتها.

وكان الرومان قد استنجدوا بمصيبسا في سنة 148 لما استعصت عليهم قرطاجنة فذهب إليه سبيون الاميلي قائد الرومان مستغيثا. فاجده بجيش قوي أرسله مع قائد جيوشه أخيه غولوسة. كما استنجدوا به في حروبهم مع جمهورية نومنسنة في الأندلس في سنة 134 ق.م فاجدهم بجيش كبير فيه اثنا عشر فيلا. وجماعة كبيرة من الفرسان وحاملي القسي وحاملي المقاليع. وأرسله تحت قيادة ابن أخيه البطل القوي يوغورطة فاستطاع يوغورطة بكفائه الحربية وجرأته. وبشجاعة جيشه البري ومضائه. ان يفض قلعة نومنسنة ويفتحها للرومان.

قال الأستاذ صفر: «وبعد سقوط نومنسنة في صائفة سنة 133 شكر سبيون قائد الرومان يوغورطة وأكرمه أمام الجيش؛ وصرفه مبعلا معظمها بعد ما سلمه رسالة خاصة إلى مصيبسا يمجده فيها أعماله!»<sup>90</sup>

وكان الرومان قد استنجدوا في حروب كثيرة بمصيبسا فاجدهم. كما كانوا يشترون من الدولة البربرية الغنية الحبوب. والزيت. والعدد الحربية. والفيلة المدربة. وغير ذلك من غلال المغرب الخصب الغني. وسلعه الجيدة.

وكان الرومان اكبر زبون للدولة البربرية. تبعهم ما يحتاجون إليه بثمنه. وكانت علاقاتها بهم علاقة التاجر العزيز الأبى الغني بزبونه. ولم تكن الدولة البربرية تخضع للرومان. وتتمرغ تحت أقدامهم. ويرونها مزرعتهم يأخذون منها ما يشاءون. كما يقول الضعفاء المقلدون الذين يرددون دعاوي الأوروبيين التي تزري بأجدادهم. وتختقر جنسهم الكريم الأبى.

قال الأستاذ صفر: «وبعد انتصار الرومان على قرطاجنة وتهديمها اكتفت رومة مبدئيا بالاستيلاء على ارض حكومة قرطاج افريقية) لان أبناء مصينيسا كانوا كلهم طوع أمرها. ورهن إشارتها ! وكانت تعتبرهم تحت ظلها وحمايتها. فلم تر فائدة في زيادة الاستيلاء على مملكتهم التي كانت تستغلها بدون عناء ولا كلفة ولا نفقات! وكانت تعتبرها تحت تصرفها مثلما كانت تصرف في الملك غولوسة وفي قواته العسكرية فريحت بهم الحرب ضد القرطاجيين!».

مدينة المغرب العربي ج 1 ص 276 أولى بتونس - 90

ان هذه دعاوي أوروبية باطلة قد ردها الأستاذ صفر في أكثر من صفحة في كتابه وقد بينا خطأها في باب مضي<sup>91</sup> انه كلام لا يقوله إنسان يعرف كل أبواب التاريخ القديم للمغرب. ولا يصح ان يصدر من الأخ صفر الذي شرع بعد هذه الدعوى بصفحتين يشرح مصارعة الرومان العنيفة الطويلة المهولة للدولة البربرية ليصرعوها كي يستولوا عليها وعلى المغرب كله. ان الأستاذ قد ناقض نفسه بعد صفحتين. وأبطل ما دعاه من «ان الرومان لا يرون فائدة في زيادة الاستيلاء على المملكة البربرية لأنها تحت تصرفهم الخ»

لو ان الأستاذ رأى تاريخ المغرب الكبير كله تاريخه. ونواحي مغربنا كلها وطنه لاعتنى بأبواب تاريخ المغرب كلها عناية واحدة. وترك الأقلية الضيقة التي جعله يوجز في الدول النوميدية والموريطانية ويشير إليهما. لا يدرس في عناية أخبارها ليدرك الصحيح الذي ينقله. والزائف الذي يطرحه ويرد عليه. ولا يراها دول أجداده فيسهب فيها كما فعل في الدول التي نشأت في افريقية. لقد عكف على الدولة البونيقية التي ثار عليها أجداده. وعلى الدولة الرومانية التي استعمرت وطنه وقتلته. فأسهب فيهما. لان الدولة البونيقية كانت في افريقية. والدولة الرومانية قد علمته مراجعة الفرنسية وأساتذته الأوروبيون ان يمجدها. ويعتني بها أكثر من عنايته بدول أجداده في المغرب الكبير !!

أننا نعجب بكتاب (مدينة المغرب العربي) ونراه اكبر يد يقدمها الأستاذ صفر إلى الأمة المغربي. والى المكتبة العربية. ولكنه قد جاء فيه بهنات ان اغتفرت لمؤرخينا في عهد الاستعمار الغاشم. فلا تغتفر لهم. ولا تجوز منهم في عهد الاستقلال الذي يوجب علينا أنصاف امتنا المظلومة. وتاريخنا المغبون.

### وفاة منستابعل وغولوسة

وكان منستابعل وغولوسة أخوا مصيبسا يحملان معه أعباء الدولة. فتوفيا في سنة 145 ق.م بعد أربع سنين من ولايته الملك. فاستعاض عنهما بابنيه همصال. وأذربعل وابن أخيه يوغورطة. لقد كان يوغورطة شجاعا. داهية. كعمه غولوسة. فجعله قائد الجيش. واستعان بابنيه لا سيما همصال في الشؤون السياسية. وكان يدرهما ليكونا خليفته في الملك. ولا يتغلب عليهما ابن عمهما يوغورطة فيستولي على المملكة كلها.

وقد ظلت الدولة البربرية الكبرى هادئة مطمئنة لم تقع بليلة طول عهد مصيبسا

91 - انظر ذلك في صفحة 253 من هذا الجزء.

في الملك. وذلك لرضى البربر عنه. وإقبالهم على العمل. واشتغالهم بحفظهم في الغنى والعلم والحضارة. وكل النعم التي أسبغتها عليهم دولتهم الكبرى.

### وفاة مصيبسا ومدته في الملك

وفي سنة 119 ق.م أدركت مصيبسا الوفاة. فحزنت عليه الدولة. وأشفق شعبه من فقده. ورأى في الأفق غيوما تطلع على المغرب بعد مصيبسا فتعكر أيامه. انه سواد الرومان الذين لا يبغون للمغرب إلا سرا. فوضعوا أيديهم على قوائم السيوف وتمنوا ان يكون ملكهم بطلا جسورا كمصينيسا. فنظروا في العائلة المالكة فوجدوا يوغورطة فتنفسوا الصعداء.

وكان عهد مصيبسا في الملك تسعا وعشرين سنة. من سنة 148 إلى سنة 119 ق.م وعمره ثمانية وثمانين عاما. فمن الذي جاء بعده من الملوك الكبار الذين رفعوا رأس المغرب؟ انه يوغورطة! هذا البطل الذي سنوفيه حقه بعد ان نلم بابني مصيبسا اللذين فتحا باب المغرب للرومان. كيف وقع هذا ومتى؟

لا يقف إمامه قرن في المعركة. فنضجت شخصيته الحربية القوية. وبدت فروسيته فأعجب به البربر والتفتت إليه الأنظار من كل أنحاء الدولة وعلقوا فيه آمالا كبيرة.

وكان يوغورطة إلى شجاعته وفروسيته، وقوة بنيانه، جميل الجسم، بهي القسما، رائع الطلعة، مع قوة تنبؤ ببطولته، فزاد جمال خلقته في جمال شخصيته وقوتها، فتفتحت له القلوب، وأقبلت عليه نفوس قومه.

وكان ذكيا بالغ الدهاء، واسع الخيلة، عليما بالوسائل التي تحقق له أغراضه وخبط كيد الأعداء والمنافسين له، ويقضي بها على مناوئيه بدون معركة، ويصل بها أهدافه البعيدة بأهون سعي.

### حرص يوغورطة على توحيد المغرب الكبير ومقته للرومان

وكان يوغورطة غيورا على البربر كلهم، يحب الخير لهم جميعا، ويعمل جاهدا ليكون المغرب كله قويا، سعيدا، متصفا بكل ما يورثه الصدارة بين الشعوب، وبيوته المكانة العليا التي تليق بعرقه أزكي، واستعداده الكبير.

وكان مخلصا لدولته كلها وللمغرب كله فأعطاهما حياته، وقصر عليهم جهوده، فأحببه البربر وأعطوه قلوبهم، ودانوا بزعامته ورئاسته.

وكان قوي الإرادة لا ترده العقبات، ولا تضعف تصميمه وإصراره الحن والصعوبات، يزيده الفشل قوة فيكر على مراده، والخيبة وإصرارا فيهجم على غايته، وإذا انسدت أبواب للنجاح في وجهه طرق أبوابا أخرى، لا ييأس ولا يفشل، ان الانهزام هو الموت عنده، فتراه يفر منه ويتنزه عنه !

وكان يوغورطة يكره الرومان ويمقتهم، لقد عاشهم واختلط بهم، ودرس نفوسهم، فعرف طموحهم لامتلاك المغرب، وعلم إنهم كالوحوش الضارية، لا يتسلطون على أمة إلا مزقوا أوصالها، وقتلوا، وصيروها فرثا في أحشائهم، وعظاما بالية تحت أقدامهم! وكان يعلم ان الرومان يتمنون ان يمزق المغرب إلى مالك عديدة ليفزوا بينها العداوة والبغضاء، فتتقاتل، فيضعف بعضها بعضا للرومان، فيكروا عليها جميعا، فيفتروها، وأيقن ان قوة المغرب في اتحاده، وجعله دولة واحدة متماسكة الأطراف.

ان الاتحاد هو القوة، فالرومان لم يكتسبوا قوتهم فيكونوا دولة كبرى إلا لما وحدوا إيطاليا وجعلوا مالكة العديدة دولة واحدة.

ان المغرب كله وطن واحد، وجنس واحد، لا اختلاف بين أجزائه وسكانه، ان الاتحاد بين

## يوغورطة بن منستابعل 119-104 ق.م

### نسبه الكريم ونشأته الحسنة

هو يوغورطة بن منستابعل بن مصينيسا، المؤرخين يسميه يوغورطة، وأنا اختار يوغورطة لأنه أفخم وأليق بشخصيته القوية.

وكان والد يوغورطة هو منستابعل، وقد عينه والده مصينيسا وزير للعدل في دولة مصينيسا، فتوفي في سنة 145 ق.م فترك ابنه يوغورطة في عنفوان الرجولة وفورة الشباب، وكان سن يوغورطة لما توفي والده حوالي سبع وعشرين سنة كما يدل رسمه الذي وضع أيام ملكه، ان رسمه أيام ملكه ينبئ بأنه في العقد الخامس أو أكثر، وفي آخر أيام الشباب، وعلى أبواب الكهولة.

وكان يوغورطة قد اعتنى والده بتربيته وتثقيفه، وعلمه الفروسية، وفنون الحرب، واعتنى به في كل نواحيه، ورياه تربية الحكيم الذي يعرف كل مواهب ابنه نواحيه، ورياه تربية الحكيم الذي يعرف كل مواهب ابنه فيستخرجها كلها بالأسلوب الحكيم في التربية، وينميها فيه كلها بالتدريب والتعليم.

وكان منستابعل معجبا بذكاء يوغورطة وبشجاعته وإقدامه، وطموحه، وبغيرته على قومه، وبالشخصية الحربية الاجتماعية القوية فيه، فأيقن انه هو الذي يخلف جده مصينيسا في صفاته، ويقوم بعمل كبير في المغرب، فغرس فيه أحسن المثل العليا، وأنشأه على الإخلاص لأمته، وعلى الغيرة على دولته، وعلى الاعتداد بجنسه وعلى العناية بشئون المغرب كلها، وارضعه وهو طفل كره الرومان، ونقش في قلبه العداوة لهم، واره نواياهم السيئة للمغرب، وأطماعهم فيه، فنشأ يوغورطة وهو مستعد ليكون كاهل أمته يحمل أثقاليها، وعميدا للدولة ينوء بأحمالها، وسيف المغرب البتار يجالذ أعداءه، ويمزق في التراب كل مستعمر يريد استعباد أمته، وإذلال الأمازيغ الأحرار.

### شخصيته العظيمة

وكان يوغورطة شجاعا، جريئا، قوي الجسم، خفيف الحركة، فاغرم بفنون الحرب والفروسية فبرع فيه، فكان فارسا مغوارا لا يشق له غبار في الفروسية، مقاتلا ماهرا

### تقسيم الدولة البربرية الكبرى

وكانت وفاة مصيبسا في سنة 118 فاجتمع ابنه ومعهما يوغورطة في مدينة دقة في الجناح الشرقي لدولتهم. فلم يتفق الثلاثة. ان الابنين يردان ان تكون الرئاسة لهما ويوغورطة تابع لهما. ويوغورطة يراها ضعيف لا يستطيعان القيام بما يستطيع هو ان يقوم به. ان الرئاسة العليا يجب ان تكون له هو. فاختلفا. ثم اتفقا على تقسيم الأموال والدولة. فاخذ هيمصال وأدربعل نوميديا وتركيا موريطانيا الشرقية ليوغورطة. فابتهج الرومان بهذا الصنيع. ولكن يوغورطة ساءه ورآه هلاكا للدولة. فعزم على التخلص من ابني عمه الضعيفين وتوحيد الدولة.

### اغتيال هيمصال والهجوم على أدربعل

وكان هيمصال بعد ان قسم المملكة ذلك التقسيم قد أوى إلى مدينة (اثمدة) بجوار (دقة) فأقام فيها للاستجمام. فادس إليه يوغورطة من قتله. فاستراحت منه الدولة. فبقي أدربعل. وكان اضعف من هيمصال. وكانت قرطبة هي عاصمة أدربعل فأسرع إليها ليتحصن فيها. لقد كان مصرع أخيه نذيرا بما سيقع له. لابد من سحقك أيها الضعيف الجبان لتستريح الدولة من شر التقسيم! فجهز يوغورطة في سنة 114 ق.م جيوشه في موريطانيا الشرقية فداهم أدربعل في عاصمته. وكان أدربعل جباناً. ففر إلى رومة يستغيث بها. ويسألها ان تعينه على حفظ مملكته. وترسل معه جيشا يحارب له يوغورطة!!

### دهاء يوغورطة وإحباط كيد الأعداء

وكان يوغورطة قد أرسل وفداً منه إلى رومة. فاستمالوا بالهدايا جماعة من كبار مجلس الشيوخ الروماني. فلما وصل أدربعل إلى روما. فذرف الدموع في مجلس الشيوخ واستعداه على يوغورطة. كان يوغورطة قد افرغ مجلس الشيوخ من باروده يعد مستعداً للانفجار.

وكان الرومان بودهم ان يتدخلوا في شئون الدولة البربرية. وبهجموا على يوغورطة. ولكنهم يعلمون قوة الدولة البربرية. وكره البربر لهم. سينضمون كلهم إلى يوغورطة ليحاربوهم فيكون ذلك ليوغورطة. ان هجومهم على الدولة البربرية لا تخمد عقباها. انها لا زالت في شبابها وقوتها. لا يمكن التغلب عليها! فأثر مجلس الشيوخ الوسائل الهادئة للإبقاء على دولة أدربعل. ان انقسام المغرب وتشققه هو الذي سيخلق فيه الديدان

المغاربة أسهل. وهو اوجب. فما لم يتحدوا لا يستطيعون الوقوف في وجه الرومان. ان الرومان الذين احتلوا افريقية هم الحية القتالة التي تسانك أهل المغرب في دارهم. لابد من القضاء عليها. لابد من تهشيم رأسها وقذفها في اليم! ان توحيد المغرب في دولة واحدة هو وسيلته الكبرى لبلوغ هذا الغرض لينجو من الاستعمار الروماني الأثيم. ان توحيد المغرب واجب عليه. لابد ان يحققه. ان أمته مقبلة على خطر عظيم يكمن لها في الولاية الرومانية. يجب ان يكون ملك دولته قويا شجاعا بالغ الدهاء. انه ليس في عائلة مصينيسا من جمع فيه هذه الأوصاف كلها غيره. ان قيادة دولته ورئاستها واجب عليه. ان تبوأ عرش الملك بعد عمه هو الذي يفتح له المجال لخدمة المغرب وتوحيده. وحفظه من الرومان. كان هذا الشعور يملأ قلب يوغورطة وكان هذا الرأي عقيدة راسخة فيه. تؤثر في شخصيته. وتوجهه في سلوكه: كان توحيد المغرب وتنظيفه من الرومان هو المثل الأعلى الذي يستولي على نفسه. ويدفعه في أعماله.

### إعجاب الملك مصيبسا بيوغورطة وتبنيه

وكان الملك مصيبسا معجبا بيوغورطة. فضمه إليه. ثم تبناه في سنة 120 وصار كأحد أبنائه من صلبه. وكان يستكفي به في مهمات الدولة. ويعتمد عليه في الشئون الكبرى. ويستشيريه في المشاكل. فيقوم بكل هذه المهمات كما يريد مصيبسا. فرشحه للملك من بعده. ولكن لا بد من إشراك واديه هيمصال وأدربعل معه في الملك. أنهما ابنه لا يمكن حرمانهما منه.

### إشراك مصيبسا لابنيه مع يوغورطة في الملك

وظغت غريزة الوالدية على مصيبسا. ورائت على عقله وحكمته. فلم يحسن الاختيار للدولة. ولم يتقيد بالقانون المعهود عند آل نارفاس في وراثة الملك. ان العادة ان يتولى الملك أسن رجل في العائلة. قد يكون الأسن الصالح للملك هو يوغورطة. كان يجب ان يترك له الملك. ولكن مصيبسا جعل الملك إرثاً لعقبه. فأوصى به لابنيه. وضم إليهما يوغورطة. فصارا ابنه هما الأصل في وراثة الملك ويوغورطة فرع لهما.

وكان هيمصال وأدربعل ضعيفين لا يستطيعان مصارعة الرومان. والقضاء على دسائسهم في المغرب. سيكونان سببا لتقسيم الدولة إلى دولتين أو ثلاث دول. ان هذا ما يعمل له الرومان سيحققه هيمصال وأدربعل. ان الدولة لفي خطر. لابد من إنقاذها. ولا يكون ذلك إلا بمنع تقسيمها. وتوحيد الرئاسة فيها. فجد يوغورطة لتحقيق هذا الغرض.

فيسقط! لابد من بقاء دولة أدريعل. فأرسل الرومان إلى نوميديا وفدا للصلح.

### حكمة يوغورطة ودهاؤه

كان ذلك في سنة 114. فجمع الوفد بين يوغورطة وأدريعل. فرأى يوغورطة من الحكمة ان يرد إلى أدريعل مملكته نوميديا ليرجع إلى قرطبة. فيبتعد عن الرومان الذين يمكن ان ينجده. فيقع في حرب لم يستعد لها. ان محاربتة أدريعل جرت له حروب الرومان. فلا بد من الاستعداد الكبير ليستطيع الوقوف في وجه الرومان أيضا. فرضي يوغورطة برجوع أدريعل إلى مملكته فرجع إليها إلى حين.

### هجوم يوغورطة على أدريعل وقتله جزاء خيانتة وإضراره بالدولة

لابد من سحقت أيها الخائن الجبان الذي يستنجد بأعداء دولته. ويفتح الأبواب الواسعة لدخول الذئاب العاتية إلى وطنه! ولابد من توحيد الدولة فإنها على خطر بالتقسيم! فعكف يوغورطة يستعد لحرب أدريعل ولحرب الرومان الذين قد ينجده. فنظم شئون مملكته. وعقد الصلات الحسنة مع جيرانه بوكوس أجليد<sup>92</sup> ملك موريطانيا الغربية. ثم أكد صداقته له بالمصاهرة. فتزوج ابنته. ليأمن ظهره ا حارب الرومان. ولما أتم يوغورطة استعدادة. كثر لأدريعل وعزم على سحقه. لن تفلت مني هاربا إلى رومة أيها النعجة السمينة. لابد من سحقت في قرطبة! فسار يوغورطة في جيوشه إلى نوميديا ليحتلها.

كان ذلك في سنة 112 ق.م بعد ثماني سنين من ولاية يوغورطة للملك. فهجم على نوميديا فاحتل غربها كله فقرب من قرطبة. فخرج إليه أدريعل فوقعت بينهما معركة انهزم فيها أدريعل ففر هاربا إلى عاصمته قرطبة فاعتصم بها.

وكانت مدينة قرطبة شديدة الحصانة بأسوارها العالية. وحصونها الطبيعية فعصمت أدريعل. فحاصره يوغورطة حصارا شديدا. وصمم على استنزاله. وشدد الرقابة عليه لكي لا يفر إلى الولاية الرومانية في افريقية أو إلى الرومان. ودام حصار يوغورطة لأدريعل في قرطبة عامين.

وكان في قرطبة جماعة كبيرة من الرومان يحترفون فيها الصناعة والتجارة والفلاحة.

92 - أجليد كلمة بربرية معناها الملك. أجليد بالجيم وليس الاقليد كما ذكر الأستاذ صفر الذي نقل هذه الكلمة من الكتب الإفرنجية التي حرفتها.

وكانوا طابورا خامسا لدولتهم.<sup>93</sup> وكانوا يكرهون يوغورطة لقوته. ويؤثرون أدريعل لضعفه. إنهم الانداء التي يرسلها الرومان على جدران الدولة لتوهنها ثم يفيضون عليها. وهم مقدمة الغزو التي يخلق بها الرومان جيشا سريرا في داخل الدولة ليسهل عليهم فتحها من الخارج. فتعصب هؤلاء العمال الرومانيون لأدريعل فلبسوا السلاح فوقفوا معه وراء أسوار قرطبة يدافعون يوغورطة. وكانوا يذكون الحماس في أدريعل ويحثونه على الدفاع. ويمنونه بمسير جيش من روما فيفك عنه الحصار. فتصلب أدريعل في الدفاع. وطال صبره على الحصار.

وكان الرومان يقنون بان يوغورطة سيقضي على أدريعل فيوحد الدولة فيقع ما يخشونه. «فأرسلوا إليه في رفع الحصار والكف عن أدريعل مع ثلاث من النواب (وأبى ان يخاشنهم لكي لا يستفز روما للدخول في الحرب ضده) فظهر لهم احترامه لروما. ولكنه لم يمثل أمرها. فاستمر محاصرا لقرطبة. فأرسلت إليه روما رسلا آخرين. وتعين الاجتماع بعوتيقة (عاصمة الولاية الرومانية بافريقية) فذهب إليها. وأوعز إلى جنوده بتشديد الحصار. ولما اجتمع برسل رومة اكتفى بإظهار احترامها أيضا»<sup>94</sup>.

### سبب تدخل الرومان في شئون الدولة البربرية

انه ليس للرومان أي سلطان على الدولة البربرية فلم تدخلهم في شئونها؟ ان أدريعل هو السبب. لقد ذهب إلى رومة فطلب حمايتهم فواعده. ان بقاءه في الملك وهو ضعيف سبب لإضعاف الدولة البربرية التي يرجون افتراسها. أما يوغورطة فهو شباب دولته وأجنحتها التي تطير بها فتنقض عليهم في افريقية. وتفتك بهم فتك البزاة بالحمام! يجب ان يفك الحصار عن قرطبة ويبقى أدريعل في الملك. فأرسلوا وفدهم إلى يوغورطة وهم يرجون ان يتجهم له ويخاشننه. فيجعلوا ذلك سببا لحربه. ولكن يوغورطة بدهائه وحكمته لم يخاشن الوفد. ولم يجعل للرومان سبيلا عليه. فأحبط كيدهم له.

ان الموقف البارد الهادئ الذي وقفه يوغورطة مع الوفد الروماني. وتظاهره بالود والاحترام لروما. ليوحي إليها ويشعرها بان يوغورطة لا يراها جانبا في الخصام. ولا يرى لها أي حق في نوميديا. وأي سلطان على ملكة أدريعل حتى خامى عنها وتأمره بالكف

93 - الطابور الخامس هو الجيش السري الذي بيته العدو في الدولة التي يريد حربها للتجسس عليها. وتخطيم معنوياتها. وتخريب أجهزتها. وضربها من الخلف إذا اشتبك بها في الحرب.

94 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 139 ط بيروت.

عن محاصرة ملكها. أنا أجنبية. ليس لها حق في التدخل في شئون البربر. فرجع الوفد الروماني خائبا إلى رومة. ورجع يوغورطة إلى محاصرة أدربعل. وكان قد شدد عليه الحصار. فمنع عن قرطة الأقوات وكل المواد. فأودى بأهل المدينة الجوع. وكان كثير منهم شيعة ليوغورطة فسئموا من الحرب. وضاقوا ذرعا بالحصار. والجأوا أدربعل لمفاوضة يوغورطة. والعدول عن عناده. وأيس أدربعل من تدخل الرومان لنقاده. فاستسلم إلى يوغورطة. ودخل يوغورطة قرطة فملكها. فتتبع الرومانيين الذين كانوا في قرطة طابورا خامسا لدولتهم فقتلهم. ان مستقبله دهور قراع مع الرومان. فليبدأ بالعدو الداخلي ليأمن ظهره إذا صارعهم. إنهم قد رفعوا السلاح ضده. وحرصوا عليه. لو اقتصرنا على الكيد لنفاهم. ولكن وجدهم في السلاح يحاربونه مع أدربعل.

وكان يوغورطة يوقن بان أدربعل مريض القلب لا يمكن ان يصفو له. سيثور عليه إذا وجد الفرصة. سيثيره الرومان إذا حاربهم فيضرب به من خلفه. انه عدو للدولة وخطر عليها. ثم انه قد ذهب إلى روما. واستنجد بالرومان. وهم أعداء المغرب. ففتح الأبواب للتدخل في شئونه. وفرض سلطانهم عليه !! ان هذه خيانة كبرى للدولة وللمغرب كله تستوجب العقاب. وليس عقابها إلا الإعدام.

وكان البربر على حنق وغيظ على أدربعل. إنهم يتمنون ان يلاقي جزاء خيانتهم وبلك أيها الحمل الذي يستغيث بالذئب. ويدعو الصلال إلى وطنه! ان جزاءك شيء براق مهول في يد الجلاد إذا هوى به على الأعناق. فأمر يوغورطة جلاده فأهوى بسيفه على عنق أدربعل. فاستراحت الدولة. واطمأن يوغورطة.

### توحيد يوغورطة للدولة واعتناؤه بالقوة العسكرية

كان ذلك سنة 112 ق.م. وقضى يوغورطة ست سنين وهو يجاهد بتوحيد الدولة. فتم له ما أراد وأراد كل البربر المخلصين. فضم يوغورطة نوميديا وتوابعها من افريقية وطرابلس إلى موريطانيا الشرقية فصارت كلها دولة واحدة كعهدنا أيام جده مصينيسا وعمه مصيبسا. وكان حد الدولة من الشرق خليج سرت الأكبر. ومن الغرب وادي ملوية. ولا يخرج عن دولته يوغورطة من افريقية إلا الولاية الرومانية.<sup>95</sup> وعادت للدولة البربرية الكبرى قوتها لما أحدث. وراجعها شبابها لما تولى يوغورطة رئاستها. ورأى الرومان في عينيها بريق الاعتزاز والاعتداد الذي يفيض من عيون الأسود الوثيقة بنفسها. فخرجت قرطة وفرحت نوميديا كلها بانضمامها إلى دولة يوغورطة. وانتقل يوغورطة إلى

95 - انظر حدود الدولة البربرية الكبرى في الخريطة في آخر هذا الكتاب

قرطة فجعلها عاصمة ملكه. فاخذ بأزمة الدولة في عبقرية وإخلاص ليندفع بها في طريق القوة والعظمة والرخاء التي تركها مصينيسا. ويحقق أمل مصينيسا. فيضم موريطانيا الغربية إليه. ويحتل الولاية الرومانية ويقذف بالرومان في البحر ويصبح المغرب كله دولة واحدة تقف سورا حديديا في وجه الرومان لا يستطيعون اختراقه. وتصير هي المنافس الأكبر القوي للرومان في البحر الأبيض المتوسط لا يستطيعون التغلب عليه بالقوة. فاعتنى بالجيش والأسطول. وأكد في نفوس البربر ما كان قد غرسه فيها جده مصينيسا من تمجيد القوة. والتجرع بها في الأخلاق. وفي الجيش والأسطول. وفي كل نواحي الدولة. وكان يوقن بان مستقبل البربر دهور نضال وحروب مريرة مع الرومان المشعين المعتدين الأقوياء. فلقت أنظار شعبه إلى الناحية العسكرية. ومجد البطولة والفروسية وجعلها سببا للتقدم في الدولة والنباهة في المجتمع. ورسم على احد الوجهين في نقوده صورة لبطل بربري قوي ومعه جعبة سهامه. وكنانة ذخيرته الحربية. كما رسم في نقوده الفيل وهو اكبر عدة للحروب في ذلك الزمان. انه كالدبابة الثقيلة يغني غنائها في الهجوم والدفاع. ورسم في نقوده الفرس تمجيدا للفروسية. وخبيا لها إلى البربر.

كانت القوة هي شعار دولة يوغورطة. انه نزاع إلى الاعتناء بدولته في كل النواحي. ولكنه رأى بنظره البعيد شر الرومان والغزو الروماني يحيق بدولته فاعتنى بالقوة أكثر ومجدها. وعلم البربر حب القوة وتعظيمها والحرص عليها في كل نواحيهم في أخلاقهم. وأجسامهم. وفي كل نواحي حياتهم. واراهم بما رسم في نقوده من شعارات القوة مع رسمه ان الملك إذا كان هو الرأس الذي تحيا به الدولة فالجيش وأبطالها وقوتها العسكرية هي الجهاز العظمي الذي لا تحيا بدون سلامته وقوته.

وكان يوغورطة كما اعتنى بالناحية العسكرية في دولته قد اعتنى كثيرا من الاعتناء بنواحيها الأخرى. سيما الفلاحة. فقد اعتنى بها كل الاعتناء ورسم النخلة في نقوده تمجيدا للفلاحة وإشعارا للبربر بأنها سبب الغنى. وهي الأم الولود للنقود الكثيرة. سيما النخلة التي عرف البربر فضلها فاستكثروا منها في المغرب. وكانوا أكثر الأمم اعتناء بها. وقد ضرب الملك يوغورطة النقود باسمه. واعتنى بكل ما يسعد الدولة ويقويها. وكان ملكا عظيما. ومن الأفضال الذين أورثوا المغرب عزته وفرع رأسه.

كان أمل يوغورطة امن يوحد المغرب كله في دولة واحدة متحضرة. غنية قوية متحابة متحدة كل الاتحاد ان المغرب وطن واحد. وأمة واحدة. ودين واحد. فلم انقسامه إلى دول

تتناطح. وجهات تتناذب. وجزئته إلى أجزاء صغيرة يسهل على الأعداء ابتلاعها ! لابد من توحيد المغرب لينجو من خطر الرومان. ويسعد ويهنأ ويسود.

هذا هو أمل يوغورطة. وهو أمل مصينيسا من قبله. فابتدأ يستعد ويتأهب. ولكن الرومان كانوا بالمرصاد. فعاجلوه قبل ان يستعد. فجهزوا جيوشهم الجرارة فأرسلوا عليه. فوقعت في المغرب الزلازل الكبرى. فلمن تكون الدائرة يا ترى؟

## حروب يوغورطة مع الرومان 111-105 ق.م

كان الرومان في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد قد عزموا على القضاء على الدولة البربرية الكبرى التي جاورهم. وتقف في وجوههم ليتأتى لهم غزو المغرب وامتلاكه. ولكن القضاء عليها بالسيف لا يمكن لأنها دولة قوية. شجاعة. واسعة الأرجاء. كثيرة الجند. والبربر كلهم سيهبون لقتالهم. وهم في الشجاعة. والثبات في درجة كبيرة لا يمكن معها إخضاعهم بالقوة. فعولوا علي الكيد لهذه الدولة ليضعفوا فيسهل القضاء عليها. ولما قسم أبناء مصينيسا تلك الدولة وتولى الملك في القسم الذي يجاورهم أدربعل الضعيف ابتهجوا وسروا. فأرأوا في ذلك التقسيم ضعفا للدولة وفي ولاية أدربعل سببا كبيرا للهرم الذي سيسرع إليها. فيستطيعون التحكيم فيها. والقضاء عليها. وهب يوغورطة فوحد الدولة. وأعادها إلى حالها في عهد مصينيسا. وشمر لتوحيد المغرب كله ليكون دولة واحدة فيغزو بها الولاية الرومانية في افريقية فيظهرها من الرومان. ويغلق المغرب في وجوههم إلى الأبد. فارتاع الرومان بالحداد الدولة. وتولي يوغورطة الملك فيها. وكانوا يعرفوا كفاءته وعبقريته. وما سيورثه للدولة وللمغرب كله من قوة وشباب فيتعذر التغلب عليه؛ ويعرفون عداوته لهم. وعزمته فيهم. لقد قتل الرومانيين الذين وجددهم في قرطة. ولم يبال بطلب روما التي تضرعت إليه ان يكف عن مقاتلة أدربعل الذي طلب حمايتها فواعدته بها. ان يوغورطة عدو اللدود يجب القضاء عليه. وهو شباب الدولة وقوتها. فلا بد من القضاء عليه ليتأتى لهم أضعاف الدولة البربرية والقضاء عليها ! يجب ان يعاجلوه بالحرب قبل ان يستعد لحربهم. لا تزال جروح دولته بحروبه مع أدربعل دامية لم تندمل. ولا يزال الإعياء الذي أصابها في تلك المعارك يوهن قوتها. ولا يزال التصدع الذي أحدثته في دولته مصيبة التقسيم. وبلاء الفتن لم يرأب. إنهم إذا أمهلوا يوغورطة سنين أخرى. وأصلح شئون دولته ووجد المغرب كله تحت رايته لم يستطيعوه. فاتفق مجلس الشيوخ الروماني على محاربة يوغورطة وإزالته من الملك.

وكان النظام الجمهوري الذي تقوم عليه الدولة الرومانية يقضي بان تختار الدولة كل عام رجلين يقومان بالسلطة التنفيذية فيها. ومن وظيفتهما رئاسة مجلس الشيوخ. وقيادة الجيش. ويسمون الرجلين بالقنصلين.



وكان الرومان اكبر دولة في ذلك الزمان. وكانت دولتهم قوية شجاعة. كثيرة الجنود. قد استعدت منذ زمن طويل لامتلاك دول البحر الأبيض المتوسط كله. وكانت قد استجمعت من حروبها الكبيرة. واستطاعت ان تؤلف اكبر جيش من خيرة أبنائها المدربين الأقوياء. فأرسلته مع القنصل بستيا ليحارب يوغورطة.

كان ذلك في سنة 111 ق.م. فلم بشعر يوغورطة إلا والجيش الروماني يزحف من الولاية الرومانية إلى حدود دولته الشرقية. فأسرع إليه ليصده عن دولته. فوقع اللقاء حول مدينة باجة في الشمال الشرقي للدولة البربرية. فوقع حرب كبيرة بين يوغورطة والرومان. انتهت بفوز الرومان وتغلبهم لأنهم كانوا أكثر استعداد لهذه الحرب من يوغورطة.

وكانت روما تريد من قائدها القنصل بستيا ان يضرب يوغورطة في المعركة الحربية ضربة كبرى ثم يقيد به بشروط ثقيلة. وغرامات حربية باهضة توهنه. وتقيد ليقتضوا عليه متى شاءوا. ولكن يوغورطة كان داهية. فما ان رأى كفة الرومان ترجح في المعركة وأيقن ان الغلبة لهم حتى سعى لإيقاف الحرب ليستعد الاستعداد اللازم لمواجهة الرومان في معركة أخرى. ويحفظ دولته من توغل الرومان فيها. فطلب الصلح من بستيا فأجابته إليه. لأنه يوقن انه يمكن التغلب على يوغورطة في جولة واحدة. وخاف ان ترجح كفة يوغورطة في الحرب إذا استمرت لما يعرف من شجاعة البربر واستماتتهم في الحروب.

وكان يوغورطة داهية قد عاش الرومان وعرف نفوسهم. وعلم حبههم للمال وعبادتهم له. ودرس نفس بستيا قائد الرومان فعلم انه يستطيع رشوته بالمال. فيخفف شروط الصلح. فسدس إليه البدر الثقيلة. والهدايا النفيسة. فأجابته لما أراد. فانسحب من تراب الدولة البربرية الذي احتله. وتساهل معه في شروط الصلح فكانت شيئاً خفيفاً لا يهبط يوغورطة ولا يضعفه. لقد اشترط عليه ان يدفع إليه أفيالاً. وخيلاً. وأنعاماً وأموالاً. فخرج يوغورطة من الحرب التي لم يستعد لها. وكان ينكسر فيه انكساراً كبيراً. وجأ بدهائه وحسن تصرفه. فعكف على جيشه يقويه. وعلى دولته يعدها للقراع الطويل.

وسمع مجلس الشيوخ الروماني بنجاة يوغورطة من قبضتهم. وانتصاره بدهائه. عليهم. فعزموا على امتحانه وإدانتة. لينقضوا الصلح الذي ابرمه معه بستيا. فيجددوا الكرة عليه. فنهض يوغورطة فخاض معركة دبلوماسية كبيرة مع الرومان فانتصر عليهم انتصاراً كبيراً. ما هي هذه المعركة وأين وقعت؟

## انتصار يوغورطة على الرومان في المعركة الدبلوماسية الكبرى

كان مجلس الشيوخ الروماني يتتبع أنباء جيوشه التي أرسلها لمحاربة يوغورطة بكل اهتمام. وكان يعلق فيها آمالاً كبرى. ولما بلغه نبأ انتصار بستيا على يوغورطة. امتلأ سروراً. ورقص للبشرى. ولكنه لما عرف ان بستيا قد أوقف الحرب قبل ان يحتل باجة. وهي العاصمة في الناحية التي وقعت فيها المعركة. ويتوغل في الدولة البربرية حتى يبطأ ارض نوميديا. وعرف شروط الصلح الخفيفة التي وضعها بستيا على يوغورطة. خابت آماله في بستيا في الجيش. فاستشاط غضباً. وشعر بالرشوة التي استمال بها يوغورطة قائدهم وقناصلهم بستيا. فقامت قيامة أعضاء مجلس الشيوخ. وعزموا على محاكمة بستيا. وعلى نقض الصلح. وتجديد الكرة على يوغورطة. فأرسلوا إلى يوغورطة يستدعونه إلى رومة ليناقدشوه في الصلح. وكانوا يعتقدون انه سيمتنع عن القدوم فيجعلون ذلك سبباً لإبطال الصلح. وشن الحرب عليه.

وكان يوغورطة لدهائه يتظاهر بالصدقة لروما. ويخفي عداوته الشديدة لها. وأشاع ان بستيا لم يوقف الحرب. ولم يخفف شروط الصلح إلا لعلمه بنواياه الحسنة للرومان. وصدافته القوية لروما. ولما استدعوه إلى روما عزم على الذهاب رغم ما في وقوعه في أيدي مجلس الشيوخ الروماني من خطر القبض عليه. وخطر اغتيال أعدائه الكثيرين له في روما. لقد رأى بذكائه ان امتناعه عن الذهاب إثبات للتهمة التي يحرص مجلس الشيوخ على إثباتها في بستيا الذي أحسن إليه. وخفف شروط الصلح عليه. ونقض لما يتظاهر به من صداقة للرومان وحسن نيته لهم. ان أعدائه من شيعته أدربعل ومن الرومان في روما كثيرون. سيجدون في امتناعه عن الذهاب الحجة لما يؤكدونه من عداوة يوغورطة للرومان. ويجد فيه مجلس الشيوخ سبباً لإثارة حرب كبيرة عليه وهو لم يستعد لها بعد. وكان الرومان يرونه الخطر الكبير الذي يهددهم من المغرب. ان الذهاب إلى رومة هو ما تدعو إليه الحصافة والدهاء فركب يوغورطة في حاشيته فاقبل إلى روما.

وكانت أيدي يوغورطة التي سيصافح بها مجلس الشيوخ الروماني ما زالت تقطر بدماء أبنائهم الذين قتلهم في قرطبة. وفي الحرب التي خاضها معهم في افريقية. ولكنه مع ذلك ذهب إلى عاصمتهم اعزل لا جيش معه. وهو واثق بأنه سينتصر بدهائه

### قضاء يوغورطة على مصيفا الذي يخون دولته

وكان في روما مصيفا بن غولوسة. وهو من شيعة أدريعل. وكان يثير الرومان على يوغورطة. ويسألهم ان يبعثوا جيوشا للقضاء عليه. ليتولى هو الملك فيكون لهم كما يريدون في المغرب. وكان الرومان يدخرونه لوقت الحاجة. فدرس إليه يوغورطة من قتله في قلب روما. فإزداد حنق الرومان على يوغورطة. ان يقينهم ان يوغورطة هو الذي قتله. ولكنهم لا يجدون دليلا يثبت جريمته. من يدري. لعل يوغورطة قد احتج وثار واتهم الرومان بقتل ابن عمه. فخاف الرومان من بقاء هذا الداهية الجريء في روما. فد يكيد لهم كيذا يعرض دولتهم للخطر فأمره بالخروج من روما. فخرج يوغورطة من روما. وقبل ان يغادرها نظر إليها وعلامات الاحتقار والازدراء تفيض من وجهه فقال قولته المشهورة: «روما! مدينة مباحة لمن يريد شرائها!» فركب سفنه ورجع إلى المغرب فعكف على جيشه يعد للملاحم الكبرى. وعلى شعبه يهيئه للصراع الطويل. ان الرومان لا يهلونه طويلا. ثم وقعت الحروب الهوجاء مع الرومان فانتصر عليهم يوغورطة انتصارا رائعا ومرغهم في التراب؟ ومتى وقع ذلك. وفي أي مكان؟

### تجديد الحرب بين يوغورطة والرومان وانتصار يوغورطة عليهم

كان مجلس الشيوخ الروماني شديد الحنق على يوغورطة. سيما بعد ما ارتكب فيهم في روما. لقد افلت من قبضتهم بدهائه. وقتل صنيعتهم مصيفا وهو في حجرهم وفي عاصمتهم. انها جرأة كبيرة لا تختملها الكبرياء الرومانية. وهاهو يعود إلى دولته ليستعد لحربهم. وبهيبى المغرب للانقضاض عليهم. لا بد من معاجلته قبل ان يستعد. ان إمهاله سنين يجعله راسخ العروق لا يستطيعون اقتلاعه. فأمرؤا جيشهم الكبير المرابط في الولاية الرومانية بافريقية بالهجوم على يوغورطة. وعينوا لقيادته القنصل البينوس. وهو قائد كبير من قوادهم يثقون بنزاهته وإخلاصه لروما. لا يستطيع يوغورطة ان يشتريه بالمال.

كان ذلك في سنة 110 ق.م. بعد قليل من وصول يوغورطة من رومة. فزحف البينوس بجيشه الكبير على نوميديا فوجد يوغورطة في انتظاره. فوقع حرب عنيفة بين الطرفين ابدى فيها الجيش الروماني شجاعة ومهارة في القتال. وكان البينوس ماهرا في قيادته وفي خططه. ولكن البربر كانوا أشجع. وكانوا يحامون عن دولتهم ويوغورطة

على مجلس الشيوخ الروماني. ويحبط كيد كل أعدائه. وينال كل أغراضه في روما. ويرجع إلى عاصمته قرطبة مكللا بالفوز الباهر.

ووصل يوغورطة إلى روما فوجد مجلس الشيوخ متأهبا لإدانته والقبض عليه. وإدانة بستيا والحكم عليه بالإعدام. ولكن يوغورطة كان قد عاشر الرومان فعرف نفوسهم. إنهم يعبدون المال. ويقدمون بريق الذهب! ان بدر الدنانير البربرية الوهاجة هي الدلاء التي ستطفئ النار المتأججة عليه. فاتصل بنائب من نواب الشعب في مجلس الشيوخ اسمه بابيوس. وكان كثير الأتباع في المجلس. ذا لسن ونفوذ. فرشاه بمال كثير. وبهدايا نفيسة من طرف المغرب. فواعده بالدفاع عنه في مجلس الشيوخ. وسد كل الأبواب التي سيحرجه بها أعضاؤه. والوقوف بجانبه في كل الأزمات التي تعترضه في روما.

وانعقد مجلس الشيوخ. فدخل يوغورطة في لباسه الملوكي. وفي هيئته المهنية. وهو رافع الرأس. مشرق الطلعة. لا يهاب احد ولا يخاف شيء. فابتدأ الأعضاء المتصلبون المتضرمون الكلام ليقدوا عليه صدور المجلس. ويثبتوا فيه عداوة روما. ورشوة لبستيا. فيقيض الرومان عليه. فانبرى لهم بابيوس. فدافع عن يوغورطة. وقال انه صديق روما. لقد حارب بجانبها في اسبانيا. وهو الذي فتح للرومان مدينة نومنسة.<sup>96</sup> لولاه ما فتحوها. وما انتصروا ذلك الانتصار الكبير! ان بستيا قد أحسن صنعا بمعاملة هذا الصديق! ان محاربة الملك يوغورطة غلط من روما قد أدركه بستيا لما وصل المغرب فأوقف الحرب. وان ما عرفه من حسن نوايا الملك يوغورطة للرومان هو الذي جعله يخفف شروط الصلح عليه. ان بستيا قد أحسن صنعا بذلك ولم يفعل إلا ما توجهه مصلحة الدولة العليا. ان الإخلاص والنصح لروما هو الذي دفعه لإتيان ما أتى! ان يوغورطة صديق الرومان. لولا صداقته وحسن نيته ما حضر إلى عاصمتنا. ثم وجه الكلام إلى يوغورطة قائلا: لا تجب عن الأسئلة التي وجهها إليك المجلس. إنما يستجوب المتهم. ويناقد المذنب. أما أنت فبرئ وعار على روما ان تعامل ضيفها الكبير معاملة المجرمين!<sup>97</sup> فاستطاع بابيوس بدفاعه وكثرة أتباعه في المجلس ان يشل مجلس الشيوخ فلم يدن يوغورطة بشيء. فخرج منه يوغورطة كما دخل شامخ الرأس. مشرف الوجه بالانتصار الذي حازه على شيوخ روما. وصفوتها المختارة. وأحس شيوخ روما بيوغورطة يمرغهم في التراب. ويمشي بنعليه على رؤوسهم! فخرجوا من مكان الاجتماع منكسين كاسفين.

96 - انظر قصة هذا الفتح في ص 264 من هذا الجزء

97 - قال المؤرخون ان بابيوس دافع عن يوغورطة ولم يبينوا دفاعه. ولا نرى الدفاع يخرج عن هذه المعاني وهذه الحجج لذلك اجزنا اجراءها على لسان بابيوس.

كان امهر في القيادة، وأقوى في الهجوم. فمال على الجيش الروماني فهزمه شر هزيمة، وشنت شمله، فولى الأدبار إلى معاقله في الولاية الرومانية.

وكان مجلس الشيوخ والرومان كلهم يرقبون سير المعركة. فعلموا بهزيمة جيشهم فازداد احتدامهم على يوغورطة. فعينوا قائدا ثانيا لحربه كان أقوى وأكثر كفاءة من البينوس هو أخوه الوس.

وكان ذلكم في سنة 110 أيضا. فنظم الوس جيشه ونفخ فيه روحه، وأذكى فيه الشجاعة الرومانية الممتازة، وصمم ان يثار لأخيه الذي عفره يوغورطة بالهزيمة. وسار نحو نوميديا وهو مصمم ان يهزم يوغورطة. ويحتل مدينة (ستول) التي اتخذها مركزه. وهي قرب مدينة فالمة. فوجد يوغورطة في انتظاره. فدارت بينهما قرب (ستول) معركة فظيعة ابدى فيها الجيش الروماني كل شجاعته ومهارته. وظهر فيها الوس عبقرته في القيادة. وجهاءه وشجاعته الكبرى. فكر عليه يوغورطة في جيشه البربري الباسل فهزمه شر هزيمة، وقتل من جنوده مقتله كبرى. ومزق جيشه شر تمزيق. وأحاط به جند يوغورطة فرأى الوس الموت الأحمر بهجم عليه من كل جانب. فطلب إيقاف الحرب. واستسلم هو وجنده إلى يوغورطة.

### عزة الرومان وشموخهم وإذلال يوغورطة لهم

وكان الجيش الروماني لشجاعته، ومهارته في الحرب، وإخلاص رجاله مظفرا في حروبه التي خاضها مع دول البحر الأبيض المتوسط. وفي وسط أوروبا وآسيا لم يعرف الانهزام والاستسلام! وكانت تربيته الرومانية القوية، وعزته القومية، وتعوده الانتصار على الأمم في حروبه قد أورثته شموخا، وعلمته ان يكون دائما رافع الرأس لا يطأطن لأحد.

وكان يوغورطة يعرف فيهم وفي دولتهم ذلك الشموخ! وكان يعلم ان ارتفاع الرومان في جبل المشنقة أسهل عليه. من الركوع أمام عدوه! فأراد ان يظهر لهم عزة الأمة البربرية. ويؤد بهم على شموخهم وكبريائهم على الناس! فنصب جبلا طويلا على العرض، وقربه من الأرض فوقف هو وجيشه بجانبه في مكان عال فأمر الوس وجنده ان يبروا من تحت الجبل. فكانوا يبرون إمامه عزلا من السلاح. والذلة تملوهم، فإذا وصلوا إلى الجبل طأطأوا ليمروا من تحته، فتكاد جباههم تمسح الأرض من شدة الانحناء! وكان هذا الركوع وذلك الاستعراض اشد عليهم من الذبح بالشفرة الكليلة، والحرق بالنار الضعيفة! وبعد ان أدب يوغورطة الوس والجيش الروماني، وأمره ان يغادر دولته سريعا إلى الولاية الرومانية، واجله عشرة أيام، وأبقى جيشه مجردا من السلاح، مهانا تعلوه

الذلة والصغار! وكان مجلس الشيوخ الروماني كلهم يرقبون سير الحرب مع يوغورطة. فبلغتهم أنباء هزيمتهم الشنعاء، ورأوا قائدهم الكبير وجيشهم ينكسون رؤوسهم ليوغورطة، ويرتكب فيهم يوغورطة ما لم يعهدوا مثله في كل حروبهم فنارت ثائرة الرومان الأقوياء، واقسموا ان ينتقموا من يوغورطة، ومن البربر. وان يرسلوا عليه من جيوشهم الجرارة ما يضمن لهم الفوز عليه!

وكان الرومان امة حربية، وأقوى دولة في ذلك الزمان. فتفرغت لحرب يوغورطة، وأرسلت عليه جيوشها الجرارة، فماذا وقع ليوغورطة بطل المغرب مع الرومان؟

الهجوم الروماني الكبير على يوغورطة

### حروب ميتلوس مع يوغورطة

كان الرومان يتضرمون غيظا، ويتقدون حنقا على يوغورطة. ان رؤوسهم لا تعرف الإنحاء، ونفوسهم لا تطيق الخضوع، سيما في ميدان القتال الذي يفتخرون بالتفوق فيه. إنهم أقوى امة حربية في ذلك الزمان! لقد حاربوا أما أكثر عددا من البربر، وملوكا أوسع دولا من يوغورطة، فهزموا تلك الأمم، واخضعوا أولئك الملوك، فها هو يوغورطة يهزمهم، ويسومهم الركوع والإنحاء تحت حبل المذلة، وها هي الأمة البربرية الباسلة تمرغهم في التراب. ان كل رئيس من رؤساء الرومان، وكل حر أبي من امة الرومان الأبية، ليحس بذلك التراب الذي مرغ فيه يوغورطة جنودهم تغص به عيناه فتفيض عبراته من شدة التأثر والإبء! لا بد ان يسترد الرومان هيبتهم في الدنيا! ان الأمم التي تخضع لهم سترفع رءوسها وتثور عليهم إذا دامت رءوسهم معفرة، ويوغورطة يركبهم بالهزائم في المغرب. إنهم إذا لم يعالجوه بحرب واسعة عاصفة فانه سيزحف على ولاية الرومانية ويقذفهم في البحر، ويطردهم من افريقية، فيومئذ تتجرأ كل مستعمراتهم فتثور عليهم، ويومئذ يفقدون في العالم تلك الهيبة التي يخضعون بها الشعوب. لا بد من التغلب على يوغورطة والقضاء عليه! انه بطل صنيدي، وداهية عبقرية، والبربر امة شجاعة باسلة. فلا بد من التفرغ لحربها، وإرسال جيوش قوية تكون أضعاف جيش يوغورطة، تحيط به، وتتكاثر عليه، ولا بد من إرسال قائد بل قواد دهاء يصولون على يوغورطة بدهاء كدهائه، ويشهرون عليه سلاح الكيد البار، ويحسنون منازلته في الحروب النفسية.

### اختيار القنصل ميتلوس لمحاربة يوغورطة

وجهد مجلس الشيوخ جيوشه الجرارة، وأرسلها تحت قيادة ابرع قواده وهو القنصل ميتلوس. وأرسل معه القائد الكبير ماريوس. فسار ميتلوس حتى نزل في عوتيقة

عاصمة الولاية الرومانية في افريقية. فوجد فيها الجيش الروماني قد قتلته الهزائم، وخنق الشجاعة والثقة بالنفس في صدورهم ذلك الحبل الذي نصبه يوغورطة فركعوا على أقدامه حتته. وصاروا بعد ان مرغهم في التراب كالشعلة التي تدسها في التراب فتنتطفئ! وكان يوغورطة غولا يرهبهم شبحة ويرعبهم في اليقظة والنام. فتمردوا قوادهم. وصاروا يهربون من الجيش خوفا يكلفوا بحاربة يوغورطة. فعمد ميتلوس إلى هذا الجيش الميت فأحياه، ونفخ فيه الثقة بالنفس، وأورثه الأمل في النصر بما جاء به من الجيوش القوية من روما، فاختلطت بالجيش المنكسر فأفاضت عليه من قوة نفوسها. ونظم ميتلوس جيوشه أحسن تنظيم، وقسمها قسمين، قسم يقوده هو وقسم يقوده ماريوس. فسار إلى محاربة يوغورطة.

وكان ميتلوس من أسرة ما جدة، وتولى منها قبلة ستة قنصل رأسوا الدولة الرومانية. وها هو يقع اختيار دولته عليه قنصلا يرأسها ويقود جيوشها، وكان قائدا داهية، مخلصا لدولته، قد صمم على استرجاع هيبتها والانتصار على يوغورطة.

وكان يوغورطة يعرف ميتلوس فاستعد لحربه. ان الجيوش الرومانية أضعاف جيشه، ولكنه مع ذلك صمم على القتال. فأسرع من نوميديا، فوقع اللقاء بينه وبين الرومانيين في جنوب مدينة (باجة) قرب وادي تاسة.

وكان ذلك في شهر أغسطس من سنة 109 ق.م. وكان ميتلوس قد اخترق الحدود الشرقية الشمالية للدولة البربرية فاحتل باجة وعات فيها فسادا. فوقع اللقاء بينه وبين يوغورطة في جنوب باجة فوقع معركة رهيبه بين البربر والرومان، فقتل يوغورطة من جيش ميتلوس عددا كبيرا، وكان جيش ميتلوس أكثر عددا وكان قويا باسلا. فاستطاع ان يحوز النصر. وكانت الغلبة له في هذه المعركة. فتقهقر يوغورطة في نظام نحو الجنوب الغربي فعسكر في شمال تبسة فاستعد هناك لمحاربة الرومان. وكان قد قسم جيشه قسمين تحت قيادته هو وقسم تحت قيادة قائده بوملكار.

### إيثار يوغورطة لحرب العصابات في مقاتلة الرومان

فزحف ميتلوس في جيوشه الجرارة فاحتل مدينة سيكا «الكاف» وغيرها من المدن في طريقه إلى يوغورطة، فوقع اللقاء في شمال تبسة، فاشتعلت معركة رهيبه بين يوغورطة وميتلوس. فرأى يوغورطة ان جيش الرومان أضعاف جيشه في العدد، وانه لا يستطيع مصافته، وخوض المعركة الفاصلة معه. فعزم على حرب العصابات، وأسلوب الكر والفر الذي يتقنه البربر، وبلق بالجيش إذا داهمته جيوش أقوى منه. فتقهقر إلى

جنوب تبسة، ليجتذب جيش ميتلوس إلى الصحراء التي لا يطيق الرومان حرها ولا يعرفون مسالكها. ان هذه الحروب العنيفة لتقع في آخر الصيف وفي أول الخريف، في شهور لا يطيق فيها الرومان حر الصحراء. وفي الصحراء الجيتوليون الأشداء الذي يعينون يوغورطة على الرومان، فيكر عليهم بعد ان يكون الحر قد أرهقتهم فيهمزهم ويقصم ظهورهم بضرباته، فتنبه ميتلوس إلى كيد يوغورطة فلم يتبعه. وعكف على شمال تبسة بفتح مدننا، وينكل بالبربر فيها، ويفسد مزارعهم، ويتلف أموالهم، ويهتك حرماهم، ويأتي كل ما يسوله الحقد والضغينة والغطرسة له، ليشفي غليله من البربر، ويستفز يوغورطة فيخوض معه المعركة الفاصلة في المكان الذي يختاره هو.

وكان يوغورطة يشن حرب العصابات على ميتلوس، فيكر على جيشه فيفتك به، حتى إذا استعد له وجد يوغورطة قد اختفى. فكان يوغورطة يصيب من الرومان ولا يصيبون منه.

واستكلب الشتاء، وكثرت الأمطار، وأحس ميتلوس بالإعياء، وعلم ان يوغورطة لا ينازله في معركة فاصلة، وانه سيواصل عليه حرب العصابات، ويضعف حماس جيشه بضرباته الخاطفة، وبطول الزمان الذي يقضيه في مكانه ثم لا يفوز بنصر عليه، وكان يوغورطة يغتنم فيه الفرصة كلما وجدها، فيهجم عليه هجوما سريعا فيصيب منه ثم يختفي. فأيقن ميتلوس ان الانتصار على يوغورطة وهو يشن عليه حرب العصابات، ويعتصم بالجبال الوعرة التي لا يستطيع اقتحامها، والصحاري الجهولة التي لا يقدر جيشه على الحرب فيها، والعيش في رمالها وشعابها؛ ان انتصاره عليه وهو يحاربه بأسلوب العصابات لا يمكن، فعزم على الكيد له، فرجع إلى الولاية الرومانية، وأرسل إلى بوملكار قائد يوغورطة من سوس له بمن أراد.

كان ذلك في سنة 108 ق.م. وكان بوملكار قائدا بربريا من أركان يوغورطة في حربه، ومن مستشاريه، يثق به، ويسكن إليه، ويعتقد فيه الصفاء والإخلاص، والغيرة على الوطن. وكان بوملكار طموحا يحب الرئاسة والتقدم، فأرسل إليه ميتلوس يعده بالملك وبدولة يوغورطة ان أعانهم على اغتيال يوغورطة أو القبض عليه. فمال بوملكار إلى متيلوس، وخان ملكه، وتنكر لدولته، فشرع في الكيد ليوغورطة في الخفاء ليوقعه في قبضة الرومان، فشعر به يوغورطة فقتله، وخلص الدولة من شروره.

### فضائع الرومان في المدن البربرية وفي المدنيين العزل

وكان الرومان قد فتحوا مدنا كثيرة في الجناح الشرقي للدولة البربرية، في افريقية

وفي نوميديا الشرقية. وكانوا يقتلون الأبرياء، ويهتكون الحرمات، ويأخذون الأموال، ويفسدون المزروعات، ويطلقون أيدي العيث والتخريب في أموال البربر، ليرهبوا البربر، ويخضعوهم. ولكن البربر لا يخضعون. لا يكاد جيشهم يفارق المدينة المغزوة حتى تثور المدينة، وتنكل بمن بقي فيها من الرومان، وتظهر ولاءها ليوغورطة، والاستعداد للنضال معه، ومدافعة الرومان المعتدين على الوطن.

وكانت مدينة باجة هي عاصمة نواحيها في الشمال الغربي لأفريقية. وكانت من المدن الأولى التي احتلها الرومان من الدولة البربرية، وعاثوا فيها فسادا، فصارت ترقب الفرصة للثورة والانتقام. «وفي شتاء 108 اغتتم أهلها فرصة الاحتفال بعيد الآلهة سيريس وهو عيد الزراعة، ففتكوا بجميع الرومانيين وأهلكوهم عن آخرهم. ولما بلغ ذلك ميتلوس أسرع إلى تلك المدينة بنهبها»<sup>98</sup> ونكل بأهلها وأغرقها في الدماء. وهزم على تتبع يوغورطة لعله يلتجئ إلى حصن فيحاصره فيه، ولعله ينازله في معركة فينتصر عليه. وكان يوغورطة متحصنا في جنوب أفريقية، يغير من هناك على الرومان فينهال عليهم بضرباته. وبعد أن فعل ميتلوس بباجة ما فعل، زحف بجيوشه على جنوب أفريقية، إلى أن أدرك يوغورطة في مدينة (تالة) وكان قد اتخذها معسكره، وكانت مدينة كبيرة حصينة، وهي غير تالة المعروفة اليوم في جنوب تونس ولكنها في نواحيها، فحاصر ميتلوس تالة، وأحاط بها بجيوشه، وشدد الرقابة عليها لكي لا يفلت منها يوغورطة، ودام حصاره أربعين يوما، ثم استطاع أن يفتح المدينة، ولكنه لم يجد فيها يوغورطة ولا أمواله ولا أولاده، لقد خرج، بدائه من المدينة في كل أنقائه ولم يشعر به الرومان، فهدم ميتلوس المدينة، وأغرقها في الدماء، ثم هدمها وأزالها من الوجود لكي لا يتحصن فيها يوغورطة، ثم نظر يبحث عن يوغورطة فوجده في الصحراء يتمنى أن يتبعه إليها، ولكن ميتلوس خاف من تتبع يوغورطة أثر أن يحاربه في الشمال، فزحف في سنة 108 ق.م. على نوميديا الشرقية والوسطى حتى وصل إلى قرطبة فاحتلها واتخذها مقرا له وجيشه.

وكان يريد أن يستفز يوغورطة ليخرجه من الصحراء، ولكن يوغورطة كان داهية، فلم يخرج من الصحراء، فبقي فيها يعد العدة ليكر على الرومان.

### استنجد يوغورطة بالجيتوليين وبصهره بوكوس وزحفه على الرومان

وكان يوغورطة يعلم أن شمال المغرب لا يعصمه من الرومان، إنهم بجيوشهم الحرارة

98 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 280 ط أولى بتونس.

الباسلة هم الأقوى ولكن الصحراء تعصمه، فبوده لو اجتذب الرومان إليها ليكر عليهم بإعانة الجيتوليين الشجعان فيقضي عليهم، فالتجأ إلى الصحراء بجنوب أفريقية فاعتصم بها، فاتصل برؤساء القبائل البربرية في جيتوليا فدعاهم إلى محاربة العدو فأسرعوا إليه برجالهم الأبطال، ثم إلى صهره بوكوس الأول ملك موريطانيا الغربية، فخوفه من شرور الرومان على المغرب، وأوقفه على نواياهم السيئة لدولته، وأثار فيه وفي أهل دولته الحماس والغيرة، فهبوا لمدافعة العدو ومجالدته، وإعانة يوغورطة في القضاء عليه.. فسار جيش بوكوس فانضم إلى يوغورطة، فكثرت جنده، ووجد القوة العسكرية التي يستطيع بها مقابلة الرومان.

وكان يوغورطة قد اتخذ في سنة 108 مدينة قفصة معسكره بعد أن هدم ميتلوس مدينة تالة التي كان متحصنا بها، فجهز جيشه فسار من مدينة قفصة في جنوب أفريقية الغربي ليهاجم الرومان في نوميديا، فسمع ميتلوس بمسيره فخرج من قرطبة فنزل مكانا يستطيع فيه الدفاع.

### عزل ميتلوس وولاية ماريوس قيادة الجيش الروماني بالغرب

ودخلت سنة 107 وكان ميتلوس يتهيأ لخوض المعارك الطاحنة مع يوغورطة في نوميديا، وكان قد أمضى حوالي سنتين وهو يحاول التغلب على يوغورطة والانتصار عليه في معركة حاسمة فلم يستطع، فاستعصم الرومان قائدهم وقنصلهم ميتلوس، فانتخبوا في سنة 107 زميله جايوس ماريوس قنصلا وقائدا لجيشهم في المغرب، فسمع ميتلوس فرجع مغضبا إلى رومة قبل أن يصل يوغورطة إليه.

وكان ماريوس أقل ذكاء من ميتلوس، ولكنه أكثر جرأة وإقداما، وخبرة بالحروب، فاختره الرومان لمقارعة يوغورطة، فأرسلوا جيشا كبيرا، فوصل نوميديا فتسلم أزمة القيادة، واستعد لملاقاة يوغورطة.

### حروب ماريوس مع يوغورطة

#### إفساد ميتلوس لقلب بوكوس على يوغورطة

كان بوكوس بعد أن استجاب لمحاربة الرومان، وأرسل جيشه إلى يوغورطة قد داخله ميتلوس فواعده وأوعده، وأفسد قلبه على يوغورطة! فشعر يوغورطة بذلك ففت في عضده، فخاف أن يشتبك بماريوس في معركة كبرى فيضربه بوكوس من خلفه، ويوعز

إلى قواد جيشه فينهزموا عنه في إبان المعركة فينتصر عليه الرومان. فلم يثق بقوة بوكوس العسكرية. فرجع إلى حرب العصابات في مقارعة ماريوس .

ونزل ماريوس في عوتيقة بما معه من الجيش في سنة 107 فانضم إليه الجيش الروماني الكبير في افريقية فبلغ جيشه ألف جندي من خيرة الجيش الروماني المدرب. فزحف بهم نحو نوميديا. ولكن لم يكد يصل حدود نوميديا الشرقية حتى مال نحو الجنوب الغربي لافريقية. فداهم (قفصة) التي جعلها يوغورطة معسكره. وكان يوغورطة غائبا عنها في نوميديا فاحتلها. وتكل بأهلها. واخذ ما فيها من أموال يوغورطة وذخائره. ونهب ما فيها من أموال البربر. احرقها فأكلتها النيران. فصارت لا تعصم من يأوي إليها. فانتقل يوغورطة إلى موريطانيا الشرقية وجعل معسكره محل أتقاله في حصن تاويرت<sup>99</sup> وهو حصن في هضبة عالية في غرب موريطانيا الشرقية.

وزحف ماريوس في جيشه الجرار حتى وصل نوميديا الوسطى فوجد يوغورطة في انتظاره. فلم يشتبك به يوغورطة في معركة كبرى بلا أثر أن يتبعه ويرهق جيوشه بحرب العصابات في الجبال والأودية الوعرة. وان يجتره إلى الناحية الغربية ليثير بوكوس للحرب معه في صدق وإخلاص إذا رأى الرومان يقربون من دولته. فكان ليوغورطة ما أراد. فكان يهجم على الرومان كلما وجد الفرصة فيقتل منهم. وينكل بهم. ثم يلوذ بالجبال الوعرة. وحارب الرومان الذين يتبعونه في الزاب. وجبال الحضنة. وفي أمكنة كثيرة من موريطانيا الشرقية. ان الرومان أقوى منه وأكثر جندا. ولكنه لا يستسلم ولا يهن ! ان الصحراء هي ملجؤه الحصن سيعتصم بها. ويوالي منها ضرباته للرومان. يجب ان يقاتل الأعداء في كل ناحية من نواحي المغرب ان الاستسلام جريمة ! لا بد من دحرهم وتطهير المغرب منهم. ان البربر معه. سيهبون كلهم لنصرته إذا وصل وقت الهجوم على الرومان.

ان الرومان أجانب في المغرب. وهم يحاربون في وطن لا يعرفون دروبه ومسالكه الجبلية. سيجد فيهم فرصته فيضربهم الضربة القاصمة. ثم ان الرومان يضعفهم ويوهن قواهم. سيكر عليهم فيهزمهم شر هزيمة. هذا ما عزم عليه يوغورطة فثبت في الميدان فلم ينهزم.

### استنجد يوغورطة ثانية بيوكوس

99 - أوربر بسكون الواو في البربرية للجبل وهو مذكر. وتاوريرت للجبل الصغير أو الهضبة العالية وهو مؤنث.

وقرب ماريوس من وادي ملوية. وهاجم حصن تاويرت فاحتله. واخذ ما فيه من أموال يوغورطة وذخائره الحربية. وأمسى على حدود موريطانيا الغربية دولة بوكوس. فأعاد يوغورطة دعوته إلى محاربة الرومان وواعده على النصر بثلاث نوميديا. ان بوكوس تحركه أطماعه لا غيرته وشجاعته. فما زال به حتى أعاده بشجاعته. وكساه بوجدانه. فاستجاب له. وغلث مراجله. فجهز جيشه وأرسله إلى يوغورطة فكثرت به جند يوغورطة. فهجم على الرومان.

كان هذا الهجوم في سنة 106 بعد مرور نحو عام من قيادة ماريوس للرومان في المغرب. فوقعت بين الجيشين معارك طاحنة. وقتل البربر من الرومان مقتلة كبرى. ونثروا أشلاءهم في ميادين الحرب. وجللوا الساحة يجثث قتلاهم. وقتل الرومان من البربر كثيرا. ودامت المعركة يوما كاملا. وأحاط البربر بالرومان فكادوا ان يهزمهم. ولما وصل الليل أوقفوا الحرب. فنظم الرومان صفوفهم. ولم يكد يشرق الصباح حتى كان الرومان هم الذين يهجمون على البربر الذين وثقوا بالنصر وانهزام الرومان فغفلوا عن عدوهم. ولم يبقوا على أعبتهم الأولى لمحاربتهم. فوجد الرومان البربر عللا غير تعبئة فاخترقوا جموعهم. وهجموا على معسكرهم. فاعملوا فيهم السيوف. فقتلوا منهم عددا كبيرا. فانهزم البربر وانتصر الرومان.

أرى ان هذه المعركة لم يتولى قيادتها يوغورطة. بل احد قواده أو قواد بوكوس. ان يوغورطة حازم عبقر في الحرب. ما كان ليغفل هذه الغفلة. فيضيع النصر الذي حاز ويتركه لعدوه. لقد رأينا يهجم في الليل على أدربعل في سنة 112 فيهزمه. فما كان ليرجئ الإجهاز على الرومان إلى الصباح لو كان هو الذي يدير المعركة.

وذهب ماريوس إلى قرطبة بعد هذه المعركة الكبرى. وقد يكون ذهابه إلى قرطبة ليتحصن بها إذا رجحت كفة يوغورطة في الحروب المقبلة. فأرسل يوغورطة وراءه كتائب من جيشه و جيش بوكوس فأدركته في الطريق. فدارت حروب عنيفة بين الجيشين. جيش يوغورطة. وجيش ماريوس. فحمى في غرب (سطيف) الوطيس واشتد القتال. ورأى ماريوس الموت الأحمر يحدق به. وكادت كفة جيش يوغورطة تكون هي الراجحة. فجاء القائد الروماني صيلة بجيش الجند به ماريوس. فرجحت كفته في الحرب فكان النصر له. ورجع إلى قرطبة واستقر فيها. والإعياء يهدده. والإيباس من القضاء على يوغورطة بالحرب ملاً نفسه.

وكان مجلس الشيوخ الروماني يتتبع سير الحروب في المغرب باهتمام. فرأى ثبات

يوغورطة، وثبات البربر، وحرب العصابات التي يتبعها، وهي حرب لا تهزم، فأيقن كماريوس بان الجهود العسكرية لا تجدي. وان مستقبل المعركة إذا استمرت ليوغورطة، فيمرغهم في التراب ويسحقهم بأقدامه. ان الزمان طويل الذي يمر وهم معه فلم يستطيعوا كسره والقبض عليه، أو قتله. وها هو بوكوس ملك موريطانيا الغربية ينضم إليه فيبدأ حربهم بقوات جديدة، انه إذا لم يستطع مواصلة المعارك الكبرى معهم لتفوقهم عليه في الجند، فسيواصل حرب العصابات عليهم من جيتوليا فيرهقهم ويعيبهم، ثم يكر عليهم فيكسرهم في معركة كبيرة. ان يوغورطة لا يستطيعونه ولا يبلغون مرامهم فيه بالقوة بل بالمكيدة. ولكن ماريوس ضعيف الذكاء في باب الختل والكيد. ان سيفه أطول من عقله. فلا بد من رجل ذاهية يحسن الفخاخ الخفية، والكيد البار، يكون معه ليتولى الدس والختل فاختراروا لوكيوس كولانيلوس صيلة، وهو قائد روماني لا شجاعة له، ولكنه ماهر في الدس والكيد، والإيقاع بعدوه في أفخاخه. فأرسلوه إلى ماريوس. فخلا به ماريوس بعد معركة سطيف يعملان الفكر في مكيدة تضعف يوغورطة وتوقعه في قبضتهم. فخلق لهم بوكوس صهر يوغورطة الفرصة لذلك، فهب صيلة لاستغلالها.

وكان بوكوس ملك موريطانيا الغربية ضعيفا جباناً، وكانت تتسلط عليه شهواته وجبنه وحسده ليوغورطة لا إدارة البربر وشجاعته، وكرههم للرومان. وكان يوغورطة قد واعد على النصر بثلاث نوميديا، فحركه بالطمع فوقف بجانبه. ولكن يوغورطة لم ينصر، ورأى قوة الرومان، فخاف ان يغضب عليه الرومان فيزحفوا على دولته فأرسل إلى ماريوس في طلب الصلح، وأبدى استعدادة لخدمة الرومان وخذلان يوغورطة. فأرسل ماريوس رسل بوكوس إلى رومة ليرى مجلس الشيوخ رأيه في طلب ملكهم. وأرسل صيلة إلى بوكوس لينصب فخاخه ليوغورطة.

### غدر بوكوس بيوغورطة

#### دهاء صيلة وجبن بوكوس

واجتمع صيلة الداهية ببوكوس الضعيف. وكان ذلك في سنة 105 ق.م وكان صيلة يعرف ان بوكوس عبد أطماعه وجبنه. فواعده بموريطانيا الشرقية كلها ان هو أعانهم في القبض على يوغورطة، واو عده باحتلال دولته، والقضاء على ملكه ان أبي واستمر في تأييد يوغورطة، فكان بوكوس كما يريد صيلة، فشمر للكيد ليوغورطة، واتفق مع صيلة على خطته.

وكان يوغورطة يكره الصلح مع الرومان. وكان يعرف الإعياء الذي أصابهم، وعرف إنهم لا يستطيعون ملاحقته إلى جيتوليا، وسيظل يشن عليهم حرب العصابات إلى ان يوهنهم، ثم يكر عليهم فيطرحهم أرضاً، ويلقي بهم في اليم.

كان يوغورطة ثابتاً في الحرب، قد عزم على مواصلة القتال، فأرسل إليه بوكوس يعلمه بطلب الصلح، ويرجوه ان يوافق عاليه، فجعله أمام الأمر الواقع. هل يرفض الصلح فيختلف بوكوس فيصبح عدوه يحاربه مع الرومان؟ ان الرومان سيستغلون هذا الخلاف، ووالى بوكوس رسله إلى يوغورطة يعلمه بان شروط الصلح ستكون مقبولة، وان الرومان سينسحبون إلى الولاية الرومانية، فيخرجون من دولته بدون قتال، فما زال به حتى ألزمه بقبول الصلح، فاستقدمه إلى مقره لمقابلة الوفد الروماني ليتفاوضا معه في شروط الصلح، وانسحاب الرومان من دولته.

### كيد بوكوس وصيلة ليوغورطة

وكان يوغورطة ذكياً، وكان يعرف ضعف بوكوس ودهاء صيلة فاحتاط لنفسه فطلب ان يرسل إليه صيلة ليكون رهينة عنده ثم يقدم لمفاوضة الوفد، فأبى عليه بوكوس ما طلب، واعلمه بان صيلة هو رئيس الوفد، وأنه لا يصيبه أي ضرر إذا اجتمع بوفد الرومان، وان الاجتماع يكون عنده في مكان امن لا سلطان ولا قوة للرومان فيه.

وكان يوغورطة حسن النية، وكان بوكوس صهره، وجاره وابن جنسه، وكان قد حارب الرومان معه فلم يخطر بباله انه يختله، فرضي بالاجتماع بصيلة، فاشتراط ان يكون الاجتماع في مكان يكون فيه خاليين من السلاح، فرضي صيلة بالشرط، وأكد له بوكوس قبول الشرط، وان صيلة سيكون خالياً من السلاح ومن كل قوة حربية، فجاء يوغورطة وهو يعتقد انه ذهب إلى دار صهره وجاره وابن عمه الأمن، ولكنه ذهب إلى دار عدوه حيث نصب له الفخ.

وكان يوغورطة يعتقد ان الرومان شرفاء مثله، يوفون بالوعد، ويتنزهون عن الغدر، فوثق بوعد صيلة الذي لا بد ان يكون قد بعث به إليه مكتوباً مختوماً بختم الدولة، أو يكون شاقه به رسل يوغورطة، ولم يدر في خلدته ان الرومان يغدرون بعد إيمانهم ووعودهم واتفقهم على التجرد من السلاح.

وكان يوغورطة شريفاً شجاعاً! فوصل مكان الاجتماع وهو خال من كل جند يحرسه، ومن كل سلاح، وما كاد يستقر به المقام في مكان الاجتماع حتى أحاط به جند بوكوس الذي كان صيلة قد أخفاه في مكان قريب من موطن الاجتماع، فأسروه

### تعظيم الرومان لماريوس لقضائه على يوغورطة

وكان الرومان يعظون ماريوس لأنه قضى على أكبر عدو لهم جرعههم مرارة الهزيمة، وطعم الذل، وشغلهم بالحروب سبع سنين، ثم امتنع عنهم فلم يستطيعوا التغلب عليه بالقوة، وجازوه على ذلك بأن أعادوا انتخابه للقنصلية ست مرات، وكان ماريوس يفخر بالقضاء على يوغورطة، وكان صيلة يقول للرومان بأنه هو الذي قضى عليه، فكان هذا من أسباب العداوة التي شنت بعد ذلك بين صيلة وماريوس فأغرقت روما في الدماء.

يوغورطة! بطل المغرب العبقري المخلص! حارب الرومان سبع سنين، وركبهم بالهزائم، وعجزوا عن إخماده وإخماد البربر بالقوة، وهم أكبر دولة في ذلك الزمان، وأقوى أمة في ذلك العصر، قد خضعت لسلطانها كل الدول الكبرى، وطأطأت لسطوتها كل الشعوب القوية، لقد أحنى الرومان بقوتهم رعوس الملوك الأقوياء، ورعوس الأمم القوية، ولكن البربر لم يخضعوا لهم، ويوغورطة لم تنحن رأسه لهم، فظل يقاتلهم سبع سنين، ولولا غدر بوكوس لبلغ مرامه فيهم، فيكنسهم إلى البحر!

لقد قاتل يوغورطة دفاعا عن وطنه في كل أنحاء دولته، قاتل في افريقية، وفي نوميديا، وفي موريطانيا الشرقية، وفي الشمال، وفي الصحراء، وفي السهول، وفي الجبال، وظل سبع سنين في أمة الحرب مع الرومان لا يسكن ولا يستريح، وقضى أيامه في الملك وهو يجاهد لتنظيف الدولة وتوحيدها، وفي مجالدة المستعمرين ودفاعهم، ولو امتد أجله لبلغ كل آماله، فيقضي على الرومان في المغرب، ويوحد وطن الأمازيغ فيكون دولة واحدة، ويجعل المغرب أكبر دولة بعبقريته السياسية والإدارية، وبإخلاصه!

لقد كتب كثير من المؤرخين عن يوغورطة فمجده، وأرغمهم على الاعتراف ببطولته وبطولة البربر النادرة، فبعضهم كان سهما فانتصر على القول الصواب، وبعضهم كان سيفها فقال في يوغورطة ما يقوله السفهاء الذين لا شرف ولا عقول لهم فيمن يكرهون.

### سفاهة بعض المؤرخين الأوربيين وأكاذيبهم على يوغورطة

ان بعض السفهاء من المؤرخين الأوربيين قد رأى يوغورطة يركب ظهور الرومان بالهزائم المتوالية في ميادين الحروب، ويرغ قوادهم الكبار في التراب، ويرغم الجيش الروماني على الركوع والانحناء تحت أقدامه، فأفزعهم هذا المنظر، فاغتاظوا، فبسطوا السنة السب السفية في يوغورطة، وأرادوا ان يغضوا من مقامه بالكذب والوقاحة، فقالوا: «انه ابن

فسار به صيلة في جيش كبير قد يكون جيش بوكوس فسلموه إلى ماريوس في قرطة! فسار ماريوس وتنفس الصعداء، وفرح فرحته الكبرى، وطير الخبر إلى روما فسار مجلس الشيوخ الروماني بالقبض على يوغورطة، ورقصت روما طربا لهذا الحادث الكبير.

وكان كل العقلاء في العالم يرون الرومان وهم يحتفلون بأسر يوغورطة والغدر به كالغريان الخسيسية التي تستلذ التهام الجيفة، وتختفل بإقحام مناخرها في ديدانها، وفي أقدار المنزلة!

ماذا سيفعل الرومان الغادرون بيوغورطة بطل المغرب الكبير.

### نهاية يوغورطة ولؤم الرومان

وفي ديسمبر من سنة 105 ق.م ذهب ماريوس إلى رومة ومعه يوغورطة أسيرا في أغلاله، وأعاد مجلس الشيوخ الروماني انتخاب ماريوس قنصلا جزاء له على غره بيوغورطة، وقبض بوكوس عليه، وفي اليوم الأول من يناير سنة 104 ق.م احتفل الرومان بانتصارهم على يوغورطة، وبمباريوس الذي أورثهم ذلك النصر، وكان قنصلا للدولة، فأسرعت المدن الرومانية إلى روما فغصت شوارعها وميادنها العام الفسيح بمختلف الطبقات، وكلهم يتلهف وبشخص ببصره ليرى ماريوس فيحييه، ويشاهد يوغورطة أسيرا في أغلاله ليشمت به، فخرج ماريوس في أول يناير في شموخ المنتصر، وأبهة الغالب، فركب عربته الفخمة، وجعل يوغورطة أمام عربته مع الخيل، وهو في تاجه الملوكي وحلته الأرجوانية الملوكية، ويداه في القيد الحديدي! فمشى به في شوارع روما، ووقف به في ميدانها العام، فشمت العجائز والصبيان والسفهاء بيوغورطة، واسمعوه قارس الكلام، ثم زج به مجلس الشيوخ في أقسى السجون، ومنعوا عنه الطعام والشراب، ومشى الحراس القساة بيوغورطة ودفعوا به في قيوده في سجن (التوليانوم) تحت قصر (الكابتول)، هو سجن مظلم بارد كثير الانداء لا يحكم به إلا على كبار المجرمين، ومنعوا عنه الطعام والشراب أيام كاملة وفي اليوم السابع من يناير سنة 104 ق.م، شنقوه، ففاضت روحه! فتنفس الرومان الصعداء وظنوا إنهم قد قضوا على يوغورطة، واخمدوا البربر، ولكن بغدرهم به، ولؤمهم معه زادوا العداوة البربر لهم اشتعالا، وغرسوا يوغورطة في أعماق قلوب المغرب، فظل يهيب به لمحاربة الرومان وعدم الخضوع للمستعمرين، فتثور براكينه عليهم.

حرام! « وان أمه امة تسراها أبوه. قد يكون أم يوغورطة من سبايا جده غولة في حروبه مع صيفاقس. ولكن منستابعل أمير وابن ملك منتصر. وهو رجل حصيف رزين لا يتسرى من السبايا إلا بنات الملوك والأمراء. ولا يبني بهن إلا على النحو الشريف الذي يليق بشرفه الملوكي.

انه لا بغض من مقام يوغورطة إذا كانت امة سرية. فكثير من عظماء العالم، وعباقرة الأمم، وكبار الملوك أمهاتهم من ذلك النوع. فلم بغض ذلك من مقامهم، بل كان ذلك من أسباب قوتهم باختلاط الدماء القوية المختلفة فيهم.

ان شخصية المرء وأعماله دليل أصله. وأعمال يوغورطة كلها وجهاده لتدل على شرفه نسبه في جهتيه، وعلى كرم أعرافه كلها.

لو كان في نسب يوغورطة مغمز ما كان على ذلك الشموخ، وما مجده البربر كل التمجيد، وترتضوا ملكا، ونصروه على ابني عمه.

ايت أولئك المؤرخين الأوروبيين الذين كذبوا على يوغورطة والصقوا به ما ليس فيه، من يتمسك أقوامهم بالعفاف ويغارون على النسب، ولكنهم أبناء حضارة تجيز ان يتصل احدهم بإحادهن فيولدها مثنى وثلاث ورباع، ثم يعقد عليها للزواج، ويعد الناس أولئك أبناء!

وقد ردد بعض المؤرخين المغاربة هذه الشتيمة الأوروبية، وهذا الكذب في يوغورطة ولم يفندوه. كأنهم من أولئك الأعداء الذين يسوؤهم ان يكون للمغرب بطل كيوغورطة، وان يكون البربر معدن البطولة والعبقرية فأجبا أمثاله ! من أولئك المؤرخين المغاربة احمد صفر. ليته نزه كتابه القيم عن ترويد الشتائم الأوروبية في أجداده، وقلد الأوروبيين في تمجيد أبطالهم والذود عنهم. نرجو ان يتنبه ويتحرى فيما يقلد فيه، وان لا يشين الطبعة الثانية من كتابه بهذه الفرية الأوروبية على بطلنا العظيم<sup>100</sup>.

### مدة يوغورطة في الملك وأثاره الراسخة في دولته.

وكانت مدة يوغورطة في الملك أربع عشرة سنة. من سنة 118 إلى سنة 104 ق.م

100 - قال احمد صفر في كتابه مدينة المغرب العربي ج 1 ص 276 فأغلظ هيمصال القول ابن عمه يوغورطة لأنه نغل. وقال في التعليق: النغل ابن الحرام. لو اعمل احمد صفر عقله في التاريخ وكان غيورا على أبطاله لعلم ان الملك مصيبسا العاقل الشريف لا يتبني ولا يوصي بالملك لرجل مغموز في نسبه، وان هيمصال إذا صح انه جهم يوغورطة فلطيش الأمراء وغطرسة المدللين في هيمصال لا لضة في يوغورطة.

وقد أمضى معظمها في الحروب لتوحيد المغرب. وفي مدافعه الرومان عن دولته. ولم يحظ بعهود الاستقرار الطويلة التي كانت لجده مصينيسا، وعمه مصيبسا. فلو ظفر بالاستقرار والهناء، وطالت مدته في الملك، لرأي المغرب منه خيرا كثيرا، ولجعل الأمازيغ كلهم دولة واحدة تشمخ على الرومان. ولكن شاء الله ان يبتليه بالرومان، فشغله عن الإصلاح والعمران.

وقد أورث يوغورطة بجهاده ونضاله شبابا جديدا لدولته، فامتد عمرها في الحياة فلو اتصل الهدوء والاستقرار الذي كانت عليه في عهد مصينيسا وعهد مصيبسا لأسرع إليها الهرم، وأودت بها الراحة وحياة النعيم.

وأورث يوغورطة لدولته عزة فرفعت رأسها، فلم يستطيع الرومان القضاء عليها إلا بعد محاولات طويلة استغرقت نصف قرن من الزمان.

وكان عمر يوغورطة لما اسر حوالي ثمان وستين سنة. وكانت قوة بنيانه، والحياة العسكرية التي أحيهاها، وعدم إخلاده إلى الراحة والنعيم، قد حفظت شبابه وقوته الجسيمة، فلم يصبه الضعف والتهدم الذي يصيب من كانوا في مثل عمره.

لقد استطاع الرومان ان يقضوا على يوغورطة بالخدعة، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الدولة البربرية الكبرى. انها ما زالت شامخة، متينة البنيان، واسعة الأرجاء لا يستطيعون اقتطاعها أو تهديمها. فكل ما استطاعوا عمله هو إزالة يوغورطة الذي وحدها، فيها الشباب، فانقسمت بعده إلى دويلات، فأصابها عامل الضعف إلي يتمناه لها الرومان. وستظل تزار زئيرها على الرومان، وتكشر عن أنيابها لهم، وتمرغ جيوشهم في الرغام! فمن خلف يوغورطة في بطولته وإخلاصه، وغيرته على المغرب من ملوك البربر؟ انه يوبا الأول! متى كان، وفي أي ناحية، وما شخصيته وأعماله؟ ومن الذي قدم له فكان أحسن نتائجه، وأزكى ثماره؟

هل كان ذلك الأسد البربري تستطيعه هذه الذئاب الرومانية لولا خيانة بوكوس؟ ادرس الشخصيات في رسومها، وقارن بينها، فان الله خلق وجه الإنسان مظهر شخصيته، وعنوان حقيقته.

موريطانيا الشرقية منها وإعطائها إلى بوكوس الذي تمقته وتراه سبب نكبتها. فبوودها ان ثثور عليه. ولكن خلوها من القائد القوي. وتعبها من الحروب الطويلة جعلها تؤثر الهدوء. وتخلد إلى السكون. على نار للحق والعداوة القائمة للرومان وذبهم بوكوس تتأجج في أعماقها.

### ولاية هيمصال الثاني ويرياص ومصينيسا الثاني للملك

ودام غودا ملكا على نوميديا وغرب افريقية إلى ان توفي في سنة 88 ق.م وكانت مدته في الملك ست عشرة سنة. ولما توفي اقتسم أبناؤه الثلاثة ملكته نوميديا وغرب افريقية. فاخذ هيمصال الثاني غرب افريقية ونوميديا الشرقية وهي من طبرقة إلى شرق روسكاد (مدينة سكيكدة). واخذ يرباص نوميديا الوسطى وهي من روسكاد إلى شرق مدينة جيجل وغرب ميله. واخذ مصينيسا الثاني نوميديا اسطيفية وهي الغربية. وحدها من شرق جيجل إلى غرب صلداي (بجاية).

وكان الرومان يعجبهم هذا التقسيم الذي يضعف الدولة البربرية. كما كان يتفق مع طبع البربر القديم الذي حاول مصينيسا الأول ويوغورطة القضاء عليه. وهو إيثار الاستقلال الجهوي. واللامركزية في الحكم. وكانت حدود هذه الممالك في نوميديا تنتهي في حدود الصحراء الشمالية وفي شمال جبال أوراس. وكان أوراس مستقلا تحت أمرائه. وكذلك جبال القبائل. كما كانت جيتوليا وهي الصحراء مستقلة تحت أمرائها.

وكان مصينيسا الثاني غيورا على الدولة. وقد ساءه ان يستولي عدوهم بوكوس على الجزء الغربي منها. وهو موريطانيا الشرقية. فعزم على استردادها. فصار يرقب الفرصة إلى ان اشتغل الرومان بالحروب الداخلية التي شبت بين مايوس وصيلة في سنة 88 ق.م فوجد فرصته. فاستولى على موريطانيا الشرقية فضمها إلى ملكته. وأخرجها من قبضة بوكوس اللئيم.

قال الأستاذ احمد صفر: «وبعد موت غودة سنة 88 ق.م تولى الملك أبناءه (هيمصال) و(مصينيسا). فتمكن هذا الأخير من استرجاع ملكة أجداده من الملك بوكوس الخائن»<sup>101</sup>

ان كل ما ذكره المؤرخون هو ان مصينيسا الثاني استطاع ان يسترجع موريطانيا الشرقية ويأخذها من بوكوس الأول ولم يذكروا متى وقع ذلك. وإذا كان الرومان هم القوة التي تتدخل إذا هوجم بوكوس فتعينه على منع إخراج موريطانيا الشرقية من يده. فأرى ان انشغال الرومان بحربهم الداخلية هو الفرصة التي اغتنمها مصينيسا

### انقسام الدولة البربرية وتمزقها

كان الرومان يعتقدون ان السبب الذي يضعف الدولة البربرية لنما هو انقسامها وتمزيقها إلى دويلات. ليتناطح ملوكها ويستنجدون بها كما استنجد بهم أدربعل فيهجمون على الأقوى بالأضعف فيزيلونه. فلا يبقى على عرش الدولة إلا الملوك الضعفاء الذين يخضعون لهم. ويورثون الهرم والضعف لأجزاء الدولة فيلتهمونها قطعة قطعة. ويستولون على المغرب كله. ولما قضت روما على يوغورطة بالغدر والمكيدة حقق للرومان ما أملوه. فانقسمت الدولة البربرية وتمزقت.

### اقتطاع بوكوس الأول لموريطانيا الشرقية

وكان الرومان قد واعدوا بوكوس الأول بإعانتته على الاستيلاء على موريطانيا الشرقية جزاء له على إعانتته لهم في القبض على يوغورطة. فلما اسر يوغورطة. زحف بوكوس الأول بإعانة الرومان على موريطانيا الشرقية فملكها وسموها نوميديا الغربي. فامتدت الحدود الشرقية لدولته إلى غرب بجاية.

### ولاية الملك على نوميديا وغرب افريقية

أما نوميديا وغرب افريقية التابع لنوميديا فان البربر فيهما قد أقاموا بعد يوغورطة أخاه غودا ملكا عليهم. وكان هذا بسعي الرومان. وحثهم البربر عليه. فانقسمت الدولة البربرية إلى دولتين. آلة موريطانيا قد اقتطعها بوكوس وأضافها إلى دولته. والى نوميديا التي صار غودا عليها ملكا.

وكان غودا هو أسن رجل في أسرة مصينيسا. وكان الملك له كما يقضي قانون وراثته الملك القديم في هذه الأسرة.

وكانت ولاية غودا للملك في سنة 104 ق.م وكان شيخا مسنا. واهن القوى. ضعيف الشخصية. لا يشبه أخاه يوغورطة في بطولته ومواهبه. وكان عهده في الملك ساكنا. لم يحدثنا التاريخ بثورات داخلية وقعت له. وبحروب خارجية خاضتها دولته مع جيرانها. لقد كانت الدولة البربرية مثخنة بالجراح بحروب يوغورطة التي دامت سبع سنين. فأثرت السكون والهدوء لتنسجم وتتجدد. وكانت بعد ذهاب يوغورطة قد خلت من القائد القوي الذي يثور بها على أعدائها. ان الدولة في المم وغيظ شديد لتقسيمها واقتطاع

فهجم على بوكوس فاخذ منه موريطانيا الشرقية. وذلك أما في سنة شبوب الحرب الداخلية الرومانية وهي سنة 88 ق.م أو بعدها بقليل. ان البربر في موريطانيا الشرقية كانوا يغلون حقدًا على بوكوس لقضائه على زعيمهم يوغورطة، ونوميديا كانت تتوق لاسترجاع موريطانيا الشرقية. ولا أراها تؤخر اغتنام فرصة الحرب الأهلية أول ما حانت في سنة 88 ق.م.

### طموح يرباص وهيمصال وتنازعهما

وكان يرباص وهيمصال الثاني ملكين طموحين. وكان كل منهما يريد ان يستولي على ما بيد الآخر ليوحد نوميديا. ثم الدولة كلها بعد ذلك. فحانت الفرصة ليرباص فاغتنمها فاستولى على نوميديا كلها وعلى موريطانيا الشرقية فأقصى هيمصال الثاني ومصينيسا الثاني من مملكتهم فتوحدت الدولة على يد يرباص. وبلغ ما أراد. فمتى وقع ذلك وما هي فرصته؟

### هجوم يرباص على أخويه وتجريدهما من الملك

كان ذلك في سنة 88 ق.م وكان الصراع على أشده في روما بين القائدين الكبيرين ماريوس وصيلة. وكان ماريوس شعبيا يريد تجديد نظام الحكم في الدولة وإضعاف نفوذ مجلس الشيوخ الذي كان جله من الطبقة الأوروستقراطية الأنانية الضعيفة. وإقامة النظام الإمبراطوري الذي يصلح بالدولة ويجدد شبابها. أما صيلة فكان أورويستقراطيا يتحمس للجمهورية. ويتعصب لمجلس الشيوخ. ويريد ان يرجع له نفوذه أيام شباب الجمهورية وقوتها. وكان إلى اختلاف الطبقة بينهما. واختلاف المذهب يحبان الرئاسة. وكان لكل منهما حزب قوي في روما فتصارعا. وكان صيلة أكثر دهاء من ماريوس. وحزبه كان أكثر نظاما. وكان من حزبه القائد الكبير بامبايوس الذي كان بطلا في الحروب كماريوس فاستطاع صيلة ببطولة رجاله. سيما قائده بامبايوس. ودهائه الكبير ان يهزم ماريوس في روما وفي ايطاليا. ففر ماريوس إلى المغرب ليستعين بدوله على التغلب على خصمه. فنزل عوثيقة فأبى الوالي الروماني ان يعينه. ان صيلة أقوى منه. سلاحه فينتصر عليه بكثرة جيوشه فتقع الضربات على من يأويه. فأرسل إلى هيمصال الثاني يسأله ان يأويه وينصره. فأبى لما رآه الوالي الروماني. فطرق ماريوس أبواب يرباص. وواعده بإعانة حزبه له ومن معه من الجيش على الاستيلاء على نوميديا وكل نواحي الدولة

البربرية الكبرى.<sup>102</sup> فسر يرباص بهذه الفرصة فأوى ماريوس في سنة 88 ق.م ثم أعانه ماريوس بجيشه. وأنصاره في افريقية. وزين له الاستيلاء على الدولة البربرية كلها ليكون قويا فيصول به صيلة. فهجم في سنة 81 على ملكة هيمصال الثاني نوميديا الشرقية. وعلى ملكة مصينيسا الثاني نوميديا الغربية وموريطانيا الشرقية. فاستولى عليهما فتوحدت الدولة على يده.

وكان يرباص قوي الشخصية. وكان يحب الحضارة وينشرها في دولته. وقد اعتنى بالفلاحة. وضرب السكة باسمه. وكان غيورا على الدولة البربرية. كما كان يكره الرومان ويمقتهم.

### هجوم صيلة على ماريوس ويريابص وهزمهما

وفي سنة 80 ق.م عزم صيلة على القضاء على عدوه ماريوس في المغرب أيضا. فأرسل جيشا قويا تحت قيادة بومبايوس فاشتبك بماريوس وحليفه يرباص في حروب عنيفة. وأرسل صيلة إلى صديقه القديم بوكوس الأول ملك موريطانيا الغربي مستنجدا به. فأعانه بجيش كبير من فرسان موريطانيا تحت قيادة حفيده غودا. فهجم بهم من خلف على يرباص فاستطاع بومبايوس الانتصار عليه وعله ماريوس. فتقهقر يرباص إلى عاصمته ليعتصم بها. فاعترضه غودا في جيشه فقبض عليه فقتله. وكان بوكوس وأبنائه هم حبل الجزرة النتن الذي يقيد به الرومان أبطال المغرب فيفتك بهم. وهم الحبل الخبيث الذي يعترض طريق الدولة البربرية في حروبها مع الرومان فتقسط فيتغلبون عليها. لولاهم لكانت الدولة البربرية هي المنتصرة على ماريوس في عهد يوغورطة. وعلى بومبايوس في عهد يرباص.

وكان هيمصال الثاني وأخوه مصينيسا الثاني قد أدركا بنظرهما البعيد ان الغلبة لصيلة فرفضوا تأييد ماريوس واطهرا ميلهما إلى صيلة. ولما غزا بامبيوس نوميديا أعاناه فاستطاع ان ينتصر على يرباص. فاسترجعا مملكتهم. فرجع كل منهما إلى مملكته. وزحف هيمصال الثاني على نوميديا الوسطى ملكو يرباص فضمها إليه. فصارت دولته تشتمل على غرب افريقية. ونوميديا الشرقية والوسطى وينتهي حد دولته في شرق جيجل وغرب (ميلة).

وكان هيمصال الثاني قوي الشخصية. عالي الهمة. غيورا على المغرب. بوده لو وحده

102 - إذا قلنا الدولة البربرية أو الدولة البربرية الكبرى فالمراد بها دولة مصينيسا الأول الواسعة التي كانت تشتمل على جل المغرب. انظر حدودها في باب دولة مصينيسا.

## يوبيا الأول 46-50 ق.م

### نسبه ونشأته وشخصيته العظيمة

يوبيا الأول ابن هيمصال الثاني. مصينيسا الأول جده الثالث، ويوغورطة عمه. قد اكتنفته البطولة من كل نواحيه. وحفه المجد من كل أطرافه. وكان والده هيمصال قوي الشخصية، فأورثه قوة شخصيته، وإبائه، وطموحه، وغيرته على المغرب، ومثله العليا، سيما توحيد المغرب وتطهيره من الرومان !

وكان هيمصال قد رأى في يوبيا نبوغا وشجاعة وقوة شخصية. فرجا ان يكون من عظماء الدولة. ومن قوادها المخلصين الذين يطهرونها من الرومان. فاعتنى بتربية كمل الاعتناء، فأرهب شجاعته ومضاءه، وغرس فيه الإخلاص والوفاء، وملأه بالغيرة على دولته، والاعتداد بجنسه، وعوده اللطف والحدب على بني قومه، والكراهة والعداوة للرومان الذين مزقوا دولته ليتلعهوا؛ كما أنشأه على الفروسية، ودربه على فنون القتال فبرع فيها. فكان من فرسان عصره. ومن الماهرين في القتال في زمانه. اعتنى هيمصال بتربيته العقلية فعلمه وثقفه، فحذق اللغة الرومانية، وأتقن ما يجب من العلم والمعرفة. ثم أرسله إلى روما حيث أتم تعليمه، واطلع على الحضارة الرومانية، ودرس نفوس الرومان فعلم أسباب عظمتهم، واطلع على نواياهم السيئة للمغرب، وعلى رغبتهم في امتلاكه والسيطرة عليه. فرجع إلى وطنه وقد تمت ثقافته، ونضجت مواهبه، واستعد للقيام بالأعمال الكبرى ولما تولى أبوه الملك صار من أعوانه في مهمات الدولة، ومن اعضاده الذين يسد بهم الثغور الغربية، فاستنجد مصينيسا بالرومان، فأرسل هيمصال ابنه يوبيا إلى روما فحامى عن أبيه في مجلس الشيوخ وقام بالدفاع عنه أحسن قيام حتى اغضب قيصر الذي كان يميل إلى مصينيسا فقام يناقشته محتدا، فتصدى له يوبيا فجادله، وضايقه بقوة حججه وبشجاعته في الدفاع، فقام إليه قيصر في حماسة الغضب فامسك بلحيته، ولا بد ان يكون يوبيا قد دفعه عنه بقوة بنيانه فيقعى في مجلسه.

كان يوبيا بطلا شجاعا، وفارسا مغوارا، وكان يتقيد غيرة على المغرب، وكان مثله الأعلى ان يوحد كله في دولة واحدة، ويقذف بالرومان في البحر.

في دولة واحدة ليصول به على الرومان. وكان يحب الحضارة. وقد نشرها في مملكته، وواصل أعمال أجداده في هذا الميدان. كما ضرب النقود باسمه. وكان يكره الرومان ويمقتهم. وكان يجهد لتجديد شباب نوميديا ليصول بها على الرومان. وقد أورث كل مثله العليا إلى ابنه يوبيا الأول الذي هب بعد وفاته لتحقيقها . ودام هيمصال الثاني ملكا إلى سنة 50 ق.م فأدركته الوفاة. وكانت مدته في الملك نحو 36 سنة ولولا تمزق الدولة، اشتغال ملوكها بالكيد لبعضهم، لاستطاع هيمصال ان يجدها، فيعيد بها الكرة على الرومان.

أما مصينيسا الثاني فعاش بعد أخيه، وأعان يوبيا الأول في حروبه مع الرومان. ومات أو قتل في سنة 46 ق.م واستولى بوكوس الثاني على مملكته.

مات هيمصال الثاني ولكنه ترك لنا يوبيا الأول الذي ورث ملكه. وكان من الملوك الأبطال، ومن مفاخر المغرب العظام. ما هي شخصية يوبيا العظيمة، وما هي أعماله وجهاده في سبيل الدولة، وفي سبيل المغرب الكبير؟



وكان أبيا كل الآباء معتدا بنفسه. وكان واسع الغنى. كبير الثروة فزاد غناه في عزه نفسه. وفي آبائه واعتداده وطموحه.

وكان قوي الجسم. متين البنيان. مهيب الطلعة. وكان يرسل لحيته. فتزيد اللحية في مهابته. ويطيل شعر رأسه. وإذا نظرت إلى صورته رأيت أسدا هصورا في شخص إنسان. وشاهدت رجلا قويا يحترمه ويجله وبهابه كل من يراه.

وكان يوبا متدينا. وقد رسم في نقوده صورة معبد. وذلك لتقديسه للدين. وللمزاج الديني القوي فيه. وفي أهل دولته.

وكان ذكيا بالغ الذكاء. داهية يعرف كيف يوقع بأعدائه. وقد أغرى سبيون القائد الروماني بما نذر البربر عنه. وشحن صدورهم بالعداوة له. وذلك لدهائه. ومقته للرومان. وكان يوبا الأول أشبه الناس بيوغورطة في شخصيته. انه ضربه في الشجاعة. والأقدام. والإخلاص للمغرب. والعداوة للرومان المستعمرين.

وكان يوبا محبا للحضارة. حريصا على العمران. فلو طالت أيامه في الملك لرأى الغرب منه الشيء الكثير في هذا الباب.

وكان يوبا إلى غناه وحبه للحضارة متقشفا. يؤثر حياة الجد. لا ينغمس في الملذات التي تضعف أخلاقه. ولا يركن إلى الخمول الذي يدخل الوهن على نفسه.

### حدود دولته وعاصمته

وكان هيمصال قد أوصى بالملك إلى يوبا. ولما توفي في سنة 50 ق.م اقتعد عرش الدولة. وكانت دولته تشتمل على غرب افريقية. وجنوبها إلى مدينة طرابلس. وعلى نوميديا الشرقية. وعلى نوميديا الغربية. وتنتهي دولته غربا في شرق جيجل. وفي غرب ميله.

وكان يجاوره في نوميديا من الغرب ملكة عمه مصينيسا. ان نوميديا الغربي له. وكان يوبا أحسن جواره. وامتلك وده. فوقف بجانبه في حروبه مع الرومان.

ان المؤرخين لم ذكروا عاصمة يوبا. قد تكون هبون. وقد تكون قرطبة. ان قصر أيامه في السلم جعل عاصمته السياسة. ومقره غير معروف. أما مركزه الحربي وعاصمته أيام حروبه فهي (جامعة ريجيا) في شمال مدينة (مكثر) في الوسط الغربي لافريقية. وفي الجنوب الشرقي لمدينة الكاف. وقد أثر جامعة معسكرا له. وعاصمة أيام حربه. لان

حروبه مع الزمان في الولاية الرومانية. فهو يريد ان يكون قريبا من ميدان عمله وفي مكان يستطيع ان يراقب منه الرومان. ولا أرى انها كانت عاصمة لأبيه قبله. فهبون هي العاصمة كما قال بعض المؤرخين. أو قرطبة. وقد استولى عليها هيمصال فصارت من دولته.

### اعتناء يوبا بجيشه واستعداده لمحاربة الرومان

وكان يوبا يوقن بأنه مقبل على حروب طاحنة مع الرومان. فما كاد يتولى الملك حتى اعتنى بجيشه كل الاعتناء. فدربه وعلمه احدث الأساليب في القتال. وسلحه أحسن تسليح. وربي شعبه تربية عسكرية. وألقى في روعهم مقبلون على حروب وطنية مهولة. ومنازلة أعداء أقوياءهم الرومان. فاعد دولته للحرب. وصار كل فرد فيها مرهف الخالب والأنياب مستعدا للانفجار.

وكان يوبا عليما بأحوال الرومان. وبما يجري في بلادهم. فرأى تصارعهم على الرئاسة فعلم ان هذا الصراع سينتقل إلى الولاية الرومانية فتحين له الفرصة للقضاء على الرومان. وتطهير المغرب منهم. فحانت تلك الفرصة. فاغتنمها يوبا. فدخل في حروب عنيفة كان غرضه منها وطنيا نبيلًا. فلولا الحساد وسواد النفوس لنال غرضه وظهر المغرب من عدوه اللدود. ما هي أسباب تلك الحروب التي انتقلت من روما إلى المغرب وما مواقف يوبا البطولية فيها؟ ومتى وقعت؟ ولما كان النصر والغلبة فيه؟

### حروب يوبا الأول مع قيصر

#### الصراع بين الجمهورية والإمبراطورية في ايطاليا

كان الرومان في القرن الأخير قبل الميلاد يتصارعون الرئاسة. ويتنافسون على الزعامة. وكانت الجمهورية قد شاخت في روما. وصارت أنظار المجددين الأحرار من الرومانيين تتطلع إلى مستبد عادل حكيم ينقذ الإمبراطورية من الانتثار. ويطب لروما التي فتكت بها أمراض المدينة وعلل الحضارة فصارت تسعل وتئن. وكان سعالها هو صليل السيوف التي يشرعها المتنافسون على الرئاسة في شوارعها بعضهم على بعض. وأبينها هو أنين الجرحى والمجندين الذين تغص بهم الميادين والشوارع في رومة التي تعصف بها المنافسة فجن جنونها.

وكان يقود هذا الصراع. وتلك الحروب الأهلية الهوجاء في آخر النصف الأول من القرن

## خريطة الممالك البربرية في المغرب في القرنين الخامس والسادس المسيحي



نقلت الخريطة من كتاب مدينة المغرب العربي للأستاذ أحمد صوفي ، مع زيادات واصلاحات صفح ٤ ، وقد نقلها الأستاذ أحمد صوفي من كتاب (الوندال و افريقية) لثغر ليسيان كوكو رتوا

ملاحظة : موريطانية وجيتولانية ، وسبراطنة وقفة وقرطاجنة ، وسوسنة ، وعانية ، والطاوة وثالة بالانلا بالما .

اسم الملكين : ٤ مملكة الغضبية يسمى ملكها (فونزياس) ، يوراس ، ملك آوراس ، يسمى أيضا (بيياس)

## تاريخ المغرب الكبير

الأخير قبل الميلاد رجلان يتناطحان على الرئاسة. كلاهما قائد حربي كبير قد كلل أمته بالنصر في عدة حروب. وأورثها الغلبة والظفر على عدة أم حاولت ان تتحدى رومة وتتمرد عليها. وهذان القائدان الكبيران هما بامبايوس ويوليوس قيصر.

### نصرة يوبا للجمهوريين وأسباب ذلك

وكان بامبايوس يناصر الجمهورية الهرمة بإقامته حكومة روما الجمهورية قائدا لجندها المأجور المهلهل، ورئيسا يدافع عنها. أما قيصر فاعتمد على أنصاره المتحمسين، وشبان حزبه المخلصين. فوقع حروب أهلية بينهما في سنة 49 ق.م. كان النصر فيها لقيصر. فملك روما. ودحر بامبايوس في ايطاليا كلها. ففر بامبايوس إلى مصر. وهرب كثير من أتباعه إلى افريقية ليسترجعوا هناك قواهم فيكروا على قيصر.

وكان من هرب إلى افريقية من أتباع بامبايوس (فاروس) كبير ضباطه. واحد زعماء حزبه. وما كاد فاروس يصل إلى الولاية الرومانية حتى راعته شخصية يوبا وبطولته، وشجاعة رجاله، ونظلم جيشه، وكثرة جنوده. فصار يتملقه ويستميله إليه لينصره على قيصر. ولكن يوبا ما كان لينصر روما على آخر بدون قائد كبرى يجلبها لقومه، وبدون أغراض سامية يحققها لدولته. ان له مثلا أعلى يملك فؤاده فما من عمل مهم يقوم به إلا وهو مقدمة لتحقيقه، ووسيلة لبلوغه. ان مثله الأعلى، وأمله الكبير ان يظهر المغرب من الرومان، ويوحد الدولة البربرية الكبرى، ثم يوحد المغرب بها. ليكون كله دولة واحدة قوية سعيدة فها هي الفرصة حين له. ها هم الرومان يتقاتلون ويتخاصمون، وها هو حزب الجمهورية يستغيث به انه الحزب الضعيف في روما، ولكنه القوي في الولاية الرومانية بافريقية. في يده كل الشئون، وهو المستبد بالأمور فأعانه ونصرته ذات جدوى سياسية كبرى لدولته وللمغرب، ثم ان بمبايوس صديق والده، قد أعانه على استرجاع مملكته. لقد نصرهم في وقت الشدة، وكان لهم في أيام عصيبة قد أنزلوا فيها من عرش الملك، وأمسوا كما صار هو مجردا من الدولة، يحتمي بالناس. ان مروءته، وكرم نفسه ووفاءه لتدعوه إلى نصرته، والانتقام من قيصر الجبار الذي سول له طغيانه ان يقبض في مجلس الشيوخ على لحيته، وبهينه بهذا التحدي الذي يدل على عدم المبالاة به وبدولته.<sup>103</sup>

ومال يوبا إلى الحزب الجمهوري، وواعد فاروس بالنصرة عل ان يتخلى الرومان عن المغرب، ويرحلوا إلى بلادهم، ويتركوا وطن الأمازيغ للأمازيغ. فواعده فاروس وحزبه بذلك، فاستعد

103 - انظر هذه القصة في صفحة 315 من هذا الجزء.

يوبيا لخوض المعركة ضد قيصر.

وكان قيصر حازما صارما. فما كاد يهزم الحزب الجمهوري في ايطاليا. حتى شمر للقضاء على أنصار هذا الحزب في إفريقيا. ولما سمع انضمام يوبا إلى الجمهوريين حسب لذلك ألف حساب. وخاف ان يتقوى به الحزب الجمهوري فيغزوه في ايطاليا. فجد في محاربة يوبا وفاروس. فأرسل في سنة 49 ق.م. جيشا كبيرا تحت قيادة احد ضباطه الكبار (كريون) وكان كريون عدوا شخويا ليوبا فاختره قيصر لهذا السبب أيضا. فنزل كريون في الولاية الرومانية. ودخل في حرب طاحنة مع فاروس.

### دهاء يوبا مع الجمهوريين

وكان يوبا داهية. فترك فاروس في أولى الحرب وحده مع الرومان يقاتلون كريون. ليظهر ضعفهم. ويروا تفوق كريون عليهم. ويوقفوا بغلبته لهم إذا لم يعنهم يوبا. انه لو أعانهم من أول الحرب فانتصروا لنسبوا النصر إلى قوتهم فلا تظهر منة يوبا عليهم. لقد تركهم يقعون في الحنة. ويبتلون بالهزيمة. ويظهر ضعفهم وقصورهم أمام كريون القوي وجيشه الخالص الباسل.

واشتبك كريون بفاروس في معركة حامية. فضربه كريون ضربات قاصمة. وهزمه في المعركة. ففر فاروس وبقية جيشه إلى العاصمة الحصينة (عوتيقة) فتحصن بها. فحاصره كريون وشد عليه الحصار. وكاد يخلها عنوة عليه. ولما رأى يوبا ان فاروس قد أيقن بضعفه وقوة عدوه. ورأى الموت الأحمر يحدق به. ويكاد ان يقضى عليه. أسرع إليه بجيشه. فصدم القوى بفرسان نوميديا وبجيشه المنظم الباسل فهزمه. ومرغه في التراب. ففر كريون إلى قلعة حصينة في الولاية الرومانية فتحصن فيها. فأراد يوبا ان يخرج من قلعته. فرجع بأكثر جيوشه. فأشاع ان ثورة داخلية قد نشبت عليه في نوميديا فأرغم على الذهاب إليها ليخمدوها. وان الذين يحاصرون قلعته ليسوا إلا حفنة من جيشه. فصدق كريون الإشاعة. فخرج من القلعة ليهزم المحاصرين. فيسير إلى يوبا فيضربه من خلفه وهو مشتغل بأعدائه في الداخل فينتصر عليه. ولم يكذب يناوش المحاصرين له حتى تقهقروا إمامه. فظن التقهقر هزيمة فاتبعهم. وكان يوبا قد كمن بجيشه الكبير وأفياله الكثيرة في شعاب بعيدة عن قلعة كريون. فلما وصل كريون إلى مكمنه خرج عليه يوبا فأحاط به. وهو في تعب بقطع المسافات في الطريق الوعرة. فما أسرع ما أتى الحسام على جيش كريون فأباده يوبا. فسقط كريون قتيلًا في المعركة. فحملت رأسه إلى يوبا. وكان ذلك كله في سنة 49 ق.م.

كان ذلك نصرا كبيرا ليوبا. فقد ظهرت قوته لفاروس. وبدا تفوقه للرومان في الولاية الرومانية. فصاروا يعتقدون -ورؤوسهم حانية له- انه منقذهم من الهلاك. لولاه لقضى عليهم كريون.

### استعلاء يوبا على الرومان وإخضاعهم لسلطانه

كان يوبا جريئا داهية. فاستغل انتصاره على كريون فابتدأ في تحقيق أمله وما واعد به فاروس. وهو الاستيلاء على الولاية الرومانية. فرجع إلى عوتيقه عاصمة الولاية إلى عاصمته (جامعة ريجيا) فاطهر سلطانه على الرومان. فصار هو الأمر النهائي. والرومان رعية له خاضعون لسلطانه. يأبى ان يمتازوا على البربر بشيء. أو يظهرها في مظهر السلطان والقوة. أو يبدو رؤسائهم في زي يشعرون بالرئاسة والتقدم. ان الرئاسة بالقوة وهو أقوى منهم. وبالعزة. والبربر اعز منهم وأقوى. إنهم لا يهربون أمام الأعداء. ويختبئون في قلاعهم كالنساء. ولكن يهجمون على العدو وان كان جرارا. فيرى منهم طلعة الأسود. فيقرونه بالحتوف. ويتركونه مطعما للنمل والحشرات !

وكان فاروس وحزبه الجمهوري يخضعون ليوبا ويمثلون أوامره. وكان هو يعلو عليهم ويربهم إنهم رعية خاضعة. وقد جاءه مرة سبيون رئيس البمبايوسيين لابس حلة حمراء مطرزة بالذهب. وهي شعار الملوك عندهم. فأمره يوبا بخلعها ولبس البياض. فامثل سبيون. فخلع ثوب الملك ولبس ثياب السوقة !

وكانت نصرة يوبا لحزب بمبايوس أنعشت هذا الحزب فجددت أمله في التغلب على قيصر. وانتزاع الرئاسة منه. فأسرع عظماء هذا الحزب إلى افريقية ليجددوا الكرة على قيصر. وكان من الوافدين سبيون. وهو غير سبيون الإفريقي بطل جامعة وغير سبيون الاميلي الذي هدم قرطاجنة وحرقها. ولكنه قائد آخر من أركان حرب بمبايوس. وكان قدومه إلى افريقية في سنة 48 ق.م.

وكان سبيون يعتد بنفسه لأنه صهر بمبايوس ويرى انه أولى بالرئاسة في افريقية. ولكن فاروس أبى ان يتنازل له. فوقعت المنافسة بين الرجلين. وحثت بلبله في صفوف الرومان بهذا. وكان يوبا يغرى كلا من الرجلين بالأخر ويفرق كلمتهم. ليتنازعا فيفشلوا فيستعلي عليهم. إنهم أعداء أمته. إنهم الحية الرعناء المسمومة في عقر داره. إنهم المرض القتال في جسم المغرب العزيز. فهل يعمل يوبا الغيور الخالص إلا خرابهم وهل يساعد إلا على ضعفهم واضمحلالهم؟

وقد ظل هذا النزاع بين سبيون وفاروس مدة. وكان لا يزداد إلا اشتعالا. ان كلا منهما

قائد حربي مستبد. وكانا يمثلان الجمهورية الهرمة التي استولت على أنصارها الأنانية وحب الذات. فأسمى القائدان -قيصر يستعد للهجوم عليهما في روما- كالثيران التي تتناطح في الجزيرة. وكان مغتبطا بتناطحهما. وفي سنة 47 ق.م. وفد على افريقية كاطون وهو غير كاطون الذي نادى بتهديم قرطاجنة.

وكان كاطون الثاني يشبه كاطون الأول في الغيرة، والذكاء، والعلم، وقوة الخطابية. فأصلح بين فاروس وسبيون، وجمع كلمة الرومان، ونظم صفوفهم. فتفاوضوا فيمن يرأس الحزب بعد مبايوس، فقدموا سبيون. فشمر سبيون عن ساعده فأعاد تنظيم الجيش. وشرع في الاستعداد لحرب قيصر.

وكان سكان الولاية الرومانية من الرومان اغلبهم من شيعة قيصر. وكانت الحضارة أيضا قد قتلتهم، والغرق في الملذات قد اوهن نفوسهم وقتل شجاعاتهم. فلم يعتمد عليهم سبيون. فجمع طوائف كبيرة من الموالي والعبيد المستأجرين فكون منهم جيشا كبيرا بلغ عدده أربعين ألفا. فاركبهم الخيل وأمدتهم بالسلاح. ولكن من أين له ان يخلق في نفوسهم ما تتأجج به قلوب جيش قيصر من الحب له، والإخلاص لمبادئه.

وكان سبيون يعلم ان عماده في قراعه، وقته في هجومه ودفاعه هو يوبا. أما جيشه المستأجر وان كان كثيفا فهو سور من الرمل. لا يثبت أمام العاصفة. ولا يقف في وجه السيول. لهذا شرع يفتل ليوبا في الذروة والغارب، ويؤكد ما واعدوه به فاروس. فأعانه يوبا بأربع فرق من جيشه المدرب القوي. فيها اثنا عشر ألف مقاتل، ومائة وعشرين فيلا، وبجمهور كبير من المتطوعين البدو الشجعان. فتنفس سبيون الصعداء ففرح بهذه القوة. وكان هو الذي يقوم بنفقاتها، ويدفع لها أجورها الكبيرة.

### دهاء يوبا مع سبيون

وكان سبيون يتملق يوبا ويخضع له، ويمثل أوامره، ويعمل بما يشير به عليه. فوجد يوبا فرصته للكيد لسبيون. انه يريد ان يفسد القلوب عليه في افريقية، ويضعفه ليكون دائما في حاجة إليه. وحث سيطرته. وكان سبيون في حاجة إلى الميرة والى المال لنفقات جيشه وجيش يوبا فأشار عليه بمطالبة الفلاحين من البربر في الولاية الرومانية بتقديم ما يحصدون ليستولى عليه بدون ثمن أو ألبخس الأثمان وبمطالبة التجار بالأموال الكثيرة. أشار عليه بتجنيد البربر في الولاية الرومانية وهم كارهون. كل ذلك ليفسد عليه قلوب البربر، ويهيئ البربر للثورة عليه إذا وصل وقت الانقضاء عليه ليظهر افريقية من الرومان. وقد فعل سبيون ما أشار به يوبا، فكان يطالب البربر بأموالهم

وزروعهم. ومن أبى أرسل عليه جنده فهدم داره واتلف أمواله. فهدم لذلك قرى كثيرة. وقتل من البربر ما لا يحصى ! ! فازداد البربر عداوة للرومان. واجتهد قلوبهم إلى يوبا. ورجوا ان يكون خلاصهم من المستعمرين الجشعين.

وأشار يوبا على سبيون، ليفسد قلوب الرومانيين عليه أيضا فلا يجد نصيرا إذا هم بقذفه في البحر؛ أشار عليه بقتل شيعة قيصر من الرومان في الولاية الرومانية، انه ليس من الحنكة والحزم الإبقاء عليهم وهو يستعد لمحاربة قيصر. إنهم جواسيس للأعداء. سيضربونه من الخلف إذا اشتبك بقيصر في معركة حامية. لابد من القضاء عليهم جميعا صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم! فأبى سبيون ان يمتثل لان العملية الجراحية ستجرى في لحم روماني. وهو لحم كريم عنده، ليس كلحوم البربر الذين يحتقرهم ويضطهدهم، ويراهم حشيشا يابساً في طريقه. بطؤه بأقدامه، ويشعل فيه النيران!

وكان قيصر يتتبع حركات سبيون وحزبه. فلما علم بإمداد يوبا له، وانحيازه إليه، وعرف قوته واستعداده، اغتم لذلك واهتم به كل الاهتمام. فعزم ان يعاجل سبيون فيقضي عليه في افريقية قبل ان يسير هو إليه بفرسان نوميديا، وبقوة يوبا فيحاربه في روما، فيسترجع النفوذ الذي خسره حزبه بالهزيمة التي حلت به.

### استمالة قيصر لبوغيد الأول

وكان قيصر يعلم قوة يوبا، وشجاعة جنده، ونظامه العسكري البار، ويعلم دهاء يوبا وكيدة لعدوه، وعبقريته في قيادة الحروب، وإدارة المعارك فأيقن انه لا يستطيعه وحده. فلا بد من نصير من البربر يعينه فيضرب يوبا من خلفه، ويطعنه من ظهره إذا اشتبك به. وكان يعرف بوغيد الأول ملك موريطانيا الغربية، وأخاه بوكوس الثاني ويعرف أطماعهما، وحسدهما ليوبا الأول. فأرسل إليهما يستميلهما، ويعدهما على النصر بموريطانيا الشرقية وجزء من نوميديا، فمالا إليه، وأصبحا من حزبه، وواعده بالزحف على دولة يوبا وضربه من خلفه. فسر قيصر بهذا وأطمأن بعد خوفه فصر بأسنانه، فأذن في أنصاره وجنوده بالاستعداد للحرب. فحمسهم وأشعل نيرانهم فاقبل بهم لحرب يوبا وسبيون.

وكان قيصر مهما بهذه الحرب كل الاهتمام. وكان يعرف قوة يوبا وشجاعة البربر فسار إلى الحرب بنفسه، وتولى هو قيادة جيوشه، ولم يكتف بأحد قواده

## نزل قيصر في افريقية وحروبه فيها

وفي أكتوبر من سنة 47 ق.م نزل قيصر في نواحي اقلبية في الشمال الشرقي لافريقية. وعندما نزل من السفينة عثرت رجله فسقط على الأرض. فأنشبت يديه في الأرض فتناهض وهو يصيح: «افريقية قد قبضتك» وإنما فعل ذلك حتى لا يتطير جيشه. وهذا يدل في قيصر على الذكاء وسرعة البديهة.

وكان سبيون يتربح مسيرة قيصر إليه. فعلم بنزوله في افريقية في جيش كبير. واستعداده للزحف عليه. فشرع في الاستعداد والاستكثار من الجيش. ولكن بمن يستعد. وعلى من يعتمد؟ ان بربر الولاية الرومانية قد تغيرت قلوبهم عليه لفظائعه في أموالهم. وظلمه لهم. وتهديمه لقراهم. فهم أعداؤه الألداء. يعملون لموته لا لحياته ويصنعون له هزائمه لا نصره. والرومان في الولاية الرومانية شيعت لقيصر. فاجتبه سبيون إلى يوبا وسأله ان يدخل معه في الحرب بكل جيشه وقواه. وعلى ان يجلو مع الرومان كلهم من الولاية الرومانية فيتركها له. يبلغ ما يريد. فعلم يوبا ان فرصته لتحقيق أملة الكبير قد حانت. وان سبيون قد تجرد من قوته بفساد القلوب عليه في الولاية الرومانية وصار كما يتمنى ضعيفا يحنى الهام له. ويخضع لشروطه. فشمر يوبا لنصرتة. ودخل معه الحرب بقوة كبيرة من جيشه. وبعده كثير من جيشه. وبعده كثير منة أفياله. فتتنفس سبيون الصعداء. وأحس بالقوة والمنعة. فصر بأسنانه. ونظر بعين النمر إلى قيصر.

وفي نوفمبر سنة 47 ق.م هجم ضباط يوبا وسبيون على قيصر. فوقع بينهما أول معركة. فأحاط الجيش البربري القوي. وجنود سبيون بقيصر وكادوا يهزمونه. فرأى الموت الأحمر في أحداق البربر وسيوفهم يحدق به. فلم ينج من المعركة إلا بدهاء كبير وحظ سعيد. فتقهقر إلى معسكره الحصين فاعتصم به.

## مكيدة قيصر ليوبا

وكانت هذه المعركة صغيرة لم يحضرها يوبا ولا سبيون. فرأى فيها قيصر من الهول ما رأى. فأيقن قيصر بالهزيمة في المعركة الفاصلة التي تستقبله. تلك المعركة التي يقودها يوبا ويشارك فيها سبيون. ان الحق هو ما يهدده إذا بقي وحيدا في هذه الحرب. فأرسل إلى بوغيد وأخيه بوكوس الثاني يسألهمما الوفاء بالوعد. وهو الهجوم على ملكة يوبا وضربه من خلفه إذا اشتبك به في الحرب المقبلة.

وكان سبيوس جنديا في الجيش الروماني. وكان باسلا. فترقى إلى ان صار واليا. ثم

عزل. فسأه العزل فجمع جيشا من اللصوص والمتشردين فصار يؤجره لمن يستنصر به من الملوك المتنافسين في أوروبا. وكان منصور الولاية. وكانت له سفن يحارب بها في البحر أيضا. فاستماله قيصر ورغبه في نهب نوميديا وفي الولاية على جزء منها فأرسله إلى بوغيد وبوكوس ليكون معهما إذا هجما على يوبا من خلفه. فوصل سبيوس موريطانيا الغربية بعصابته المسعورة. فوضع الخطة مع بوغيد وبوكوس للهجوم على ملكة يوبا والعيث فيها ليرغما يوبا على الرجوع لحماية مملكته. فيقسمان الجيش الذي يحاصر قيصر فيضعف سبيون بتخلي يوبا عنه. فيكر عليه قيصر فيهزمه. هذه هي الخطة التي وضعها قيصر. هذا كيد يوبا. فعزم بوغيد وصاحباها على تنفيذها.

## استعداد يوبا للمعركة الفاصلة

وكان يوبا وقعت المعركة الأولى مع قيصر يتأهب لسير إلى ساحة الوغى ليصدم قيصر بجيشه القوي فيقضي عليه. ويرغم سبيون على الوفاء بوعدته والجلاء بقومه من افريقية. فأعلن التعبئة العامة في دولته. وإذن في المدن والبادي: ان قد دقت ساعة الجهاد الأكبر لسحق العدو المغير. وتحقيق حلم البربر الكبير. وهو جلاء الرومان من افريقية. وتظهر المغرب من عدوه. فنثال عليه المتطوعين من ناحية. من الجبال والسهول. ومن المدن والقرى. فسار في جيشه المنظم. وفي سيول من المتطوعين كانوا ينضمون إليه في طريقه. فقصد الولاية الرومانية ليدحر قيصر. فنزل وراء جيش سبيون. فشرعوا يستعدون للمعركة الفاصلة.

## هجوم صنائع قيصر على يوبا من خلفه

وكان يوبا يجهل ما دبر له قيصر في الخفاء. وما كاد يتأهب للهجوم على عدوه حتى هجم الأوغاد الثلاثة سبيوس وبوغيد الأول وبوكوس الثاني في جيوشهم الكبيرة على موريطانيا الشرقية فوصلوا إلى نوميديا الوسطى والشرقية ملكة يوبا فاعملوا فيه الحسام ونهبوها. وارتكبوا فيها كل ما تسول لهم نفوسهم الدنيئة من الفظائع. وقصدوا مدينة كان يوبا قد اتخذها مستودعا لسلاحه وذخائره فاستولى على تلك الذخائر والسلاح. ونهبوا ما فيها. ثم قصدوا أهم المدن في نوميديا الشرقية فنهبوا. وخربوا. وأشعلوا النيران. فأمست ملكة يوبا في مخالب هذه الوحوش الكاسرة. مثخنة بالجراح. غريقة في الدماء والدموع. قد تسلطت عليها أفدح النكبات!

وطارت الأنباء الأليمة إلى يوبا. فعلم بما حل في مملكته. فلم يسعه إلا الرجوع

لإنقاذها. فرجع بأهم قواه. وبخيرة جنده. فلم يترك مع سبيون إلا عددا قليلا من فيلة غير مدربة. وطائفة يسيرة من جيشه. فضعف سبيون بهذا فلم يستطع مجابهو قيصر. فاستغاث بيوبا. وألح عليه في الرجوع. وذكره بوعدة له بالجلاء. واره خطر انتصار قيصر عليه وعلى المغرب. فما زال بيوبا يستعمل كل وسيلة للتأثير عليه حتى سمع له يوبا. وعلم ان انهزام سبيون سيجعله بين نارين. بوغيد الأول وصاحبيه في داخل مملكته. وقيصر الهاجم عليه. فترك قائده صبورة مع قسم من الجيش يكافح الأوغاد الثلاثة. ورجع هو بجزء من جيشه ليشد أزر سبيون.

«عاد يوبا إلى سبيون بألف من المشاة. وثمانمائة فارس. وثلاثين فيلا. ونزل في العشرين من ديسمبر بجيشه خلف جيش سبيون. وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين»<sup>104</sup>.

وكان قيصر هو القوى في هذه المعركة الناشبة. وذلك لاختلال نظام يوبا بما داهمة من خلفه. وتفرق قواه. وحيرته لما يقع في مملكة. لم يكن بكله في معركة كان يجب ان يحصر فيها كل قواه وكل فكره.

وكان قيصر داهية فبالغ في الكيد ليوبا. فدس في جيشه من استمال قسما كبيرا من الجيتوليين الذين يصلون بهم يوبا. فمزال بهم بغريهم وبنهم. ويثير أنهم القديمة حتى بلغ فيهم مراده «ففر في يناير (46) إلى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين بلغ عددهم ألفا. وسبب ميلهم إلى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت لأبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هييمصال. وأعادها عليهم ماريوس بعل عمه قيصر»<sup>105</sup> ففت هذا الحادث في ساعد يوبا. وتضعض جيشه بهذا الارتداد. فانحطت معنوياته. فصار يحارب ليؤخر الهزيمة لا ليكتسب النصر. فوالى قيصر عليهم الهجوم. ووقعت بينهم حروب مهولة كان آخرها معركة طبسوس الفاصلة في رأس الديماس في شرق افريقية في جنوب مدينة المنستير في سنة 46 ق.م. فاضمحل جيش سبيون وانهزام بشر هزيمة. وفر جنوده. وركب زعماء حزب مبابيوس سفنهم ورفروا إلى الأندلس. ومنهم من انتحر كما فعل كاطون.

### انتحار يوبا ونهاية الدولة البربرية الكبرى

وبقي يوبا وحده في الميدان. وأيس من التغلب على قيصر فأبى ان يقع في قبضته أسيرا

104 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 157 ط بيروت.

105 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 158 ط بيروت 1963م.

فيذهب به إلى روما كما فعل ماريوس بيوغورطة! فذهب إلى عاصمته (جامعة ريجيا) فأولم وليمة كبيرة أكثر فيها من الطعام والشراب. فجرد سيفه فتحامل عليه لينتحر فغلبه السكر فلم يستطع الانتحار! فأمر احد عبيده بقتله. فنهال العبد بالسيف على يوبا وعلى أمل المغرب في النجاة من الاستعمار الروماني فقتلا معا. فجتثم الرومان الجشعون على المغرب يلتهمونه كما أرادوا. ان روحه هي يوبا ودولته القوية وقد زال!

وكان يوبا هو آخر ملك بربري قوي وعهده هو آخر عمر الدولة البربرية الكبرى. ثم وضع الرومان أيديهم على المغرب فقسّموا الدولة البربرية<sup>106</sup> وقطعوا أوصالها ثم ازدردها قطعة قطعة فزالت من الوجود.

كان يوبا الأول ملكا عللا غرب افريقية وعلى نوميديا الشرقية والوسطى. وتشتمل دولته على غرب افريقية وجنوبها. وعلى الساحل إلى مدينة طرابلس. كما تشتمل على نوميديا على نوميديا الشرقية والوسطى إلى شرق جيجل وغرب مدينة ميلة.

أما الملك مصينيسا الثاني فكان ملكا على نوميديا اسطيفية وعلى موريطانيا الشرقية. وحد نوميديا اسطيفية من شرق جيجل وغرب مدينه ميلة إلى غرب مدينة صلداى (بجاية).

### إخلاق مصينيسا الثاني ليوبا وإعانتته في الحرب ونهايته

وكان مصينيسا الثاني وطنيا مخلصا. فوقف بجانب يوبا في حروبه مع قيصر. وأرسل جيشه لمحاربة قيصر. ولما زحف بوبكوس الثاني وسيتيوس استولوا على مملكته موريطانيا الشرقية ونوميديا اسطيفية وعاثوا فيها فسادا. قد يكون مصينيسا قتل وهو يدافع هؤلاء الوحوش الضارية في سنة 47 ق.م ان التاريخ لم يحدثنا من زمن وفاته. انه لو عاش بعد يوبا الأول لأسره الرومان. أو يقوم بأعمال ضدهم فيرد ذكره في التاريخ. ان جهاد يوبا وشخصية يوبا. ومملكة يوبا الواسعة قد غطت على أحداثه. واندرج تاريخه في هذه الفترة في تاريخ يوبا.

وكان عهد يوبا في الملك عهد سكون وهناء في الداخل. لم يثر عليه ثائر. ولا نافسه منافس من رعيته. لقد كان شعبه راضيا عن سياسته وسيرته. معجبا بشخصيته وإخلاصه فسكن سكون الرضا والمحبة. وكان عهده مملوءا بالجد والنشاط في كل الميادين. فلم تتسع أيام الدولة للمنازعات التي تقع فيها الدول الكسولة التي لا تعرف إلا

106 - المراد بالدولة البربرية الكبرى هي دولة مصينيسا الأول. انظر حدودها في الخريطة في آخر هذا الجزء.

الرومان فمزقوها إربا، ودخلت في أيام النزع والاحتضار! كيف قطعت هذه الدولة، وكيف ماتت، وفي عهد من ملوكها الضعاف؟



إشباع شهواتها، أتباع أهوائها، وكان العدو الخارجي الذي يهدد الدولة من أسباب إلحاقها وسكونها والتفافها حول ملكها القوي الخالص.

وكان من أسباب سكون الدولة ما كانت فيه من نعيم ورخاء ورفاهية. لقد أتت جهود كل الملوك الذين تقدموا يوبا أكلها في ميدان الحضارة، فأمست الدولة البربرية الكبرى مفعمة بخيرات الله التي أفاضها عليها، وكانت الثقافة الشائعة في طبقات الدولة مما أشاع الإخاء والسلام في هذه الدولة المتحدة المتآزرة.

وكان عمر يوبا لما توفي في الخمسين أو أكثر. ان صورته المنقوشة في نقوده تمثله في الخمسين أو أكثر.

وكان عهده في الملك نحو خمس سنين. من سنة 50 إلى أول سنة 46 ق.م. وقد ذكر بعض المؤرخين ان ولايته الملك كانت في سنة 67 ق.م ولا أرى ان هذه الرواية صحيحة لان يوبا لو ولي في تلك السنة لكان له في تلك الحقبة الطويلة أعمال جليلة لا يسكت عنها التاريخ، ان ولايته كانت في سنة 50 ق.م. ان عهده كان قصيرا في الملك، ولكن أعماله كانت كمثيرة عظيمة! فلو لم تثر زعازع الرومان في عهده فشغلته الحروب، وقصر عهده في الملك، لرأى منه المغرب ما جنى من مصينيسا الأول من أعمال كبرى، ونتائج لا تحصى في ميدان البناء والتعمير.

كان يوبا الأول عظيما من عظماء البربر، وبطلا من أبطال المغرب، وابنا بارا لامته فيجب على المغرب ان يعتني بتاريخه، ويحي ذكره!

كانت وفاة يوبا في شهر يناير 46 ق.م فبكته السماء بأمطارها، وشاهدت الدنيا جبال الأطلس الشمام وهي تبكي في مآتمه، والدموع تشق حدودها، وتجري انهارا في الثرى!

لقد فجع البربر بوفاة يوبا، وتفطرت قلوب المغرب بفقده، فشقوا أعلام الحروب لا ثيابهم، لان البربر ما عرفوا في عهده -لما نفع فيهم من بطولة وباس- ثيابا إلا أعلام الحروب!

أيتها السيوف الخادرة في الأغمام، قد خدرتها الأحزان، وعقلتها الأشجان، لا يطل بقاؤك ساكنة، ان يوبا قد ذهب، ولكن المغرب الذي أجبه باق لا يذهب!

انه ولود منجب، سترين يا سيوف الهند من أبنائه في كل زمان من يرضيك، ويسطر بك في جبين كل الدهور: ان البطولة والعظمة للمغرب الكبير!

ماذا وقع للدولة البربرية الكبرى بعد يوبا؟ لقد وقعت فريسة هامة، وجثم عليها

عنيفة. وكان نجم المبيايوسيين قد أفل. وأدواء الشيوخوخة التي فتكت بالجمهورية كانت تضعفهم. فانتصر عليهم قيصر ففضى عليهم.

وكان من اللاجئين إلى الأندلس بعد انهزام يوبا الأول ومصينيسا الثاني. واستيلاء الأعداء على مملكتيهما عرابيون بن مصينيسا الثاني.

وكان عرابيون شيخا مقداما. غيورا على أمته. أبيا. يأبى ان ينام ووطنه يرسف في أغلال الذل والعبودية. ويخلد إلى الراحة. ونأر أبيه وابن عمه وزعيمه يوبا دين في عنقه. لا بد من سحقك أيتها الذئاب التي ترح وتعوي في نعقل الأسود ! فما ان بلغ عرابيون الأندلس حتى شرع في الاستعداد. فجمع جيشا من الرومان ومن الأوروبيين الثائرين على دولهم. ومن المقاتلين الذين يحاربون للغنيمة. فنظمهم ونفخ فيهم روحه. وقادهم قيادة حسنة جعلت منهم أحسن فرقة في جيش سبيون. فخاض عرابيون المعارك ضد قيصر حتى رأى نجم المبيايوسيين يميل إلى الأفول. وعلم ان عاقبتهم هنا كعاقبتهم في افريقية. فكف عن القتال. واختبأ في الأندلس هو وجيشه. فشرع يرقب الفرصة لاسترجاع ملك أبيه حتى واتته بعد وفاة قيصر فهب لاغتنامها.

كان ذلك في سنة 44 ق.م. وكان قيصر قد قتل في هذه السنة فوقع نزاع دموي كبير بين الجمهوريين والقيصريين. واحتدمت معارك طاحنة بينهم في روما شغلهم عن الاعتناء بالمغرب. ومات بوغيد الأول ملك موريطانيا الغربية في هذا العام أيضا فخلفه ابنه بوكوس الثالث في الملك. فعلم عرابيون ان الرومان لا ينجدون بوكوس الثالث إذا هجم عليه لاشتغالهم بالحروب الداخلية؛ وان بوكوس الثالث وبوكوس الثاني بدون الجيوش الرومانية قوة يستطيع التغلب عليها. فرجع عرابيون في سنة 44 ق.م. إلى نوميديا اسطيفية بجنوده. فلا بد ان يكون قد اعتصم ببعض الجبال المنيعة. فما ان رآه البربر حتى ابتهجوا به. ورأوا العز والحرية في طلعتهم. وشاموا اليمن والسعادة فيه. وكانوا يتلهفون إلى من يقودهم في الثورة على الأعداء الذين قضوا على دولتهم. ومرغوهم في الذلة والصفار. فالتفوا حوله. ونصروه وأيدوه. فشرع عرابيون يستعد للثورة. فكون من البربر جيشا فصار يدرجه على احدث الأساليب في القتال. فلما تم استعدادهم هجم على بوكوس الثاني وبوكوس الثالث فوقع له معهما حروب طاحنة. فهزمتهم إلى موريطانيا الشرقية فاستولى على مملكة أبيه نوميديا اسطيفية.

### اغتيال عرابيون لسيتيوس وانضمام نوميديا الوسطى إليه

وكان سيتيوس قد لازم الحياد في هذه الحرب لخوفه من ثورة البربر عليه في نوميديا

### تقسيم الدولة البربرية واحتضارها 46 ق.م.

كان الرومان قد عزموا على امتلاك المغرب والقضاء على دوله. ولكنهم يخافون ثورات البربر وعدم خضوعهم للعدو المغير. فأتروا سياسة المراحل. وهي الاستيلاء عليه جزءا جزءا. وإضعافه بالتقسيم. وتولية صنائعهم على أقسامه ليمهدوا لهم بإخضاع البربر وإخماد الحماسة الوطنية فيهم. وتعويدهم مد الأيدي والأرجل للقيود.

وكان عهد يوبا الأول هو آخر عهود الدولة البربرية في الاستقلال. ثم جثم عليها الرومان فقطعوا أوصالها وقسموها إلى ثلاثة أقسام.

غرب افريقية. وجنوبه. والساحل إلى طرابلس. ونوميديا الشرقية. وحدها من شرق طبرقة إلى شرق مدينة روسكاد (سكيكدة) هذه استولى عليها قيصر وجعلها ولاية رومانية ثانية. وسماها الرومان (إفريقيا نوبا) أي ولاية افريقية الجديدة.

ومن شرق مدينة روسكاد إلى غربي مدينة ميله وشرق مدينة جيجل وهي نوميديا الوسطى استولى عليها سيتيوس بإعانة الرومان ورغبتهم.

ومن شرق مدينة جيجل وغرب مدينة ميله إلى غرب مدينة صلدی (بجاية) وهي نوميديا اسطيفية استولى عليها بوكوس الثاني وكذلك موريطانيا الشرقية.

كان هذا التقسيم بأمر من الرومان فوافق هوى الذئاب الثلاثة. فتمزقت الدولة البربرية فصارت تعاني سكرات الموت. وقد سكن البربر وخضعوا في أول الأمر. فاستطاعوا ان يخدموا هذه الثورة. فمن هذا البطل الذي جدد للبربر حماسهم. فنهضوا ينفضون ظهورهم القمل الخبيث الذي يرتع فيها. ومتى ثار؟ وما نهايته؟

### ثورة عرابيون بن مصينيسا الثاني

لما انهزم المبيايوسيون في افريقية سنة 46 ق.م. وتغلب عليهم قيصر. فر سبيون وكبار حربه إلى الأندلس. وكانت لهم فيها شبيعة قوية. فرجوا ان يكون لهم هناك من الفوز والنصر عللا قيصر ما لم يكن لهم في افريقية وإيطاليا. فشرعوا في الاستعداد. فزحف إليهم قيصر بجيوشه. فحاربهم في الأندلس. فوقع بينهم معارك

الوسطى فيقع بين نارين. ورأى قوة عرابيون فأراد ان يتزلف إليه بحياده ليكف عنه. ولكن هل يكف عنه عرابيون. انه ركام السماد والسموم حول مورده هل يبقى عليه؟ لابد من سحقك أيتها الأفعى القتالة ! فصار عرابيون يشعر بسيتوس مسامير في مضجعه. وحماة في شرابه. وكان البربر في نوميديا الوسطى كلهم يتمنون ان يخلصهم منه. ففسد إليه من اغتاله. فضم نوميديا الوسطى آلة مملكته. وبقيت نوميديا الشرقية. فصار يستعد ويرقب الفرصة للهجوم عليها وافتكاكها من الرومان. ثم الهجوم على افريقية. وتطهير المغرب من الرومان. فيحقق أمل مصينيسا الأول ويوغورطة. ويوبا الأول.

وكان عرابيون يتمنى ان تطول الحرب الأهلية في ايطاليا فتضعف الرومان فيستطيع الهجوم عليهم في نوميديا الحديثة وافريقية. ولكن القيصريين والمجهرين اصطلحوا فاعتنوا بافريقية ونوميديا الحديثة. وكانوا يرون عرابيون ثيرا يهددهم. وكانوا يعرفون ان الهجوم عليه يثير المغرب عليهم فيخضون حروبا طاحنة لا يدرون عاقبتها.

فجعلوا نصب أعينهم اغتيال عرابيون. فاغتاله والي افريقية سكسيوس في سنة 42 ق.م فكان عهده في الملك نحو سنتين. فاستولى الرومان على نوميديا الوسطى فصارت تحت نفوذهم. وهجم بوكوس الثالث وعمه بوكوس الثاني على نوميديا الغربية فملكها. ثم وسعا حدودهما شرقا حتى بلغت وادي مساعة في غرب قرطة. فصارت ملكة بوكوس الثالث وبوكوس الثاني تبتدي من المحيط الأطلسي وتنتهي في غرب قرطة. وكانت الصحراء (جيتوليا) وجبال أوراس. وجبال القبائل غير خاضعة لهما. ودامت هذه البقاع الشاسعة تحت الملكين الموريطانيين إلى ان انقرضت الدولة الموريطانية الغربية في سنة 33 ق.م فأقام اوكتافيوس على تلك البقاع: نوميديا الغربية والموريطانيتين واليين رومانيتين. وفي سنة 25 ق.م ولى الملك يوبا الثاني على نوميديا. ثم ولى في سنة 17 ق.م على الموريطانيتين. فمن هو هذا الملك؟ ما شخصيته؟ وما غرض الرومان من توليته؟

## ولاية يوبا الثاني في المغرب 25 ق.م . 23 م

### نشأة يوبا الثاني وشخصيته

يوبا الثاني ابن يوبا الأول. ولد في سنة 50 ق.م في أول عهد أبيه في الملك. ولما توفي والده في سنة 46 ق.م كان عمره أربع سنين.

فأخذه يوليوس قيصر فعرضه في موكب النصر بروما. وكان يوليوس قيصر قد رأى

في يوبا علامات النبوغ وقوة الشخصية. فأعجب به فتبناه. فسماه يوبا أحياء لاسم أبيه البطل وذكراه. واعتنى بتربيته. فأنشأه نشأة رومانية. وحرص كل الحرص على ان يصبغه بصبغة الرومان ليكون في المستقبل صديقهم لا عدوهم. ولما توفي يوليوس قيصر في سنة 44 ق.م كفله الإمبراطور قيصر أغسطس. خليفته في الرئاسة. وأعطاه لأخته (أوقطافيا) زوجة انطونيوس فاعتنت به كل الاعتناء. وملاؤه بحب الرومان وتمجيدهم. فنشأ رومانيا في عواطفه وعاداته واتجاهه.

وكان يوبا الثاني يحمل وراثة أبيه. وكان طموحا جريئا ذكيا كل الذكاء مثله فصرف أغسطس هذا الطموح إلى طريق العلم. وأبى ان يترك شخصية يوبا الحربية تظهر. فان الشخصية الحربية تورث لصاحبها الحماس والغيرة القومية وتبعث صاحبها على الثورة. فادخل يوبا في مدارس روما فتلقى العلوم والفنون فيها من أساتذتها الرومانيين والإغريقيين. فبرع في اللغتين الإغريقية والرومانية.

### نبوغ يوبا في العلم والأدب وإعجاب أهل عصره بعبقريته وتآليفه

وكان الرومان مفتونين بحضارة الإغريق وبفلسفتهم. وكانوا يستقدمون علماء أثينا وينتفعون بهم في مدارسهم. فروث يوبا الثاني من كافليه حب الحضارة الإغريقية ففتن بأدبهم. وفلسفتهم. وفنونهم. فاقبل عليها في جد وحماس. كما اقبل على العلوم السائدة في عصره فنبغ فيها. وسطع جُمه في سماء العلم والأدب. فأصبح في روما من كبار العلماء والأدباء. ومن يشار إليهم بالبنان في العلوم والأدب.

وكانت شخصية يوبا علمية أدبية. لقد اتصف بكل ما يستلزمه الأدب والعلم من صفات راقية في عقل المرء وخلقه. وكلن ذكاؤه العلمي ومعرفته للنفس الإنسانية قد أجدى عليه في ولايته على الأقطار. فعرف كيف يخدرها. ويورثها السكون للرومان. فتمكنوا من ناصيتها. وأخضعوها لسلطانهم.

كان يوبا الثاني من نبغاء عصره في الأدب والتاريخ. والجغرافية. وفي اللغة الإغريقية والنحو. وفي الطبيعة والكيمياء. فوضع في هذه الفنون تأليف نفيسة باللغة الإغريقية. ومن تأليفه: تاريخ روما منذ نشأتها إلى عهد كافله قيصر أغسطس. وكتاب في جزيرة العرب وجغرافيتها. وكتب عن الآشوريين. وعن المغرب. وألف في التصوير. والتمثيل. والطب. وألف رسالة في أسباب فساد اللغة الإغريقية. كما كتب عن الإغريق كثيرا. وقد بالغ في تمجيدهم وذكر عظمتهم. وذلك لافتتانه بهم وبمدنيتهم.

وكان يوبا الثاني مغرما بالبحث والاطلاع. فأرسل بعثات علمية للبحث عن منابع النيل، وعن أصل الجزائر الخالدات (الكناري).

وكان الإغريق معجبين بعبقرية يوبا الثاني وتأليفه، فأقاموا له هيكلًا في أثينا اعترافًا بفضله ونبوغه!

### حب قيصر ليوبا وتزويجه من كيلوباترة سيلينة

وكانت اوقطافيا أخت قيصر أغسطس، وقيصر يحبان يوبا الثاني ويعجبان به، فزوجاه من كيلوباترة سيلينة التي كفلها أغسطس ونشأت مع يوبا في حجر اوقطافيا.

وكان اوكتافيوس (وهو قيصر أغسطس) قد غزا مصر فانتهز عليها وعلى الملكة كيلوباترة، فاخذ ابنتها التي تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة فسمها كيلوباترة، ولقبها الرومان سيلينة (القمر) إعجابًا بجمالها الفتان. وقد تنبأها أغسطس ونشأت مع يوبا في حجر اوقطافيا أخت أغسطس. ولما كبرت كيلوباترة وصارت في العشرين من عمرها، وكبر يوبا الثاني وصار في الثلاثين، رغبت اوقطافيا في ان يتزوج يوبا كيلوباترة. وكان يوبا يحبها. فنفذ أغسطس رغبتها فأثر يوبا بالأميرة الجميلة التي أعجب بها الرومان فلقبوا بالقمر (سيلينة) فبني بها يوبا الثاني في سنة 20 ق.م.

وكانت سيلينة بنت كيلوباترة ملكة مصر، وأبوها انطونيوس من زعماء الجمهوريين في روما فهي رومانية بالأب والنشأة. وكانت من أسباب جنوح يوبا الثاني إلى الرومان وإخلاقه لهم.

### ولاية أغسطس ليوبا الثاني على مصر

وكان أغسطس معجبًا بالإخلاص يوبا الثاني لروما. فأراد ان ينتفع به في ميدان السياسة. فولاه على مصر في سنة 30 ق.م. فأبدى كفاءة في الإدارة والسياسة ودام في ولايته خمس سنين. إلى سنة 25 ق.م.

### ولاية يوبا على نوميديا

وكان قيصر يحس بالمغرب كله ينتقص ويرقب الفرصة للثورة عليهم. سيما نوميديا. فإنهم وطئوها برجلهم ليزهقوا روحها، ولكنها تتخبط وتأبى ان تهمد، وتتحفز للوقوف على قدميها فتصارعهم. فرأوا ان يولوا عليها يوبا، فان البربر يسكنون له، وهو سيخدمهم، ويمكن الرومان من نواصيهم. وبذلك لهم نوميديا فيتخذونها مستعمرة، ويجعلونها من أملاكهم في المغرب.

وفي سنة 25 ق.م. ولى الإمبراطور أغسطس يوبا الثاني على نوميديا الشرقية والوسطى فدام واليا عليهما إلى سنة 17 ق.م. وقد جعل عنانها يسلس للرومان، والبربر فيهما يألفون القيود الرومانية، وذلك لإخلاقه للرومان. ولذكائه وحنكته السياسية. ثم نقلوه إلى الولاية على نوميديا الغربية والموريطانيتين. والحقوا نوميديا الشرقية والوسطى بالولاية الرومانية في افريقية، واتهموا هذه القطعة الأثيرة من المغرب، فصارت في أحشائهم.

وكانت ولاية يوبا على نوميديا نحو تسع سنين. وكان روماني العواطف والاتجاه، ولكن البربر سكنوا له وأثروه على الرومان. لأنه بربري الدم، ولأنه يتصف بلطف العلماء، ومرونة الساسة، ولم يكن على جفاء وغلظة الرومان العسكريين.

وكانت الدماء البربرية تجعل يوبا يعطف كثيرا من العطف على البربر، ويسحن إليهم وان كان ذلك الإحسان لا يتجاوز بث الحضارة الإغريقية فيهم، ومباهجتها، ونعيمها ولذاتها، وهو شيء يرضي الرومان كل الرضى لأنه الشخصية الحربية في البربر، ويخمد الروح الثورية فيهم، ويهيئهم للقيود والعبودية.

### ولاية يوبا الثاني على نوميديا الغربية والموريطانيين

وكانت ولاية يوبا الثاني على نوميديا الغربية والموريطانيتين الشرقية والغربية في سنة 17 ق.م. فأصبحت البقاع التي يدبرها واسعة الأرجاء، تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى شرق جيجل. وكانت جيتوليا مستقلة عنه لا يخضع له إلا بعض أجزائها الصغيرة في الشمال. وكذلك أوراس، وجبال القبائل.

وكان يوبا الثاني في ولايته الثانية في المغرب كما كان في الأولى رومانيا في أهدافه وعواطفه، ليس همه إلا إخضاع البربر، وتعليمهم مد الأرجل والأيدي للقيود. وقد استطاع بدهائه ان يجعل البربر يسكنون في أول الأمر، ولكنهم لما عرفوا انه روماني في نفسه استعماري في أهدافه ثاروا عليه.

### تعلق يوبا الثاني بالقيصر أغسطس وتمجيده له

وكانت عاصمة يوبا الثاني في ولايته الثانية هي مدينة يول (شرشال) على الشاطئ في غرب مدينة الجزائر. وقد سماها قيصرية تمجيدها للقيصر أغسطس واعترافا بجميله. كما بنى معبدا في (يول) وأطلق عليه اسمه، واعتنى فيه بالعبادة والدين، وامتنالا لأوامر أغسطس الذي دعا دولته إلى الاعتناء بالدين، وإرضاء له. وأقام لأغسطس عدة تماثيل له

في عاصمته. ورسم صورته وصورة زوجته ووالته وأناطها بجدران أهم قصوره. لقد امتلك قيصر قلب يوبا الثاني. وامتلك الرومان كل حبه. فهو بربري بالاسم والدماء وحدها.

### إعجاب يوبا الثاني بالحضارة الإغريقية وبثها في عاصمته

وكان يوبا الثاني مفتونا بالحضارة الإغريقية. فنشرها في عاصمته يول واتخذ كل وسيلة لاستمالة البربر إليها وبثها فيهم. وقد استقدم جماعة كبيرة من العلماء والفنانين والمصورين. والممثلين. والمزخرفين من أثينا لبت اللغة الإغريقية في المغرب. ولتجميل عاصمته. فأقاموا التماثيل في أنحاء العاصمة. وزينوها وزخرفوها. ومثلوا الروايات في المسارح. وجعلوا العاصمة (يول) كأثينا في الحسن والفرن.

### ثورة البربر على يوبا الثاني

وكان البربر ساكنين له في أول الأمر. وكان هو يصطنع رؤساءهم. ويتظاهر لهم بالغيرة والمحبة. فلما عملوا انه القيد الحريري الذي يريد ان يقيدهم للرومان. والشبكة اللطيفة التي ألقاها الرومان على المغرب لاقتناصه وذبحه. ثاروا عليه ثورات عارمة. وكان من ثار عليه الجيتوليون.

وكان الجيتوليون مستقلين تحت أمرائهم لا يخضعون ليوبا ولا للرومان. فرأوا يوبا تمتد يده إلى هامهم ليحنيها. ويحاول ان يمد نفوذه إلى جيتوليا ليخضعها أيضا لروما. فثاروا عليه في سنة 6 م. ثورة عارمة. فاشتبكوا به في معارك طاحنة. فهزموا جيشه. ومرغوه في التراب. فاستغاث بالرومان. فأسرعوا إليه بجيوشهم فاستعان بها في التغلب على الجيتوليين ودفاعهم عنه. ولولا الرومان لقضوا عليه.

وثار عليه في آخر أيامه تيقفاريناخ واتسعت ثورته. وقضى الأعوام الأخيرة من عمره وهو يجهد لإخماد هذه الثورة فمات قبل ان تخمد.

لم يكن يوبا الثاني ملكا بربريا وان سماه الرومان ملكا ليخدعوا بذلك البربر. وافتحوا قلوبهم له. لقد كان واليا رومانيا ولاه الرومان. وكانت حرابهم وجيوشهم هي التي حثى له الهام في المغرب فلم يثر عليه.

لقد خدم يوبا الثاني الرومان. ولم يترك في المغرب من الآثار الحسنة إلا ما جمل به عاصمته يول. انها آثار رخيصة زائلة. كأثار الميت يتركها في المكان بالعطر الذي تضح به أكفانه !

وكانت كيلوباترة زوجة يوبا الثاني قد خلع الرومان عليها لقب ملكة. وكانت تشاركه في مظاهر الملك. فرسمت صورتها مع صورته في نقوده.

وكان من أسباب رسم صورتها في نقوده افتتانه بها وتمجيده للجمال. وتراها في نقوده متوجة برأس الفيل. وخرطومه فوق جبينها كالقرن الذي لا يصلح لزوجها شعاعا غيره... !!

وفي سنة 6 م. ماتت زوجة يوبا (سيلينة) فحزن عليها حزنا شديدا. ودفنها في شرق عاصمته يول وبني على قبرها هيكلًا ضخما.

### وفاة يوبا وعمره ومدة ولايته

وفي سنة 23 م. مات يوبا الثاني فدفن مع زوجته في الهيكل الكبير. ولا يزال هذا الهيكل موجودا إلى اليوم. وقد تركه الروم فلم يقضوا عليه كما قضوا على هيكل مصينيسا الأول في (دقة). وعلى قبور ملوك البربر العظماء وأثار أبطالهم المخلصين.

وكان عمر سلينة لما توفيت 46 سنة. وعمر يوبا الثاني لما مات ثلاثا وسبعين سنة ومدته في الولاية بالمغرب ثمان وأربعون سنة.

وكان يوبا الثاني قد ولد له من كيلوباترة ابن سماه بطليموس. فورث لقب الملك من أبيه. وأقامه الرومان على عرش الولاية ليواصل عمل أبيه في الضغط على هام المغرب لتحنني لهم. كيف كانت نشأة هذا (البطليموس) وشخصيته. ويف كانت سيرته وأثاره في المغرب؟

### ولاية بطليموس في المغرب 23-40م

كان بطليموس قد نشأ في حجر أبيه الغني المتحضر. وأمه الغانية المترفة. فأفسده الترف والتدليل. فكان خاملا ضعيفا. بليد العقل. تملكه شهواته ولذاته. فينصرف إليها. ويقضي جل أوقاته فيها.

وكان أبوه حبه للحضارة الإغريقية قد اختار اسما يونانيا فسماه بطليموس. وقد اختار الرومان هذا الولد الضعيف فولوه خليفة لأبيه لأنه آخر وال بربري يولونه على ما تبقى من الدول البربرية. ثم يزدردون هذا الباقي. لذلك آثروا ان يكون الوالي ضعيفا تسهل إزاحته أو القضاء عليه إذا حان الوقت لابتلاع ما في يده.

وكان الرومان يظنون ان يوبا الثاني هو آخر من يولون في المغرب. ثم يجعلون الموريطنائيتين ونوميديا الغربية ولايات رومانية يحكمونها بأنفسهم. ولكن يوبا الثاني مات والمغرب الأوسط والأقصى يغلي بالثورة العارمة فلم يستطع الرومان ازديادهما. لآبد من زمن آخر. ووال آخر من البربر يختفون وراءه حتى تبرد اللقمة فيبتلعوها. فاضطروا إلى توليه بطليموس.

وكان بطليموس لما ولى في الثامنة والعشرين من عمره. وكانت ولايته في سنة 23 م. فما كاد يستولى على عرش الولاية حتى استمر في طريق الشهوات الذي ألفه. وعكف على لذاته في قصوره. وترك أمور الولاية لحاشيته تتولاها.

وكانت ثورة تقفاريناص لما مات يوبا الثاني قد فترت بعض الفتور. ريثما يستجم ويستعد استعدادا آخر. وحين الفرصة فيعيد الكرة على الرومان. ولما مات يوبا الثاني الذي كان فيه كثير من الحزم قاوم به الثورة. وتولى بطليموس الضعيف. وجد تقفاريناص فرصته فأعاد الكرة على الرومان. فمن هو هذا الثائر البربري البطل. ومتى ثار. وما ادوار ثورته التي صفق لها المغرب وأيدها؟

### ثورة البطل المخلص تقفاريناص

كان تقفاريناص من البربر. وكان غيورا على قومه. مخلصا لامته. وكان شجاعا صنيديا. ذا شخصيته حربية ممتازة.

وكان تقفاريناص ضابطا في الجيش الروماني فأتقن أساليب الحرب الرومانية. وبرع في قيادة الجيوش. فأبى ان يترك مواهبه للرومان. فوهب نفسه للمغرب فقادته في ثورته.

وكان المغرب يغلي حقا على الرومان. سيما جبال أوراس. وجبال القبائل. وتلال المغرب التي يحل فيها الأبطال من أبنائه. بودهم لو نزلوا من جبالهم كتائب ليسحقوا الرومان. ولكن يعوزهم القائد الحنك الذي يدرهم تدريبا عسريا. ويقودهم في الحروب. فعرف تقفاريناص هذا الاستعداد في البربر. فذهب إلى جبال أوراس المنيع الواسعة فشرع هناك يستعد للثورة. ويدرب أبناء أوراس ومن أسرع إليه من البربر على احدث الأساليب في الحرب. ثم أعلن الثورة على الرومان.

كان ذلك في سنة 17 م. في عهد يوبا الثاني. فنزل تقفاريناص البطل في جنوده من جبال أوراس فهجم على بعض المراكز الحربية الرومانية في نوميديا فقتل جنودها واخذ أسلحتها. فرأى البربر ثورة تقفاريناص فهللو لها. فانتشرت الثورة في المغرب من خليج

سرت في طرابلس إلى المغرب الأقصى. فأرسل البربر في تلك البقاع إلى تقفاريناص ببايعونه على الثورة. ويؤيدونه في نضاله.

وكان كاملوس والى الرومان في الولاية الرومانية في افريقية وادعا في قصره. فبلغته أنباء الثورة فارتاع لها الارتياح. فجهز جيوشه فسار ليخمدتها قبل ان تتقوى وتنتشر نيرانها. فرأى تقفاريناص جيوش الرومان وقوة كاملوس فأبى ان يخوض معهم معركة كبرى. فعزم على حرب العصابات. والاستعانة بالجيتوليين الأقوياء. فتقهقر إلى جيتوليا فتحصن فيها.

### عداوة جيتولية للرومان وتأيدها لتقفاريناص

وكان الجيتوليون يكرهون الرومان. فبودهم لو هجموا عليهم وظهروا المغرب منهم. فلما ثار تقفاريناص فرحوا فرحا كبيرا. فلما ذهب إليهم أزروه وأيدوه. فألف منهم جيشا دريه أحسن تدريب. وعلمه الأساليب الرومانية في القتال وقضى في الصحراء وهو يستعد نحو عام. وفي سنة 20م. هجم تقفاريناص بجنده من جيتولية على الرومان في وادي باجيدة في ناحية لمبس بشمال أوراس. وكان الرومان معسكرين بقوة كبيرة هناك. ففاجأهم تقفاريناص بكتائبه الباسلة التي أحاطت بهم فهزهم شر هزيمة. فاحتل مراكزهم فغنم منها غنائم كثيرة. ثم أسرع إلى مدينة تالة في غرب افريقية فحاصرها ليحتلها. فأرسل الرومان عليه جيوشا جرارة علم انه لا قبل له بها فرجع إلى حرب العصابات. فاعتصم بالصحراء. وصار يغير على المراكز الرومانية كلما وجد فرصة فيضربهم الضربات القاصمة.

وكان البربر في أنحاء المغرب يؤيدون تقفاريناص. وكان الرومان مرتاعين بهذه الثورة يحسبون لها ألف حساب. وكان تقفاريناص يشعر بالقوة ويعتد بكثرة أنصاره في المغرب. فأرسل إلى إمبراطور الرومان (تيباريوس كلوديوس) يعرض عليه الصلح على ان يرجع الرومان إلى الولاية الرومانية ويكتفوا بها. ويجلوا عن بقية افريقية ونوميديا ليرجع إليها ملك أجداده. فرفض الإمبراطور طلبه. فأرسل إلى الجيتوليين فواعدهم بالعفو ان هم تخلوا عن تقفاريناص فوضعوا السلاح. وجعل جائزة كبيرة لمن يغتال تقفاريناص. ولكن الجيتوليين كانوا مخلصين للوطن ولزعيمهم وقائدهم تقفاريناص. فازدادوا حماسة للثورة. وحبا لقائدها.

وفي سنة 21 عين الإمبراطور تيباريوس لحرب تقفاريناص قائدا آخر أكثر كفاءة من

كاملوس هو ابليسوس وأرسل معه جيشا كبيرا. فأمضى ابليسوس عاما كاملا وهو يطارد تقفاريناص ليقضي عليه فلم يستطع. وكان ابليسوس خوفا من تقفاريناص لا ينزل بجيشه إلا في الأماكن الحصينة خوفا من هجمات تقفاريناص المفاجئة عليه. ودام تقفاريناص عاما وهو ينازل بعصاباته ابليسوس حتى تكاثر عليه الرومان. فالتجأ إلى الصحراء ليستعد وتستجم قواه. ويظفر بفرصته ليجدد كرتة على الرومان.

### مؤازرة يوبا الثاني للرومان في محاربة البطل تقفاريناص

وكان يوبا الثاني في أثناء هذه الحروب هو الوالي على غرب نوميديا وعلى الموريطانيتين. وكان يساعد الرومان في محاربة الثورة. ويؤيدهم بكل ما يستطيع ليقضوا عليه. فمات يوبا الثاني في سنة 23 ق.م. وتقفاريناص مرابط في الصحراء يرقب الفرصة. ولما مات يوبا وولي مكانه ابنه بطليموس الضعيف. وجد تقفاريناص الفرصة. ففكر على بعض المراكز الرومانية في الشمال فحاصرها وشدد عليه الخناق.

وكان الرومان مهتمين كل الاهتمام بهذه الثورة التي تزعزع بنيانهم في المغرب لتهدمه. فعينوا لمحاربة تقفاريناص قائدا ثالثا من اكبر قوادهم هو (دولا بيلا) فأقام (دولا بيلا) مراكز عسكرية كثيرة في حدود الصحراء لتمنع تقفاريناص من الالتجاء إليها. وقتل جماعة كبيرة من رؤساء الصحراء الذين يؤيدون تقفاريناص وينصرونه. ليرهب الجيتوليين فيكفوا عن مساعدة الثورة. ولكن الثورة لم تزد إلا تأججا. فعلم دولا بيلا انه لا يستطيع التغلب على تقفاريناص بالهجوم السافر وهو في عصاباته الباسلة. فلا بد من الهجوم المفاجئ عليه وهو آمن وفي قلة من الجنود. فصار يرصده. فالتجأ تقفاريناص وهو في طريقه إلى موريطانيا حيث ينوي ان يحارب الرومان - التجأ إلى قصر خرب في وسط غابة كثيفة ليستريح فهجم عليه دولا بيلا غي جيشه الكثيف فطوق المكان الذي التجأ إليه. وعزله عن أنصاره. فعلم تقفاريناص انه مقتول أو مأسور. فاختر الموتة الكريمة. فخرج من ملجئه ففكر على الرومان هو وصحبه فقتل منهم جماعة كبيرة فقاتل حتى قتل.

كانت هذه المعركة التي قتل فيها البطل الخالص تقفاريناص في سنة 24 م. ومات تقفاريناص وخمدت ثورته. بعد ما حارب الرومان الأقوياء ثماني سنين. وكبدهم الخسائر الفادحة. واقض مضاجعهم أعواما كثيرة.

ان بعض المؤرخين قالوا ان تقفاريناص إنما سار إلى موريطانيا ليجعلها ميدان حربه

لان حاشية بطليموس قد طلبت منه ذلك وواعدته بالعون والتأييد. ولا أرى ان تكون حاشية هذا الضعيف الذي يعبد الرومان ويطأ على رقاب بني جنسه صافية تتسم بالوطنية فتتحمس للثورة. وإذا صح ان الحاشية دعتة فان ذلك مكيدة لإخراجه من الصحراء ليحاصره الرومان في الشمال. ويجدوا فيه فرصتهم.

وكان بطليموس يعين الرومان في حروبهم لقمع الثورة بكل ما يستطيع. لقد أعانهم بجنوده. وبكل ما استطاعه من قوة. وأرى ان جنوده وعيونه هي التي مكنت دولا بيلا من الظفر بتقفاريناص. لولاهم لاستعصى عليه.

وأرسل مجلس الشيوخ الروماني هدية سنوية إلى بطليموس وشكروه شكرا بالغا على إعانتهم حتى استطاعوا التغلب على الثورة. وحمل احد الشيوخ الهدية ورسالة الشكر. وكانت الهدية هي كرسي من العاج. والصولجان. وإكليل من الذهب. والحلة المطرزة. وهي مظاهر الملك لأباطرتهم. أخفوه بها ليزداد ركوعا لهم وتكررا للمغرب. ولكن هل سيظل الرومان يتملقون بطليموس ويتمسكون به. إنهم لما قضوا حاجتهم به. وجثموا على المغرب وتمكنوا منه. ثقل عليهم. فتخلصوا منه كما يتخلص المرء من الجورب النتن المبتل إذا جاز المكان المقرر ودخل في المناطق الساخنة ! لقد قتلوه. وتلك عاقبة من يخون وطنه. ويمشي في ركاب المستعمرين.

متى قتل هذا الرجل ولماذا؟

### نهاية بطليموس 40م

كان القيصر كايوس جيرمانيكوس الملقب بقاليقولا هو إمبراطور الرومان. وكان من ذرية انطونيوس جد بطليموس من أمه. فهو ابن خال بطليموس. وعزم الرومان ان يستريحوا من بطليموس وحاشيته التي يحكمون بواسطتها في المغرب ليحكموا حكما مباشرا ما تبقى منه في يد بطليموس. وكانوا يخافون ان يثير عليهم البربر ويستغل كره البربر لهم ذا عزلوه أو القوا عليه القبض في المغرب. فاستدعاه الإمبراطور ابن خاله إلى رما ليحضر حفلة كبيرة يقيمها الرومان في عيد من أعيادهم. فذهب بطليموس في حاشيته وبهته. وفي أثناء الحفلة وهو آمن. وفي مكان سرور. أمر الإمبراطور قاليقولا بالقبض عليه. وقالوا ان السبب هو غيرته من حلة بطليموس الأرجوانية. وأبهته التي لفتت إليه الأنظار في الحفلة. إذا صح هذا فانه على الذئب مع الحمل لما هم بافتراسه. ان السبب هو إنهم قد عزموا على التخلص منه ليستولوا على ولايته. فاغتنموا فرصة أمنه في الحفلة فقبضوا عليه. قد تكون أبهته وكبرياؤه وانتفاشه انتفاش الملوك وهو

ضعيف حقير عندهم ما أثار سخط الإمبراطور عليه. فأراد ان يظهر مكان الاحتفال من منظره الذي يؤذيه فقبض عليه في ذلك المكان. إذا كان مظهره هو السبب سخط الإمبراطور فانه سبب بسيط. والسبب الأكبر هو ما قلنا.

وسجن قاليقولا بطليموس في سجن مظلم بارد. وقطع عنه الطعام والشراب. ولم يترك له ماء غير مياه الميازيب العكرة التي تنهال من سطح السجن وتتجمع في سرداب بحبسه. وبقي بطليموس ابن الحرير الناعم أياما في ذلك السجن. والجوع والبرد والظلام تعذبه. ثم أرسل إليه ابن خاله الإمبراطور من قتله.

كان مقتل بطليموس في سنة 40 م. وكانت سنه لما قتل خمسا وأربعين سنة. ومدة ولايته سبع عشرة سنة. فستولى الرومان على الموريطانيتين وجعلوهما ولايتين رومانيتين. ولاية موريطانيا القيصرية. وهي الشرقية. وولاية موريطانيا الطنجية وهي الغربية.

وكان ادمون من موالى بطليموس. وهو من البربر. فرفع لواء الثورة في المغرب على الرومان بعد مقتل صاحبه. فأيده الجيتوليون وبقيت ثورته إلى سنة 42 ففضى عليها الرومان.

وكان بطليموس هو آخر بربري يحكم في المغرب. ثم تسلط الرومان وقضوا على ظل السيادة والملك التي بقيت للبربر في عهد بطليموس. ذلك الملك الشامخ الذي ابتدأ في عهد نارفارس وزال بموت يوبا الأول وعرابيون. ثم بقيت بقية ضئيلة منه وظلال خفيفة في الاستقلال الداخلي الذي كان ليوبا الثاني وبطليموس.

هذه أنباء الدولة البربرية الكبرى التي أنشأها نارفارس في نوميدية قد أثرنا ان تتسلسل حلقاتها إلى ان تنتهي. فما هي أنباء المغرب الأقصى ومالكه؟

## الممالك البربرية في موريطانيا الغربية

125 ق.م . 23م.

كان الله قد ادخر المغرب الأقصى للإسلام لينشئ لنا الدول الإسلامية البربرية الكبرى: الدولة الإدريسية. ودولة المرابطين؟ ودولة الموحدين؟ ودولة بني مرين. ودولة الحفصيين أيضا فإنها فرع من الموحدين. فلو أجهد نفسه قبل الإسلام لاستنفد طاقته فيدركه الإعياء والهرم فينام كما نامت كتامة في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى لما كان المغرب الأقصى والأوسط يصارع الأمويين والعباسيين ليزيحهم عنه فينشئ دوله الإسلامية العادلة الزاهرة. لقد كان الزاب (نوميديا) حينئذ يغط في نومه. وكان العباسيون والأغالبة يجثمون عليه. ولم ينحرك إلا في القرن الثالث لما أفرط الأغالبة في الإساءة إليه.

ان موريطانيا الغربية إذا كانت نهضتها قبل الإسلام متأخرة عن نهضة افريقية. ونوميديا وموريطانيا الشرقية؛ ودولها كانت اقل شأنًا. واضعف حضارة. واقل جدوى للمغرب الكبير. فان دولها الإسلامية سيما دولة الموحدين كانت أعظم. وأوسع رقعة. وأعظم جدوى للمغرب الكبير. من كثير من الدول التي نشأت في افريقية ونوميديا في العهود الإسلامية.

ان عدم ثورة الدولة البربرية في موريطانيا الغربية على الرومان. وعدم خوضها للحروب الطاحنة معهم -وهو ما كان المؤرخون القدماء يعنون بتسجيله- وبعدها عن قرطاجنة. وموقفها موقف البرودة في الحرب البونيقية. جعل البونيقين والرومان لا يعتنون بتاريخها. ولا يسجلون أخبارها لتصل إلينا.

وكانت علاقة الملوك في موريطانيا الغربية بنوميديا وملوكها سيئة في اغلب العهود. لذلك يعتن علماء البربر في الدولة النوميديية بأخبار جارتهم موريطانيا الغربية فيسجلوها. فينقلها عنهم الرومان والإغريق الذين دونوا أكثر ما وصلنا من تاريخ المغرب قبل الإسلام؛ لهذا كانت المادة في تاريخ موريطانيا الغربية قبل الإسلام قليلة.

ان الذي لا شك فيه هو ان موريطانيا<sup>107</sup> الغربية قد أخذت بالحضارة البونيقية فنهضت

107 - موريطانيا وموريطانيا تكتب بالبناء وعدمها. وكذلك نوميديية وجيتولية.

وانتشر فيها العمران. وسرت الثقافة في مدنها. وازدهرت فيها الفلاحة. وخرج البربر فيها من بداوتهم.

لقد كان المغرب الكبير وطنا واحدا للبربر. وكان الاختلاط على أتمه بينهم. فلا بد ان تتأثر موريطانيا الغربية بموريطانيا الشرقية. ونوميديا. وافريقية. ثم ان البونيقيين الذين كانوا اكبر عامل لنهضة المغرب. وكانوا يجوبون بقوافلهم التجارية أنحاء موريطانيا الغربية حتى الصحراء منها. ويؤسسون المراكز التجارية في كل أنحاءها. سيما في الساحل للإقامة الدائمة. وكان ساحل موريطانيا الغربية هو طريق البونيقيين إلى الأندلس. وكان تابعا لقرطاجنة في أيام عظمتها وعزها في القرن الخامس والرابع واغلب القرن الثالث قبل الميلاد.

لقد كانت في موريطانيا الغربية حضارة راقية. وان الممالك الواسعة التي نشأت فيها لدليل على التحضر والرقى.

كانت الممالك البربرية في موريطانيا الغربية قد نشأت في شمال المغرب. وكانت عاصمتها هي طنجة كما أرى أو وليلي. وكانت وليلي هي عاصمة يوبا الثاني وابنه بطليموس في موريطانيا الغربية. كما كانت مقرا للرومان بعدهما. وتسمى أيضا قصر فرعون.<sup>108</sup> وكانت تلك الممالك البربرية تشتمل على موريطانيا ووسطها. أما جبال المصامدة. والصحراء فلا أرى انها قد خضعت لها. لقد آثرت الاستقلال تحت أمرائها وزعمائها كما رأينا في جبال أوراس وةجبال القبائل وجبال نفوسة. وفي جيتوليا في نوميديا وموريطانيا الشرقية.

### الملك بوكار

ان هذه الدولة التي نشأت في هذه البقاع أول من عرفنا من ملوكها هو بوكار الذي مد مصينيسا بجند في سنة 206 ق.م. لما رجع من الأندلس الإخماد ثورة مزوطيل في مملكته. ولا ندري هل بوكار هو أصل عائلة بوكوس الأول الذي تعاقب أبناؤه على الملك أم هو من قبيلة أخرى.

### بوكوس الأول

وتولى الملك بوكوس الأول. وقد اصهر إليه في حوالي سنة 114 ق.م. الملك يوغورطة.

108 - قد تكون سبب هذه التسمية ان يوبا الثاني انشأ فيها قصرا له ولزوجته المصرية الأم والنشأة (كيلوباترة) على النحو الفرعوني فسميت بهذا الاسم.

ثم استعان به في حروبه مع الرومان في سنة 107 ق.م. ثم تسلط عليه الرومان فجنح إليهم فأعلنهم في القبض على يوغورطة في سنة 107 ق.م. فجازوه بان أعانوه على الاستيلاء على موريطانيا الشرقية. فامتدت دولته فصارت من طنجة إلى غرب صلداى (بجاية) وقد مات بوكوس الأول في سنة 80 ق.م. وكانت مدته في الملك نحو أربعين سنة.

### بوغيد الأول وبوكوس الثاني

واقتسم ابنا بوكوس الأول مملكته لما مات في سنة 80 ق.م. وهما بوغيدة الأول الذي اخذ موريطانيا الغربية. وبوكوس الثاني الذي اخذ موريطانيا الشرقية. ثم نشبت الحرب بين ماريوس وصيلا فاشتغل الرومان بعضهم ببعض فصاروا لا يستطيعون أجد صديقهم بوكوس الثاني وأخيه. فهجم مصينيسا الثاني على موريطانيا الشرقية فاستردها من بوكوس الثاني. ثم ردها إليه الرومان جزاء إعانته لهم على يوبا الأول في سنة 46 ق.م. وأضافوا إليه نوميديا اسطيفية فصارت دولته تمتد من وادي ملوية إلى غرب ميله وشرق جيجل. وكان الإخوان بوكوس الثاني وبوغيد الأول متحدين. حتى ان موريطانيا الشرقية التي سماها الرومان بعد يوغورطة نوميديا الغربية قد قال بعض المؤرخين انها أعطيت لبوغيد والحق انها أرجعت لبوكوس الثاني. ولكنها لاخادهما صارا كدولة واحدة. ودام بوغيدة الأول ملكا على موريطانيا الغربية إلى ان توفي في سنة 44 ق.م. وكانت مدته في الملك أربعاً وأربعين سنة.

### بوكوس الثالث

وبعد بوغيد الأول تولى الملك على موريطانيا الغربية ابنه بوكوس الثالث في سنة 44 ق.م. زحف على موريطانيا الشرقية ونوميديا اسطيفية فملكهما من ابن عمه بوغيد الثاني. فاتسعت مملكته فصارت من طنجة إلى وادي مساغة في غرب قرطة. فدام ملكا على هذه البقاع آلة ان مات في سنة 33 ق.م. فاستولى الرومان على مملكته. ثم جعلوا عليها في سنة 17 ق.م. يوبا الثاني ثم ابنه بطليموس فتوليا عليها للرومان إلى ان قتل بطليموس في سنة 40 م. فحكم الرومان حكما مباشرا تلك البقاع وقسمت إلى ولايتين رومانيتين موريطانيا القيصرية. نسبة إلى القيصرية عاصمتها وهي شرشال. وهي موريطانيا الشرقية. وموريطانيا الطنجية. وكانت مدة هذه الدولة نحو قرن ونصف. وأول ملوكها كما أرى هو بوكار وآخرهم بوكوس الثالث.

أما بوكوس الثاني فانه توفي في سنة 40 ق.م. وكان قد حضر حروب الرومان مع عرابيون

الذي اخذ منه نوميديا الغربية. وبعد اغتيال الرومان لعربايون استرد نوميديا الغربية. واقتطع جزءا من غرب نوميديا الوسطى فصارت حدوده تنتهي في وادي مساعة.

### بوغيدة الثاني

ولما مات بوكوس الثاني ابنه بوغيد الثاني ملكته وفي سنة 38 ق.م ذهب إلى الأندلس بجيوشه لنصرة انطونيوس الذي كامن في حرب مع اوكتافيوس فأغرى هذا الأخير بوكوس الثالث بالهجوم على ملكة بوغيد ففعل. فاستولى عليها. ولم يستطع بوغيد استردادها فذهب إلى مصر فمات فيها.

ان استقرار دول هؤلاء الملوك وطول أمد اغلبهم في الملك يدل على رضى الرعية عن سيرتهم فيها. أما سيرتهم مع جيرانهم فقد كانت خبيثة. إنهم سبب زوال الدولة البربرية الكبرى. وتمكن الرومان من ناصية المغرب. لولاهم ما استطاع الرومان ان يتسلطوا على المغرب!

وكان هؤلاء الملوك ما عدا بوكار جبناء ذوي أطماع وحسد لجيرانهم. ولم تكن صفحتهم نقية في المغرب.

ثم جثم الرومان على المغرب الكبير بعد ان صرعه. فأورثه سكرته الثقيلة. فرتع فيه قرونا عديدة. فما هو سبب سقوط الدولة البربرية الكبرى التي كانت تدافع الرومان وحفظ المغرب الكبير؟

### أسباب انقراض الدولة البربرية الكبرى

أننا إذا نظرنا إلى عمر الدولة البربرية الكبرى التي أنشأها نارفاس وكانت عاصمتها قرطبة لا تعجب لموتها. فهي قد استوفت عمرها. وعاشت ما يعيش أمثالها من الزمن لقد عاشت نحو ثلاثة قرون. ولكننا إذا نظرنا إلى شبابها وقوتها أيام زوالها. نعجب لذلك ونحكم بموتها سريعا. ان فيها من الطاقة والشباب ما يمسكها في الحياة قرونا أخرى من الزمان. ان الهدوء والهناء الطويل. والانغماس في الملاذ والشهوات. والركون إلى الراحة والكسل. هذه العلل الفتاكة التي تورث الهرم للأمم. وتصيبها بكل الأمراض فتلقى حتفها: ان هذه العلل لم تصب بها الدولة البربرية. ان كل ما ظفرت به من الهدوء والهناء إنما هو في أول عهد مصينيسا ووسطه. وكان مملوءا بأعمال الإنشاء والتعمير. فلم تركز الدولة إلى الراحة. ولم تنغمس في الملاذ والشهوات. فدامت في شبابها. بل ازدادت شبابا وقوة بما أسبغ عليها مصينيسا من علم وإصلاح. وفي آخر عهد مصينيسا دخلت في حروب طاحنة مع البونيقين وهذه الحروب أرهفت قواها واذكت شبابها. ومنعتها من الضعف الذي يصيب الأمم الهائلة الهناء الدائم. ثم دخلت الدولة في عهد الهناء والهدوء في عهد مصينيسا. وكان خيال العدو الجديد وهو الرومان المستقرون في أفريقية يرهف قواهم.<sup>109</sup> ويمنعهم من الغفلة والنوم والإخلاق إلى الراحة. فشتموا عن سادهم فازدادوا قوة. واستعدوا للعدو الجديد.

وجاء عهد يوغورطة. فكان كله عهد نضال وحروب. وهو ما حفظ شباب الدولة. وزادها قوة وحيوية. ثم اتصلت حروب الدولة مع الرومان إلى وفاة يوبا الأول. ان هذه الحروب التي خاضتها الأمة. والعدو القوي الذي يجاورها جعلها تتمسك بأسباب القوة والشباب فلم تهزم. ولم تتصدع تصدع البنيان الذي يتداعى للسقوط. فلو تركت هذه الدولة لعاشت مدة طويلة من الزمان حتى تستوفي كهولتها وشيخوختها. ولكنها احتضرت. وقصفت. وفروعها متلئة بالزهور. ريانة يغص جذعها وغصونها بالحيوية والطاقة الكبيرة. ولكن ما هي الأسباب التي جعلت هذه الدولة تلقى حتفها في قوتها وشبابها؟

109 - ضمير الجماعة هنا يرجع إلى البربر الذين يكونون الدولة.

فحكموها حكما مباشرا. وبقيت الأجزاء الأخرى فظلت على الاستقلال الداخلي إلى سنة 40م.

ان عمر الدولة البربرية كدولة مستقلة استقلالاً تاماً لا سلطان للرومان عليها هو 194 سنة فقط من سنة 240 إلى سنة 46 ق.م.

وجاء الرومان فجثموا بكلكلهم الثقيل على المغرب. فصار مستعمرة لهم ! فمن هؤلاء الرومان؟ أين وطنهم؟ وما أسباب عظمتهم؟ وما حال المغرب في عهدهم؟



ان سبب انقراض هذه الدولة ليس هو ضعفها وتفوق الرومان عليها في الشجاعة والقوة الحربية. لقد كانت أشجع من الرومان. كثيرة العدد والعُد. وقد صارعها الرومان طويلاً فلم يصرعوها. ان في شجاعة أبنائها. وثباتهم. وفي مناعة جبالها وصحرائها التي يستطيعون بها حرب العصابات. ما يجعلها تتغلب على الرومان وتدحرهم. وتطهر المغرب منهم لو اتصلت تلك الحروب. ولكن الدولة البربرية الباسلة لا تشتبك في حرب عنيفة مع الرومان إلا ويضربها جيرانها من خلفها. ويقيدونها للرومان فيتغلبون عليها. فهذا يوغورطة يؤسره للرومان بوكوس الأول. وكذلك يرباص قتله جيشه. ويوبا الأول ضربه أبنائه من خلفه فقصموا ظهره. وقد كاد يهزم بوليوس قيرص. ويملك افريقية. ويظهرها من الرومان. ويسد باب المغرب في وجوههم. فلو ترك يوبا لقضي على الرومان. وكذلك يوغورطة لو بقي فواصل حرب العصابات على الرومان لهزمهم. ولكن حسد الجيران وجبنهم وأطماعهم جعلهم يطعنون الدولة البربرية من خلفها ويصرعونها للرومان.

ان الذين طرحوا الدولة البربرية أرضاً بغيرهم. ثم جثم عليها الرومان فأزهاقوا روحها إنما هم البربر: بوكوس الأول وأبنائه. فلو أخذوا معها وحفظوا ظهرها لانتصرت على الرومان. فينجوا المغرب من سباع البحر وجراد روما الذي امتص حياته وجرده من نضارته؛ وتعيش الدولة البربرية الكبرى. وتعيش معها دولة بوكوس الأول وأبنائه. أو تتحد مع جارتها فتصير دولة واحدة من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي. كما تمنى مصينيسا وكل الأحرار المخلصين في المغرب.

لو اتخذ المغرب في الزمن القديم فكان دولة واحدة ما استطاع الرومان التغلب عليه. ولو كان متحداً في القرن الثالث عشر الهجري ما استطاع أحفاد الرومان اللاتينيون استعمارها والتغلب عليه. وهكذا لا يزال المغرب ضعيفا يتعرض لتسلط الأعداء ما لم يكن دولة واحدة متماسكة على النظام الفدرالي الذي يصلح به. إذا تحقق هذا للمغرب. فإنه يرفع رأسه. يكون قوة كبرى يلود بها الإسلام والمسلمون. ويجدي الأمة الإسلامية أكبر الجدوى.

وكانت نشأة الدولة البربرية في سنة 240 ق.م. أو قبل ذلك. وزوالها وحكم الرومان للمغرب كله حكماً مباشراً في سنة 40م. فعمرها قرنان وثمانون سنة أو أكثر.

لقد استطاع الرومان ان يمسكوا بخناق الدولة ويذهبوا روحها. ويقطعوا أوصالها في سنة 46 ق.م. لما هزموا يوبا الأول بالخدعة والدس. وتسلطوا على بعض أجزائها

العهد الروماني بالمغرب  
146 ق.م - 430 م.

## الرومان

أصلهم، وموطنهم، وأسباب عظمتهم.

لقد اعتدنا ان ننظر إلى الرومان على إنهم مستعمرون. قد أودوا بدولنا. واستعمروا مغربنا وكانوا سبب تأخره وضعفه قرونا طويلة من الزمان؛ فلا يبدو لنا إلا الجانب القائم الكريه الذي يبعث على الاحتقار من شخصيتهم. أما أسباب قوتهم وتقويتهم على الأمم التي عاصرتهم حتى ملوكها واستعمروها فمما لا نطيل الحديث فيه. وأنا سأعطي لهذا الجانب حقه في هذا الباب لاستدراك ما فات مؤرخينا. فان التاريخ لتربية الأمة. وللموعظة والاعتبار. فلا بد من ذكر أسباب القوة والعظمة للأمم والشخصيات التي سادت ونبغت لتأخذ بها امتنا فتسعد؛ وتكون فاضلة، قوية، سيده. حظى برضى الله، وتفوز باحترام العالم.

### من هم الرومان؟

الرومان ! امة قوية البنيان، ومتينة الأركان، عظيمة الشأن ! كانت كأميركا أو كروسيا في هذا الزمان. بارزة الشخصية، ترنو إليها أعين العالم بالإعجاب، وبالرغبة أو بالرهبة، وبالحبة أو بالمقت الشديد.

وقد استعمرت الأمة الرومانية كل من يجاورها من الدول. وكل من يسكن حول البحر الأبيض المتوسط من الشعوب. بمتانة أخلاقها، وقوة نفوسها، وبأخادها وتأزرها، وإخلاصها للوطن، وتضحيتها في سبيل المصلحة العامة. لا يتحاسد أبناؤها فيتفرقوا ويتناحروا، ولا يتنازعون فيفشلوا، بل كانوا يدا واحدة في السراء والضراء، وبنيانا مرصوفا في النعماء والبأساء، فسادوا بهذه الأخلاق العظيمة أما كانت أكثر منهم في العلم والغنى والمدينة، وتغلبوا بهذا الاخاد، وبقوة الأخلاق على شعوب كانت أكثر منهم في العدد، وأقوى في الشجاعة، وامهر في الفروسية، ولكنها اقل منهم في الاخاد، والتأزر، والإخلاص للأمة، وفي النظام، والطاعة للرؤساء.

كان الرومان امة قوية، ودولة عتيده، حتى ضعفت أخلاقهم بالحضارة، وتغيرت نفوسهم بالأعراق الدخيلة، وذهب اخادهم بالأثانية، فتكالبوا على الرئاسة، وتناطحوا على السلطان، واستولى على نفوسهم حب المال والشهوات، فضعفوا وخمدت جذوتهم فبادوا.

## أصل الرومان وموطنهم

الرومان أصلهم من اللاتين. وينسبون إلى عاصمتهم رومة. فهي نواة دولتهم. وسبب اتخاذهم. وموطنهم هو إيطاليا.

وكان لرومه موقع ممتاز مكن الرومان من توحيد إيطاليا وجعلها دولة واحدة. والمزج بين عناصر سكانها فصارت أمة واحدة متساندة. كما كان لإيطاليا موقع ممتاز جعل الرومان يتصلون بمختلف الشعوب المتقدمة. فيقبسون من حسناتها. ويستولون عليها بعد ذلك.

«كانت رومة في وسط إيطاليا. وإيطاليا في وسط العالم القديم. انها تشق البحر المتوسط في وسطه فهي وسط الوسط. وهذا الموقع الممتاز هو الذي جعلها تبسط نفوذها. وتشمل بسلاطنتها ظل ذلك البحر المتوسط.<sup>110</sup>»

## إيطاليا وعناصر سكانها في القديم

إيطاليا هي شبه جزيرة طويلة تمتد من جبال الألب إلى قرب البلاد التونسية. بين البحر الأدرىاطيقي شرقا. والبحر التيرانيانى غربا.

وتنقسم إيطاليا إلى قسمين: إيطاليا الإقليمية (أي البرية) شمالا. وإيطاليا البحرية وهي شبه الجزيرة جنوبا.

فأما إيطاليا الإقليمية أي سهول (بو) فقد استولت عليها من قديم الزمان أقوام من الغاليين. فلذلك لقبوها باسم (غالية أمام الألب) لتمييزها عن غالية وراء الألب وهي فرنسة اليوم.

وأما إيطاليا البحرية التي شبهوها بالسوقاء أي بحذاء طول (botte) فهي وحدها التي كانوا يطلقون عليها في القديم اسم (إيطاليا) وقد أقام بها أقوام مختلفة: الأثوريون. وهم في الشمال أي في جهة أثوريا. وهي الجهة التي تسمى الآن الأثوريون تسكانة (Toscane) بين نهر التيبير ونهر ارنوا. وأهم مدنها بلنسة في القديم. ثم جاوزوا نهر التيبير وامتدوا على الساحل الغربي. واستولوا على جهة كمبانيا على خليج (نابلي) وأهم مدنها (قابو).

وكان الأثوريون أصحاب مدينة عريقة. شبيهة بالمدينة الفينيقية. وكانوا على تقدم كبير في الفلاحة والصناعة.

110 - هذه النصوص في تعريف إيطاليا وسكانها من مدينة المغرب العربي وهي بين قوسين.

## الإغريقيون

ومن سكان إيطاليا الإغريقيون. وكانوا في جنوب وفي شرق صقلية. وهو ما يعرف باسم (إغريقية العظمى). وأهم مدنها نابلي. وتارنتة بإيطاليا. وسرقوسة بصقلية. وفي هذه المدن الزاهرة بصناعاتها وتجارتها. الممتازة بموقعها في جهات خصبة على البحر كانت تشرف الحضارة الإغريقية. وترسل أنوارها إلى جيرانها.

وكان فيها من الرياضة البدنية. والثقافية العقلية. والرقعة الشعرية. ومن الفلسفة والأدب والموسيقى والفن. مثل ما كان ببلاد اليونان تماما.

## اللاتينيون

وفي إيطاليا اللاتينيون. وهم في وسطها. كانوا شعوبا وقبائل خشنة. وهم رعاة أو فلاحون. وكانوا بين شعبيين متمدنين الأثوري شمالا. والإغريقي جنوبا.

وكان اللاتينيون ينقسمون إلى أربعة شعوب. وكل شعب إلى قبائل. وهذه الشعوب هي: اللاتينيون. والصابيون. والأبريون. والسمنيون. فأما اللاتينيون فإنهم كانوا يقيمون بناحية (لاتينيا) وهي سهل نهر التيبير بين أثوريا وإغريقيا العظمى. فاخذوا عنهما الحضارة والمدنية. وتعلموا الفلاحة وفن البناء. واقتبسوا منهما الدين. وطرق السياسة. فترقوا وفتحت عقولهم. فكونوا الدولة الرومانية بعد تأسيس رومة في 21 ابريل سنة 754 ق.م فوق هضبة البالاتن في ارض لاتينيا قرب مصب نهر التيبير.

وأما الصابئون والأبريون! والسمنيون فقد كانوا يسكنون جبال الأبروز التي تحيط بسهل لاتينيا وترتفع حوله كأنها أسوار من الصخور. وكانوا فقراء. بعيدين عن كل حضارة واختلاط وكانوا على غاية من الشراسة والفظاظة والغلظة<sup>111</sup> فما زال اللاتينيون سكان السهول المثقفون يجاهدونهم حتى أخضعوهم وصبغوهم بصيغتهم فكانوا جزءا من الأمة الرومانية.

وكان اغلب اللاتينيين فلاحين. فلذلك امتازوا بمتانة الأخلاق. وقوة النفوس. وصحة الأجسام فانشأوا الدولة الرومانية. ووجدوا إيطاليا كلها فكانت أمة متحدة. تتصف بما يتصف به اللاتينيون من قوة في الجسم والخلق. فوقفت على قدميها فنظرت يمينها وشمالها فرات العالم القديم المتمدن في افريقية. واسيا. وبلاد اليونان فعزمت على الاستيلاء عليه فكان لها ما أرادت. بحسن أخلاقها. وشجاعته. وإخلاصها. واتخاذها.

111 - مدينة المغرب العربي بتصرف في بعض عباراته لينسجم بأسلوب هذا الكتاب ج 1 ص 262

ومصر والشام، وأهم الجزر في البحر الأبيض المتوسط. وقد صار هذا البحر ينسب إليهم فما فيه من جزائر وما يكتنفه من أقطار كله خاضع لسلطانهم. ودام الرومان على الجمهورية إلى أن شاخت وفسدت، فنبذوها واستبدلوها في سنة 29 ق.م بالنظام الإمبراطوري وهو بين الملكية والجمهورية. وهو بالملكة أشبه.

ما هي الأسباب التي جعلت الرومان وهم جماعة قليلة ينرون كل الأمم، ويتغلبون على شعوب أكثر منهم عددا وعدة، وأرقى منهم مدينة، وأكثر علما وغنى؟



### نشأة الرومان وعاصمتهم

وقد نشأ اللاتينيون دولتهم مع إنشاء عاصمتهم رومة في 21 ابريل سنة 754 ق.م. بعد نشأة قرطاجنة بستين سنة. وكانت نشأة رومة هضبة البالاتن في ارض لاتينيا قرب مصب نهر التيبر. وسميت رومة نسبة إلى منشئها ملكهم الأول روملوس. وقد نسبت كل الطوائف في ايطاليا بعد ان توحدت إليها، وصار لقبهم منها، وسموا كلهم رومان.

### النظام السياسي للرومان

وكان الرومان في أول أمرهم على النظام الملكي. وكان الملوك في البداية مخلصين عادلين يعملون للدولة لا لأنفسهم. ثم شاخت الملكية، وفسدت أخلاق الملوك. وكان الرومان شعبا قويا، فلم يطق حكم الفرد واستبداده، فاسقط الملكية في سنة 508 ق.م وكان عمرها 246 عاما وأول ملوكهم هو روملوس وآخرهم هو طارقينوس.

وفي سنة 508 أعلن الرومان الجمهورية. فانتخبوا مجلس الأشراف الذي يشتمل على ثلاثمائة وعشرين عضوا، اختاروهم من الأسر الشريفة. ويشترط في العضو مع شرف الأسرة، الكفاءة، والإخلاص للأمة. وعضوية كل واحد منهم دائمة إلى أن يموت. وهذا المجلس يسمى مجلس الشيوخ الروماني.

وكان مجلس الشيوخ الروماني هو الدماغ المفكر للدولة. فهو الذي يسن القوانين مع المجلس الشعبي، ويعلن الحرب، ويوقع السلم ويدبر كل مهام الدولة.

وكان القنصلان هما القوة التنفيذية لهذا المجلس. وهما رجلان ينتخبهما مجلس الشيوخ من بين أعضائه. ويشترط فيهما الكفاءة الدينية، والسياسية والحربية، والإخلاص للدولة، والماضي الوطني الجميل.

وكانت وظيفة القنصلين هي تنفيذ قرارات مجلس الشيوخ، وقيادة الجيوش، ورئاسة الحفلات الدينية، ورئاسة مجلس الشيوخ، ودعوته إلى الانعقاد. وكانت مدة القنصلين عاما واحدا ثم يعاد الانتخاب. وذلك لقت الرومان لحكم الفرد، وحبهم الشديد للحكم الديمقراطي الصحيح.

وفي عهد الجمهورية دخل الرومان في شبابهم، وأيام عظمتهم، وكونوا مجدهم الأثيل، وإمبراطوريتهم الواسعة. وقد غزوا كل من يجاورهم من الشعوب فأخضعوهم لسلطانهم، فامتلكوا صقلية، وبلاد ايونان والغالية، وبلا الجرمان، والأندلس، والمغرب.

والخلق؛ وان سبب هرم الأمم وفنائها إنما هي البطالة وحب الراحة. وكان احد ملوك الرومان وهو (بيليوس نازيفة) قد انشأ أسطولاً بحرياً كبيراً انفق فيه الأموال الطائلة من غير ان يكون في حاجة إلى الأسطول. ولكن أراد ان يشغل ببنائه جنده حتى لا تفسدهم البطالة. ولا تخور أجسامهم وأخلاقهم بالإخلاق إلى الراحة.

### الرومان للتقشف وكرههم للرفاهية والنعيم

وكان الرومان يحبون التقشف والبساطة. ويكرهون الرفاهية. ونعيم الحضارة والمدنية. والانغماس في اللذائذ والشهوات. كانوا على البساطة في المأكل. والملبس.<sup>112</sup> والمسكن. كانت مساكنهم خشبية مطينة. ثم صاروا يبنونها بالحجارة. ولكن بدون نوافذ لجهلهم بصناعة الزجاج. وكانت أنهجهم ضيقة. وبيتهم متقاربة. وشوارعهم مظلمة في الليل. لا تضاء. والأوساخ والأتربة فيها كثيرة. وهي غير مرصوفة.

كان الرومان أمة التقشف وبساطة العيش! يكرهون ميوعة المدينة. ورفاهية الحضارة لأنها تضعف الأخلاق. وتهرم بها الأم. لما غلب الرومان وانهزموا في معركة مدينة نومنسة بالأندلس في القرن الثاني ق.م. أراد القائد الروماني سبيون الإيميلي فآخ قرطاجنة ان يزيل الضعف الذي حل بجنده فانهزموا. فجردهم من جميع ما اكسبهم الفتور والرخاوة. وباع كل حيواناتهم وثيابهم ما يكفيه من الفذ

قمح ثلاثين يوماً. وألزمهم مشى المسافات البعيدة في الطرق الصعبة. وهم بهذا الحمل الثقيل. فاستطاع بهذا الجهد والعناء ان سترجع قوة جيشه. وينمي فيهم قوة الجسم والخلق.<sup>113</sup>

ولما وقعت الجيوش الرومانية أسيرة في المغرب بيد جلالة الملك يوغورطة أراد القائد ميتيلوس ان يغسل هذا العار افامر جيشه بالرجوع إلى القوانين القديمة التي تستدعي التقشف. والعمل والجهد.

ولما أراد ميريوس ان يحارب السمبرانيين والتوتونيين ابتداءً بتحويل الأنهار عن محاربتها حتى يعمل الرومان أعمالاً مرهقة تنفي عنهم ضعف الدعة والراحة.

112 - انظر لباس الرومان في صفحة 172 من هذا الكتاب.

113 - أكثر هذه الحكايات التي نذكرها كمنصوص في هذا الباب من كتاب المؤرخ والكاتب الفرنسي البليغ مونتسكيو. وعنوانه (أسباب عظمة الرومان وضعفهم) وهو أحسن ما كتب في هذا الموضوع وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ حسن الجبيلي وطبع في سنة 1293 هجرية. وقد نفذ من المكاتب. ليت طبعه يعاد فانه من أحسن ما تقدم لشبابنا المانع بالحضارة النهالك على الملذات.

### أسباب عظمة الرومان

ان سبب عظمة الرومان وقوتهم إنما هو متانة أخلاقهم. وقوة نفوسهم. تلك المتانة التي تستلزم الشجاعة. والصبر. والإخلاص للجماعة. وضبط النفس. والنظام. والأمانة. والحياء. والاحقاد. والحفاظة على الشرف. والسمعة الحسنة لنفس والدولة.

وكان الرومان يعتقدون بهذه الأخلاق الحسنة ويرونها كل شيء لهم في الحياة. وكانوا يحافظون عليها. ويقوونها في نفوسهم بكل الوسائل. ويفرسونها في نفوس أبنائهم بكل الأسباب الحسنة. والطرق الحكيمة في التربية.

### حبهم للعمل والكد

وكانت حياة الجهد والكد التي كانت عليها جماعة اللاتين في الفلاحة هي التي أورتهم تلك الأخلاق. فنشأ الرومان وهم يعتقدون ان العمل القوي. والكدح والجهد هو سبب قوة النفوس والأجسام. فكانوا يحبون العمل. ويكرهون البطالة.

### إيثار الرومان للفلاحة وشغف إشرافهم بالعمل في الحقول

وكان أحب الأعمال إلى الرومان هي الفلاحة. إشرافهم كلهم فلاحين يزرعون ويقضون اغلب أوقاتهم في العمل في الحقول. وكانوا يملكون الأرض ويعتقدون صاحب البلد والوطن هو الذي يملك أرضه وان الذي يخلص للوطن. ويموت في سبيله هو الذي يملك أرضه!

وكان اشرف الرومان كلهم يؤثرون الفلاحة. ويرونها عمل السادة والخاصة. أما الصنائع فيرونها عمل العبيد؛ لان الفلاحة تستلزم كل الصفات الحميدة في الجسم والخلق. فالفلاحة تورث لصاحبها قوة الجسم. والشجاعة. والصبر. وضبط النفس. والقناعة. والسخاء. والتضحية؟. والإخلاص. وبياض القلب. والموت فداء للوطن. وكل الصفات التي تجعل الفرد يسعد. ويسعد أمته ويقويها.

### مقت الرومان للبطالة والكسل

وكان الرومان يكرهون البطالة. والإخلاق إلى الراحة. وكانوا يرون البطالة هي السبب القتال الذي يأتي على كل الأخلاق الحسنة في النفوس. ويجلب كل الأمراض للجسم

وأدب صيلة القائد الروماني جيشه لما جزعوا من حرب املك (ميثرادانيس) بالأشغال الشاقة حتى طلبوا منه الحرب لتنتهي بها أتعابهم في الأشغال.

كان الرومان يتمسكون بكل أسباب القوة في الخلق والجسم. وهذا هو سبب قوتهم وعظمتهم وتغلبهم على كل الأمم المتحضرة التي حاربوها.

اعتناء الرومان بالرياضة البدنية والتدريب العسكري

وكان الرومان يعتنون كل الاعتناء بأنواع الرياضة. من سباحة. ومشي. وجرى. وحمل للأثقال. ووثب. تسلق للأشجار والحيطان والجبال. وكل ما تستلزمه الحروب من الحركات.

وكان الرومان يعتنون بالتربية العسكرية. يرونها ألزم للشباب من الغذاء والكساء. وكان كل شباب في المدينة يفرض عليه ان يتعلم فن الحرب. ويبرع في الرماية. والفروسية. ويتقن حيل الحروب. وأساليب منازلة الأقران. وطرق الكر والفر. وغير ذلك.

وكانت لهم ميادين عامة في كل مدينة يدرّبون فيها شبابهم على فن الحرب. وركوب الخيل. وكانت لهم انهار قريبة من تلك الميادين يتعلمون فيها السباحة. ويغتسلون بعد تمارينهم المرهقة ليزيلوا عنهم سواد الغبار.

وكانت ألعابهم في أعيادهم واحتفالاتهم إنما هي سباق الخيل والمصارعة. مصارعة الأقران. والسباع كالأسود والفهود والنمور.

وكانوا يمجّدون أبطال الحروب. ويقيمون لهم التماثيل في الميادين العامة. ويقدمون الفروسية والبراعة في القتال.

وكان الرومان يربون في نفوسهم قساوة القلوب بمشاهدتهم للدم. والجروح الكبيرة لكي لا يضعفوا في القتال.

وكانوا يفرسون في نفوس أبنائهم تقديس النظام. والطاعة للرؤساء. وكانوا أكثر الأمم تمسكا بالنظام والتزاما له في كل أعمالهم سيما في الحروب. وقد قتل منليوس احد ملوكهم ولده لأنه حارب وانتصر بلا إذن منه!

كان الرومان عظماء أقوياء بهذه العظمة سيما تقديس النظام. والتمسك به في الأعمال. والتربية العسكرية. وغرس أخلاق الرجولة في شبابهم!

**تمسك الرومان بتقاليدهم الحسنة**

وكان الرومان متمسكين كل التمسك بتقاليدهم الحسنة. ولكنهم ليسوا جامدين.

ومن طباعهم الراسخة البحث عما تفضلهم فيه الأمم الأخرى فيأخذون به. وكانوا إذا أرادوا محاربة امة درسوا أخلاقها وفنّها في الحرب فيأخذون ما تفضلهم به تلت الأمة. إذا استولوا على امة اخذوا بأحسن ما عندها من فنون الحرب والنظام. وقد اقتبسوا من الأمم التي اتصلوا بها كثيرا من الأخلاق. وأنواعا من السلاح. وأنظمة كثيرة مدنية وعسكرية. وقد بذلوا أموالا كثيرة. وجهدا كبيرا لجلي الخيول المغربية. والسهام الاقريطشية من جزيرة كريد. والمقاليع البليارية من اسبانيا. والسفن الروديسية من روديسيا. وكان سلاحهم من أحسن من أحسن نوع يوجد. وأنظمتهم من أفضل ما يوجد في عصرهم. لا يبيعون وينحلون فيتركوا أخلاقهم الموروثة. بل يتمسكون بما عندهم. ويقتبسون من غيرهم الصالح الذي يليق بهم. ويزيدهم قوة وتقدما. لا يقلدون ولا يجمدون.

**تمسك الرومان بالدين**

وكان الرومان متدينين كل التدين. يتمسكون بدينهم الوثني ويغرسونه في أبنائهم وفي شعبهم بكل الوسائل. وكانت لها هياكل في مدنهم وقراهم يقربون فيها القرابين لألهتهم. وإذا أصابتهم مصيبة فزعوا إلى هياكلهم فيدعون ان ترتفع عنهم تلك المصيبة. وكانوا متسامحين في الدين لا يتعصبون لأوثانهم. وتراهم يعبدون الأوثان التي يجدون في الأمم التي يستعمرونها. وإذا أعجبهم وثن منها كوثن الزراعة. والقوة. والنور. والجمال في اليونان جلبوه إلى وطنهم فاتخذوه في هياكلهم. وكانت أوثانهم التي يعبدونها من أم شتى ونواحي كثيرة.

**اعتماد الرومان في الحرب على أبنائهم وأنفسهم**

ولم يكن للرومان جند حكومي مرابط في قلاعه. تقتله البطالة. وتستولي عليه الشهوات. وتؤدي به عدم المبالاة في الحروب. بل كان كل من في المدن والقرى من الرجال والشباب جند الحكومة. يهرعون إلى القتال إذا قرعت طبوله. ونادي نفيده. وكان الأغنياء هم الذين يخرجون إلى الحرب. ويتقدمون الصفوف. ويستمتيتون في الدفاع والهجوم. وكان الأغنياء من الخاصة لا في المال فحسب. بل في البطولة. والأخلاق المتينة التي جلبت لهم الأموال.

**اختيار الرومان لجهاز الدولة**

وكان الرومان لا يقدمون إلى وظائف الدولة إلا خيارهم. وهم المتصفون بالإخلاص والأمانة والكفاءة. وكان الموظف يعمل للسمعة الحسنة. والشرف. وخير الدولة. فكان يعطي من نفسه

للدولة أكثر مما يأخذ منها. وكان يخلص في واجبه. ويضحى بنفسه وماله في إتقان عمله.

### نظام الأسرة الحسن عند الرومان

وكان للرومان نظام محكم للأسرة. وكان للأب السيرة التامة في بيته وعلى أولاده. فأزمت الأسرة كلها في يده وفي يد الأم. وكان الأب والأم يطبعان أبناءهما بالخلق الروماني الأصيل. ويربّيانهم على القوة والأخلاق الفاضلة. وهذا النظام للأسرة من أكبر أسباب عظمة الرومان وقوتهم. وقد ضعفوا وبادوا لما هودوا في هذا النظام للأسرة.

### دهاء الرومان في سياسة الشعوب

وكان الرومان دهاءة في سياسة الشعوب. لقد تغلبوا على الدول المغربية. واستعمروا المغرب. بالدهاء لا بالسيف. وكان الرومان إذا تسلطوا على أمة لا يتدخلون في أنظمتها وتقاليدها ودينها. بل يكتفون برضوخها لهم. وبما تدفع لهم من إتاوات. وبما يمتصون من دمائهم بمختلف الوسائل الخفية. فلذلك اتسعت إمبراطوريتهم. ودانت لهم أمم كثيرة مختلفة الأجناس والأديان والتقاليد. ولو حاولوا أن يفرضوا دينهم ونظمهم وتقاليدهم على تلك الأمم ما سكنت لهم. وما استطاعوا سياستها والهيمنة عليها.

تلك هي بعض أخلاق التي اتصف بها الرومان. والخصائص التي تميزوا بها أيام شبابهم. وفي صدر أيامهم. فكانت سبب عظمتهم فسادوا على الدنيا. وكانوا ملوك العالم. ولكن ما وقع للعرب المسلمين بعد الخلفاء الراشدين قد وقع للرومان منذ القرن الثالث والثاني ق.م. فضعفوا ثم بادوا. إنهم -الرومان- لما دوخوا الأمم المتفرقة. واستولوا على كنوزها وأسباب الترف فيها. كالإغريق. والبونيقيين. والمصريين. واستعمروا الأوطان الغنية كالمغرب. والأندلس. والشام. وتأثلت أموالهم وكثر خدمهم وحشمهم وعبيدهم. وأعجبوا بالجمال الإغريقي والأمم الضعيفة التي استولوا عليها. فمزجوا بالزواج منها دماءها بدمائهم. وسكنوا القصور. واغرموا بالترف والمال والرئاسة. وغرقوا في النعيم. وتركوا حياة التقشف. وتركوا الفلاحة لعبيدهم. والحرب لجيشهم الحكومي المأجور. وفسد نظام الأسرة فلم تعد للأب سيطرة على الأم والأبناء. وامتزجوا بالإغريق فأورثوهم رذائلهم. وضعفت أخلاقهم. وأصاب الهرم دولتهم. ثم إنهدمت فتسلط عليهم غيرهم. فاستعبدتهم. ومرغهم في الرغام. وسقاهم كأس الذل والشقاء والهوان! وما زالت دولتهم حتى زالت أخلاقهم الفاضلة التي ملكوا بها العالم! !

تلك هي أسباب عظمة الرومان وقوتهم. وقد تغلبوا على المغرب بالدهاء فاستعمروه. فما سياستهم للمغرب. وما حياتهم فيه. وما حياة البربر تحت كلكلهم الثقيل؟

### مراحل الاستيلاء الروماني على المغرب

من سوء حظ المغرب ان الرومان قد استولوا عليه وهو يدخلون في شيخوختهم فضعفت أخلاقهم. وفسدت نفوسهم. وفشا فيهم حب المال والرئاسة. وسرت فيهم الرشوة. فصارت الوظائف عندهم تشتري بالمال. والرئاسة تنال بالغلب والقوة. واستولت الأناحية على النفوس. فصار الرومان لا هم لهم في مستعمراتهم إلا ملء جيوبهم. ولا يرون المستعمرات إلا أذاء يجب ان ترويههم. فكانوا يمتصون دماءها. ويلتهمون خيراتها وأموالها. وكانوا يظلمون الأهالي في المستعمرات سيما في المغرب. ويحكمون أغلبها حكما عسكريا غاشما يمنعها كل الحريات. ويقيدها بأقسى القيود.

### أسباب استيلاء الرومان على المغرب

وكان الرومان قد استولوا على المغرب ليمنعوا نشوء دولة قوية فيه تزاحمهم في البحر الأبيض المتوسط. وليرتعوا في خيراته وحضارته. ويتمتعوا فيه بالمزايا التي خصه الله بها. فكان بها فريدا في أقطار البحر الأبيض المتوسط كلها.

وكان استيلاء الرومان على افريقية من المغرب في العهد الجمهوري في سنة 146 ق.م. وعلى نوميديا في سنة 46 ق.م في آخر عمر الجمهورية.

أما موريطانيا الشرقية والغربية ونوميديا اسطيفية فإنها وان خضعت لهم في سنة 33 ق.م. فإنهم لم يحكموها حكما مباشرا كنوميديا وافريقية إلا في سنة 42. وقد حكموها مدة قصيرة قبل ولاية يوبا الثاني عليهما. ثم أسندتا إلى يوبا الثاني. وفي هذه السنة 42 م تم استيلاء الرومان على الموريطانيتين وكان ذلك في العهد الإمبراطوري.

وكانت نوميديا والمريطانيتان وان خضعت للرومان. ولكنها كانت دائما مستعدة للثورة. ووق ثارت على الرومان مرات عديدة وأتعبتهم. لهذا حكموها حكما عسكريا غاشما. وكانوا لا يولون عليها إلا القواد العسكريين.

### المناطق التي استولى عليها الرومان في المغرب

وكان الرومان قد استولوا استيلاء تاما على المدن والسهول في شمال المغرب. أما

الجبال فان اغلبها لم تخضع لهم. وكان نفوذهم فيها ضعيفا. وقد عرفوا قوة البربر وبسالتهم. واستعدادهم للانقضاض عليهم. في جبال لقبائل. وفي جبال أوراس. فعزموا على احتلالها وإخضاعها. فلم يستطيعوا ذلك إلا بعد مدة طويلة من احتلالهم للمغرب. بقوات عسكرية ضخمة. وبعد ان أحاطوها سيما أوراس بالمراكز العسكرية القوية الكثيرة مدة طويلة من الزمان ليكبحوا ثوراتها ويمهدوا لاحتلالها. ثم لم يستقروا فيهما ويتمكنوا من أعنتهما كما يريدون.

وكان الرومان يلقبون جبال القبائل (بجبال الحديد) لصعوبتها. وشجاعة أهلها وبطولتهم. وكرههم للرومان. وامتناعهم عنهم. ولم يستطيعوا الاستيلاء على بعض المدن والمراكز العسكرية فيه إلا في سنة 297م. بعد قرنين وخمس وخمسين سنة من استيلائهم على المغرب.

أما جبال أوراس فان الرومان جعلوها نصب أعينهم أكثر فأحاطوها بالمراكز العسكرية الكثيرة. ومع هذا لم يستطيعوا احتلال بعض المدن وبعض المراكز العسكرية فيها إلا في آخر القرن الثاني. وقضوا نحو قرن وستين سنة وهم يمهدون لذلك الاحتلال الذي لم يكن إلا احتلال الرمال القليلة لجرى الوادي سرعانا ما يعب عبابه فيجرفها ويطردها بعيدا عنه.

### امتناع جيتولية عن الرومان وعدم استيلائهم عليها

أما جيتولية وهي الصحراء فإنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لكره البربر فيها للرومان. ولشجاعتهم. وقوة قبائلهم. ولعدم رضوخ الشمال للرومان فيأمنوا ظهورهم إذا حاربوها للاحتلال. ثم ان جيتولية قليلة الخيرات في ذلك الزمان. والرومان إنما تدفعهم بطونهم أيضا لاحتلال الأوطان. فهم كالجراد لا يؤم إلا المناطق الخصبة الجميلة.

ان كل ما احتله الرومان من الصحراء إنما هي بعض نقط في الشمال الشرقي للصحراء لتخذوا فيها مراكز عسكرية تمنع الجيتوليين من الهجوم عليهم في الشمال.

وكان أكثر مراكز الرومان توغلا في الصحراء مركزهم في شمال مدينة الاغواط. وكان على بعد ثلاثين ميلا منها؛ ومركزهم في القاهرة في نواحي مسعد.

وكانت المناطق التي استولى عليها الرومان من شمال المغرب تضيق كلما اتجهت نحو المغرب. انها واسعة في افريقية ونوميديا. ثم تضيق في موريطانيا الشرقية. ثم تزداد ضيقا في موريطانيا الغربية.

وكان الرومان قد استولوا في أول الأمر من نوميديا على شمالها ووسطها. وكان حدهم يمر جبال أوراس. ولما عزموا على فتح أوراس في أول القرن الثاني أخروا حدهم إلى جنوب أوراس ليحاصروا أوراس بمراكزهم العسكرية من كل النواحي.

«وكان حد حكومة الرومان (بالمغرب) في القرن الأول للميلاد يمر شمال أوراس. ويجتاز سهول سطيف ومجانة إلى سور الغزلان. ثم يتسع قليلا فيمر بالبرواقية. وساحل شلف. ويجتاز وادي مينا إلى ناحية غليزان ووادي سيك. وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر»<sup>114</sup> فيمر على الساحل وينتهي في مدينة ميلة «فيختفي الحد هناك ثم يظهر على ساحل المحيط الأطلسي من مضيق جبل طارق إلى سلا فيشمل طنجة. والعرائش وسلا»<sup>115</sup> ثم وسع الرومان حدودهم إلى الجنوب في القرن الثاني

وفي بداية القرن الثالث كان الحد الروماني يمر جنوب قابس وشط الجريد. ثم يرتقي الحد فيمر على نقرين «وجنوب أوراس. وشاطئ وادي أجدي الأيمن. ثم يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب. ويقطع وأي الشعير حيث القاهرة. (ثم يمر على بوسعادة) ويشمل غرب الحضنة. ثم يذهب إلى قرب سور الغزلان جنوبا. ويمر على قصر البخاري وتيهرت. وتلمسان ولا لامغنية»<sup>116</sup> ثم يخترق وادي ملوية فيمر على تازة وعلى جنوب وليلي. وعلى جنوب سلا إلى المحيط الأطلسي ثم ينحدر جنوبا على الشاطئ وينتهي في جنوب ازمور.

تلك هي المناطق التي استولى عليها الرومان في نوميديا والموريطانيتين. أما افريقية فقد استولى عليها كلها إلى جنوب قابس. ثم يمر الحد على الشاطئ فيمر على صبرة. وطرابلس. ولبدة. وينتهي في خليج سرت.

وارى ان جبل نفوسة لم يخضع للرومان. لو استولى عليه الرومان لثار عليهم فيحدثنا التاريخ عن تلك الثورات.

ما هو نظام الرومان السياسي والإداري في المغرب؟

114 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 187 ط بيروت 1963م.

115 - مدينة المغرب العربي. ج 1 ص 6. ط تونس 1959.

116 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 188.

السائدة في نوميديا. فالمنطقة التي يخافون ثوراتها هي التي يقيم الوالي قريبا منها. وكانت في الغالب هي قرطة.

والى موريطانيا القيصرية. وهي الشرقية. وعاصمتها هي (بول) شرشال. ويولي عليها ابروقيراتور.

والى موريطانيا الطنجية. وهي الغربية عاصمتها هي طنجة. ويولي عليها بروقيراتور: وق ظل المغرب على هذا التقسيم في اغلب عهوده تحت الرومان.

وكان كل من البروبريطور والبروقيراتور يضطلع بالشئون العسكرية. وفي يده كل الأمور الإدارية والعدلية. لا يحاسبه احد على تصرفه إلا الإمبراطور وحده:

وكان الرومان يحكمون المغرب حكما عسكريا صارما. ولكنهم في الإدارة كانوا حكماء. إنهم لا يفرضون على كل النواحي نظاما إداريا واحدا كما يفعل البلداء الجامدون المتعصبون الذين لا يعرفون من السياسة شيئا. بل إنهم يراعون أحوال الناحية فيديرونها على حسب مستواها الثقافي. وعلى حسب تقاليد السائدة. وحاجتها. فالمدن غير القرى. والسهول غير الجبال. والمثقفون غير البداة الجهلة. قال الأستاذ صفر: «وما تجب ملاحظته هو ان هذا النظام الإداري يمتاز بصفتين هامتين:

أولا مرونة الإدارة الرومانية. فهي كانت لا تميل إلى المبادئ القارة الثابتة التي لا تتغير ولا تتكيف حسب الأحوال. بل تطبق بكيفية آلية في جميع الظروف والمناسبات. وكانت لا تسعى وراء التناسق والاطراد. ولا تريد ان تدخل الأشخاص والأشياء في إطار واحد يكون مفروضا على الجميع.

ثانيا: تشريك الأهالي وأبناء البلاد في الأمور الإدارية على أوسع نطاق. وكانت هذه القاعدة العامة متبعة أيضا في النظام العسكري: مرونة وتعاون!

فكانت رومة تكلف الجنود من الأهالي بحراسة الحدود وحفظ النظام»<sup>118</sup>.

كان الرومان على هذه المرونة الإدارية في أول العهد الإمبراطوري في القرن الأول والثاني من الميلاد. ثم ازدادوا تسفلا في دركات الشيخوخة. وأصيبوا بخرفها في القرن الثالث والرابع ففارقتهم حكمتهم. فتصلبوا مع البربر وكانوا نهاية في القساوة فانكسروا وبادوا.

وكان الرومان يحكمون المغرب حكما عسكريا فالوالي العسكري هو الذي يبت في أموره. وكان لهم جيش دائم وزعوه على مراكزهم العسكرية. وهذا الجيش يتكون من

## نظام الرومان السياسي والإداري في المغرب

« لقد قسم الإمبراطور قيصر أغسطس العالم الروماني إلى قسمين من الولايات: الولايات السيناتورية. يتولى أمرها البروقنصل الذي يعينه مجلس الشيوخ. وتجب مداخلها خزينة الدولة.

والولايات الامبرالية. ويتولى أمرها البروبريطور أو البروقيراتور الذي يسميه الإمبراطور حسب إرادته. وتصب مداخلها في صندوقه الخاص.

ان هذا التفريق في السلط كان ظاهريا أكثر منه حقيقيا. إذ أصبح مجلس الشيوخ في الواقع بعد مدة قليلة في قبضة الإمبراطور. وصار اسما بلا مسمى»<sup>117</sup>.

وكانت افريقية وساحل طرابلس الذي يتبعها من الولايات السيناتورية لأنها احتلت في العهد الجمهوري. ويولى عليها مجلس الشيوخ (البروقنصل) الذي هو وكيل القنصل في تلك الولاية يديرها. ويسوسها ويجلبها لروما.

أما نوميديا والموريطانيتان فأدخلتا في قسم الولايات الامبرالية. ويولي الإمبراطور عليها ابروبريطور أو بروقيراتور. وهما وكيل الإمبراطور في الولاية يدير كل منهما ولايته ويسوسها للإمبراطور ويجلبها له.

وكان البروبريطور والبروقيراتور عملهما واحد وسلطتهما واحدة. ولكن الاختلاف في الاسم والدرجة. فالبروبريطور والبروقنصل من مرتبة الأعيان بمجلس الشيوخ. أما البروقيراتور فمن مرتبة الفرسان وهي اقل.

وقد قسم الرومان المغرب إلى أربعة أقسام. إلى افريقية ومعها ساحل طرابلس إلى سرت وسموها. (البروقنصلية) وعاصمتها عوتيقة. ولما جدوا بناء قرطاجنة في سنة (120 ق.م) صارت هي العاصمة ويولون عليها بروقنصل.

والى نوميديا ويولون عليها بروبريطور. وكانت نوميديا لقوة شكيمتها وكثرة ثوراتها. ولتوسطها للمغرب يولى عليها الرومان رجلا من أعلى طبقاتهم. ومن اكبر قوادهم العسكريين. وكانت عاصمتها تختلف بحسب مقر الوالي الذي يختلف بحسب الأحوال

وكان القانون الروماني يسمح للجندي الروماني بالزواج والبقاء في المركز العسكري مع زوجته وأولاده. وكان المتقاعد من الجند الروماني يمنحونه مرتبات عالية، ويعطونه أراضٍ واسعة خصبة، وحيوانات يفلح بها أرضه، ويعفونه من الضرائب على شرط أن يخلفه أبنائه في الجندية. ويسكن قرب المركز العسكري الذي كان به.

وكانت الخدمة العسكرية في المغرب مقرونة عند الرومان بالغنى. وكانت سببا للثروة والبذخ. فرغبوا فيها. فهاجرت طوائف كبيرة من الرومان إلى المغرب كجنود في الفرق الرومانية ثم استقروا فيه.

وكان للرومان أسطول حربي ضخم في مياه المغرب. قاعدة القسم الأول منه في قرطاجنة لحماية الجزء الشرقي من المغرب. وقاعدة القسم الثاني في شرشال لمراقبة وحماية الجزء الغربي منه.

كان الرومان في المغرب دائما على أهبة وحذر وخوف من يمشي في أرض كلها ألغام. وكان البربر يكرهونهم. والمغرب كله يتألم ويلوى لوجودهم كتعابين بين البطن في أحشائه. بوده أن يتقيأهم فيستريح ! لهذا شحنوا مراكزهم العسكرية بالجند واختاروا ولاتهم على المغرب من القواد العسكريين الأقوياء.

ان المغرب الجميل الخصب المتحضر قد سار بين مخالبتهم يرتعون فيه كما يشاءون. فكيف كانت حياتهم فيه. وما هي الحضارة الجديدة التي أضافوها إلى حضارة المغرب التليدة لينعموا فيه كما يشتهون؟.

الرومان. ومن الجن الأجني المأجور. ومن البربر الذين فرض الرومان عليهم التجنيد والخدمة العسكرية الجبرية.

وقد اتخذ الرومان من جنودهم حامية وتبسة «تراقب البروقونصلية (افريقية) ونوميديا، وحامية لمراقبة موريطانيا الشرقية، وموريطانيا الغربية.

أما حامية تبسة (الفرقة الثالثة الاغسطية) نسبة إلى أغسطس قيصر. وكان بها ستة آلاف جندي وفي رواية (5500) وهذه هي الفرقة الكبرى. وهناك فرق أخرى مشاة وفرسان يبلغ جميعها نحو ثلاثة عشر ألفا. وهذه الفرق مدد لتلك الفرقة.

وكانت الفرقة الثالثة رومانية من خيرة جنود روما. وبها كثير من الغاليا. وبعد حين صار الرومان يعملون البربر ويجندونهم. ومنذ الثلث الثاني من القرن الثاني استغنت رومة بجنود البربر عن جلب الجنود من الخارج إلى الفرقة الثالثة؛ فصارت هذه الفرقة متركبة من جنود البربر وأبناء قدماء الجنود الرومانية.

وأما الفرق الصغيرة فكانت أيضا جلب من الخارج. وبقي الأمر كذلك حتى بعد البربر في الفرقة الثالثة.

وفي سنة 122 نقل الإمبراطور هدران مركز الفرقة الثالثة من تبسة إلى لبس (في الشمال الغربي لأوراس) وفي أيام ديوقلطيانس صارت لبس قاعدة عسكرية للجنوب النوميدي.

وبطول عهد الفرقة ودخول البربر فيها، وكثرة الاضطرابات برومة نقضت طاعتها لرومه. وقد تعارضت في إمبراطورية بعض، وتؤيد بعضا. وألغت سنة 238 وعوضت بالفرقة الثانية والعشرين.

وأما حامية الموريطانيتين فكان عددها نحو خمسة عشر ألفا. وهي من البربر. وكان مجموع جيش الاحتلال (في المغرب) نحو (34000) ليس بها من الجنود الرومانية غير نحو (8000)». <sup>119</sup>

وكان الرومان لاعتدادهم بالفلاحة، وما تركه من الآثار القوية الحسنة في جسم الإنسان وخلقه. يقطعون جنودهم الرومانيين أراضٍ شاسعة خصبة يفلحونها في وقت السلم ويستغلونها لأنفسهم لتضمن استقرارهم في المغرب. وعدم ضعف نفوسهم بالبطالة والراحة.

هذه الفيافي الزراعية كانت انهارا من الذهب تتدفق عليهم تراهم من بعيد مدهامة كأنها سحب في الأفق. ولكنها دائمة الأمطار في خزائن الرومان لا تنكف ولا تنقشع!

لقد أثرى الرومان ثراء واسعاً بالفلاحة والتجارة. وبما يعتصرونه ويأخذونه غصبا من أموال البربر. فاخذوا في فنون البذخ والترف. وغرقوا في النعيم والملذات. وقد بنوا القصور الشاهقة الجميلة وأحاطوها بالحدائق الغناء. واعتنوا بالمدن التي يسكنونها فوسعوها. وأنشأوا لجنودهم حول مراكزهم لعسكرية مدنا جميلة واسعة. فيها كل ما وصلت إليه الحضارة من فنون النعيم والمتعة والنظام. ومن هذه المدن. وكانت قرية بربرية صغيرة. مدينة تيمقاد في شمال أوراس لمراقبته وقمع ثوراته.

وكانت المدن المغربية في عهد الرومان تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عواصم كبيرة كقرطاجنة، وقرطبة، ويول، وطنجة يسكنها الولاة والموظفون الكبار. والتجار المترفون؛ ومدن للنزهة يقضون الصيف في حدائقها الغناء. وقصورها الأنيقة. وجوها الرائق. ويغرقون في أرجائها في فنون اللذة والنعيم.

ومدن عسكرية وهذه لسكنى الجنود. ويشاركهم فيها طوائف من البربر والرومان الآخرين.

ومدن تجارية وهذه على الساحل.

وقرى فلاحية واغلب سكانها من البربر المسخرين في خدمة أراضي الرومان.

وكانت هذه المدن كبيرة عامرة. واغلبها من إنشاء البونيقيين والدول البربرية فهم الذين حضروها وزينوها. وكان سكانها من خمسة آلاف إلى ثلاثين ألفا. وكان سكان مدينة الجم خمسا وثلاثين ألفا. ان هذا دليل على رغد العيش في المدن الكبيرة. وعلى كثرة الأعمال فكثرت الهجرة إليها.

وكان أكثر سكان المدن الكبيرة من الرومان. أو من تحضر من البربر المترفين. أو من العمال في الصناعة والتجارة. أما البربر الأحرار فيهربون من السكن في المدن لكثرة فسادها وميوعتها وقتلها للحرية. ان المستعمرين هناك في أمم قوتهم. وجبروتهم؛ وسيطرتهم فيها أكثر من سيطرتهم على القرى النائية في الجبال.

وكان الرومان مولعين بإنشاء الديار العالية. والبناءات الضخمة وأقواس النصر الكبيرة. لأنها عنوان عظمتهم. ومظهر قوتهم. ودليل على سلطانهم الكبير. إنهم يعشقون القوة في كل شيء حتى في الجدران! وقد أنشأوا في المغرب كثيرا من تلك الأبنية. كما أنشأوا في المدن الحمامات الواسعة. والهيكل الكبرى. والكنائس الفسيحة.

## حياة الرومان وحضارتهم في المغرب

### توافد الرومان إلى المغرب وعدهم فيه

ابتدأ توافد الرومان إلى المغرب منذ عهد سحيق. وقد وفدت طوائف منهم في عهد مصينيسا مصيبسا في القرن الثاني ق.م. فاستقروا في قرطبة. وفي المدن النوميدية الأخرى. وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة. ولما احتل الرومان إفريقيا استقرت فيها جماعات كبيرة من الجنود الرومانية ومن الموظفين. ثم أرسلت روما طوائف كبيرة فقيرة من أبنائها لترعى في المغرب وتستقر فيه. فكثرت سواد الرومان في إفريقيا وساحل طرابلس. ولما فتح الرومان نوميديا توافد إليها الرومان في عهود مختلفة فاستوطنوها. وكانت روما تعطي لجنودها الأراضي الخصبة. والأموال الوفيرة لزراعتها. وحثهم على الاستقرار في المغرب. فاستقرت جماعات كبيرة منهم فيه. وكان أولاد هؤلاء الجنود يكونون القسم الأكبر من الرومان المستوطنين للمغرب.

وكان الرومان يحثون أبنائهم على الهجرة إلى المغرب ليكثر سوادهم فيه. فيكونوا في أرجائه جوا رومانيا يصبغ البربر بالصبغة التي يريدونها. ليكون المغرب جزءا من إيطاليا كما يحملون. ولما تولى الإمبراطور أغسطس قيصر الرئاسة في روما أرسل سيلا كبيرا من الرومان إلى المغرب فاستقروا فيه.

وكان عدد الرومان في المغرب في القرن الرابع المسيحي نحو ثلاثة ملايين أكثرهم في طرابلس وإفريقية ونوميديا. أما الموريطانيتان فان عددهم فيهما قليل.

### جشع الرومان وجههم الشديد للمال والشرف

وكانت إيطاليا بلادا اغلبها مجذب. ضيفة لا تكفي أهلها. وكان الرومان في القرن الأول المسيحي يدخلون الشيوخوخة. فضعت أخلاقهم. وامتأوا بحب المال وأمتعة. ولما هاجروا إلى المغرب فوجدوا أراضي الخصبة الواسعة. ومنه العامرة الزاخرة. اقبلوا على الفلاحة وكانوا يحبونها ويعتدون بها. وكانوا ذوي نشاط وعمل. كما نزلوا ميدان التجاري فأخذت بها طوائف منهم. فأثرى الرومان واغتنوا. سيما لما احتكروا الأراضي الزراعية الواسعة الخصبة لأنفسهم. واغتصبوها من البربر وجعلوها وقفا عليهم. ان

والملاعب الضخمة كملعب الجم. والمسارح الكبيرة لتمثيل الروايات كمسرح تيمقاد. ودقة. وصبرة. ولبدة. وكان كل منها يتسع لآلاف من الناس.

### ولع الرومان بالعباب الفروسية والتمثيل

كان الرومان مولعين بالعباب الفروسية والمصارعة. كسباق الخيل. والعربات. والقفز. ومصارعة الحيوانات. والمباراة في فنون القتال وغير ذلك. وكانوا يسارعون إلى ملاعبهم في الأعياد وأيام العطلة لمشاهدة هذه الألعاب التي تذكى الشجاعة في القلوب. والقوة في النفوس.

وكانوا مغرمين بالتمثيل. وكانت لهم فرق تمثيلية كثيرة جديدة وهزلية. وكانت رواياتهم تاريخية لتجسيم أمجادهم أو اجتماعية لتربية المجتمع. أو هزلية للترفيه عن النفس.

وكان الرومان يمنعون النساء والعبيد من غشيان المسارح والملاعب. فان النساء يخافون على أخلاقهن من الاختلاط. ومشاهدة ما يمكن أن يطرح فيه الوقار من الفكاهات المأجنة؛ والعبيد يخافون من جرأتهم على أسيادهم بحضورهم معهم في أماكن يتخففون فيها من الوقار للترفيه عن النفس.

كان الرومان أمة الجد والوقار. وقد حافظوا كل المحافظة أيام قوتهم وعزهم ونضوجهم على سلطة الرجل في بيته. على زوجته وأبنائه وعبيده. فتسلطوا على الدنيا بصلاح الأسرة التي هي سبب قوة الدولة وصلاحها.

### اعتناء الرومان بالحمامات للنظافة والاجتماعات

وكان الرومان يجتمعون في الحمامات. وهي عندهم للاجتماع ومحل للنظافة. وقد وجدوا في المدن المغربية حمامات كثيرة من إنشاء الدول البربرية والبونيقيين فاستغلوها. وكانوا يعتنون بالحمامات فيزينونها بالنقوش والتمثيل. ويتخذون بها القاعات الفسيحة. فيها الدكاكين المفروشة لجلوسهم. فيها كل ما لذ عندهم من شراب. وكانت تلك الحمامات أنواعا فمنها الحارة. ومنها الباردة. ومنها المعدنية. ومنها التي تسخن بالوسائل الصناعية.

### اعتناء الرومان بالدين وإنشاء الهياكل والكنائس لعبادتهم

وكان الرومان ينشئون في المدن الهياكل الضخمة لعبادتهم منها هيكل الزهرة في سببلة. وهيكل مدينة دقة الشهيرة. وكان في كل مدينة هيكل أو هياكل كثيرة لأوثانهم.

وكان الرومان يستعملون الهياكل لأغراض سياسية أيضا. كإقامة القديس للإمبراطور «وكانوا في كل مدينة (مغربية) يقيمون قديسا دينيا لا لتقديس شخص الإمبراطور ذاته. بل لتقديس الرمز الموجود في وظيفته السامية. وما تكتسبه تلك الوظيفة من صبغة إلهية مقدسة. وفي عاصمة كل ولاية كان يجتمع الشيوخ أو مندوبو المدن المختلفة لإقامة مثل ذلك القديس الامبريالي»<sup>120</sup>.

كان الرومان ينشئون الهياكل. ولما دانوا بالمسيحية انشأوا الكنائس.

وكان طريق الرومان إلى الكنائس محفوفًا بالتمثيل للمسيح والعذراء والقديسين. ليهيئوا النفوس للخشوع. وينفخوا روح العبادة في القلوب.

وكان الرومان ينشئون في المدن ساحات عامة للاجتماعات العمومية. وكانت تلك الساحات تتوسط المدن. وهيب فسيحة مدارة بالأقواس الجميلة. وبالدكاكين للتجارة. انها سوق ومحل اجتماع. وكان الرومان يزينونها بالتمثيل لعظمائهم. وبأقواس النصر. وكان الناس يجتمعون فيها. وكان فيها الدكاكين الكثيرة في أطرافها المسقفة للجلوس. وفي الساحة العمومية أو بالقرب منها توجد دار القضاء. والإدارات الحكومية الكبرى. وكانت البلاغات الرسمية تلقي في تلك الساحات. وحفلات الأعياد والمهرجانات الكبرى تقام فيها. ويسمون هذه الساحات (الفوروم).

ان (الفوروم) ليس من إنشاء الرومان في المغرب. فقد سبقهم إليه البونيقيون. وفي مدن ميزاب في جنوب الجزائر إلى اليوم ساحات عامة مدارة بالأقواس ودكاكين التجارة. ودكاكين للجلوس. وفيها أو قريب منها دار القضاء. ودار البلدية. وهي للتجارة. والاجتماعات. والحفلات العمومية. وتقرأ فيها البلاغات الحكومية. انها من تركة البونيقيين ما زالت محفوظة في جنوب المغرب.

### بناء الرومان أقواس النصر لعظمائهم وأحداثهم الكبرى

وكان الرومان ينشئون في المدن أقواس النصر<sup>121</sup> العالية تخليدا لعظمائهم. وانتصاراتهم. وأحداثهم التاريخية الكبرى.

### اعتناء الرومان بالمدن التي يسكنونها في المغرب

وكان الرومان يعتنون كل الاعتناء بالمدن التي يسكنونها في المغرب. وكانوا يجلبون

120 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 320 ط أولى بتونس.

121 - انظر رسم قوس النصر في طرابلس في صفحة 360 من هذا الجزء.

إليها المياه العذبة من الأماكن البعيدة في السواقي المنقورة في الصخر أحيانا. وكانت في أيامهم القناة الطويلة التي جلبت الماء العذب من زغوان إلى قرطاجنة. وتسمى هذه القنوات (الحنايا) وكان يتخذ لها في الأنهار والأماكن المنخفضة أقواس عالية وقناطر لتمر عليها. وارى ان (حنية) قرطاجنة من إنشاء البونيقين فأصلحوها. ان القرطاجنيين ما كانوا ليغفلوا عن هذا العمل الضروري لحياتهم. وهو جلب الماء العذب إلى عاصمتهم. لقد كانوا أكثر ترفا وغنى. وأسرع إلى عمارة المغرب من الرومان!

### إصلاح الطرق وبناء القناطر

وكان الرومان قد أصلحوا كثيرا من الطرق التي أنشأها القرطاجنيون والدول البربرية قبلهم. وكانت هذه الطرق محفوفة بالأشجار. عامرة بالقرى المنبثة حوالها. ومن تلك الطرق الطريق الكبرى التي تمتد من برقة إلى المحيط الأطلسي وهي من إنشاء البونيقين والدول البربرية فحافظ عليها الرومان. والطريق التي تصل يول (شرشال) بقرطاجنة. والطريق التي تصل بين قرطاجنة وطرابلس. والطريق التي تصل بين قرطاجنة وتبسة. هذه الشبكة التي تصل بين قواعدهم العسكرية. ومراكزهم الإدارية. وكانوا يبنون القناطر فوق الأنهار. وفي قرطة إلى اليوم قنطرة من تلك القناطر.

### انتظام البريد بين مدنهم

وكان البريد منظما بين المدن التي يسكنها الرومان. يروح ويغدو في أوقات معينة لقد حافظ الرومان على هذه الحضارة الراقية التي انشأ أغلبها البونيقيون والدول البربرية فورثوها منهم. وطبعوها بطابعهم. وزادوا فيها ما اقتبسوه من الإغريق والمصريين والأمم المتقدمة التي تسلطوا عليها.

وكانت أبنية الرومان عالية ضخمة ولكن لا جمال فيها. ان الذوق الفني الذي يمتاز به البربر والإغريق يعوزهم. إنهم أمة القوة لا أمة الفن والجمال.

### اعتناء الرومان بالفلاحة وأزدها

واعتنى الرومان بالفلاحة ووسعوا غراسة الزيتون. والأشجار التي وجدوها في المغرب. واستولوا على غابات التين. والزيتون. والأشجار المثمرة التي كانت تظلل النواحي الشاسعة من المغرب. وهي من عمل الدول البربرية والبونيقين.

ان المؤرخين الأوروبيين المتعصبين إذا تحدثوا عن الحضارة الرومانية في المغرب يجعلون الرومان هم بناء كل ما وجد من الحضارة في المغرب. ويوحون إلى القارئ بان أجدادهم

الرومان وجدوا المغرب صحراء وأمة متوحشة فعمروه ومدنوا أهله! فلو استطاعوا ان يقولوا: ان الرومان هم الذين جعلوا الشمس والقمر تطلع في سماء المغرب لقالوه! ان الرومان ككل المستعمرين لا يبعثهم على غزو وطن إلا خيراته وكنوزه وجماله. والمغرب كان جنة وفتنة بغناه وحضارته وجماله فاغرم به الرومان فاستعمروه. وقتلوا أهله. وغلوهم عن كل تقدم. واخروهم آلاف المراحل إلى الورا!

كانت مدن المغرب الكبرى وحدها تحظى بعناية الرومان لأنها البلاد التي يسكنونها. أما القرى والمدن البربرية التي لا يسكنونها فكانوا يهملونها. وإذا قصدوها فلامتصاص دمائها. واستخراج المغارم والمكوس منها. أو لإخضاعها بالجيوش التي تطؤها بسنابكها.

ان الرومان خدموا أنفسهم في المغرب ولم يجدوا البربر بشيء. فادا استفاد البربر منهم شيئا فما يستفيده كل من يجاور بيئة جديدة يقتبس منها بالرغم منها. وإذا علم الرومان البربر شيئا فبقدر ما يكون البربري به عاملا ماهرا في مصانعهم. أو مزارعهم. أو مقاتلا في حروبهم.

لقد عطل الرومان حضارة المغرب. وأخروا البربر إلى الورا. وعملوا كل جهد لإدماج البربر فيهم يكونوا عبيدهم. واتخذوا كل وسيلة لترمين المغرب بإفكار أهله. وتهيئهم وتجريدهم من شخصيتهم ليكون جزءا من ايطاليا. وكانوا بلاء ونكالا على الأمة البربرية الكريمة! فكيف كانت حياة البربر في جحيم الرومان المستعمرين الذين دخلوا في شيخوختهم البالغة. فكثرت نبتهم ورفعوا العصا؟

يسوغ للروماني ان يجدد كراء الأرض إلى أمد طويل. فصار الرومان بهذا القانون الجائر هم المستغلون للأرض وليس للبربري ان يسترجع أرضه منهم إذا بادلته ان يزرعها .

وكانت الضرائب الرومانية الثقيلة والقوانين الجائرة قد أفقرت البربر فالتجئوا إلى العمل باجر زهيد في أراضيهم التي أجروها للرومان. ولما كان الأجر لا يكفيهم فان الرومان المستأجرين كانوا يغرونهم بان يقترضوا منهم ويرهنوا أراضيهم. وبعد مدة قصيرة يستولي الرومان المرابون على تلك الأراضي لان أصحابها لم يقضوا ديونهم. بهذه الخيلة أصبحت جل الأراضي البربرية ملكا للرومان. وأصبحت البقاع الخصب في سهول المغرب ملكا للرومان. وقد بلغ من تكالب الرومان على الأرض ان تكونت في المغرب إقطاعيات كبرى. وقد روى ان نصف ارض المغرب<sup>123</sup> كان يملكه ستة من الرومان. وكانوا كالمملوك في المغرب. وكانت لهم أم من البربر يسخرونها في أراضيهم. وقد قتل الإمبراطور نيرون هؤلاء الستة طمعا في أموالهم. وإزالة لنفوذهم الكبير الذي كان في روما بفضل غناهم الذي تكون لهم بأرض المغرب. فاستولى نيرون على تلك الأراضي فصار هو الملك لنصف الأراضي المغرب الخصبة الغنية !

### تسخير الرومان للبربر في الفلاحة والأعمال واستعبادهم

وكان الرومان يسخرون البربر في العمل في أراضيهم. وكان القانون الروماني يحرم على البربري ان يترك العمل. أو يحتج على المعمر الروماني. أو يطالب بالزيادة في الأجر. وأصبح البربر بهذا عبيدا للرومان لا يستطيعون مفارقتهم. وصار الرومان إذا باعوا أرضا في المغرب انتقلت إلى مشتريها الروماني الجديد بمن فيها من العمال البربر لا يستطيعون ترك العمل بها! !

وكانت الحكومة الرومانية تؤيد الرومان الظالمين المتغطرسين على البربر. وكانت لا تسمع شكوى هؤلاء المساكين. وكل من تذر من رئيسه الروماني المتغطرس المستبد يعدونه على الدولة. فيعاقبونه معاقبة صارمة لا رحمة فيها! وصار العمال البربر أحرارا بالاسم. أما الواقع فهم عبيد للرومان يسخرونهم في مصالحهم الخاصة.

وكانت الفلاحة مزدهرة في المغرب أيام الرومان. ولكن بكد البربر وعرق جبينهم. فهم الذين كانوا يقومون بالفلاحة. ويزرعون الأرض للرومان. لقد شاخ الرومان فركنوا إلى الراحة. فلم يعودوا كأجدادهم يستلذون الخوض في طين المزارع. ومصاحبة الفأس والمحراث.

123 - المراد بالمغرب ما استولى عليه الرومان من شمال المغرب وفي افريقية.

### حالة البربر تحت السلطة الرومانية

كان البربر في عهود دولهم البربرية العتيقة أغنياء سعداء. وكانت ارض المغرب الخصبة تفرش لهم الحرير. وتغمرهم بالذهب. وتنبت لهم السعادة والغناء. وكانت متاجرهم ومصانعهم كذلك. ولما استولى الرومان على المغرب عملوا كل وسيلة لتجهيل البربر وتفقيهم. لينكسوا رءوسهم. ويخضعوا لعبوديتهم وجحيمهم!

وكان المغرب بلادا زراعية. وكانت أراضيها الخصبة الكريمة اكبر باب للثروة. وكانت كل أراضيها الزراعية في الشمال جيدة حسنة. سيما افريقية «فان خصب أرضها في ذلك التاريخ يضرب به الأمثال. وسببه كثرة وجود الفوسفات في التربة بكيفية طبيعية. وكان المؤرخون يقولون: بان الحبة الواحدة كانت تنبت جذرا ينبثق منه أربعمائة ساق»<sup>122</sup>

وكانت أراضي المغرب في القدم إلى قسمين: أرض أميرة هي ملك للملك البربر وأسرههم وهذا القسم قليل. والقسم الأكبر هو الأراضي التي يملكها البربر أفرادا وقبائل. وهي خصبة. منظمة. في أجمل المواقع وأحسن السهول. وقد جعل الرومان همهم الأول لما تسلطوا على المغرب الاستيلاء على أراضيها الخصبة الكريمة. إنهم امة فلاحية. طالما تجلت أشداقهم على أراضي المغرب الزراعية. فاستولوا على الأراضي الأميرية. فاستبقى الإمبراطور بعضها ووزعوا الباقي على الجند الروماني المستقر بالمغرب. والفقراء الرومانيين الذين يحثونهم على الهجرة إلى المغرب. وكان الجندي إذا تقاعد يعطونه أرضا واسعة جدا تتسع لغلاته السنوية كلها. ويعطونه حيوانات يحرث بها. وأموالا يستعين بها في الفلاحة.

### تجريد البربر من أراضيهم بالقوانين الجائرة واغتصابها

أما أراضي الشعب البربري فقد سنوا القوانين الجائرة. و اتخذوا كل الوسائل لسلبها منه. وكانوا إذا أرادوا سلب ارض أعجبتهم يصفون بالخيانة صاحبها لروما. وبالعصيان للدولة. فيجردونه من أملاكه. ويستولون على أرضه.

وكان الرومان يكترون ارض البربر باجر زهيد. وإذا انتهت مدة التأجير فان القانون

122 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 325 ط تونس.

### فرض الغنائم الباهضة المختلفة على البربر لإفقارهم

وكان البربر تحت سلطة الرومان يرون الغنائم من الفوائد الكبيرة التي يستفيدونها من مستعمراتهم. وكانوا يبالغون فيها ويمتصون المغرب في شراهة ليورثوه وهنه فلا يقف على قدميه فينقض القمل عنه.

وكانت الغنائم الرومانية على البربر تنقسم إلى أربعة أقسام: الأداء الشخصي. وهو على الرجل والمرأة. يؤدون في كل عام جزية معلومة هي علامة على العبودية والخضوع. الغنائم المفروضة على العقار. وهي أما عين أو حبوب. فالعين على الأبنية والأشجار. والحبوب على الأراضي. ولا أراهم أفلتوا الماشية فلم يفرضوا عليها أداء.

الأداء على التجارة وهي الضرائب الجمركية. فما من ولاية في المغرب كنوميديا إلى ولاية أخرى كموريطانيا الشرقية يجب ان يدفع عنه قدر معلوم. والقسم الرابع هو السخرة الإدارية. ومنها تموين الجند وإسكانهم. وكسوة بعض رجال الشرطة.

وكانت حكومة روما لا تتولى هي فرض الضرائب على البربر واستخراجها. ولا يتولى ذلك ولاتها في المغرب. وإنما تتفق مع بعض الأغنياء الجشعين فيدفعون إليها قدرا معلوما من المال فتطلق أيديهم في البربر يستخرجون منهم ما شاءوا فيمتصون من أموالهم أضعاف ما دفعوا!

وكانت الحكومة الرومانية تسخر جنودها في المغرب لهؤلاء الجباة الجشعين الظلمة. فإذا خرجوا لجباية البربر خرجوا في جيش تام الأهبة كأنهم خرجوا للغزو ليرغموا البربر فيدفعوا إليهم ما يشاءون.

### جُنيد الرومان الإيجباري للبربر

وكان الرومان قد فرضوا التجنيد على البربر. لقد عرفوا شجاعة الأمازيغ وبطولتهم المورثة فاستغلوا كما استغلوا كل خيرات بلادهم. كانوا يجندون البربر وبيعون بهم خارج المغرب ليؤيدوا بهم سلطانهم في مستعمراتهم. ويقهروا بهم الدول التي تناوئهم. فرسان نوميديا كانت تبعثهم إلى شمال أوروبا حيث الجنس الجرمانى الصعب الذي لا يخضع ولا يستكين. والمشاة كانت تبعثهم إلى مصر.

وكانت حكومة الرومان تجلب إلى المغرب جيوش أجنبية من شمال أوروبا ومصر وغيرها ليرابطوا في المراكز العسكرية. وقد استغنت عن هذه الجيوش في القرن الثاني لما وجدت في البربر المرضى. سيما أبناء المدن. من ثنق بهم. فاتخذت منهم جندها في المغرب.

وكان الرومان إذا جد الجد. وأعلن النفير العام لا يكتفون بالجيوش الرسمية من البربر. بل يستمدون رؤساء القبائل البربرية فيمدونهم بما شاءوا من الرجال. فيكرهونهم على لبس السلاح. ويقدمونهم طعمة لحروبهم. وقد تكون تلك الحروب معلنة على آبائهم وأمهاتهم في المغرب!

وكان البربر يفرون من الجندية. وبودهم ان يغمدوا السلاح الذي اجبروا على حمله في أحشاء الرومان وقلوبهم. وكانوا يسلمون أنفسهم في محنة التجنيد الإيجباري. بأنهم يتمنون على أحداث الأساليب في الحرب ليكونوا يوما جيش التحرير لمغربهم الكبير الغالي.

### محاولة الرومان تجريد البربر من شخصيتهم ليترومنوا

وكان الرومان يجهدون لقتل الشخصية البربرية التي جعل البربر يرون الرومان غرباء في وطنهم. ويتخذون كل وسيلة لصبغ البربر بصبغتهم ليترومنوا. فيضمنا لأنفسهم البقاء في المغرب. وخضوع البربر لهم إلى الأب. وقد سنا لذلك عدة قوانين. منها جعل اللغة الرومانية هي اللغة الرسمية في المغرب. في الدواوين. والبريد. والتعليم. واحتقار اللغة البربري. وهياة البربر وتقاليدهم. ووصف من يكلمهم بالبربرية ويتمسك بشخصيته بالجهل والانحطاط! ولكن البربر جنس قوي. وأمة كريمة. تعتد بنفسها كل الاعتداد. لا تقلد غيرها بسهولة. ولا يستطع أعداؤها ان يجردوها من شخصيتها. لم يزد الرومان بمحاولاتهم التي استمرت نحو أربعة قرون لقتل شخصيتها إلا ان زادها تمسكا بتلك الشخصية واعتدادا بها. وكرها للرومان واحتقارا لهم! !

ان الرومان في العواصم لابد ان يكونوا قد جحوا بعض النجاح في تجريد بعض صنائعهم وتلاميذهم من شخصيتهم فترومنا ولكنهم قليلون. ان ذلك الذباب الذي يتساقط على مصائد الاستعمار فيموت فيها. فيصبح جيها تلوث المجتمع وتفسده. لا يخلو منهم زمان!

وكان الرومان يحتقرون البربر ويرونهم طبقة دنيا خلقت لوطء أقدامهم. وتسخيرها في أغراضهم. وكانوا يحتكرون الوظائف العليا لأنفسهم. ولا يتركون للبربر إلا الوظائف الوضيعة الصعبة لا يستطيعها أبناء روما المدللون. وكانوا يؤثرون أنفسهم بالأجور العالية. ويستأثرون بخيرات المغرب ونعيمها!

وكان الرومان المستقرون في المغرب اكبر غطرسة وعداوة للبربر. وكانوا يحاربون كل حكومة رومانية تهم بإعطاء البربر حقوقهم. وإنقاذهم من الظلم الذي ينهال عليهم.

## انتعاش البربر بعض الانتعاش في عهد سافاروس وقراقالا البربريين

«وفي سنة (193م) تولى (سببتموس سافاروس) إمبراطورية رومة. وهو بربري أصله من (لبدة في طرابلس. وقد اعتنق الجنسية الرومانية وعاش في روما) <sup>124</sup> فاعتنى (بالمغرب) كثيرا وترك آثارا لم تنزل إلى اليوم. وكانت حاشيته وحرسه أكثرهم إفريقية. وبالغ في الإحسان إلى بني جنسه حتى إنهم ربما تحدثوا بلغتهم في مجلسه الإمبراطوري.

قال مرسى: وترقى البربر في عهده. وظهرت مواهبهم المدهشة برومة في الجنديّة والحمامة. ولم يهمل البربر هذا الإحسان. وأحبوا الإمبراطور حبا جما بحيث لم تقع ثورة في أيامه. ولما مات (صاروا يقيمون له القداس في هياكلهم لتمديده).

وبعد (سافاروس) جاء قراقالا. <sup>125</sup> فسار سيرته. وقابله البربر بالمعروف (ونقشوا اسمه واسم أبيه على الأحجار) !

قال مرسى: وفي سنة 216 اصدر الإمبراطور قراقالا قانونا بحرية البربر. ومنحهم كل الحقوق التي للرومان فصار (المغرب) ذا طبقتين فقط. الأحرار والعبيد. ولكن هذا القانون لم ينفذ. فلم يستفد منه البربر. بل اضر بهم واستفادت منه الدولة الرومانية. لقد الحق البربر بالرومان في الواجبات الدولية من خراج وتجنيد. وبقوا كذى قبل في الحقوق السياسية. <sup>126</sup>

لقد انتعش البربر بعض الانتعاش في عهد هذين الإمبراطورين. ثم أطبق عليهم الظلم وجحيم الاستعمار بعدهما. ولكن هل البربر الصناديد يسكتون للرومان على هذا الظلم فلا يثورون. لى سكنوا في أول العهد الروماني وغطوا في النوم متعبين. قد أجهدهم طول البناء والنضال. ولكن سرعان ما صحوا فانقضت جبالهم في القرن الثاني على الرومان. واستمرت ثورات البربر عليهم لم تنقطع إلى ان زالت دولتهم من المغرب!

متى وقعت تلك الثورات الباسلة. ومن قام بها؟

## ثورات البربر على الرومان

لم يعان الرومان في مستعمرة من مستعمراتهم من الثورات مثل ما عانوه في المغرب من ثورات البربر الكثير عليهم.

لقد أصيبوا في سنة 78م بثورة قبائل الغرامات <sup>127</sup> البربرية في جنوب طرابلس وجبل نفوسة فزلزلت أركانهم ولم يخمدوها إلا بجهود كبيرة.

## ثورات موريطانيا الغربية على الرومان

وفي سنة 118 في عهد الإمبراطور أنطوان تيتوس ثارت قبائل موريطانيا الغربية على الرومان. فهجموا على مزارعهم وأملاكهم فهدموا وحرقوا. وقتلوا جماعة كبيرة من الرومان. فانهزم الرومان بالمغرب أمامهم. فقدم الإمبراطور بنفسه فقاد الجيوش. فخاض مع الثوار معركة حامية. فاستطاع ان يخمدهم. ثم تجددت هذه الثورة في سنة 138 فلم يخمدها الرومان إلا بجهود وتضحيات كبيرة. ثم تجددت في سنة 144 فأخمدت.

وفي سنة 188 في عهد أنطوان كومودوس تجددت ثورة الموريطانيين فاستغاث رومان المغرب بإمبراطورهم وكان ضعيفا. فأرسل إليه ضباطه وجيشه. فاستمر الرومان يقاومون هذه الثورة ثماني سنين فلم يخمدوها إلا في سنة 190 ق.م بعد جهود وتضحيات كبيرة.

ومن ثورات البربر المنظمة الكبرى ثورة لسيوس كيتيوس وكان بربريا تسمى باسم روماني. « عمل في الجيش الروماني وتقلب في درجاته حتى منحه الإمبراطور طريانس الرئاسة على الجند. ثم ولاه على يهو فلسطين فخدم روما خدمات جليلة. ثم عاد إلى إفريقية فثار بها. فاهتمت روما لثورته لما تعلمه من مقدرته الحربية. ولكن دارت عليه الدائرة فقبض فقتل». <sup>128</sup>

127 - قبائل الغرامات قبائل بربرية في جنوب طرابلس وجبل نفوسة. واراها من زناتة فان زناتة موطنها في طرابلس الجنوب.

128 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 208 بيروت.

124 - كانت ولايته في سنة 193 إلى 211م وعهده في الإمبراطورية 19 سنة.

125 - كانت ولايته في سنة 211 إلى 217م.

126 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 206 ط بيروت.

## ثورة نوميدية وموريطانيا الشرقية في عصر الفوضى

ومن ثورات البربر على الرومان ثورة جبال أوراس، وجبال كتامة بين قرطبة وسطيف، وجبال جرجرة. وكانت تلك الثورة العارمة في سنة 265 في عصر الفوضى الذي دام في إيطاليا خمسين عاما. وكان الرومان يتناحرون ويتقاتلون فاغتنم البربر ضعفهم فناروا عليهم.

وقد انتشرت هذه الثورة في نوميدية وموريطانيا الشرقية. فابتهج بها البربر فهبوا التأييدها. فانقضت عصابات الثورة على الرومان المستعمرين ففتكت بهم وبأموالهم ونغصت عليهم الحياة. وشفى البربر غليلهم من أعدائهم. فقتلوا منهم كثيرا. وجعلوا أيامهم سوداء بالمغرب. وهب الرومان في زعر فجمعوا قواهم فاستطاعوا التغلب على هذه الثورة.

وثارت نوميدية أيضا في سنة 270 بقيادة أرديون. فهجم على البروقنصلية (افريقية) فنكل بالرومان. فهب إليه القائد الروماني برويس في جيوشه فتبارزوا فقتل أرديون واستطاع برويس ان يقضي على هذه الثورة.

## ثورات جبال القبائل العارمة على الرومان

ومن ثورات البربر الكبرى التي زلزلت أركان الرومان، وملأت نفوسهم بالرعب ثورة جبال القبائل. وكانت جبال القبائل لا تزال حرة لم يستطع الرومان إخضاعها. فجددت ثورتها عليهم في سنة 288 فهاجمت معاقل الرومان وفتكت بهم فارتاعت روما. وجعلت جائزة كبرى للقائد أورليوس على حربهم. فشمر عن ساعده، فسار إليهم في جيوشه، فاشتبك بالثوار الأبطال فخاض معهم معارك كبيرة ثم استطاع ان يخذل ثورتهم.

وبعد سنين قليلة أعادت جبال القبائل الكرة على الرومان. فعزم الرومان على احتلال جبال القبائل ليأمنوا ثورتهم.

وكانت هذه الثورة في عهد الإمبراطور ديوكليسيانوس. وكانت الثورات والفتن قد عمت الإمبراطورية الرومانية. فوجد الإمبراطور نفسه عاجزا عن حمل عبء الإمبراطورية وحده. فجعل ثلاثة أباطرة آخرين فقسما بينهم الإمبراطورية. وأسندت إيطاليا والمغرب إلى القائد ماكسيميانوس وكان يلقب بهرقل. فسار الإمبراطور هرقل إلى افريقية وقاد جيوشه بنفسه واخذ الثورة وحاصر جبال القبائل وعزم على فتحها وبعد جهود ومعارك استطاع ان يدخلها في سنة 297. ويحتل بعض مراكز عسكرية بها. بقي أكثر

الجبال الشاهقة حرة تستعد لثورة أخرى. وتنتظر الزعيم والقائد الذي يقودهم لينقضوا على الرومان. فحانت لهم الفرصة بثورة فرموس. فقامت جبال القبائل بالاسلة فبايعته على الثورة. فانضوت تحت لوائه.

متى وقعت هذه الثورة وفي أي مكان.

## ثورة فرموس وجلدون

ومن ثورات البربر الكبرى التي زلزلت الرومان وكادت تقضي على دولتهم في المغرب ثورة فرموس وجلدون.

وكان فرموس وجلدون اخوين. وهما ابنا نوبال ملك جبال القبائل. وكان نوبال وأبناؤه مسيحيين على المذهب الدنتوسي البربري. وكان نوبال مخلصا لقومه. قوي الشخصية، داهية فسودوه وقدموه فصار ملكا على جبال القبائل. ولما توفي في سنة 370 خلفه ابنه فرموس في الزعامة والملك. وكان أخوه جلدون يحسده على الزعامة، ويكيد له، وبوده ان يسقط.

وكان المغرب بغلي كرها وعداوة للرومان. وكانت جبال القبائل مستعدة للانفجار. وكان فرموس يمقت الرومان ويضطرم غيظا عليهم. وفي سنة 372 ثار على الرومان في جبال جرجرة. فأيده المسيحيون البربر الدنتوسيون في المغرب، وساعدته الموريطانيات في الثورة فجدت عشرين ألفا. فهجم على العاصمة الرومانية قيصرية (شرشال) فحرقها، وقتل كثيرا من غلاة المستعمرين الرومان فيها. وامتدت الثورة إلى نوميدا. فسار الجيش الروماني المرابط في افريقية لقمع الثورة فانهمزم. فاستغاث الرومان في المغرب بروما. فأرسل الإمبراطور ولنتنيانس جيشا كبيرا تحت رئاسة القائد الداهية ثأودوسيوس.

وكان ثأودوسيوس يعلم قوة فرموس، وكثرة جنده، وشجاعة البربر. فأيقن انه لا يستطيع التغلب على فرموس إلا بجند قوي من البربر. وكان يعلم حسد جلدون لأخيه فرموس وانحرافه عنه فعزم على الاستعانة به.

وفي سنة 373 نزل ثأودوسيوس بجيشه في جيجل. وتوجه إلى ناحية سطيف. فأرسل إلى جلدون يستميله إليه. وواعده بالرئاسة والدراجات الرفيعة في المغرب ان أعانه على فرموس. فجنح إليه جلدون فانضم إليه في جيش كبير من أنصاره فتقوى به القائد الروماني. فاشتبك بفرموس في معارك طاحنة انتهت بالصلح طلبا من

## أسباب فشل الثورات البربرية

كانت ثورات البربر على الرومان قوية شجاعة، ولكن ينقصها النظام والاختاد. ان المغرب لم يثر كله عليهم متحدا فيفرق قوتهم فيقضي عليهم، وزعماء المغرب لم يثوروا كلهم، ولم يتخذوا جبهة واحدة للتحرك وتنظيم الثورة وتقودها. بل كانت الثورات جهوية، فاستطاع الرومان ان يوجهوا إليها كل قواتهم فيقضوا عليها. لو اتحد زعماء المغرب، وثار المغرب كله لاستطاع ان يستأصل الرومان أو يقذفهم في البحر. فيتحرر منهم. ولكنه لم يفعل. فبقي يغلي غيظا وحنقا على مستعمره الطغاة حتى نزل الوندال في المغرب، فانفجر المغرب انفجاره على الرومان فكان سببا لسرعة قضاء الوندال على الرومان.

تلك هي بعض الثورات البربرية على الرومان وهي جزء قليل من كثير حفظه لنا التاريخ. ان المغرب لم يسكن إلا سكونا ظاهريا للرومان. ان في أعماقه في كل العهود نار البغض والمقت لهم مشتعلة. وقد اتصلت ثوراته في كل العهود. فلو حفظ لنا التاريخ كل تلك الثورات لكان شيئا كثيرا أضعاف ما ذكرنا.

## أكاذيب الأوربيين على البربر وثوراتهم

وكان الرومان وأحفادهم الأوربيون حاقدين على البربر لعدم رضوخهم لهم. وثوراتهم المتوالية عليهم. وكانوا إذا حدثوا عن تلك الثورات في تاريخهم يصفونها بأسوأ النعوت، فيجعلونها فوضى، وتخريبا، وتقتيلا، وهمجية. ويصفون البربر بحب الفوضى، بالقرام بالتخريب وسفك الدماء! وليست تلك الثورات لعمر ك إلا جهادا وطنيا مقدسا تحمل عليه أعظم الأخلاق، وأنبال الغايات. ان غاية البربر في كل ثوراتهم ان يتحرروا من الاستعمار الروماني الذي يغلبهم عن التقدم، ويقتلهم في أوطانهم. ان تلك الثورات علامة النضوج في الأمة، ودليل الرقي في البربر، وآية الزكاء في النفوس، والسلامة في الطباع. وهي ما يشرف البربر في التاريخ، ويؤثرهم الاحترام والتبجيل من كل الأمم العاقلة التي تنظر إلى الأمور بالعقل الحصيف، لا بالقلوب التي يعمها الحقد والتعصب.

فرموس. ثم نقض الرومان الصلح. فجدد فرموس الثورة. وجمع نحو عشرين ألفا هزم بها ثأودوسيوس. فشمر ثأودوسيوس لمحاربه بالدهاء والكيد. فداخل بعض أنصار فرموس ليقضوا عليه. فشعر فرموس بالمكيدة، ورأى مناصرة أخيه جلدون للرومان. فعلم ان الدائرة لا تكون له في الحرب المقبلة. وأيس من الانتصار فانتحر في سنة 375 فانتهت ثورته. وبقي المغرب وجبال القبائل تغلي حنقا على الرومان.

وكان جلدون قد جازاه الرومان بالدرجات الرفيعة. وفي سنة 387 سمي رئيسا أعظم على فيلقين رومانيين. وفي سنة 395 توفي صديقه ثأودوسيوس. فزال السبب لذي كان يربطه بالرومان. فثار بغض الرومان الموروث في نفس جلدون فثار عليهم في افريقية، فأعانه الدونتوسيون المسيحيون البربر. وفتك جلدون بالرومان المستعمرين، وبمؤيديهم الاورثوذكس. وقطع عن روما حبوب المغرب. فاستعدت روما لحربه. واستعانت عليه بأخيه مسيزال. وكان مسيزال بايطاليا فأساء إليه جلدون بقتل ولديه فاغتاظ عليه. فأرسل الرومان جيشا عدده خمسة آلاف جندي تحت قيادة مسيزال. وجمع جلدون جيوشه فكانت سبعين ألفا. فوقع اللقاء في نواحي تبسة. فاغتر جلدون بكثرة جيوشه فلم يحسن تنظيمها. فدارت الدائرة عليه. فقبض عليه مسيزال فسجنه فانتحر في سجنه.

وكان مسيزال يكره الرومان. ولكن جلدون بعدوانه عليه، وإساءته إليه، جعله ينضم إلى الرومان. فعلم الرومان ان سلالة نوبال معدن العداوة لهم فقتلوا مسيزال قبل ان يثور عليهم.

## تقليد المؤرخين المغاربة الأوربيين في سب أجدادهم البربر

ان الرومان وأحفادهم الأوربيين قد آلتهم ضربات البربر. وثوراتهم التي مرغتهم في الدماء. فثلبوا البربر - وهم يحكمون ظهورهم وجنوبهم من الألم- بما قالوه فيهم بدافع الحقد والعداء والغیظ والتعصب. فما بال بعض المؤرخين المغاربة في هذا العصر يرددون تلك الأكاذيب الاستعمارية التي يشين بها الأوربيون ظلما صفحة أجدادنا. وتاريخنا الماضي النبيل. ويقلدون الأوربيين في سب أجدادهم. فيصفونهم بحب الفوضى. والجنوح إلى الفتن. وبأنهم لا يرضخون ولا يستقرون؟! وعسى أولئك المؤرخون وورثتهم ان يعيدوا النظر إلى أجدادهم. فيدركوا نبيل ثوراتهم. فيصفوا ما كتبوا. وينزهوا كتبهم وكتب آبائهم من الأكاذيب الاستعمارية على المغرب في تاريخه قبل الإسلام. والأكاذيب الملكية المتعصبة في تاريخه الإسلامي. فان عهد الاستقلال وروح الإسلام الذي يحرم التعصب يفرض علينا هذا!

ان البربر لم يرضخوا للبيزنطيين لما عسفوهم فثاروا عليهم. وثاروا على الرومان. وسوف يثورون على الوندال والروم. ويثورون على الأمويين والعباسيين إذا ظلموهم. وخالفوا دين الله في سياستهم. وان ثوراتهم كلها في تلك العهود المختلفة كانت الظلم. والباعث عليها إنما الآباء. وكرم النفوس. وزكاء الأعراق. والنضوج والثقافة. لا ما يقوله الأوربيون والمقلدون!

## الجذور الثابتة لثورات المغرب العربي على الاستعمار الحديث

وثار المغرب العربي الكبير المسلم على الاستعمار الحديث. وخاض معه معارك حامية الوطيس في كل عهود الاستعمار. وثار الجزائر ثورتها المباركة التي شرفت الإسلام والمسلمين وجذور تلم الثورات كلها إنما هي وراثه أجدادنا القدماء الذين ثاروا على الرومان أو دعوها في دماننا. فرسخت بالإسلام. وأذكتها فينا جبالنا السماء التي لا زالت معدن البطولة والإباء والعزة في المغرب العربي الكبير!

لقد تمسك الرومان بالمغرب كل التمسك. ورووا تربته بدمائهم في مناولة الثورات البربرية وإخمادها. فما مكانة المغرب بين المستعمرات الرومانية. وما آثار الرومان في ناحية الذين والحضارة. وكيف كانت نهاية الرومان في المغرب الكبير؟

## مكانة المغرب السامية عند الرومان

كان المغرب مستعمرة أثيرة عزيزة على الرومان. لخصب أراضيها. ووفرة منتوجاته الزراعية وغيرها. وقربه منهم. وكانوا يسمون المغرب مطمورة روما. وكانت ايطاليا بلادا جدبة ضيقة لا تكفي أهلها. وكانوا يجلبون من المغرب ما يكفي ايطاليا من الحبوب والمواد الغذائية الأخرى ثمانية أشهر في العام. ويجلبون من مصر ما يكفيهم في الشهور الأربعة الباقية. ولما اتخذ قسطنطين (بيزنطة) عاصمة للإمبراطورية في سنة 330 اختص المغرب بتموين ايطاليا. ومصر بتموين بيزنطة.

وكان لروما سفن خاصة لنقل حبوب المغرب إليها. ومراكز في المغرب بجمعها. ووكلاء للقيام بتصديرها. وقد أعفتها من أداء التجارة الخارجية. «ومن المراكز التي كانت تجمع فيها الحبوب لتشحن إلى رومة: وادي مجردة. ومداوروش. ولبس. قال بيروني «يحمل من هذه المراكز في كل عام ما يقرب من مليوني قنطار قمحا».

وكانت رومة تبيع لأبنائها الحبوب التي تأخذها خراجا من المغرب. ثم صارت توزعه على الفقراء من أبنائها بدون ثمن. وكان عدد الذين تمونهم الجمهورية برومة عشرين ألفا وثلاثمائة ألف».

وكان الرومان حريصين على المغرب مهتمين كل الاهتمام بأبنائه. يتساءلون عنه. ويودون ان يكون دائما على هدوء ليحلبوه كما يريدون.

وكان عظماء الرومان إذا اجتمعوا في ساحة (الفوروم) يقرن احدهم سلامة على صاحبه بقوله: «ما حدث بافريقية؟»<sup>129</sup> وإذا كنى الرومان عن رجل بسعة ماله قالوا: «في مخازنه قمح افريقية!»<sup>130</sup>

وكان الرومان لا يأخذون من المغرب الحبوب وحدها. بل يأخذون أشياء كثيرة أخرى لغذائهم ولباسهم وصناعاتهم. وزينتهم. وكانوا يأخذون «زيت الزيتون. والزيتون. والعب. والتمر. والفواكه. والتوابل. والرخام. والأخشاب. والخيول. والغزال. وبعض الحيوانات المفترسة لاستخدامها في الملاعب. والنحاس. والرصاص والحديد. وسبائك الفضة. والتبر. والعبيد

129 - كان القدماء يطلقون افريقية على المغرب كله والمعنى العام هو المراد في هذا الباب.

130 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 241 ط أولى بالجزائر.

السود، والصوف، والجلود، والبقر، والغنم، وشمع النحل، وكل مواد الحياة والرفاهية»<sup>131</sup>.

هذه هي خيرات المغرب وكنوزه التي كانت ترتع فيها ايطاليا. لذلك تمسك الرومان بالمغرب وأبوا ان يفلت من أيديهم. وكان الرومان المستقرون في المغرب أكثر تمسكا به لأنهم كانوا به في جنتهم وأقصى نعيمهم، فخرجهم منه خروج من الفردوس الذي لا يجدون مثله في مكان.

### إعادة بناء قرطاجنة

وكانت قرطاجنة من العواصم الكبرى التي تمتع فيها الرومان بكل ما يشاءون من خيرات المغرب. وكانت اكبر مرفأ في المغرب لشحن منتوجات وطننا إلى ايطاليا لترتفع فيها.

وكان الرومان قد أعادوا بناء قرطاجنة في سنة 120 ق.م. وسبب إعادتها هو ان عوتيقة عاصمتهم في افريقية لم يجدوا فيها خصائص قرطاجنة وميزتها. والسبب الثاني هو كثرة البطالة في ايطاليا بكثرة العبيد الذين يستخدمهم الأغنياء في أراضيهم فاستغنوا عن الايطاليين وقد بلغ عدد الايطاليين الذين لا يجدون عملا أربعمئة ألف فكثرت الفقر والفساد. ورأى مجلس الشيوخ الروماني ان يجدد قرطاجنة، فأرسل ستة آلاف من الايطاليين فشرعوا في بنائها في سنة 120 ق.م فعمرت وانتقل إليها الأغنياء، فصارت هي عاصمة افريقية. وقد ظلت هي العاصمة إلى ان هدمها حسان بن النعمان في سنة 74 هجرية. (703م) فكان عمرها الثاني ثمانية قرون وثلاثة وعشرين عاما. تلك هي مكانة الغرب عند الرومان وتمسكهم به. فما هي آثارهم في الناحية المعنوية والمادية؟

### دين الرومان وأثره في البربر

كان الرومان وثنيين يعبدون أصنامهم. وكانت أصنامهم لا تخصى. فلكل مناسبة من مناسبات الحياة صنم يعبدونه، ولكل مظهر من مظاهر الطبيعة التي تروعهم وثن يتقربون إليه. وكانوا يعتقدون وجود قوة غيبية هي الله الذي بيده موتهم وحياتهم، وسعادتهم وشقاؤهم. وإنما هذه الأصنام رموز له. فلذلك كان الرومان يعبدون كل الأصنام التي يجدونها في مستعمراتهم في الدين، بل كانوا هم الذين يقتبسون كثيرا من عقائد الأمم الأخرى. وكان هذا التسامح الديني الذي اتصف به الرومان ما مكن لهم

131 - تاريخ الجزائر للميلي ص 241 ط أولى بالجزائر.

في الأمم فملكوها. فلو كانوا متعصبين لدينهم، وحاولوا ان يرغموا الأمم على الأخذ به، وحاربوا أصنامها لثارت عليهم براكينها.

وكان للبربر دينهم الوثني، وكانت لهم أصنامهم التي يقصدونها. ولما جاء الرومان اثروا فيهم في الدين، كما تأثر الرومان بهم، وعبدوا بعض أصنامهم، فأطلق البربر على بعض أصنامهم أسماء رومانية.

وكان تسامح الرومان الديني، واحترامهم لأوثان البربر ودينهم هو الذي فتح قلوبهم فاخذوا ببعض عقائد الرومان الدينية، وببعض طقوسهم وأوثانهم. فلو أرغمهم لاستغلقت قلوبهم، ولنفروا مما يجبرون عليه، فيحاربونه ويكرهونه.

وأرسل الله عيسى عليه السلام بدينه الحق، ليهدي الناس إلى عبادة الله، ويظهر نفوسهم من الأنانية والعصبية والجبروت، ويملأها بالرحمة والإخوة والمحبة، ويزيل الفوارق الكبيرة بين الطبقات، ويحقق المساواة في الحقوق بينها.

### ترحيب البربر بالدين المسيحي وانتشاره في مدنهم

ان الدين المسيحي الحق يدعو إلى العدل والمساواة والإخوة، وينهي عن الظلم، والأنانية، وعن كل الأخلاق السيئة. فنشر الحواريون هذا الدين في أنحاء كثيرة من العالم. فوصل إلى روما وإلى المغرب في القرن الثاني الميلادي. فاستبشر به البربر في المدن وحمسوا له، ورأوه وسيلة تخفف من ظلم الرومان وجبروتهم. واستحلت قلوبهم هذا الدين يأمر بالعدل والمساواة في الحقوق، وينهي عن الظلم والأنانية والعصبية، فانتشرت المسيحية انتشارا كبيرا في البربر الذين يسكنون المدن. وفي كثير من الرومان.

### محاكمة الرومان للدين المسيحي وفضائعهم في المسيحيين البربر

#### والرومان

وكانت الحكومة الرومانية متسامحة مع المسيحية، ثم رأتها الطبقة الحاكمة المستعملة خطرا على امتيازاتها واستعلائها على الناس. فشمر الأباطرة والحكام في القرن الثاني لمحاربة المسيحية والقضاء عليها. وكانوا مثال الوحشية والقساوة والفضاعة في التنكيل بالمسيحيين البربر والرومان. كانوا يقتلونهم، ويحرقونهم، ويجمعون المدينة في الملاعب فيأتون بالمسيحيين مكتوفي الأيدي فيلقونهم إلى الأسود والنمور الجائعة فتفترسهم وتمزق أجسامهم، وأولئك الحكام والوثنيون يصفقون ويطربون، وينتشون بهذا المنظر الفظيع !

وكان اشد الأباطرة محاربة للمسيحيين وتنكيلا بهم، وارتكابا لأنواع الفظائع فيهم هو (صوكليسيان) الذي ارتقى عرش روما في سنة 284. وقد سمي عهده عصر الشهداء لكثرة قتلاه من المسيحيين.

وجاء الله بالفرج للمسيحيين باستيلاء قسطنطين على عرش روما في سنة 312 وكان مسيحياً.<sup>132</sup> فصار دين الدولة الرومانية هو المسيحية، ونصر المسيحية وأنعشها، فانتشرت في الرومان. فصارت المسيحية في نظر البربر هي دين الرومان وكانوا يكرهون الرومان ويمقتون أشياءهم، فبعثهم عداوتهم للرومان على مخالفتهم، فاعتنقوا المذهب الدونتوسي في المسيحية، وهو مخالف ومناذب للمذهب الاورتذوكسي الكاثوليكي الذي كان عليه الرومان. فدخل البربر في معارك طاحنة مع الرومان من اجل المذهب الديني أيضاً. فكيف نشأ المذهب الدونتوسي ومن أنشأه؟

### نشأة المذهب الدونتوسي وانتشاره في البربر

كان البربر يرحبون ان يغير الدين المسيحي من طبع الرومان، ويكسر من أنانيتهم وغطرستهم، وجبروتهم، ويعلمهم العدل والمساواة فيغيروا سياستهم للشعوب، سيما للبربر الذين يرتعون في بلادهم، ويمتصون دماءهم، ويستغلون جهودهم في كل الميادين ولكن ساسة الرومان والمستعمرين منهم لم يصل الذين المسيحي إلى قلوبهم فيغيروها، فظلوا على غطرسة الجاهلية وعصبيتها وظلمها، وظاهرتهم الكنيسة الاورتودوكسية على هذه الغطرسة، وسايرتهم وأيدتهم، ولم تنكر عليهم الظلم كما يأمر الذين المسيحي فانقلب البربر على الاورتذوكس، وفارقوهم لهذا السبب وأسباب أخرى كنسبية تتعلق باختيار القساوسة، فأنشأ الرهبان البربر مذهبهم المسيحي الذي يأمر العدل، ويشدد النكير على الظالمين المستعمرين، كما أنشأوا كنائسهم، واختاروا قساوستهم من البربر واستقلوا على الاورتذوكس في كل شيء.

### استعمال البربر سلاح الدين في محاربة الرومان وظلمهم

وكان الرومان في القرن الرابع قد فسدت نفوسهم كل الفساد، ووصلوا النهاية في الظلم والجبروت واحتقار البربر، وكانوا يرسفون في أغلال الشيوخوخة البالغة ومساوئها فعزم البربر على مناهضتهم، والتخلص منهم، فوجدوا في الدين المسيحي الذي يدين به الرومان وسيلة لتشديد النكير على ظلمهم وجبروتهم فأشهروا سلاح الذين عليهم،

132 - كان يحب المسيحية، لنصرة المسيحيين له، انه يعمد وهو علامة الدخول في المسيحية إلا في آخر عمره وهو على فراش الموت، وكان يخشى الوثنيين فاخر دخوله في الدين المسيحي.

وأنشأوا كنيسة ومذهبا يناصر العدل ويشدد النكير على الرومان.

### نشأة المذهب الدونتوسي البربري في شمال أوراس

وكانت نشأة المذهب الدونتوسي في أول القرن الرابع في شمال أوراس الذي يغلي بمقت الرومان، ويزيد حنقا عليهم، وأنشأه راهبان بربريان خدما أسقف في القرية البربرية (الديار السود) في شمال أوراس، والثاني أسقف مدينة (باغاية) المشهورة في شمال أوراس، وكان كلا الاسقفين يسمى (دونتوس) وكان الأول قد أنشأه، والثاني نظمه، وعمل لنشره فنسب إليهما، فسمى المذهب الدونتوسي أو الدوناتى.

وكان المذهب الدوناتى يرمي إلى غايات سياسية، وهي تحرير المغرب من غطرسة الرومان وظلمهم، وجبروتهم، وإشهار سلاح المسيحية التي تنكر تلك الرذائل، ومحاربتهم به، فاعتنق البربر المسيحيون هذا المذهب، وما كاد القرن ينتصف حتى كان جمهور البربر المسيحيين في المغرب دونتوسيين، وكانت لهم الأغلبية على الاورتذوكس، «وكانت مراكز أساقفة الفريقين في سنة (411) مائة وسبعة وثمانين، منها (87) دونتوسية، (34) كاثوليكية» للاورتذوكس، (66) للفريقين»<sup>133</sup>.

وكان البربر الدونتوسيون يشددون النكير على الرومان لظلمهم، ويذكون أمراء البربر للثورة عليهم، وكانوا ينصرون الثورات البربرية على الرومان، وكان فرموس وجلدون القائدان البربريان لثورة جبال القبائل وثورة أفريقية على الرومان دونتوسيين، وكان أكثر جنودهما من الدونتوسيين، كما كان اغلب النصارى البربر الذين حاربوا مع الروم الفاتحين المسلمين من هذا المذهب، كانوا ثائرين على الاحتلال الأجنبي، وكانوا يعرفون قصد المسلمين من فتحهم للمغرب، كانوا يظنون إنهم كالرومان، ولما عرفوا الإسلام كانوا أسرع الناس إلى الإيمان به، والامتزاج بالمسلمين.

وقد شرع الرومان دعاية سيئة ضد البربر الدونتوسيين فوصفوهم بما يسول لهم التعصب الديني وحقدهم على البربر الثائرين عليهم، فقلدهم في الإزراء بهم الأستاذ احمد صفر، فلم ينزهه من الإزراء بأجداده، وثلب من رفع راية الجهاد الوطني على الرومان الغاشمين، إذا صح ان ينتقد احد الدونتوسيين فعبيد البربر الذين تنطعوا، وظلموا باسم هذا المذهب أما الدونتوسيون الأحرار - وهم الجمهور - فوطنيون مخلصون معتدلون، فهم أهل لكل تمجيد وثناء وإكبار.

133 تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 222 ط بيروت.

## العداء الشديد بين الأورتودوكس والدونتوسيين وفظائع الأورتودوكس

فيهم

وكان العداء على أشده بين الأورتودوكس والدونتوسيين. وكان كل منهما ينكل بالآخر ويقوم فيه بالمجازر الفظيعة إذا وجد فرصته. وكان الرومان ينصرون الأورتودوكس على الدونتوسيين. وظل العداء بينهما إلى انقراض المسيحية من المغرب في القرن الأول الهجري.

وكان البربر الذين دانوا بالمسيحية إنما هم سكان المدن. أما الجبال البربرية. وجيتوليا فظلت على وثنياتها إلى ان اشرف عليها الإسلام فأمنت به. فالإسلام هو أول دين سماوي يؤمن به جمهور البربر.

كان البربر الذين اخذوا بالمسيحية ديناً أقلية. ولم يكونوا أكثرية. فالأكثرية إنما هم سكان القرى والبوادي وهؤلاء كانوا يكرهون كل شيء روماني حتى الدين الذي جاء على أيديهم ودانوا به.

وكان البربر قد دانوا بالمسيحية لأغراض سياسية وهي القضاء على الرومان وظلمهم. ولم تكن بالدين الذي تغلغل الإيمان به في أعماقهم. فلما ذهب الرومان والروم بلغوا غرضهم السياسي وحرروا. ورأوا صفاء العقيدة الإسلامية وعظمة الإسلام. وعدل المسلمين ومساواتهم ورحمتهم. وحسن سلوكهم. خلعوا المسيحية. واصطبغوا بنور الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وثبتوا فيه ثبات الرواسي. وكانوا أكثر الأمم تمسكا بالإسلام وغيره عليه.

## اعتناق بعض الجبال البربرية لليهودية معاكسة للرومان

ومن الأديان التي دخلت إلى المغرب اليهودية. وكان الرومان النصارى يناهضونها في المدن ويقسمون على اليهود في المغرب. فأخذت باليهودية بعض الفئات في الجبال سيما جبال أوراس. مغايضة للرومان ومعاكسة لهم. ونصرة للدين الذي يعاديهم. كان إقبال بعض الفئات في تلك الجبال على اليهودية لهذا الغرض لحب اليهودية والإعجاب بها.

تلك هي آثار الرومان في البربر في الدين فكيف كان إقبال البربر على لغتهم وحضارتهم؟

## لغة الرومان وأدبهم وحضارتهم

### وموقف البربر منها

اللغة الرومانية لاتينية. انها أخت اللغة اليونانية فاصلها واحد. واللغة اللاتينية لغة آرية. فهي أخت اللغة الفارسية والجرمانية.

### اعتناء الرومان بلغتهم وجدهم غي نشرها بالمغرب

وكان الرومان يعتنون بلغتهم لأنها أصل قوميتهم. وقد ترفت هذه اللغة في أساليبها. واتسعت في مادتها. فصارت لغة غنية تليق للعلم والأدب.

وكان للرومان اعتناء كبير بالفصاحة والخطابة. وكان أكثر ما يعلمونه في مدارسهم. ويعتنون به في معابدهم العلمية العليا إنما هو اللغة الرومانية وعلم البلاغة. وفن الخطابة. وقد استفادوا من كل الأمم الراقية التي اتصلوا بها في هذا الباب. سيما الإغريق. فقد اغرموا بأدبهم البليغ. فتأثروا به كل التأثر. ونقلوا إلى لغتهم وأدبهم محاسنة. فتكون لهم أدب راق جميل.

وكان الرومان يرون لغتهم هي مظهر شخصيتهم. ومفتاحهم لقلوب الأمم المستغلقة. وعروقتهم الراسخة في الأوطان. فاتخذوا كل الأسباب. وجدوا كل الجد لنشر لغتهم في المغرب. فجعلوها هي اللغة الرسمية المحترمة المبجلة في الدولة. وأقاموا المسارح في البلاد ومثلوا فيها الراويات الجميلة المغربية باللغة الرومانية. وجعلوها لغة التدريس. والتأليف. وكان يتسامرون في حماماتهم ونواديبهم. وفي الميادين العامة (الفوروم) بإنشاء الشعر الروماني. وقص القصص بالرومانية. والتفاوض في المواضيع المهمة بها. فصارت لغة الصالونات أيضا. وكانت الخطب الرسمية. وبلاغات الحكومة بها. وكانت الشرط الأساسي في وظائف الدولة. هذه الوسائل كلها كانت لنشر لغتهم في البربر. وإرغامهم على تعلمها. ولكن الرومان لم يصلوا إلى ما يريدون من بث لغتهم في البربر فتننتشر في كل أنحاء المغرب كما انتشرت اللغة البونيقية ورسخت في أنحاء المغرب.

ان الذين تعلموا اللغة الرومانية إنما هم سكان المدن والمجنودون. والعمال من أبناء القرى

فصارت حضارتهم التي هي وليدة شخصيتهم الفينيقية البربرية اقرب إلى نفوس البربر. وكذلك لغتهم التي كانت مزيجا من اللغتين الفينيقية والبربرية كانت قريبة من نفوسهم وكانت القوافل التجارية البونيقية التي تجوب صحراء المغرب وجباله تحسن إلى البربر. فأحبوا البونيقين فرحبوا بلغتهم وحضارتهم. وكذلك أهل الشمال في نوميديا وموريطانيا فان البونيقين لم يسيئوا إليهما في أول الأمر. وكانت بينهما وبين قرطاجنة علاقة صداقة ومصاهرة. فانتشرت اللغة البونيقية والحضارة في كل أنحاء المغرب بامتزاج الدماء والصداقة. والعلاقات السياسية الحسنة.

أما الرومان فكانوا غولا جثم على المغرب. لم يمتزجوا بهم ولم يصاهروهم وكانوا مستعمرين غاشمين فكرههم البربر. ولم يكن لحضارتهم ولغتهم أصل من تلك الأصول لتنتشر انتشارا واسعا. وثبت بعدهم في المغرب. فضاقت نطاقها. ثم زالت بزوالهم من المدن. فتفتح صدر المغرب الكبير كله للغة القرآن وحضارة القرآن العظيمة التي حملها إليه أجدادنا العرب المحسنون الفاتحون. ورسخت العربية فينا. ورسخت الحضارة الإسلامية في مغربنا الكبير رغم معاول الاستعمار التي انهالت عليهما قرنا وثلاثين عاما للقضاء عليهما في المغرب. لأن العربية هي لغة ديننا المقدس. والحضارة الإسلامية هي حضارة الدين صبغ نفوسنا فأحسسنا بها حضارتنا.

لقد ذهب الرومان وبادوا في مغربنا. فما هي أسباب انقراض دولتهم في المغرب. ومتى وقع ذلك؟

الذين اختلطوا بالرومان أو تعلموا في مدارسهم وهم أقلية في المغرب. وكان الباعث لهم على تعليمها إنما هو الاختلاط. والمنافع المادية والعلمية. لقد كانت الرومانية لغة التجارة الواسعة. وسبب الوظيفة الحكومية. ولغة العلم والحكومة. فاقبل عليها هؤلاء البربر بتلك الأسباب. وكانوا يتكلمونها. وقد نبغ منهم علماء كثيرون فيها منهم القديس أغسطين قال بيروني: «هو اخطب خطيب لطيني. واكبر مفكري كل زمان»<sup>134</sup> ولكن البربر في القرى والجبال وفي الصحراء نفروا من اللغة الرومانية نفورهم من الرومان. وظلت اللغة البونيقية إلى الفتح الإسلامي هي اللغة التي يحسنونها ويكتبون بها مع البربرية. واعرضوا عن الرومانية فلم يتعلموها. قال بيروني: وفي أيام القديس أغسطين (في القرن الرابع. في آخر عهود الرومان بالمغرب. وبعد مقامهم به نحو ثلاثة قرون ونصف) في تلك الأيام كان الولاة الإداريون. والرؤساء الدينيون يحتاجون إلى ترجمان بينهم وبين البربر البادين. وكانت اللغة (البونيقية) لغة الأكثرية البربرية حتى ان العظماء الذين تخلقوا بالأخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها»<sup>135</sup>.

### حضارة الرومان ونفور اغلب البربر منهم

وكان للرومان حضارة راقية. لقد اقتبسوا من البونيقين. والبربر. والإغريق. والمصريين وغيرهم كل ما راقهم من حضارتهم فطبعوها بطابعهم واتخذوا كل وسيلة لنشرها في البربر. فلم تنتشر إلا في المدن التي كان عددهم كبيرا فيها. أما بقية المغرب فوقف من حضارتهم موقفه من لغتهم. ولما زالت دولة الرومان والروم من المغرب زالت الأسباب التي حملت بربر المدن على تعلم اللغة الرومانية والأخذ بحضارتهم. فزالت كل آثارهم من لغة وحضارة. وعادات من المغرب. ولم يبق من آثارهم إلا الأطلال الضخمة التي لم يقو الزمان على إزالتها. فما هو سبب إقبال البربر على اللغة والحضارة البونيقيتين وثباتهما فيهم. ونفورهم من اللغة والحضارة الرومانية وانقراضهما من المغرب عند زوال دولتهم؟

### أسباب نفور البربر من اللغة والحضارة الرومانية وانقراضهما من المغرب

#### سريعا

ان السبب هو انه لا أصول راسخة للغة والحضارة الرومانيتين في نفوس البربر. من وراثة بامتزاج الدماء. أو ين. أو حب. ان البونيقين امتزجوا بالبربر فاختلفت دمائهم

134 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 227 ط بيروت.

135 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 214 ط بيروت.

الرومانية الغربية مطمعا للمغيرين. وأدركت المستعمرات ضعفها فثارت عليها. وكان في مقدمة من ثار عليها المغرب الأبي. فشمر البربر عن ساعدهم لإزالة هذا الكابوس الذي حرمهم الحياة والعزة أربعة قرون. وأمست دولة الرومان في المغرب تمايل للسقوط. بالهرم. وبالعواصف البربرية النائرة. فعجل الله بسقوطها بخيانة بعض أبنائها. وبعده كان أقوى منها بمتانة أخلاقه. وكان البربر قد رحبوا به وآزروه وناصروه عليها. تلك هي الأسباب الأصلية الانهدام الدولة الرومانية في المغرب. فما هي العلة المباشرة التي لفظت بها النفس الأخير وماتت في المغرب. انها فعلة بونيفاس. وخرق المرأة التي كانت ملكة لروما. ان ضعف المرأة هو السبب المباشر الذي أزال الرومان من المغرب.

### بونيفاس وبلاصيدية

كان الإمبراطور هينوريوس قد ولى على المغرب في سنة 422 شخصية بارزة وقائدا محنا هو الكونت بونيفاس. وكان بونيفاس جديرا بالولاية على المغرب المتحضر للثورة. والمستعد للانفجار. فقام بواجبه أحسن قيام. وفي سنة 423 مات الإمبراطور هينوريوس فوقعت المنافسة الشديدة على عرش روما. وأشرفت روما أبنائها وتزاحمهم على الهلاك. فتدخل إمبراطور الدولة الشرقية البيزنطية (ثاودوسيوس) اخو هينوريوس فنصب على عرش رومة ابن عمته بلاصيدية (ولنتنيانس) الثالث.

وكان ولنتنيانس صغير السن فعين ثاودوسيوس أمه بلاصيدية وصية عليه. وأصبحت بلاصيدية هي المتصرفة في مملكة رومة. وفي يدها كل مقاليد. فأقرت بونيفاس واليا عاما على المغرب. فقام بونيفاس بواجبه أحسن قيام. واخلص كل الإخلاص لدولته. فبدت شخصيته وكفاءته ومهارته في الإدارة والقيادة لبلاصيدية فارتفع عندها وصار له نفوذ كبير لديها. فحسده القائد العسكري العام في روما (أيتيوس) وكانت بينهما منافسة. فصار يتنقصه ويوغر صدر بلاصيدية عليه. فوسوس لها ان بونيفاس لا يحترمها. وانه يتصرف في المغرب بإرادته. واقترح عليها ان تختبره بان تستدعيه للمثول أمامها. واراها انه لا يقدم لما قر في نفسه من بغضها واحتقارها وسوء الظن بها. فصدقت المرأة الضعيفة هذه الدعاوي الكاذبة. فعزمت على استدعاء بونيفاس لتختبره. فأرسل أيتيوس إلى بونيفاس يوغر صدره على بلاصيدية ويخبره بأنها قد همت بالقبض عليه. وعزله عن وظيفته. ونهاه ان يقدم عليها إذا استدعته. وورد أمر بلاصيدية إلى بونيفاس. وكان ذلك في سنة 427. فتمرد بونيفاس عليها فلم يعتزل الحكم. فأرسلت إليه قوة عسكرية لتقبض عليه. فحاربها بونيفاس وهزمها. ثم أرسلت إليه قوة ثانية فهزمتها.

## سقوط حكومة الرومان في المغرب

### الأسباب النفسية والعسكرية لسقوط حكومة الرومان في المغرب

كان الرومان في القرن الثالث والرابع يفقدون خصائصهم النفسية التي امتازوا بها على الشعوب فامتلكوها. وكانوا قد اختلطوا بالإغريق الأمة المريضة الواهنة. ففتنتهم حضارة الإغريق. وعلوم الإغريق. ففتحوا لهم قلوبهم. واختلطوا بهم. وتزوجوا منهم. فتعلموا علم الإغريق ورذائلهم. فشاعت فيهم الأخلاق الفاسدة. سيما الركون إلى الراحة. وحب النعيم والرفاهية. وهو خلق ما اتصفت به أمة إلا وشاخت. وشاعت فيها أنواع الأمراض التي تسرع بها إلى القبور.

وكان كثير من ضباط الرومان العظام ومن قوادها الكبار. وهم عظماء الدولة وقادتها. قد أرسلتهم الحكومة إلى مستعمراتها في أوروبا وAsia فعاشوا في جو غير روماني. فتأثروا بيئة غير رومانية. فمرضت أخلاقهم. وداخلتهم الأنانية وحب الذات. وتمكن فيهم الحسد والأثرة. فصار كل يعمل لنفسه. ويكيد لأخيه. فتقاتلوا على الرئاسة. وتنافسوا على الزعامة. وأصبحت روما التي كانت تشهد «أخاد أجدادهم وتهاربهم من الملك. وترتفع بذلك الاخاد: أصبحت تراهم يتقاتلون على عرش الإمبراطورية. وتجري دمائهم انهارا في شوارعها من اجل الرئاسة والمال.

وكان الرومان في القرن الثالث والرابع يتكالبون على الوظائف المدنية. ويعافون حياة الجندي. فاتخذت دولتهم جندا مأجورا من شذاذ الأمم المستعمرة. فصار هذا الجند بلاء عليها. فانه تدخل في السياسية. فصار يولي من يشاء من الأباطرة. ويعزل من يشاء. وأصبح عرش روما في قبضتهم. يجلسون عليه من يتملقهم. ويرشيقهم بالمال أكثر من منافسه. ويسترضيهم. ويتصرف حسب هواهم. فحرمت الدولة الرومانية من قيادة أقدانها الأقوياء. ومنيت برئاسة الضعفاء الذين يوليهم الجند ليتصرفوا كما يشاء؛ فأصابها الخلل في كل أمورها. وسرى الضعف في كل نواحيها. ثم انقسمت بعد ذلك في سنة 330 إلى دولة شرقية ودولة غربية. فتضعفت الدولة الغربية التي كانت عاصمتها روما بهذا التقسيم. وحرمت من كثير من شخصياتها التي أثرت الدولة الشرقية التي كانت عاصمتها «بيزنطة» لشباب هذه الدولة وهدوتها. وأمست الدولة

فعولت على سحقه، فشمرت عن ساعدها يعينها ويذكيها أيتيوس. فجهزت جيشا جرارا فأرسلته لمحاربتة.

### ثورة بونيفاس على روما واستعانتها عليها بالوندال

وكان بونيفاس يعلم تحفز البربر للثورة على الرومان. فعلم انه إذا اشتبك بكل قواته بهذا الجيش الذي سار إليه فإنهم سيثورون عليه، فيقع بين نارين، فيهلك وتنهار دولة الرومان المتداعية في المغرب. وساءه ان تعزله بلاصيدية، وأدرك مساعي منافسه أيتيوس، فتسلطت عليه أنانيته، فعزم على الانتقام، وعلى فصل المغرب عن روما، فاستنجد بأصهاره الوندال في الأندلس فاجدوه.

وكان الوندال قوة حربية كبرى في جنوب الأندلس. وكانوا يرون جمال المغرب وحضارته وخيراته واستئثار الرومان به، فتتقلب أشداقهم عليه. وكان ملكهم الداهية جنسريق يرقب الفرصة للوثوب إلى هذه اللقمة السائغة، وإلى هذه المملكة الجميلة. ولما وقع بنويفاس في حرج مسير جيش روماني لا طاقة له به، وبتحفز البربر للثورة عليه، وسمع لوساده الوندالي فتأثر به ! استنجد بأصهاره الوندال على ان يعطيهم جزاء إعانته في حربه الجزء الغربي من المغرب، من طانجة إلى وادي مساغا في قرطبة، فأسرع ملك الوندال جنسريق إلى المغرب فنزل بطانجة في سنة 429 في ثمانين ألفا من جيشه المدرب الشجاع فزحف قاصدا قرطاجنة لينضم إلى بونيفاس.

وكان بونيفاس يخاف من ثورة البربر عليه إذا استقل عن روما، فاستعان بالوندال وأشركهم في المغرب، ليرهب بهم البربر ويستعين بشجاعتهم وقوتهم على إخضاع المغرب. ولكن الله كان قضى بزوال دولة الظلم والطغيان من المغرب: فأنشأ الأسد الذي أراد بونيفاس ان يأكل به البربر أنيابه فيه، وجعله البربر سلاحهم عليه، فبلغوا مرادهم في الرومان، وشفوا الغليل منهم !

وكان القديس أغسطين قد سعى بالصلح بين بونيفاس وبلاصيدية فاصطلحا، والوندال يزحفون من موريطانيا الغربية إلى افريقية، فأرسل إليهم بونيفاس ان يرجعوا فأبوا، فواصل جنسريق ملكهم زحفه فتخطى وادي مساغا، فحاول بونيفاس صده فوقعت حربان انهزم فيها بونيفاس.

### إعانة البربر للوندال في حربهم ضد الرومان

وكان البربر لكرههم للرومان يعينون الوندال في زحفهم وفي حربهم للرومان.

فاستطاعوا احتلال نوميديا كلها، وأرسلت بلاصيدية تطلب الصلح من جنسريق، فوقع، واتفقوا على ان لا يتجاوز الوندال حدود نوميديا الشرقية، وتبقى للرومان، فرضي جنسريق، لينظم أموره ويثبت جذوره فيما احتل من المغرب، ثم يزحف على افريقية.

وفي سنة 439 نقص جنسريق معاهدة الصلح فزحف على افريقية فامتلكها، فبادت دولة الرومان في هذا العام في افريقية وطرابلس، كما بادت في سنة 430 في نوميديا والموريطانيتين.

وكانت مدة الرومان في افريقية 585 عاما، من سنة 146 ق.م إلى عام 439م.

وفي نوميديا الشرقية 476 إلا تسع سنين وهي التي ولى فيها يوبا الثاني على نوميديا، وإذا عددنا يوبا الثاني واليا رومانيا منح كثيرا من الاستقلال الداخلي كانت المدة 476 عاما من سنة 46 ق.م إلى سنة 430م.

أما نوميديا الوسطى والغربية فقد تداولها عرابيون وسيتيوس وأبناء بوكوس، ويوبا الثاني، فلم بحكمها الرومان حكما مباشرا إلا في سنة 17 ق.م فمدتهم فيها 447 من سنة 17 ق.م إلى عام 430م إذا عددنا يوبا الثاني واليا رومانيا كانت المدة 463 عاما من سنة 33 ق.م إلى عام 430م.

ومدتهم في الموريطانيتين 488 من سنة 42م إلى 430 وإذا أضفنا العاميين اللذين كانت الموريطانيتان فيهما تأثرتين على الرومان بعد مقتل بطليموس كانت المدة 490 وإذا عددنا يوبا الثاني وبطليموس واليين للرومان لا ملكين مستقلين كل الاستقلال كانت مدة الرومان في الموريطانيتين 463 من سنة 33 ق.م إلى سنة 430م.

وكانت مدة استيلاء الرومان على المغرب كله نحو 490 عاما.

زالت دولة الظلم والطغيان من المغرب فلم تترك فيه إلا آثارا سيئة، وجروحا تسيل بالدماء، وسمعة سوداء كبحموم النيران التي تبقى لها في الموقد بعد انطفائها!

وجاء الوندال، فكيف كانت سياستهم في المغرب، وما موقف الأمازيغ الأباة، والمغرب المصمم على استرجاع حرته، وإنشاء الدولة التي تسعده، من هؤلاء الغزاة؟

عهد الوندال في المغرب  
430م - 534م

## دولة الوندال في المغرب

429 - 534م

### أصل الوندال وشخصيتهم

الوندال قوم من القوط. وهم أبناء عمومة الجرمان نزحوا من شمال أوروبا فاستقروا في جنوب الأندلس فنسبت اسبانيا إليهم فسمين اندلوسية. ثم سماها المسلمون الأندلس. وكانوا يركبون البحر فيتسرحون فيه للغارة أو للحراسة فتعرفوا بالمغرب فأوا خيراته وعمرانه فتحلبت أشداقهم عليه. وقد جرأهم على ذلك ما رأوا من ضعف الرومان وسخط البربر عليهم فصاروا يرقبون الفرصة حتى أتيت لهم فانتهزوها.

والوندال قوم لم يتحضروا فترق طباعهم. وترقى عقولهم. وإنما هم أبناء السنان والحسام يعتمدون عليها في الرزق. ويستندون إليهما في الحياة.

وكانوا على الجرأة في القتال. والشجاعة في الحروب. والقوة في الطعان. لم تقتلهم المدينة كما قتلت الرومان.

### سبب غزو الوندال للمغرب

ولما استعان بهم والى المغرب الروماني الكونت بونيفاس لما ثار على ملكة روما بلاصيديا في سنة 427 جاءوا في عدد كبير بلغ ثمانين ألفا.<sup>136</sup> ولم يكدهؤلاء الغزاة أرض المغرب حتى اصطلح بونيفاس وبلاصيديا فأرسل إليهم أن يرجعوا. ولكنهم توغلوا إلى الوليمة. وساروا مسرعين إلى اللقمة السائغة. فاصطدم بهم فهزموا. ولما رأته روما تغلب الوندال وعدم استطاعتها الدفاع فاوضتهم في الصلح فرضوا. فأجابوا روما إلى طلبها ريثما تثبت أقدامهم في الأرض وينظمون شئونهم في البلاد. ويستعدون للمعركة التي يلقون بها الرومان في البحر.

وكان جنسريق هو ملك الوندال وقائدهم في غزو المغرب. ومؤسس دولتهم فيه وكان قصير القامة. أعرج لسقوطه من فرسه. وكان بطلا في الحروب. داهية في السياسة.

136 - كان المقاتلة من هذا العدد الكبير عشرين ألفا والباقي هو نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم لأنهم جاءوا للاستقرار.

مخلصا لقومه ودولته. وقد قبل شروط الصلح التي فرضها عليه الرومان ريثما أقدمه في المغرب وحين له الفرصة لنقضها. ان روما عجزت هزيمة فما ضر ان يكبل نفسه بقيودها. انه سيتمطى فيمزق كل القيود. ويركل العجوز ركلة تخرجها من المغرب. لقد قبل الشروط وهي:

1- ان يدفع جنسريق غرامة سنوية

2- لا يتجاوز ملكه حدود نوميديا الشرقية. وهي طبرقة.

3- يعطي ولده هنريق رهنا على الوفاء.

4- يعمل بهذه المعاهدة لمدة ثلاثين سنة

وقد نفذ جنسريق هذه المعاهدة أربع سنوات وتقيّد بذلك القيد هذه المدة حتى وثق به إمبراطور روما ولنتيانس الثالث فرد إليه ولده. فوجد جنسريق الفرصة لنقض المعاهدة والاستيلاء على الولاية الرومانية. وابتلع المغرب كله.

وبلك أيتها العجوز الشمطاء! أيتها الشاة الجماء! جارك سيد الذئاب. وجازر الغنم! فزحف جنسريق في سنة 439 على البروقونصولية وهي الولاية الرومانية أوتونس فاحتلها. فوزع أراضيها وبساتينها وأسلابها على الوندال. فامتلت أيديهم بهذه الطرف. وغصت حلوهم بهذه الحلاوة. ونام جنسريق قريبر العين لأنه حقق المنى. وأدرك الغاية المثلى.

### شدة العداوة بين الأريويين الوندال والكاثوليكين الرومان

وكان الرومان على مذهب أريوس في النصرانية.<sup>137</sup> والرومان على مذهب الارتدوكس الكاثوليك. وكان الارتدوكس يعسفون الأريويين في أوروبا. ويرتكبون فيهم كل منكر. وكل فظيعة. فوجد جنسريق الفرصة فيهم. فانتقم من الارتدوكس الموجودين في المغرب. وسلط عليهم كل عذاب. وجاء أبنائه سيما هنريق فواصلوا تنكيلهم بالارتدوكس. وجأوزوا الحد حتى أنكر البربر فظائعهم فيهم. فأووا كثيرا منهم فحموهم من الوندال الغلاة. ومن الضحايا المضطهدين الذين فروا إلى البربر فأووههم القديس (فلقنس) الذي أوى إلى ملكة (تالة) البربرية فاحتمى بها فحمته.<sup>138</sup>

137 - الأريوسية مذهب في المسيحية يخالف الكاثوليكية. أنشأه أريوس المولود بالإسكندرية في سنة 280 وقد بدأ في نشر مذهب في سنة 323 فانتشر واخذ به الوندال ونصروه.

138 - انظر خريطة الممالك البربرية في ص من هذا الجزء.

وكان البربر الدنتوسيون قد وجدوا الفرصة في أعدائهم الارتدوكس فنكلوا بهم. وانتقموا منهم لفظائعهم الماضية فيهم أيام الرومان. وكانوا أيضا أوتاد الاستعمار في المغرب وحماته. وقد نفذ البربر في الارتدوكس القوانين القاسية التي شرعها أباطرة روما لينفذها الارتدوكس في الدنتوسيين البربر «وتلك الأيام ندولها بين الناس» والغر الجاهل هو الذي لا يرى العواقب فيطغى. فيرى السلطان والقوة التي تطغيه. وهي سحابة فوق رأسه تظله سرعان ما تزول فتلفحه الظهيرة؛ يراها سقوفا من الفولاذ والاسمنت لا تزول.

### مناطق النفوذ الوندالي بالمغرب

وكان الوندال قليلي العدد. ان عددهم نحو ثمانين ألفا. فلم يغمروا كل أنحاء المغرب الخصبة الغنية في الشمال كما فعل الرومان. بل اكتفوا بأفريقية فحلوا فيها واقتسموها سيما شمالها ووسطها الغنيين. وبساحل المغرب الخصب. حلوا في بعض سهوله. وبيعض المدن الكبرى. كما احتلوا بعض المراكز العسكرية في شمال المغرب فشحنوها بالجند. أما الجبال. والبوادي. والصحراء فإنها لم تعرفهم ولم يحدثوا نفوسهم بالاستيلاء عليها.

وكان جنسريق حازما طموحا. وكان يكره الرومان الكاثوليكين. وأعداء الوندال القدماء. ويعرف شجاعة البربر وكرههم للمستعمرين فاحتاط من البربر. واستعد لغزو الرومان في عقر دارهم. والانتقام منهم فاعتنى بجيشه فأنشأ جيشا من الوندال والبربر المتطوعين يحتوي على ثمانين فرقة منظمة. مجهزة أحسن تجهيز: كما أنشأ أسطولا كبيرا استعد به لغزو الرومان في شواطئهم. ولغزو ايطاليا. وقد استطاع بحزمه وسياسته الرشيدة ان يستميل البربر وينال احترامهم وعونهم في حروبه مع الرومان. واستقراره بالمغرب.

### ترحيب البربر بالوندال ليستعينوا بهم على الرومان

وكان البربر قد رحبوا بالوندال لأنهم عدو للرومان. فأعانوهم في حروبهم. ومهدوا لهم الطريق في الزحف عليهم. فاستطاع الوندال ان يحتلوا اغلب المغرب ويصلوا حدود نوميديا الشرقية في مدة قصيرة. فلو عارض البربر جنسريق أو خذلوه لثقلت خطواته في الزحف. أو يتوقف سيره في الغزو لقوة بونيفاس. وكثرة المراكز الرومانية القوية التي تعترض طريقه.

البربرية التي نبتت في عهده في أنحاء المغرب وترعرعت. تلك الممالك التي حاول البربر إنشائها في آخر العهد الروماني فلم يجدوا الجو اللائق. لغطرسة الرومان واستبدادهم. كما اقبل البربر على العمل، وانتفعوا بالهدوء الطويل في أيامه، فعمروا مدنهم التي خربت الثورات، ونظموا صفوفهم ومالكهم الناشئة، واستعدوا للطوارئ، ولحق من يحوم حول مالكهم العزيزة عليهم.

### وفاة جنسريق ومجته في الملك

وفي سنة 477م توفي الملك جنسريق. وكانت مدته في الملك بالمغرب 47 سنة ولما توفي لم يسلك أبناؤه وأحفاده الذين ورثوا ملكه طريقه، وحسن سياسته، ولا كانوا يتصفون بدهائه، وإخلاصه، وإحسانه إلى البربر. لقد ركنوا إلى لذاتهم وشهواتهم، فأفسدت الحضارة والنعيم المفرط أخلاقهم، فضعفت نفوسهم، وخدمت شجاعتهم، وداخلتهم الأنانية والحسد، فتقاتلوا على الرئاسة، واستولت عليهم العصبية الجنسية، فعسفوا البربر وظلموهم واحتقروهم، فثاروا عليهم، واختل النظام في المغرب، وأحس المغرب بالوندال طعاما مسموما في أحشائهم، فاهتزت فرائضه، عزم أن يقذفهم في البحر. فتوالت الثورات التحريرية على خلفاء جنسريق إلى أن زالت دولتهم من المغرب. وكان يقوم بتلك الثورات الممالك البربرية التي ترعرعت في عهد جنسريق واشتد ساعدها في عهد خلفائه، فانهالت عليهم بضرباتها. فأين نشأت تلك الممالك البربرية ومن ملوكها؟

### دهاء جنسريق ونجاته من ثورة البربر عليه

وكان جنسريق داهية. وكان يعلم أن البربر قد صمموا على الاستقلال وإنشاء دولتهم الحرة. وأنهم ما أعانوه في زحفه إلا ليحاربوا به الرومان. وأنهم سيثورون عليه ليتخلصوا من كل مستعمر في بلادهم، فشغلهم بالرومان، وانتفع بحقد البربر على الرومان في حروبه، فأطلق أيديهم في الرومان فقتلوهم كما شاءوا، ونكلوا بهم كما يريدون. وبقي عداء البربر متجها زمنا طويلا إلى الرومان، فغفلوا عن جنسريق فلم يثوروا عليه.

### احتلال جنسريق لروما وتنكيله بالرومان

وكان جنسريق يرقب روما من قرطاجنة، فشاهد الفوضى المنتشرة فيها، وتناحر أبنائها على الملك والمال وتقاتلهم، فعلم أنها لقمة سائغة قد تأججت عليها النيران فهياتها للأكليين. فسار إليها في سنة 455م. في جيش من الوندال والبربر فاحتلها، وأغرقها في الدماء، ونكل بالرومان كل التنكيل، وأباح روما لجنده أربعة عشر يوما، فأدرك البربر ثأرهم من عدوهم، وتنفسوا الصعداء لما حققوا حلم حنبعل، ومرغوا أمة الظلم في الهوان والمذلة في عقر دارها، وجاءوا بجماعة كبيرة من أعيان الرومان المتغطرسين أسارى في القيود إلى المغرب! ومنهم الإمبراطورة ملكة الرومان وابنتها!

### سياسة الملك جنسريق الحسنة للبربر

وكان الملك جنسريق يصطنع رؤساء البربر، ويقربهم، ويغمرهم بالإجلال والاحترام. وكان لدهائه وذكائه يعلم أن البربر يملكهم من يحترمهم، ويخضعون لمن يجلهم. فاحترم البربر وقرب رؤساءهم، فأحبه البربر واجلوه، وسكنوا في عهده، وكان يشركهم في غنائم الحروب التي يخضونها معه، لا يفضل عليهم الوندال في شيء، وكان يعلم قوتهم، وشجاعتهم، وكفاءتهم الحربية فوجه عداوتهم للرومان، وفتح قلوبهم بالإحسان، واستطاع بدهائه وبراعته في السياسة أن يجعل حقدهم على المستعمرين الغزاة وبراكينهم لا تثور عليه.

وكان جنسريق لا يتدخل في شئون البربر الداخلية، وقد ترك لهم أراضيهم، وخفف عن البربر أفريقية والسواحل التي خضعت له لضرائب، واكتفى من أهل المغرب بمسالته والهدوء له.

### الآثار الحسنة لجنسريق في المغرب

وكان جنسريق من المحسنين الذين تركوا في المغرب أعظم الآثار، وهي نشأة الممالك

من أقوى ملوك البربر. وارى انه من صنهاجة القبيلة البربرية الكبرى في شرق مدينة الجزائر.

وملكة الطاوة وصفار في جبال تلمسان. وملكها مازونة. وإذا استعنا بأماكن القبائل البربرية التي مرت في أول هذا الكتاب استطعنا ان نعرف القبيلة التي أنشأت المملكة ورأستها. ان الرئاسة لا تكون إلا في اكبر قبيلة بالمكان.<sup>140</sup>

وقد أنعشت هذه الممالك الأمة البربرية فرفعت رأسها. واسترجعت كثيرا من الأراضي الخصبة التي استولى عليها الرومان. وصار شعارها: ارض البربر للبربر! وعزمت ان تموت فداء لوطنها. وتغسل بدمائها سواد الاستعمار عن المغرب الكبير.

### ثورات الممالك البربرية على الوندال

وكان البربر يغلون حقدا على الوندال بعد جنسريق. فثاروا عليهم. وكان الذي يقوم بالثورات البربرية يقودها إنما هم ملوك الممالك البربرية.

وكانت ملكة جبال أوراس أول من ثار على الوندال وحاربهم. ودك معاقلهم العسكرية. وقد ثارت في سنة 477 بعد وفاة جنسريق. وثار في سنة 484 في آخر عهد هنريق الغاشم السفاح. وقد نزلت جنود الملك بيداس وقومه من جبال أوراس فهجمت على المراكز العسكرية للوندال في تيمقاد. وباغاي. ولبس في شمال أوراس. وتبسطة. ووصلوا قريبا م قسطنطينية. فدمروا المراكز العسكرية في تلك المدن حتى لا تكون أوكارا للاستعمار بوجه منها ضرباته إليهم. كما زحفت جنود أوراس على السهول الخصبة في غرب أوراس فاستولت عليها.

وكانت ثورة أوراس في سنة 484 على هنريق السفاح أكثر عرامة. وواسعة. لقد شاركت فيها جبال جرجرة. وبقية الجبال إلى طرابلس. وانضم إليهم من أهل المدن الدونتوسيون. والارتودوكس الذين كانوا يقاسون شر أنواع العذاب من هنريق. فكانت ثورة شاملة شارك فيها اغلب المغرب. فهزموا الوندال. وكسحهم فأنحصروا في الساحل. وبعض المراكز الحربية المنيعة في الداخل. فانفسح المجال للممالك البربرية بانقشاع الوندال من حولها.

وقد استمرت هذه الثورة في عهد غاثاموند خليفة هنريق فلم يستطع إخمادها.

140 - اغلب نصوص هذا الفصل الممالك البربرية من مدينة المغرب العربي بتصرف في العبارة ج 1 ص 383 ط تونس

### الممالك البربرية في عهد الوندال

ان عوامل نشأة هذه الممالك قد تكونت في العهد الرومان. وتقوت في آخره. لقد عزم البربر ان يحيوا أحرار مستقلين. وينشئوا الممالك التي تسوسهم وتقودهم في النضال لتحرير المغرب كله. وما ثورات البربر على الرومان منذ القرن الثاني المسيحي إلى آخر عهدهم بالمغرب إلا محاولة من البربر لإنشاء تلك الممالك. ولكنها لم تجد الجو الملائم الذي تنبت فيه بالعهد الروماني. ولما زال الرومان. وجاء الوندال. وكان عددهم قليلا. فلم يستطيعوا الهيمنة على كل نواحي المغرب. سيما الجبال. وتولى أمور الوندال جنسريق فأحسن إلى البربر وهادنهم. وأرعى لهم الأعنة: وجد البربر فرصتهم فأنشأوا ممالكهم في كل أنحاء المغرب. وكانت عديدة. لان تعددها هو ما تستلزمه نشأة الدولة في أول أمرها. تكون قزعا<sup>139</sup> متفرقة ثم جمع فتكون سحبا كثيفا يغطى السماء. ثم ان هذه الممالك تكونت في الجبال أو قريب منها. ان العدو الذي يخشون سطوته وعدوانه ما زال في المغرب وهو الوندال. انه يسيطر كثيرا من السيطرة على بعض المدن والسهول. فلا تمكن نشأة ملكة واسعة تبسط نفوذها على السهول فتكون دولة للبربر كلهم. فأنحصرت تلك الممالك في الجبال أو حولها وتعددت. وكان إلى هذا ما جبل عليه البربر من حب الاستقلال. وإيثار المركزية في الحكم. لقد وافق هذا التعدد طبعهم في ذلك الوقت فكانت عليه ممالكهم.

وكانت الممالك البربرية الناشئة ثمانى: ملكة هواره ولواتة في شرق مدينة طرابلس وجنوبها الشرقي وملكها هو (قبايون). وملكة قفصة في جنوب افريقية وملكها لم يذكر لنا التاريخ اسمه. وملكة الفراشيش في وسط افريقية. وعاصمتها هي تالة. وملكها هو (انطلاس بن غنغان) وملكة النمامشة في شرق جبال أوراس. وملكها هو (قطزينا). وملكة أوراس وملكها (بيداس). ويسمى أيضا (يوضاس) وملكة الحضنة وملكها (ارتياس) وملكة الجدار في جنوب شرشال وغربه بجبل شنوة. وجبال الظهرة. وجبال وانشريس. وملكها (ماستيناس) أو مصيناس. وكان الملك ماستيناس يلقب (بمالك البربر والرومان) وكان الرومان الذين بقوا في المغرب بعد زوال دولتهم يلتجئون إليه ليحتموا به من فتك الوندال بهم. وكانوا يخضعون له. ويعترفون بسيادته عليهم. وكان

139 - القزق قطع من السحاب الواحدة قزعة بفتح الزين.

## ثورة راكبي الجمال الجيتوليين على الوندال

وكانت القبائل البربرية في جيتولية تؤيد ثورات الشمال وتمدها بالجند الكثير. وبالسلح. سيما براكبي الجمال فتنهزم أمامها أو تأتي الهجوم عليها. وقد أغنى هؤلاء الجنود في المعارك الكبرى التي لم يستعمل البربر فيها أسلوب العصابات. بل كانوا يلتقون بالوندال في السهول فيهزمونهم.

وكان الجمل قد دخل إلى المغرب وانتشرت في الصحراء منذ عهد البونيقين كما أرى أو قبل ذلك ان وطن الجمل هو جزيرة العرب. وهذه قد تعرف إليها البونيقيون في رحلاتهم التجارية ونقلوا منها النخيل إلى المغرب. فما كانوا ليغفلوا عن الجمل وهو عدة التجارة الكبرى في الصحراء فلا ينقلونه إلى المغرب. أو قبيلة لونه وهوارة في برقة وطرابلس. وكانت صلتها وثيقة بمصر. ولا يمكن ان تغفلا عن امتلاك الجمال الموجودة في بادية مصر والشام منذ زمن بعيد. وهي سفن الصحراء التي يجوبونها في أسفارهم.

ليس الرومان هم الذين نقلوا الجمل إلى المغرب. لأنهم لم يجوبوا صحاريه فيحتاجون إليه. وإنما الذي نقله هم البربر أو البونيقيون. وكان الجمل منتشرًا في القرن الخامس بالمغرب. وكان الجيتوليون يديرونه للحروب. وكانت لهم مهار كما نرى إلى اليوم في قبائل الصحراء. تقوم بهم في الحروب. وتفرغ خيل الوندال بمنظرها ورغائها. وتطوؤها بمناسبة أيضًا فتفر.

ومن ثورات البربر الكبرى التي أغنى فيها الجمل غناء كبيرًا ثورة ملك هوارة ولواتة (قبايون) هجم على الوندال في عهد (غاتاموند) ملكهم فدارت بينهم معركة كبرى بين طرابلس وقابس انهزام فيها الوندال شر هزيمة. فطاردهم (قبايون) فاستأصلهم عن آخرهم وكان الجمل من أسباب انتصار قبايون مع شجاعة البربر وبطولة قائدهم (قبايون) ودهائه. وقد وصف المؤرخ البيزنطي (ابروكوب) هذه المعركة فقال:

«كان جنود (قبايون) ينتظرون أعداءهم في معسكر مستدير لم يكن جداره سدا من التراب. بل كان خطأ دفاعيا حيا من الجمال متلاحما في (عرض) أثنى عشر بعيرا. وفي داخل الدائرة حشدت النسوة والأطفال. والشيوخ. والقبيلة كلها مع المؤمن والذخائر والأموال. والخيام والأمتعة. وأما المقاتلون فقد انثبوا في محيط الدائرية بين الجمال. وكانوا إذا نظروا خلفهم إلى أهلهم وأموالهم وبيوتهم يزدادون إيمانا بان المعركة إنما هي مسألة حياة أو موت فيستمتتون في القتال».<sup>141</sup>

ومن ثورات الممالك البربرية على الوندال ثورة (انطلاس) مالك مملكة الفراشيش في وسط افريقية. واره من قبيلة نفاوة القوية. كانت ثورته في عهد هلدريك الذي تولى الملك من سنة 523 إلى 531 فنزل المالك انطلاق من جباله فانضمت إليه لواته من مملكة طرابلس فاشتبك بجيوش الوندال فهزمها. فاستولى على ساحل افريقية إلى شمال سوسة. فظل الساحل الخصب الجميل في قبضته إلى سنة 546 في عهد البيزنطيين وهذا يدل على قوة هذا الملك ودهائه. انه لو كان هو وقومه (جماعة من الخربين) كما وسفهم الأخ احمد صفر ما أبقى عليهم البيزنطيون الذين جاءوا لاحتلال الساحل الغني الجميل. وما دام الساحل المتحضر ساكنا لهم كل هذا الأمد من السنين.

ان عيب بعض مؤرخنا المغاربة هو إنهم لا يعملون عقولهم في التاريخ فيدركوا حرد الأوروبين على أجدادنا وثوراتنا. ويدركوا أكاذيبهم على المغرب الذي ثار على استعمارهم فيفندوها. وينصفوا أجدادهم. ولكنهم يغمرن بوجودنا أسادتهم الأوروبين المتعصبين. فتراهم يكتبون بحردهم عن أجدادهم البربر. فيصفعون وجوههم ويفقؤون عيونهم بأصابعهم. ويرددون أكاذيب الرومان وأحفادهم على أجدادهم البربر فيصفونهم بالقرصنة! وبالهجمية! وبأنهم بداء متوحشون لا يمكن التفاهم معهم! إلى غير ذلك ما نقله أخونا احمد صفر من ترهات المتعصبين في هذا الباب في الممالك البربرية. فشان بها كتابه النفيس. ووضع نفسه -وحاشاه- في صف المقلدين الذين تملؤهم المدارس الاستعمارية بما تشاء. فيرددون ترهاتهم في مغربنا وأجدادنا!

## خلفاء جنسريق في الملك

وكان الملك وراثيا عند الوندال . ولما توفي جنسريق خلفه في الملك أبناؤه وأحفاده وهم:

- 1- ابنه هنريك من سنة 477 إلى 484 ومدته في الملك سبع سنين.
- 2- حفيده غاثاموند بن جانسون من سنة 484 إلى 496 ومدته في الملك اثنا عشر عاما.
- 3- حفيد جنسريق واخو غاثاموند (تراسمند) من سنة 496 إلى 523 ومدته في الملك تسعة وعشرون عاما.
- 4- هلدريك بن هنريك من 523 إلى 531 ومدته في الملك ثمانية أعوام.
- 5- جملير وهو حفيد جنسون بن جنسريق من سنة 531 إلى عام 534 ومدته في الملك أربع سنين.

## ثورة الوندال على ملكهم هلدريك وخلعه وقتله

وكان هؤلاء الملوك كلهم على العداء والقطيعة للدولة البيزنطية إلا هلدريك خامس ملوكهم فقد كان مسالماً لها. فأعلن دخول الدولة الوندالية تحت طاعة بيزنطة. ف ضرب السكة باسمها. فثار عليه الوندال فجعلوه ثم قتلوه. فنصبوا جملير ملكا عليهم.

## هجوم البيزنطيين على الوندال وزوال دولتهم في المغرب

وكانت الدولة البيزنطية تبحث عن سبب للهجوم على الوندال واسترجاع المغرب منهم. فلما خلعوا حليفهم وصديقهم هلدريك ثم قتلوه. وجدت السبب. فأعلنت الحرب على الوندال. وكان الوندال في حرب خارجية في جزيرة سردينية. وفي حرب داخلية كبيرة مع الملك (انطلاس) في ساحل افريقية. فوجد البيزنطيون فرصتهم في الوندال فأسرعوا الغزو افريقية قبل ان يرجع أسطولهم وجيشهم من سردينية وتهدأ حربهم مع البربر. فلا يستطيعون التغلب عليهم. فأرسل ملك بيزنطة يستنيان «قائده بليسير في جيش عدد جنوده خمسة عشر ألفا ثلثهم فرسان في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة. وركبت معه زوجته وكتبه المؤرخ (البروكوب) فاقبل بليسير إلى المغرب في صائفة سنة 533. فأرسي بخليج قابس»<sup>142</sup> فزحف على الساحل الشرقي لافريقية فاحتل حضرموت (سوسة) ثم اصطدم بالوندال فهزمهم. وقضى على دولتهم.

## انقراض دولة الوندال في المغرب ومدتها

وكان القضاء على الدولة الوندالية في المغرب في سنة 534م وكانت مدة دولتهم ببلادنا قرناً وخمس سنين. أما في افريقية وطرابلس فمدتهم فيها خمس وتسعون سنة فقط من سنة 4396 إلى عام 534 وعدد ملوكهم في المغرب ستة. أولهم جنسريق وآخرهم جملير.

وكان الوندال امة حربية بسيطة لا حضارة لها. وقد اخذوا في المغرب بنظم الرومان السياسية والإدارية. وقلدهم في حضارتهم. ولما زالت دولتهم من المغرب زالت كل آثارهم. وكان البربر يكرهونهم كما يكرهون الرومان. وقد اجمع الأمازيغ على تحرير وطنهم من المستعمرين. فلو لم يقض البيزنطيون على الوندال لقضى عليهم البربر.

وكان البربر قد نهضوا نهضتهم الكبرى في عهد الوندال. ورفعوا رعوسهم فلم

142 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 268 ط بيروت.

يخفضوها لمستعمر بعد الرومان. وانتعشوا. وتكونت لهم ممالك وجيوش. وملوك بارزون يسوسونهم ويوحدون كلمتهم. وكانوا يحاربون الوندال بالمصافة ويخوضون معهم المعارك الفاصلة. لا يستعملون حرب العصابات. وذلك لقوة جيوشهم. ولما جاء البيزنطيون كان المغرب على استعداد كبير للدفاع عن نفسه. فهب لخوض المعارك مع المستعمرين الجدد الطامعين الذين قذفت بهم بيزنطة إليه.

لقد أسرف الرومان وأحفادهم الأوروبيون في تصوير الوندال بالمغرب في صورة بشعة. وبالغوا في تهجينهم. ووصفهم بالظلم والجبروت. وذلك للعداء القديم الموروث بين الجنسين. وإلا فاستعمار الوندال بعد جنسريق للمغرب كاستعمار الرومان والروم. كله سواء. لا يزيد الوندال عليهم بشيء في الفظاعة والجبروت.

ان المغرب قد نهض وانتفض انتفاضته الكبرى ليتنظف من كل القمل الذي يمتص دماءه. فكيف كان موقف الأمازيغ الأباة مع البيزنطيين المعتدين؟ وكيف كانت معاملة بيزنطة لهم؟ ومتى نشأت هذه الدولة التي أعادت الجراد الروماني إلى المغرب.

العهد البيزنطي بالمغرب

534م - 647م

## نشأت الدولة البيزنطية 330م

الدولة البيزنطية هي امتداد للدولة الرومانية فهي جزء منها. لا يفرق بينهما إلا اختلاف العاصمة. فالدولة البيزنطية كانت عاصمتها في المشرق لا في المغرب. وسكان العاصمة ونواحيها اغلبهم من الإغريق لا من الطين كما هو في رومة ونواحيها. وكان الذي انشأ هذه الدولة بتكوين عاصمة جديدة في المشرق للرومان هو قسطنطين الأكبر في سنة 330 من ميلاد المسيح عليه السلام.

وكان الرومان في القرن الرابع قد دخلوا في شيخوختهم المزمنة. فكثرت أمراضهم النفسية. وتوالت الفتن والمذابح في روما بسبب المنافسة على الرئاسة. والتحاسد على المال. والتعادي من اجل الدين. ان الطبقة المتوسطة والفقيرة في ايطاليا قد رحبت فئة منها بالدين المسيحي. ولكن الطبقة الغنية الحاكمة فيها وجمهور الدهماء لا زالوا يعملون لخنق أنفاسه. وإطفاء أنواره. واضطهاد أصحابه والمبشرين به. فوقع فتنة كثيرة سالت فيها الدماء الغزيرة بسبب الدين.

### ولاية قسطنطين الأكبر رئاسة الدولة وإصلاحه وشخصيته العظيمة

وفي سنة 324م تغلب قسطنطين على منافسه في رئاسة الدولة فأصبح هو الإمبراطور الوحيد للدولة الرومانية.

وكان قسطنطين من الرجال العظماء. ومن القادة المخلصين. ومن الزعماء المجددين. فهو الذي أنقذ الدولة الرومانية من السقوط. ومكنها من أسباب البقاء طويلا. واستئناف عهد جديد. وعمر مديد في المشرق.

قال المؤرخ الكبير ه.ا.ل. فشر: «كان قسطنطين ابنا غير شرعي لضابط روماني يرجع أصله إلى إقليم إيليريا. من صاحبة حانة بمدينة (نيس) بالصرى الحالية. وتولى أبوه الإمبراطورية على النظام الدقديانوسي. فلما مات بمدينة (يورك) ببريطانيا نادت حاميتها الرومانية بـقسطنطين إمبراطورا سنة 306م».<sup>143</sup>

وكان قسطنطين بعطف على المسيحية. ويرى المسيحيين قوة في أوروبا يمكن

143 - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج 1 ص 4 ط دار المعارف بمصر 1950م

الاعتماد عليهم في دحر منافسيه على الرئاسة فاستعان بهم فنصروه وبلغ مناه. فكان هو إمبراطور الدولة الوحيدة. وكان قسطنطين معجبا بالدين المسيحي لمبادئه الحسنة. محبا للمسيحيين لنصرتهم له. ولكنه لم يتظاهر بالدين المسيحي خوفا من ثورة الارستقراطيين والوثنيين عليه وهم الكثرة في الدولة. فاكتمى بالعطف على المسيحيين. وظل لدهائه يقف موقفا بين المسيحية والوثنية ليرضى الطرفين.

قال الأستاذ ه. ا. ل. فشر: «ان الإمبراطور قسطنطين لم يعتنق المسيحية رسميا. ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت سنة 337م. ثم قال: كان الإمبراطور يؤمن بالمسيح وباله الشمس القهار. فحبا للمسيحيين بكثرة من التسامح على حين احتفظ لنفسه بمنصب الكاهن الأعظم. وهو المنصب الإمبراطوري في الوثنية الرومانية. ثم ان العملة أيام قسطنطين ضربت وعلى وجه منها الصليب. وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس»<sup>144</sup>.

وكان قسطنطين غيورا على الدولة فأراد إصلاحها في رومان. فوجد ان جناحها الغربي قد أودى به الهرم فلا أمل في تجديده وإصلاحه. وكان هو من أبناءه البلقان فنزع به حب الوطن إلى الجناح الشرقي للدولة. فعزم إنشاء عاصمة تنسب إليه كما نسبت روما إلى روملوس. والإسكندرية إلى الإسكندر. ان الناحية الشرقية للدولة لا زالت على كثير من متانة الأخلاق. وفيها شبان كثيرون أشداء يستطيع ان ينشئ منهم جيشا قويا يطبعه. وهي أيضا أصلح مكان لاستقرار الحكومة لتدافع القوط الذين يهددون الدولة الرومانية من نهر الدانوب. والفرس الذين ينافسونها ويحاولون القضاء عليها في المشرق من العراق.

كانت هذه هي الأسباب التي جعلت قسطنطين ينشئ عاصمة جديدة للدولة الرومانية في المشرق. فاختار بيزنطة التي نسبت إليها الدولة فجعلها عاصمته. ونسبها إليه فسميت القسطنطينية. وقد دام هذا الاسم إلى ان فتحها القائد التركي الكبير محمد الفاتح في سنة 857 هـ 1453م. فسماها اسلامبول (مدينة الإسلام) ثم غير هذا الاسم فصار اسطمبول وهي المدينة المعروفة اليوم بهذا الاسم في تركيا.

وكان قسطنطين قد اختار بيزنطة لتوسطها بين الشرق والغرب. ولقربها من نهر الدانوب ونهر الفرات حيث أعداء الدولة. ولوقعها الستراتيجي. انها على مضيق البسفور الذي يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الأبيض المتوسط. وقد

جد قسطنطين في بناء عاصمته فنقل إليها البنائين والفنانين فجعلها تداني روما في البناءات الجميلة. وفنون الحضارة. وكل المرافق التي تستلزمها عاصمة الدولة الكبيرة.

وقد ظلت بيزنطة هي العاصمة الكبرى للدولة الرومانية كلها حتى انقسمت الدولة بعد قسطنطين في سنة 395 فصارت روما عاصمة القسم الغربي للدولة. والقسطنطينية هي عاصمة الجزء الشرقي. فاضمحل الجزء الغربي ومات. وبقي الجزء الشرقي الذي صار العرب يسمون أهله (الروم) فثبت لهم هذا الاسم في التاريخ العربي وورد في القرآن الشريف. وقد تجددت الدولة الرومية بفضل قسطنطين ومن جاء بعده من الأباطرة الأكفاء. سيما الإمبراطور جستيان الذي هادن الفرس وصالحهم بدفع احد عشر مليوناً من الفرنكات الفرنسية الغالية ليتفرغ لحرب الوندال. واسترجاع صقلية وسردانية والمغرب منهم. وكل ما كان تابعا للإمبراطورية الرومانية فانفصل عنها.

### غزو الروم للمغرب

كان جستيان يطمع في خيرات المغرب وكنوزه. وكانت الحروب مع الفرس قد أرهقتهم وأفرغت خزائنه. فعزم على غزو المغرب واسترجاعه ليملاً من خيرات خزائنه. ويجعله لدولته ثدياً رويًا ترضعه. كما كانت عداوته للقوط والوندال وهيب عداوة موروثه بين الرومان والقوط والوندال الذين هم قسم من القوط: كانت تلك العداوة تدفعه لغزوهم وتجريدهم من المستعمرات.

وكان جستيان مسيحياً. كاثوليكياً متحمساً. وكان يتعصب للارتدوكس فعلم ما يلاقيه أهل مذهبه في المغرب من تنكيل وانتقام من الوندال الاريويين. فعزم على إنقاذهم. واسترجاع المغرب لينتقم لهم من الوندال.

ان هذه العداوة المذهبية والجنسية بين الروم والوندال من الأسباب التي جعلت جستيان يضطرم غيظاً على الوندال الجرمانيين. ويرى حربهم واجبا دينياً عليه. فهادن الفرس وصالحهم ليتفرغ لحرب الوندال.

وكان جنسريق يرقب الفرصة لاسترجاع المغرب ودحر الوندال حتى وافته في سنة 532 وذلك ان الملك انطلاس والملك قابايون البربريين ثاروا في آخر عهد هلدريق على الوندال فهجما عليهم بجنودهما الباسلة وأرهقا الوندال بشدة الحروب. ثم ثارت عليهم سردانية. فأرسل الوندال إليها أسطولهم وقسما كبيرا من جيشهم لإخضاعها.

## مناطق النفوذ البيزنطي في المغرب

كان المغرب قد عزم على الاستقلال، والتخلص من كل أجنبي يستعمره. وكانت الممالك البربرية في أنحاء المغرب الأدنى والأوسط قد اشتد ساعدها، وسيطرت على نواحيها. فلم يعد للروم مجال واسع للاستقرار والتسلط. كما كانت الطرق البرية إلى النقاط التي احتلوها في الساحل تسيطر عليها الممالك البربرية. وكانوا لا يسيرون إليها إلا من جهة البحر.

ان كل ما استطاع الروم ان يحتلوه ويستقروا فيه زمنا إنما ما كان في أيدي الوندال ولم يثر عليهم. لأن أغلب سكانه من الرومان أو من البربر الذين قتلتهم الحضارة. وهذه الأماكن هي قرطاجنة ونواحيها. وبعض المراكز الحربية في شمال افريقية. أما الساحل من جنوب حزموت إلى غرب لبدية في طرابلس فكان مستقلا تحت الملك قابايون. والملك انطلاس.

وكان الملك انطلاس من أعان الروم على الوندال: وقد افتك من أيدي الوندال ساحل افريقية في الوسط والجنوب فبقي فيه إلى ان ثار على الروم في سنة 546.

لم يحتل الروم من المغرب إلا المدن الكبرى، والمراكز الحربية الحصينة في الساحل. وكانوا يحصنون المدن التي ينزلونها بالأسوار المنيعة. ويشحنونها بالجند الكثير. ويعيشون فيها خوف من ثورات البربر العارمة. وهجمات الممالك البربرية التي تنظر إليهم بعين النسر. وتراهم دملا خبيثا نبت في جلد المغرب لأبد من إزالته. وكان نفوذهم في شمال افريقية أقوى. ثم يتضاءل في نوميديا. ويزداد تضاملا في الموريطانييتين سيما الغربية.

ومن مراكز الروم العسكرية الكبرى في المغرب. لبدية في شرق طرابلس. وقفصة في الجنوب الغربي لافريقية. وقرطبة في نوميديا. وقيصرية (شرشال) في موريطانيا الشرقية. وسبته في موريطانيا الغربية. كانت هذه المدن الكبرى في قبضتهم. وهي التي استطاعوا البقاء فيها طويلا لمنعه أسوارها. وكثرة جندهم بها.

ومن المدن التي استقر بها الروم في شمال افريقية واتخذوها مراكز عسكرية خميهم من غارات البربر. وتبرسق. وباجة.

أما نوميديا فالمدن التي احتلوها أيضا فتبسة. وتمقاد. وباغاية. وقالة. ومدوروش. وسطيف. وميلة. وقرطنة (تنس) في موريطانيا الشرقية. ولا تزال بعض آثار الأسوار التي حصنوا بها هذه المدن باقية إلى الآن. وبلغ ارتفاع بعض الأسوار عشرين ذراعا. وعرضه ستة أذرع.

ثم ثارت عليهم صقلية أيضا. فأرسل الملك انطلاس وقابايون والثوار في صقلية إلى جستنيان يستنجدون به. وكان الوندال مفترقين. قسم يؤيد هلدريك المخلوع ويتشيع له. وقسم مع جملير. فوجد جستنيان فرصته لاسترجاع صقلية والمغرب معا. وعلم ان البربر سيشتغلون جملير وجيشه. فيستطيعون النزول في المغرب. وضري الوندال الضربة القاصمة التي تقضي عليهم.

وكان وزراء جستنيان يقنون بان البربر بعد ان نشأت ممالكهم. واسترجعوا قوتهم لا يمكن ان يخضعوا لهم. وان الخسائر في احتلال ما يستطيعون احتلاله من المغرب أضعاف الربح. ولكن الغيرة على الأورتدوكس وحب الانتقام من الوندال. واستفزاز الأساقفة الأرتدوكس. وتخريضهم على الانتقام من الوندال الأريويين. وتخليص أتباع مذهبهم في المغرب. جعل جستنيان يصر على غزو المغرب رغم ما فيه من خسائر مادية وبشرية ومتاعب.

وكان بليسير من حاشية جستنيان وأصدقائه. وكان ذا دهاء وشجاعة. وغيره على الأورتدوكس. وكان الجند يحبونه. فاختره جستنيان لقيادة الجيش وغزو صقلية والمغرب «فاقلع في 22 يونيو سنة 533 في جيش يشتمل على خمسة عشر ألفا ثلثهم فرسان في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة. وركب معه زوجته وكاتبه المؤرخ بروكوب».

وكان وصول البيزنطيين إلى المغرب في يولية من هذا العام. فقصد بليسير خليج قابس الذي كان في قبضة الملكين البربريين قابايون وانطلاس. وكذلك ساحل افريقية الجنوبي كله إلى جنوب لبيتيس (لته) فزحف بليسير في جيشه فاحتل حزموت. فقصد قرطاجنة ليحتلها فتصدى له جملير في جيشه فوقع المعركة الفاصلة بينهما في 13 سبتمبر سنة 533 في مكان (أريانة) قريبا من مدينة تونس. فانكسر الوندال فاستولى الروم على قرطاجنة وجعلوها عاصمتهم. ثم سار بليسير وراء جملير يطارده حتى استسلم له في العام التالي 534 فانتهت بذلك دولة الوندال بالمغرب وحل الروم محلهم.

وكان بليسير قد أطلق أيدي الأورتدوكس في الوندال وأيدي جيشه. فقتلوا منهم عددا كبيرا «ومن بقي من رجالهم وشبابهم. وعددهم عشرون ألفا أخذهم إلى بيزنطة بصفة جنود عبيد فأرسلوهم إلى حدود فارس. أما نساؤهم وبناتهم فقد وقع توزيعهن على جنود الروم»<sup>145</sup> فانقرض بهذا جنس الوندال من المغرب بعد زوال دولتهم بزمن يسير.

145 - قرطاجنة في أربعة عصور للأستاذ احمد توفيق المدني ص 146 ط تونس.

هذه هي أهم المدن التي احتلوا في المغرب. وكان احتلالهم لقيصرية. وقرطنة تنس. وسبتة وغيرها من مراكزهم الحربية على الساحل من جهة البحر لأن الطريق البري إليها في قبضة الممالك البربرية التي لم ترض غزوههم للمغرب.

كان الوندال أوسع رقعة في المغرب واشد تمكنا. وأكثر استقرارا. وأقوى جولة فيه من الروم لأن البربر كانوا أكثر كرها للروم. وكانت ثوراتهم عليهم اشد وأكثر. ثم ان الوندال كانوا أقوى شباب واصح نفوسا من الروم.

كان استيلاء الروم على المغرب قد اقتصر على بعض المدن الكبرى. وبعض القواعد في السواحل. والمراكز العسكرية التي ذكرنا وهو شيء ضئيل جدا بالنسبة لرقعة المغرب الكبير الواسعة. فكيف كانت سياسة الروم للبربر وبقايا الوندال في هذه المدن والمراكز التي يحتلونها.

### سياسة الروم في المغرب

كان الروم يحكمون المغرب حكما عسكريا غاشما. «وكانت السلطة العسكرية في يد بطريق مقره قرطاجنة. ومعه رئيس أركان حربه وعدد كبير من أفراد هيئة الإدارة الحربية».

وكان الروم كالرومان في الغطرسة والجبروت والظلم والأناية والتكالب على المال. وابتزاز البربر وامتصاص دمائهم بكل وسيلة. ان قسطنطين وجستنيان إذا استطاعا ان ينفخا في الدولة النشاط والقوة بزعامتهما. وبالدماء القوية التي طعمت بها الدماء الرومانية الواهنة. فان جراثيم الهرم ظلت باقية في عروق دولة الروم. وأمراض الرومان سرعان ما أصيبت بها فكثرت مشاكلها. واشتد شقاء الشعوب المستعمرة بها.

### تعصب الروم المذهبي وفضائهم في الوندال والبربر المسيحيين

وكان الروم قد هبوا لغزو المغرب والاستقرار فيه بعامل الدين. وعامل المال إنهم يريدون نصرة الارتذوكس أهل مذهبهم الذين ينتقم منهم لفضائهم الماضية الأريويون الوندال. والدينوتوسيون البربر. فما ان وصلوا المغرب حتى أطلقوا أيديهم وأيدي الارتذوكس الموجودين من قبل في المغرب في الأريويين. والدينوتوسيين واليهود. فنكلوا بهم. وارتكبوا فيهم كل الفضائح! فاشتعلت الفتنة المذهبية في المغرب فتأجج نارا. ولم يقر لمناطق النفوذ الرومي قرار بسبب هذه الفتنة. ان البربر ثابتون على مذهبهم لا يمكن ان ينسلخوا

منه. وهم أقوياء أيضا تشد أزهرهم مالمهم المستقلة القوية. فلا يمكن ان يخضعوا ويستسلموا. لا يكيل لهم الارتذوكس صاعا إلا ويردوا عليهم بضعف ما أصيبوا به. فاستعرت تلك المناطق نارا بسبب تعصب الروم المذهبي. ان التعصب المذهبي المقوت هو أم الفتن والحروب الطويلة التي تنهك الدول القوية وتقضي عليها. وما أصيبت دولة بالتعصب المذهبي الخبيث إلا كان الله قد حشاها بالديناميت الذي يصدعها ويقضي عليها !!

وكان الإمبراطور جستنيان قد اصدر قانونا لتعصبه لمذهبه يقضي «بان المذهب الكاثوليكي هو الدين الرسمي لبلاد المغرب».

«وفي سنة 535 انتزعت الدولة الرومية من الأريويين. والدينوتوسيين. واليهود جميع أملاكهم. وجردتهم من حماية القانون. وحجرت عليهم العمل بمذهبهم. وعزلتهم ما كان لهم من المناصب».

«واعترف جستنيان للكنيسة الارتذوكسية بحق مراقبة المدن وإدارة العمالات فلم تقف الكنيسة عند حد مراقبة الولاة وأهل الوظائف السياسية. بل صارت تأمرهم وتتدخل في جميع الشؤون الدولية سياسية كانت أو مالية. أو إدارية أو حربية فكان من الأساقفة والقسس من يشتغلون ببناء استحكامات حربية. وصار البابا برومة يرسل أوامره للقواد والولاة. قال اغسال: وغمرت قوة الكنيسة قوات جميع المتوظفين»<sup>146</sup> في هذا الجو الكنيسي المتعصب الحقد على البربر الدينوتوسيين. وعلى الأريويين كانت تعيش المدن التي استولى عليها الروم في المغرب

### ابتزاز الروم لأموال البربر بكل وسيلة

وكان الروم قد أفقرتهم حروبهم مع الفرس. وما يدفعونه إليهم من مال كثير للصلح الذي عقده معهم ليتفرغوا لغزو المغرب. فجاءوا إلى المغرب ودولتهم تتأجج حرقا إلى المال. ففرضت الضرائب الفادحة على البربر. واتخذت كل وسيلة للحصول على كل شيء من المال يستطيعون اعتصاره من البربر. فاشتدت وطأة الدولة الرومية على البربر. فكان هذا مع التعصب المذهبي من أسباب الثورة التي اندلعت من كل أنحاء المغرب على الروم.

وكان الموظفون الروم يبتزون لجيوبهم كل ما استطاعوا استخراجهم من مال البربر. وكان الجنود ينهبون. وصار الرومان في المغرب حكومة وشعبا علقا ناشبا في حلق البربر

لا وظيفة لهم إلا امتصاص الدماء.

قال بيروني: «واتفق المؤرخون ان سياسة البيزنطيين مع الأهالي سيئة. وقد أرق هؤلاء الولاة الأهالي بالضرائب الفادحة. وزاد في فداحتها جور المستخلصين لها. وعلاوة على ذلك كله كانت الجنود تماطل في أعطيتها. فتستخلصها من الأهالي»<sup>147</sup>

### عموم الفوضى والخراب بالمناطق الرومية في المغرب

«وقد تكونت الفوضى وعمت من ذلك البؤس. ومن فقد الإخلاص. سواء من الجنود لرؤسائهم. أو من الرؤساء لدولتهم فقال بيروني: في ابتداء القرن السابع لم تبق إدارة ولا هيئة اجتماعية. وبلغت الفوضى السياسية غايتها»<sup>148</sup>

وقال بيروني أيضا: القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة روما. والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال. والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بأفريقية هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة. ثم قال: وقد كانت هذه القرون علة في مرض أفريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا. ذهبت الفنون الجميلة. وعطلت الأراضي الفلاحية. وتنوسيت الأساليب العلمية. وتكاثرت اللصوصية. حتى صار الناس يفزعون إلى الغابات. ويختفون بالشعاب وتعطلت التجارة. وخشي الناس المجاعة!<sup>149</sup>

هذا هو الجو المحوم الذي خلفه الروم في المغرب بتعصبهم المذهبي. وبظلمهم. وجشعهم. وغطرستهم. فعم الخراب والفوضى للنواحي التي يسيطرون عليها. وكانوا هم السبب في هذا لا البربر كما ادعى بعض المؤرخين الأوروبيين. ونقل أقوالهم الكاذبة بعض مؤرخينا المغاربة بدون ان يفندوها. فناقضوا أنفسهم. وعقوا مغربهم وأجدادهم!

كانت تلك النواحي المغربية قبل مجيء البيزنطيين عامرة تفيض بالخيرات. وتأنج بالنشاط والعمل. فلما جاء البيزنطيون عمها الخراب والفوضى. وهم السبب في ذلك لا البربر. فلو كان البربر هم السبب لحدث ذلك قبل مجيئهم. ولا تصل بعد ذهابهم.

قال مرسى: «كان بروكوب المؤرخ البيزنطي لما نزل أفريقية مع بليسير قد دهش من عمرانها. ونشاط تجارتها. ونفاق أسواقها. وازدهار فلاحتها. ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك. وعم الخراب جميع أفريقية. ويقال ان الحروب حكومة جستنيان

147 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 276-277 ط بيروت.

148 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 276-277 ط بيروت.

149 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 276-277 ط بيروت.

أرزاتا أفريقية خمسة ملايين من الأنفس» لقيت حتفها في الحروب المذهبية. والمعارك الاستعمارية التي ما فتئ الروم يشنونها على البربر ومخالفهم في الدين.

قال بيروني: «ومن الحق ان الولاة البيزنطيين كانوا قساة أصحاب مطامع».

وكان البربر لا يزالون يتألمون من ويلات الاستعمار الروماني. وجحيم ظلمهم وغطرستهم الذي توالى قرونا. فاطفأوه بدمائهم. وها هو يعود إليهم في جلود أحفادهم الروم. فثارت ثائرة المغرب وعزم على التخلص منهم. فرفعت ممالكهم الراسية الأوتاد الباسلة راية الثورة عليهم. فانضوت النواحي تحت راية ممالكها فجالدت الروم وخاضت معهم معارك طاحنة. فلو احدثت تلك الممالك وفاضت صفا واحدا ومرة واحدة على الروم لقتلتهم في البحر. ولكنها لم تتحد. فاستمرت الثورات العنيفة عليهم إلى ان زالت دولتهم من المغرب.

ما هي الممالك التي ثارت على الروم ونغصت عيشهم في بلادنا ومرغتهم في النجيع؟

### ثورات الممالك البربرية على الروم

كان البربر منذ القرن الرابع قد كعموا على الاستقلال. وعزموا على تظهير المغرب من المستعمرين. ولما جاء الروم هادنوهم ريثما يقضون على الوندال العسكريين الأقوياء. وثم يثورون عليهم فيتخلصون منهم.

وما كاد بليسير ينتهي من حروب الوندال ويرجع إلى صقلية في سنة 534 حتى ثار البربر على الوالي الرومي في أفريقية «صولومون» أو سليمان أنصي كما يسميه بعض المؤرخين العرب. واشتعلت الثورة على الروم في كل نواحي المغرب التي يوجدون فيها. وانقض البربر في سنة 535 على المراكز الرومية في نوميديا. وموريطانيا الشرقية. وفي أفريقية. فاحتلوا كثيرا منها. فتكوا بالروم فتكا ذريعا. واستمرت الثورات البربرية لم تهدأ ولم تنكف إلى ان زالت الدولة الرومية في المغرب. وكانت أيام الروم في المغرب حمراء بنجيع قتلاهم الكثيرين. وزمانهم كله جروح بثورات البربر التي لا تمهد في ناحية حتى تشتعل عليهم في ناحية أخرى. وكانت الغلبة في أكثر الحروب للبربر. ولشجاعتهم. وتنظيم ملوكهم لتلك الثورات وقيادتها.

وكان الذي يقود تلك الثورات البربرية هم ملوكهم. والذي يشعل نارها. ويكون قطب معاركها إنما هي ممالكهم. فيهب البربر في المدن والقرى لتأييدها. وشد أزرها. والتطوع

للقتال معها. وكانت الممالك البربرية الشرقية المتصلة بأفريقية. القريبة من قرطاجنة. حيث العدد الكثير من الروم. وحيث غاصت عروقهم التي يسعى البربر لاستئصالها. كانت تلك الممالك أكثر حروبا مع الروم. وهي مملكة أوراس. ومملكة النمامشة. ومملكة قفصة. ومملكة هوارة ولواتة. ومملكة تالة وكانت مملكة جدار<sup>150</sup> في موريطانيا الشرقية ثور على الروم فننقض عليهم في شرشال. وتنس. فتكيل لهم الضربات الشديدة. كما كان هناك أمراء آخرون. سيما في شمال أفريقية غير ملوك البربر يقودون الثورات ضد الروم.

### كثرة ثورات مملكة أوراس على الروم

وكانت مملكة أوراس وملوكها بيداس أكثر ثورات على الروم. واشد ضراوة عليهم. وأكثر فتكا بهم. ونحن لا نستطيع ان نذكر كل تلك الثورات لأنها كثيرة. وكانت مستمرة لا تهدأ إلا ريثما تستعد بعض النواحي لتجديدها.

وكان عهد الروم الذي بلغ في المغرب 113 سنة ملوء بها. ثم ان تفاصيلها قليلة. ان الغلبة فيها كانت في الأكثر للبربر. وكان الروم هم الذين يهزمون. لذل سكت المؤرخون الروم الذين حفظوا لنا تاريخ هذه الفترة عن ذكرها وتسجيل تفاصيلها. ان اغلب ما ذكره هو الذي تساوت فيه كفتهم مع البربر أو كانوا هم المنتصرين فيها.

وكان الروم قد صمموا على القضاء على الملك البربري القوي (بيداس) ملك جبال أوراس. فأرسل إليه سليمان أخصي الوالي الرومي في سنة 540 جيشه. مع احد قواده الكبار. وكلن ما ان قرب الجيش الرومي من جبال أوراس. وشاهد الموت الأحمر في عيون جند بيداس. ورأى البربر يسرعون إليه ليظعموا به خشاش الأرض في سفوح أوراس الشمالية حتى لاذ بالفرار والتجأ إلى مدينة باغاي الحصينة. فحاصره البربر بها. وأرسلوا عليه الماء ليغرق. وبات الروم في شر حال. ولولا حصانة المدينة. وإسراع سليمان بجيش قوي ففك عنهم الحصار لأبيدوا كلهم.

وجدد سليمان الكرة على أوراس في جيش قوي قاده بنفسه. فدخل أوراس حتى بلغ مكان بيداس فحاصره بجيش كبير. ولكنه لم يظفر به. ان بيداس قد خرج من السبل الخلفية ليستعد في مكان آخر للهجوم على الروم. ولم يحصل سليمان على طائل إلا ما قتلوه من البربر الوادعين في أوراس ليشفوا أحقادهم. وإلا ما أخذوه من أموال كثيرة لبيداس ما يدل على غنى مملكته وقوتها.

150 - مملكة جدار هي لصنهاجة كما أرى انظر مكانها في الخريطة في صفحة 428 من هذا الجزء.

وكان ارتياس ملك الحضنة قد اُخذ مع بيداس في كثير من الثورات ففتكوا بالروم. وكذلك الملك مصيناس ملك مملكة الجدار.

### ثورة الملك انطلاس وقتله لصولومون الوالي الرومي بالمغرب

وثار على الروم في سنة 535 الملك قطزيناك ملك مملكة النمامشة. فهجم على ساحل أفريقية الخصب. ففتك بمراكزه العسكرية. ونكل بكثير من الروم.<sup>151</sup> فخرج إليه سليمان الوالي الرومي نفسه لينقذ تلك النواحي فلا يستولي عليها.

وكان الملك انطلاس ملك مملكة تالة في الجنوب الشرقي لقرطاجنة في أفريقية مهادنا للروم. وكان يتظاهر لهم بالصدقة. وكان هو الذي استنجد بهم لمحاربة الوندال. وكان الروم يعرفون لت اليد. ومنته عليهم في سرعة القضاء على الوندال. لولاه ولولا قابايون ملك هوارة لطالت حروبهم مع الوندال. وقد ظل انطلاس ملكا على ساحل أفريقية الجنوبي الخصب زمنا طويلا في عهد الروم فلم يزاخموه فيه. لتقديرهم له. ولطلبهم وده كي يهدأ فلا يهاجمهم في عقر دارهم بقرطاجنة. انه اقرب إليهم من ملوك البربر. وظل سليمان أخصي (صولومون) الذي يزمجر على الملوك الآخرين يفتل له في الذروة والغارب ليهدأ فلا يثور. ولكن انطلاس كان ككل البربر يكره الروم المستعمرين ويمقتهم. فثار عليه في سنة 535م فخرج إليه صولومون في جيشه الكبير. فدارت معركة بينهما في نواحي تبسة. انهزام فيها الروم. وقتل انطلاس (صولومون).

وقد استمرت المعارك بعد صولومون في عهد كل الولاة الروم. وقد بلغ البربر في سنة 597 أبواب قرطاجنة في إحدى ثوراتهم فحاصروها ووجهوا ضرباتهم إليها فصالحهم الوالي الرومي جناديوس ففكوا الحصار عنها. ان خضوع الوالي لشروط الصلح يدل على علة قوة البربر وتفوقهم على الروم في المجال العسكري.

### الهدف السامي لثورات البربر على الروم

وكانت ثورات البربر كلها تحررية. يقصدون بها غرضا وطنيا نبيلًا. وهو طرد المستعمرين من بلادهم. وإفلاقهم بالحروب ليرحلوا عنهم. ولم تكن لحب الفوضى والنهب كما يدعي المستعمرون المتعصبون.

كان ملك مملكة النمامشة (قطزيناك) «يحارب صولومون في أفريقية ويقول: ان الله مع الذين يحاربون اللصوص! لاسترجاع أموالهم وأراضيهم!»<sup>152</sup>

151 - كان الروم أما جنودا أو مائنين للجنود يعينونهم على البربر فالبربر يرونهم كلهم أعداء.

152 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 396 ط أولى بتونس

وكان القائد الباسل (سطوزاس) يجمع الجموع ويبلي البلاء الحسن بمبراة (مجاز الباب) وكان يوقد حماس رجاله بخطبه المؤثرة ويقول: «كيف ترضون بحياة الذل والعبودية والهوان؟!»<sup>153</sup>

كانت ثورات البربر عنيفة على الروم، ولكنهم صمدوا في المغرب فلم يجلوا عنه لأن الممالك البربرية لم تتحد كلها في ثورة كبرى تكون موحدة القيادة فيحتلوا قرطاجنة ويظهروا أرض المغرب من الروم.

كانت ثوراتهم متفرقة تهزم الروم في نوميديا، أو في موريطانيا أو في مراكزهم العسكرية بأفريقية. أما أن تتحد فتضرب الرأس، وتختل العاصمة، فتقضي على الروم فهذا ما لم يقع.

لقد أضعفت هذه الثورات الروم، ولما جاء الفاتحون المسلمون وجدوا الروم مستعدين للانزمام، ولولا انضمام البربر النصراني إلى جرجير لاستطاع عبد الله بن سعد ومن معه من الفاتحين المسلمين الأولين لأفريقية أن يقضوا على الروم في المغرب كله في زمن قصير.

تلك هي حال الروم في المغرب، أيام غريقة في الدماء، وزمن يشتعل بالثورات، وكانوا هم السبب في هذا الشقاء، العاملون لهذه الفتن كلها، لولاهم لظل مغربنا الجميل في أحسن حال.

ثم كتب الله للمغرب أن يسعد ويسود، فأرسل الله إليه المسلمين الميامين فطلعوا فيه طلوع الأفراح في القلب الكئيب فزال ظلمته، وامتلاً بأنوار السعادة والحبور، وسروا فيه سريان الشفاء في الجسم العليل فتفتحت في محياه ورود النضارة والقوة! وزال الروم من مغربنا الحبيب فأشرق عليه نعمة العربية والإسلام الشريف! فرفع رأسه كالمأذنة لما جلجل الأذان في صوامعه وقلبه! وجليب بطهر الحراب فامتلاً إخوة وصفاء لما سجد الله الواحد القهار في الصلاة، كيف زالت دولة الظلم والظلام من بلادنا؟ وكيف أشرق عليها نور الله فدخلت عهود عزها وسعادتها وأفراحها الكبرى؟

### زوال دولة الروم في المغرب

كان الإمبراطور جستنيان هو الذي نفخ روح الشباب في الدولة البيزنطية، وأورثها قوتها، وشعب صدوعها فتماسكت وانضرت أيكتهها، ولما توفي سنة 565م دخلت في

هرمها، فأصيبت بما أصيبت به أمها روما في شيخوختها، فتقاتل أبناءها على العرش، وتناحروا على الرئاسة والمال، فصارت الإمبراطورية نهبا يستولي عليه من يملك قوة الجند والسلاح، ومن يستميل قواد الجيش ويشبع أطماعهم.

وفي سنة 602م ثار فوقاص على الإمبراطور موريس، فدخل القسطنطينية بجنده فقتله واستولى على العرش.

### ثورة فوقاص على الإمبراطور موريس واغتصاب عرشه وقتله

وكان الوالي من قبل الإمبراطور على أفريقية والمراكز الرومية في المغرب هو البطريق<sup>154</sup> جرجير، والقائد العسكري هو هرقل، وكان لكل منهما شعبة في القسطنطينية تؤيده وتعمل لرئاسته، وكانا متنافسين كل منهما يمني نفسه باعلاء عرش الإمبراطورية، ولما استولى فوقاص على العرش ثار عليه هرقل في سنة 608 فقطع عنه قمح المغرب، وناصبه العدا، فأرسلت إليه شيعته أن يتقدم إلى بيزنطة ليقودها في ثورتها على فوقاص فيجلس على العرش مكانه، وكان هرقل في شيخوخته لا يطيق أعباء الإمبراطورية في جو بيزنطة العاصف، فأرسل إليهم ابنه الشاب وكان يسمى هرقل، فاقبل هرقل الشاب في الأسطول الحربي ومعه جيش يتأيد به في العراك ويحفظه في طريقه، فسار بحرا حتى وصل القسطنطينية، فالتفت حوله شعبة أبيه فانتصر على فوقاص فجلس على العرش فكان هو الإمبراطور.

### ثورة جرجير على هرقل الإمبراطورية وإنشائه دولة رومية بربرية في أفريقية

وكان جرجير يتميز غيظا لفوز منافسه هرقل عليه وحصوله على الرئاسة، فثار على هرقل الإمبراطور وقطع صلة المغرب ببيزنطة، فأنشأ دولة في أفريقية تشعب حبه للرئاسة.

وكان جرجير يعلم أن هرقل لا بد أن يرسل إليه أسطوله فيقاتله، وأن شيعته من الروم ستثب عليه في قرطاجنة فيقضي هرقل عليه، ثم أن البربر لا يمكن أن يبقوا عليه، سيجهزون عليه إذا وجدوه مقطوع الصلة والمدد من دولته، فستمال ملوك البربر ورؤساءهم، وأحسن إليهم، ومناهم، وأشركهم في ملكه فأنشأ دولة بربرية رومية

154 - البطريق هو القائد، وكان الروم يحكمون المغرب حكما عسكريا وكانوا لا يولون عليه إلا العسكريين حتى في شئون السياسة.

في افريقية. ونقل عاصمتها إلى المناطق البربر. وابتعد عن الساحل الذي يغزوه فيه هرقل. وتكثر فيه شيعته من الروم. فاختر مدينة سبيطلة الحصينة فجعلها عاصمته فاستقر بها. ودام ملكا عليها إلى ان مات. فخلفه ابنه جرجير الثاني. وواصل جرجير الشاب سياسة أبيه. فأحسن إلى البربر. وأشعرهم بتقريب رؤسائهم واستشارتهم. وتأليف الجند منهم ان الدولة دولتهم. فهدأ البربر له وأعانوه.

## بداية الفتح الإسلامي للمغرب

وكان القائد البطل عمرو بن العاص قد فتح مصر في عهد سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي سنة 20 هجرية. ثم سار في سنة ففتح برقة. وفي سنة 23 هـ تم فتح طرابلس فرجع أدراجه إلى مصر.

وفي سنة 27 هجرية أرسل أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العبادلة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح فنزل قموونية في غرب مكان القيروان بافريقية. فهب جرجير في جيشه الكبير من البربر والروم ليصد الفاتحين المسلمين. وكان أكثر جيش جرجير من البربر الذين صور لهم جرجير والروم المستعمرون المتعصبون المسلمين مغيرين على بلادهم فثاروا لدفاعهم فانضموا إلى جيشه. وكان عدد جيش جرجير مائة وعشرين ألفا. وعدد الجيش الإسلامي عشرين ألفا. فعارك القائد البطل عبد الله بن سعد جريرا حتى وقعت بينهما المعركة الفاصلة في سنة 28 هجرية 648 فانهزم الروم البربر وقتل جرجير. واحتل المسلمون عاصمته! فزالت دولة الروم من المغرب. ثم بقيت بعض المدن عشش فيها الروم فصارت كالفردان الآسنة بعد انقطاع السيل تنشر الوباء في المغرب وتكيد للمسلمين فسار إليها سيدنا حسان بن النعمان ففقاها بالسيف فاستراح المغرب. وزالت آثار الروم من وطن الأمازيغ.

وكانت حضارة الروم مزيجا من حضارة الإغريقية والرومانية. وقد اثروا بها في بلادهم آثارا حسنة. ولكنهم لم يؤثروا بها في المغرب. ان جل آثارهم فيه إنما هي قلاع وحصون وأسوار لمدن يختبئون فيها إذا ثار عليهم البربر. والكنائس والبنائيات التي تركوها في المغرب لا ذوق فيها. ويبدو عليها الفقر الشديد الذي كان بعضهم.

وكان غزو الروم للمغرب واستقرارهم به في سنة 534م. وزوال دولتهم منه في سنة 648م ومدتهم فيه قرن وأربع عشرة سنة (114).

ثم توالى المسلمون الفاتحون على المغرب بأطباق النور والهداية والرحمة. كما سأفصل لك في الجزء الثاني. فاختلطوا بالبربر فأروا فيهم جمال الإسلام. وعظمته. ورحمته. وعدله. وديموقراطيته الصحيحة؛ فتفتحت له قلوبهم كما يتفتح زهر الاقحاح لنور الصباح! فأمن الأمازيغ قاطبة بمحمد عليه السلام. وأصبح القرآن دستورهم.



## أهم مراجع هذا الجزء

- 1 - العبر في ذكر المبتدأ والخبر / 7-6-2 / تأليف عبد الرحمن بن خلدون / لقاهرة مطبعة بولاق 1284 هـ
  - 2 - محاضرات في تاريخ المغرب / 2-1 / بقلم محمد علي ديبوز ألقاها في معهد الحياة الثانوي بالجزائر - 1369 هـ - 1949 - 1950 م
  - 3 - تاريخ الجزائر في القديم والحديث / 1 / تأليف مبارك بن محمد أليلى - بيروت 1963 م
  - 4 - مدينة المغرب العربي / 1 / تأليف احمد صفر - تونس 1959 م
  - 5 - قرطاجنة في أربعة عصور - تأليف احمد توفيق المدني - تونس 1926 م
  - 6 - موجز التاريخ العام للجزائر - تأليف عثمان الكعك - تونس 1344 هـ
  - 7 - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة - تأليف توفيق الطويل - القاهرة 1375 هـ - 1955 م
  - 8 - تاريخ المغرب الكبير / 3-2 / تأليف محمد علي ديبوز - لقاهرة 1383 هـ - 1963 م
  - 9 - فتح العرب للمغرب - تأليف حسين مؤنس - القاهرة
  - 10 - المسالك والممالك - تأليف عبد الله بن عبد العزيز البكري الجزائري 1330 هـ - 1911 م
  - 11 - معجم البلدان - تأليف أبي عبد الله ياقوت الحموي - ليبسك 1873
  - 12 - برهان البيان في اكمال - 2-1 - لمونتسكيو ترجمة حسين بن الجبيلي واختلال دولة الرومان - القاهرة 1293 م
  - 13 - تاريخ أوروبا في العصور القديمة - تأليف ه.ا.ل. فنشر ترجمة إبراهيم نصحي، ومحمد عواد حسين - القاهرة 1950 م
  - 14 - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى 1 تأليف ه.ا.ل فنشر ترجمة محمد صطفى زيادة، والسيد البازي العريني - القاهرة 1369 هـ - 1950 م
  - 15 - دائرة المعارف للبستاني - تأليف بطرس البستاني - بيروت 1878 م
  - 16 - الوسيط في الأدب العربي وتاريخه - تأليف احمد الاسكندري - القاهرة 1919
- فهرس الجزء الأول

والعربية لغتهم الأثيرة المقدسة! فسادوا وسعدوا! وانصرت أبكة المغرب لما شعشعت فيها شمس الإسلام. واختلط العرب بالبربر فكونوا جنسا واحدا هو مزيج من العرب والبربر. وكان من هذا الجنس الكريم العربي المسلم أجدادنا الميامين نحن معشر أبناء المغرب اليوم! ولبس المغرب حلته العربية الزاهية العظيمة فصار في تفكيره، وعاداته، ولسانه. وحضارته عربيا ينتسب إلى حضارة الإسلام وأرومته الكبرى؛ وتأخي مع الأمة الإسلامية فصار جزءا منها. فما أعظم نعمتك على مغربنا يا ربي بهدي القرآن! والحمد لله على ما انعم به على مغربنا من نعمة الإسلام. وحمدا له على عونه وتأيدده لي في هذا الكتاب في البدء والختام، والصلاة والسلام على سيد الأنام!

تم الجزء الأول والحمد لله

وبليه الجزء الثاني في الفتح الإسلامي والعهد الأموي في المغرب

